سورة الأعراف

"المص "
يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم, مبينا له عظمة القرآن:

"كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ "
"كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ " أي: كتاب جليل, حوى كل ما يحتاج إليه العباد, وجميع المطالب الإلهية, والمقاصد الشرعية, محكما مفصلا . "فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ " أي: ضيق وشك واشتباه. بل لنعلم أنه تنزيل من حكيم حميد, وأنه أصدق الكلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فلينشرح له صدرك, ولتطمئن به نفسك, ولتصدع بأوامره ونواهيه, ولا تخش لائما ومعارضا . "لِتُنْذِرَ بِهِ " الخلق, وتعظهم, وتذكرهم, فتقوم الحجة على المعاندين. ليكن "وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ " كما قال تعالى "وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ " يتذكرون به الصراط المستقيم, وأعماله الظاهرة والباطنة, وما يحول بين العبد, وبين سلوكه. ثم خاطب اللّه العباد, ولفتهم إلى الكتاب فقال:

"اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ "
" اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ " أي: الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم, وهو : "مِنْ رَبِّكُمْ " الذي يريد أن يتم تربيته لكم, فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي إن اتبعتموه, كملت تربيتكم, وتمت عليكم النعمة, وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق, ومعاليها . "وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ " أي: تتولونهم, وتتبعون أهواءهم, وتتركون لأجلها الحق . "قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ " فلو تذكرتم وعرفتم المصلحة, لما آثرتم الضار على النافع, والعدو على الوليِّ. ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءتهم به رسلهم, فلا يشابهونهم فقال:

"وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ "
"وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا " أي: عذابنا الشديد "بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ " أي: في حين غفلتهم, وعلى غرتهم غافلون, لم يخطر الهلاك على قلوبهم. فحين جاءهم العذاب, لم يدفعوه عن أنفسهم, ولا أغنت عنهم آلهتهم, التي كانوا يرجونهم, ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصي.

"فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ "
"فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ " كما قال تعالى : "وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ".

"فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ "
وقوله "فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ " أي: لنسألن الأمم, الذين أرسل اللّه إليهم المرسلين, عما أجابوا رسلهم , "وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ " الآيات. " وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ " عن تبليغهم, لرسالات ربهم, وعما أجابتهم به أممهم.

"فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ "
"فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ " أي: على الخلق كلهم ما عملوا "بِعِلْمٍ "منه تعالى لأعمالهم . "وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ " في وقت من الأوقات, كما قال تعالى: " أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ". وقال تعالى "وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ".

"وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "
ثم ذكر الجزاء على الأعمال فقال : "وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ " إلى قوله : "بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ". أي: والوزن يوم القيامة يكون بالعدل, والقسط, الذي لا جور فيه ولا ظلم بوجه . "فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ " بأن رجحت كفة حسناته على سيئاته . "فَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ " أي: الناجون من المكروه, المدركون للمحبوب الذين حصل لهم الربح العظيم, والسعادة الدائمة.

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ "
"وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ " بأن رجحت سيئاته, وصار الحكم لها . "فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ " إذ فاتهم النعيم المقيم, وحصل لهم العذاب الأليم . "بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ " فلم ينقادوا لها, كما يجب عليهم ذلك.

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ "
يقول تعالى - ممتنا على عباده بذكر المسكن والمعيشة "وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ " أي: هيأناها لكم, بحيث تتمكنون من البناء عليها وحرثها, ووجوه الانتفاع بها . "وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ " مما يخرج من الأشجار والنبات, ومعادن الأرض, وأنواع الصنائع والتجارات, فإنه هو الذي هيأها, وسخر أسبابها . "قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ " اللّه, الذي أنعم عليكم بأصناف النعم, وصرف عنكم النقم.

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ "
يقول تعالى, مخاطبا لبني آدم : "وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ " بخلق أصلكم ومادتكم التي منها خرجتم, من أبيكم آدم عليه السلام "ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ " في أحسن صورة, وأحسن تقويم. وعلمه تعالى ما به تكمل صورته الباطنة, أسماء كل شيء. ثم أمر الملائكة الكرام, أن يسجدوا لآدم, إكراما واحتراما, وإظهارا لفضله, فامتثلوا أمر ربهم . "فَسَجَدُوا " كلهم أجمعون, " إِلَّا إِبْلِيسَ " أبى أن يسجد له, تكبرا عليه. وإعجابا بنفسه.

"قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ "
فوبخه اللّه على ذلك وقال : "مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ " لما خلقت بيديَّ, أي: شرفته, وفضلته بهذه الفضيلة, التي لم تكن لغيره, فعصيت أمري, وتهاونت بي؟ "قَالَ " إبليس معارضا لربه: " أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ". ثم برهن على هذه الدعوى الباطلة بقوله له : "خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ". وموجب هذا, أن المخلوق من نار, أفضل من المخلوق من طين لعلو النار على الطين, وصعودها. وهذا القياس من أفسد الأقيسة, فإنه باطل من عدة أوجه. منها: أنه في مقابلة أمر اللّه له بالسجود, والقياس إذا عارض النص, فإنه قياس باطل, لأن المقصود بالقياس, أن يكون الحكم الذي لم يأت فيه نص, يقارب الأمور المنصوص عليها, ويكون تابعا لها. فأما قياس يعارضها, ويلزم من اعتباره إلغاء النصوص, فهذا القياس من أشنع الأقيسة. ومنها: أن قوله " أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ " بمجردها كافية لنقص إبليس الخبيث. فإنه برهن على نقصه بإعجابه بنفسه, وتكبره, والقول على اللّه بلا علم. وأي نقص أعظم من هذا؟!! ومنها: أنه كذب في تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب. فإن مادة الطين, فيها الخشوع, والسكون, والرزانة, ومنها تظهر بركات الأرض, من الأشجار, وأنواع النبات, على اختلاف أجناسه وأنواعه. وأما النار, ففيها الخفة, والطيش, والإحراق. ولهذا لما جرى من إبليس ما جرى, انحط من مرتبته العالية إلى أسفل السافلين.

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ "
فقال اللّه له : "فَاهْبِطْ مِنْهَا " أي من الجنة "فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا " لأنها دار الطيبين الطاهرين, فلا تليق بأخبث خلق اللّه وأشرهم . "فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ " أي: المهانين الأذلين, جزاء على كبره وعجبه, بالإهانة والذل.

قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ "
فلما أعلن عدو اللّه بعداوة اللّه, وعداوة آدم وذريته, سأل اللّه النظرة والإمهال إلى يوم البعث, ليتمكن من إغواء ما يقدر عليه من بني آدم.

قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ "

ولما كانت حكمة اللّه مقتضية لابتلاء العباد واختبارهم, ليتبين الصادق من الكاذب, ومن يطيعه, ومن يطيع عدوه, أجابه لما سأل فقال: " إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ".

قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ "
أي: قال إبليس - لما أبلس, وأيس من رحمة اللّه - "فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ " أي: للخلق صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ " أي: لألزمن الصراط ولأسعى غاية جهدي, على صد الناس عنه, وعدم سلوكهم إياه.

ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ "
"ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ " أي: من جميع الجهات والجوانب, ومن كل طريق يتمكن فيه, من إدراك بعض مقصوده فيهم. ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم, وكان جازما ببذل مجهوده على إغوائهم, ظن وصدق ظنه فقال : "وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ " فإن القيام بالشكر, من سلوك الصراط المستقيم, وهو يريد صدهم عنه, وعدم قيامهم به, قال تعالى: " إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ". وإنما نبهنا اللّه على ما قال وعزم على فعله, لنأخذ حذرنا ونستعد لعدونا, ونحترز منه بعلمنا, بالطريق التي يأتي منها, ومداخله التي ينفذ منها, فله تعالى علينا بذلك, أكمل نعمة.

قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ "
أي: قال اللّه لإبليس لما قال ما قال: " اخْرُجْ مِنْهَا " خروج صغار واحتقار لا خروج إكرام بل "مَذْءُومًا " أي: مذموما "مَدْحُورًا " مبعدا عن اللّه, وعن رحمته, وعن كل خير. " لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ " أي: منك ومن تبعك منهم " أَجْمَعِينَ " وهذا قسم من اللّه تعالى, أن النار دار العصاة لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس. ثم حذر آدم شره وفتنته فقال:

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ "
"وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ " إلى قوله : "مِنَ الْخَاسِرِينَ ". أي أمر اللّه تعالى, آدم وزوجته حواء, التي أنعم اللّه بها عليه, ليسكن إليها, أن يأكلا من الجنة حيث شاءا ويتمتعا فيها بما أرادا, إلا أنه عين لها شجرة, ونهاهما عن أكلها. واللّه أعلم, ما هي, وليس في تعيينها فائدة لنا. وحرم عليهما أكلها, بدليل قوله : "فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ "

فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ "
فلم يزالا ممتثلين لأمر اللّه, حتى تغلغل إليهما, عدوهما إبليس بمكره, فوسوس لهما وسوسة, خدعهما بها, وموه عليهما وقال : "مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ " أي: من جنس الملائكة " أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ " كما قال في الآية الأخرى : "هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ".

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ "
ومع قوله هذا أقسم لهما باللّه " إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ " أي: من جملة الناصحين, حيث قلت لكما, ما قلت. فاغتر بذلك, وغلبت الشهوة في تلك الحال على العقل.

فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ "
"فَدَلَّاهُمَا " أي: أنزلهما عن رتبتهما العالية, التي هي البعد عن الذنوب والمعاصي إلى التلوث بأوضارها, فأقدما على أكلها . "فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا " أي: ظهرت عورة كل منهما بعد ما كانت مستورة. فصار للعرى الباطن من التقوى في هذه الحال,

أثر في اللباس الظاهر, حتى انخلع, فظهرت عوراتهما. ولما ظهرت عوراتهما, خجلا, وجعلا يخصفان على عوراتهما, من أوراق شجر الجنة, ليستترا بذلك . "وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا " وهما بتلك الحال موبخا ومعاتبا. " أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ " فلم اقترفتما المنهي, وأطعتما عدوكما؟

"قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ "
فحينئذ, من اللّه عليهما بالتوبة وقبولها, فاعترفا بالذنب, وسألا من اللّه مغفرته فقالا: " رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ". أي: قد فعلنا الذنب, الذي نهيتنا عنه, وأضررنا بأنفسنا, باقتراف الذنب, وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا, بمحو أثر الذنب وعقوبته, وترحمنا بقبول التوبة والمعافاة من أمثال هذه الخطايا. فغفر اللّه لهما ذلك "وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ". هذا, وإبليس مستمر على طغيانه, غير مقلع عن عصيانه. فمن أشبه آدم بالاعتراف, وسؤال المغفرة والندم, والإقلاع - إذا صدرت منه الذنوب - اجتباه ربه وهداه. ومن أشبه إبليس - إذا صدر منه الذنب لا يزال يزداد من المعاصي - فإنه لا يزداد من اللّه إلا بعدا.

قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ "
"قَالَ اهْبِطُوا " أي: قال اللّه, مخاطبا لآدم وحواء بلفظ الجمع, لأن إبليس هبط من قبل إلى السماء, ثم هبطوا جميعا إلى الأرض. وكرر الأمر لإبليس, تبعا لهما, ليعلم أنهم قرناء أبدا, لأن إبليس لا يفارق الإنسان, بل يلازمه كل الملازمة ويبذل كل جهده, في إضلال بني آدم. وجملة "بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ " في موضع نصب على الحال, من الضمير الذي هو الواو, في " اهْبِطُوا ". وخلاصة المعنى أن اللّه قال لهما وللشيطان: اهبطوا جميعا من الجنة إلى الأرض متعادين, ولكم في الأرض, استقرار, وموضع استقرار, تتمتعون وتنتفعون, إلى حين انقضاء آجالكم.

قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ "
أي: لما أهبط اللّه آدم وزوجته وذريتهما إلى الأرض, أخبرهما بحال إقامتهم فيها, وأنه جعل لهم فيها حياة, يتلوها الموت, مشحونة بالامتحان والابتلاء, وأنهم لا يزالون فيها, يرسل إليهم رسله, وينزل عليهم كتبه, حتى يأتيهم الموت, فيدفنون فيها. ثم إذا استكملوا, بعثهم اللّه, وأخرجهم منها إلى الدار التي هي الدار

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ "
ثم امتن عليهم بما يسر لهم, من اللباس الضروري, واللباس الذي المقصود منه, الجمال. وهكذا سائر الأشياء, كالطعام, والشراب, والمراكب, والمناكح ونحوها. قد يسر اللّه للعباد ضروريها, ومكمل ذلك, وبين لهم أن هذا, ليس مقصودا بالذات, وإنما أنزله اللّه, ليكون معونة لهم على عبادته وطاعته, ولهذا قال : "وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ " من اللباس الحسي, فإن لباس التقوى, يستمر مع العبد, ولا يبلى ولا يبيد, وهو جمال القلب والروح. وأما اللباس الظاهري, فغايته أن يستر العورة الظاهرة, في وقت من الأوقات. أو يكون جمالا للإنسان, وليس وراء ذلك منه نفع. وأيضا, فبتقدير عدم هذا اللباس, تنكشف عورته الظاهرة, التي لا يضره كشفها, مع الضرورة. وأما بتقدير عدم لباس التقوى, فإنها تنكشف عورته الباطنة, وينال الخزي والفضيحة. وقوله : "ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ " أي: ذلك المذكور لكم من اللباس, مما تذكرون به, ما ينفعكم ويضركم, وتستعينون باللباس الظاهر على الباطن.

يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ "
يقول تعالى, محذرا لبني آدم, أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم : "يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ " بأن يزين لكم العصيان, ويدعوكم إليه, ويرغبكم فيه, فتنقادون له " كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ " وأنزلهما من المحل العالي, إلى أنزل منه. فإياكم يريد أن

يفعل بكم كذلك, ولا يألو جهده عنكم, حتى يفتنكم, إن استطاع. فعليكم أن تجعلوا الحذر منه في بالكم, وأن تلبسوا لأمة الحرب بينكم وبينه, وأن لا تغفلوا عن المواضع التي يدخل منها إليكم. " إِنَّهُ " يراقبكم على الدوام, و "يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ " من شياطين الجن "مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ". فعدم الإيمان, هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان. " إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ".

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ "
يقول تعالى, مبينا لقبح حال المشركين, الذين يفعلون الذنوب, وينسبون للّه أنه أمرهم بها . "وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً " وهي: كل ما يستفحش ويستقبح, ومن ذلك: طوافهم بالبيت, عراة . "قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا " وصدقوا في هذا . "وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا " وكذبوا في هذا, ولهذا رد اللّه عليهم هذه النسبة فقال : "قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ " أي لا يليق بكماله وحكمته, أن يأمر عباده بتعاطي الفواحش لا هذا الذي يفعله المشركون ولا غيره. " أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " وأي افتراء أعظم من هذا!!!

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ "
ثم ذكر ما يأمر به فقال : "قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ " أي: بالعدل في العبادات والمعاملات لا بالظلم والجور . "وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ " أي: توجهوا إلى اللّه, واجتهدوا في تكميل العبادات, خصوصا "الصلاة" أقيموها, ظاهرا وباطنا, ونقوها من كل نقص ومفسد. "وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ " أي: قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له. والدعاء يشمل دعاء المسألة, ودعاء العبادة أي لا تريدوا ولا تقصدوا من الأغراض في دعائكم, سوى عبودية اللّه ورضاه . "كَمَا بَدَأَكُمْ " أول مرة "تَعُودُونَ " للبعث. فالقادر على بدء خلقكم, قادر على إعادته, بل الإعادة, أهون من البدء.

فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ "
"فَرِيقًا " منكم "هُدَى " اللّه, أي: وفقهم للهداية, ويسر لهم أسبابها, وصرف عنهم موانعها . "وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ " أي: وجبت عليهم الضلالة, بما تسببوا لأنفسهم, وعملوا بأسباب الغواية. "إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ " ومن يتخذ الشيطان وليا من دون اللّه, فقد خسر خسرانا مبينا. فحين انسلخوا من ولاية الرحمن, واستحبوا ولاية الشيطان, حصل لهم النصيب الوافر, من الخذلان, ووكلوا إلى أنفسهم فخسروا أشد الخسران . "وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ " لأنهم انقلبت عليهم الحقائق, فظنوا الباطل حقا, والحق باطلا. وفي هذه الآيات, دليل على أن الأوامر والنواهي, تابعة للحكمة والمصلحة. حيث ذكر تعالى, أنه لا يتصور أن يأمر بما تستفحشه وتنكره العقول. وأنه لا يأمر إلا بالعدل والإخلاص. وفيه دليل على أن الهداية, بفضل اللّه ومنه, وأن الضلالة بخذلانه للعبد, إذ تولى - بجهله وظلمه - الشيطان, وتسبب لنفسه بالضلال. وأن من حسب أنه مهتد, وهو ضال, فإنه لا عذر له, لأنه متمكن من الهدى. وإنما أتاه حسبانه, من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى.

"يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ "
يقول تعالى - بعد ما أنزل على بني آدم لباسا يواري سوءاتهم وريشا -: "يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ " أي: استروا عوراتكم عند الصلاة كلها, فرضها ونفلها, فإن سترها زينة للبدن, كما أن كشفها, يدع البدن قبيحا مشوها. ويحتمل أن المراد بالزينة هنا, ما فوق ذلك, من اللباس النظيف الحسن. ففي هذا, الأمر بستر العورة في الصلاة, وباستعمال التجميل فيها, ونظافة السترة من الأدناس والأنجاس. ثم قال "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا " أي: مما رزقكم اللّه من الطيبات "وَلَا تُسْرِفُوا " في ذلك. والإسراف, إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي, ولشره في المأكولات التي تضر بالجسم. وإما أن

تكون بزيادة الترفه والتنوق في المآكل, والمشارب, واللباس وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام. " إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " فإن السرف يبغضه اللّه, ويضر بدن الإنسان ومعيشته, حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات. ففي هذه الآية الكريمة, الأمر بتناول الأكل والشرب, والنهي عن تركهما, وعن الإسراف فيهما.

" قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ "
يقول تعالى - منكرا على من تعنت, وحرم ما أحل اللّه من الطيبات :- "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ " من أنواع اللباس, على اختلاف أصنافه, والطيبات من الرزق, من مأكل, ومشرب, بجميع أنواعه. أي: من هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم اللّه على العباد, ومن ذا الذي يضيق عليهم, ما وسعه اللّه؟!!. وهذا التوسيع من اللّه لعباده, بالطيبات, جعله لهم ليستعينوا به على عبادته, فلم يبحه إلا لعباده المؤمنين, ولهذا قال: " قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ " أي لا تبعة عليهم فيها. ومفهوم الآية, أن من لم يؤمن باللّه, بل استعان بها على معاصيه, فإنها غير خالصة له ولا مباحة, بل يعاقب عليها, وعلى التنعم بها, ويسأل عن النعيم يوم القيامة . "كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ " أي: نوضحها ونبينها "لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ " لأنهم الذين ينتفعون بما فصله اللّه من الآيات, ويعلمون أنها من عند اللّه, فيعقلونها ويفهمونها.

" قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ "
ثم ذكر المحرمات, التي حرمها اللّه في كل شريعة من الشرائع فقال : "قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ " أي: الذنوب الكبار, التي تستفحش وتستقبح, لشناعتها وقبحها, وذلك, كالزنا, واللواط, ونحوهما. وقوله "مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ " أي: الفواحش التي تتعلق بحركات البدن, والتي تتعلق بحركات القلوب, كالكبر, والعجب والرياء, والنفاق, ونحو ذلك . "وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ " أي: الذنوب التي تؤثم, وتوجب العقوبة في حقوق اللّه. والبغي على الناس, في دمائهم, وأموالهم, وأعراضهم. فدخل في هذا, الذنوب المتعلقة بحق اللّه, والمتعلقة بحق العباد . "وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا " أي: حجة, بل أنزل الحجة والبرهان على التوحيد. والشرك, هو: أن يشرك مع اللّه في عبادته, أحد من الخلق. وربما دخل في هذا, الشرك الأصغر, كالرياء, والحلف بغير اللّه, ونحو ذلك . "وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " في أسمائه وصفاته وأفعاله, وشرعه. فكل هذه قد حرمها اللّه, ونهى العباد عن تعاطيها, لما فيها من المفاسد الخاصة والعامة, ولما فيها من الظلم والتجرؤ على اللّه, والاستطالة على عباد اللّه. وتغيير دين اللّه وشرعه.

" وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ "
أي: وقد أخرج اللّه بني آدم إلى الأرض, وأسكنهم فيها, وجعل لهم أجلا مسمى لا تتقدم أمة من الأمم على وقتها المسمى, ولا تتأخر لا الأمم المجتمعة, ولا أفرادها.

" يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ "
لما أخرج اللّه بني آدم من الجنة, ابتلاهم بإرسال الرسل, وإنزال الكتب عليهم, يقصون عليهم آيات اللّه, ويبينون لهم أحكامه. ثم ذكر فضل من استجاب لهم, وخسار من لم يستجب لهم فقال : "فَمَنِ اتَّقَى " ما حرم اللّه, من الشرك, والكبائر, والصغائر . "وَأَصْلَحَ " أعماله الظاهرة والباطنة "فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ " من الشر الذي قد يخافه غيرهم "وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " على ما مضى. وإذا انتفى الخوف والحزن, حصل الأمن التام, والسعادة, والفلاح الأبدي.

" وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ "
"وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا " أي لا آمنت بها قلوبهم, ولا انقادت لها جوارحهم. " أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " كما استهانوا بآياته, ولازموا التكذيب بها, أهينوا بالعذاب الدائم الملازم.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ "
أي: لا أحد أظلم "مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا " بنسبة الشريك له, والنقص له, والتقول عليه ما لم يقل. " أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ " الواضحة المبينة للحق المبين, الهادية إلى الصراط المستقيم. فهؤلاء, وإن تمتعوا بالدنيا, ونالهم نصيبهم مما كان مكتوبا لهم في اللوح المحفوظ - فليس ذلك بمغن عنهم شيئا, يتمتعون قليلا, ثم يعذبون طويلا . "حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ " أي: الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم, واستيفاء آجالهم. " قَالُوا " لهم في تلك الحالة- توبيخا وعتابا - " أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ " من الأصنام والأوثان, فقد جاء وقت الحاجة, إن كان فيها منفعة لكم, أو دفع مضرة . "قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا " أي: اضمحلوا وبطلوا, وليسوا مغنين عنا من عذاب اللّه من شيء . "وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ " مستحقين للعذاب المهين الدائم.

"قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ "
فقالت لهم الملائكة " ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ " أي: في جملة أمم . "قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ " أي: مضوا على ما مضيتم عليه, من الكفر والاستكبار, فاستحق الجميع الخزي والبوار, والخلود "فِي النَّارِ ". كلما دخلت أمة من الأمم العاتية النار "لَعَنَتْ أُخْتَهَا " كما قال تعالى "ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ". "حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا " أي: اجتمع في النار, جميع أهلها, من الأولين والآخرين, والقادة, والرؤساء, والمقلدين الأتباع . "قَالَتْ أُخْرَاهُمْ " أي متأخروهم, المتبعون الرؤساء " لِأُولَاهُمْ " أي: لرؤسائهم, شاكين إلى اللّه إضلالهم إياهم : "رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ " أي: عذبهم عذابا مضاعفا لأنهم أضلونا, وزينوا لنا الأعمال الخبيثة . "قَالَ " اللّه "لِكُلٍّ " منكم "ضِعْفٌ " ونصيب من العذاب

"وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ "
"وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ " أي: الرؤساء, قالوا لأتباعهم : "فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ " أي: قد اشتركنا جميعا في الغي والضلال, وفي فعل أسباب العذاب, فأي فضل لكم علينا؟ . "فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ". ولكنه من المعلوم, أن عذاب الرؤساء, وأئمة الضلال, أبلغ وأشنع, من عذاب الأتباع. كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع. قال تعالى " الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ". فهذه الآيات ونحوها, دلت على أن سائر أنواع المكذبين بآيات اللّه, مخلدون في العذاب, مشتركون فيه وفي أصله, وإن كانوا متفاوتين في مقداره, بحسب أعمالهم, وعنادهم, وظلمهم, وافترائهم, وأن مودتهم التي كانت بينهم في الدنيا, تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعنة.

"إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ "
يخبر تعالى, عن عقاب من كذب بآياته, فلم يؤمن بها, مع أنها آيات بينات, واستكبر عنها, فلم ينقد لأحكامها, بل كذب وتولى - أنهم آيسون من كل خير, فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم, إذا ماتوا, وصعدت تريد العروج إلى اللّه, فتستأذن, فلا يؤذن لها. كما لم تصعد في الدنيا إلى الإيمان باللّه,, ومعرفته, ومحبته, كذلك لا تصعد بعد الموت, فإن الجزاء من جنس العمل. ومفهوم الآية, أن أرواح المؤمنين المنقادين لأمر اللّه, المصدقين بآياته, تفتح لها أبواب السماء, حتى تعرج إلى اللّه, وتصل إلى حيث أراد اللّه, في العالم العلوي, وتبتهج بالقرب من ربها, والحظوة برضوانه. وقوله عن أهل النار "وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ " وهو البعير المعروف "فِي سَمِّ الْخِيَاطِ " أي: حتى يدخل البعير الذي هو من أكبر الحيوانات جسما, في خرق الإبرة, الذي هو من أضيق الأشياء. وهذا من باب تعليق الشيء بالمحال. أي: فكما أنه محال دخول الجمل في سم الخياط, فكذلك المكذبون

بآيات اللّه, محال دخوله الجنة. قال تعالى " إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ". وقال هنا "وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ " أي: الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم.

"لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ "
"لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ " أي: فراش من تحتهم "وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ " أي: ظلل من العذاب, تغشاهم . "وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ " لأنفسهم, جزاء وفاقًا, وما ربك بظلام للعبيد.

"وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ "
لما ذكر تعالى عقاب العاصين الظالمين, ذكر ثواب المطيعين فقال : "وَالَّذِينَ آمَنُوا " بقلوبهم "وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ " بجوارحهم, فجمعوا بين الإيمان والعمل, بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة, بين فعل الواجبات وترك المحرمات. ولما كان قوله "وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ " لفظا عاما يشمل جميع الصالحات, الواجبة والمستحبة, وقد يكون بعضها غير مقدور للعبد, قال تعالى: " لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا " أي: بمقدار ما تسعه طاقتها, ولا يعسر على قدرتها, فعليها في هذه الحال, أن تتقي اللّه, بحسب استطاعتها. وإذا عجزت عن بعض الواجبات, التي يقدر عليها غيرها, سقطت عنها, كما قال تعالى: " لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا " " لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا " "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ " "فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ". فلا واجب مع العجز, ولا محرم مع الضرورة. " أُولَئِكَ " أي: المتصفون بالإيمان والعمل الصالح " أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " أي لا يحولون عنها, ولا يبغون بها بدلا, لأنهم يرون فيها من أنواع اللذات, وأصناف المشتهيات, ما تقف عنده الغايات, ولا يطلب أعلى منه.

"وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ "
"وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ " وهذا من كرمه وإحسانه, على أهل الجنة, أن الغل الذي كان موجودا في قلوبهم, والتنافس الذي كان بينهم, أن اللّه يقلعه ويزيله, حتى يكونوا إخوانا متحابين, وأخلاء متصافين. قال تعالى : "وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ " ويخلق اللّه لهم من الكرامة, ما به يحصل لكل واحد منهم, الغبطة والسرور ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم, نعيم. فبهذا يأمنون من التحاسد والتباغض, لأنه قد فقدت أسبابه. قوله "تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ " أي يفجرونها تفجيرا, حيث شاءوا, وأين أرادوا. إن شاءوا في خلال القصور, أو في تلك الغرف العاليات, أو في رياض الجنات, من تحت تلك الحدائق الزاهرات. أنهار تجري في غير أخدود, وخيرات ليس لها حد محدود. لهذا لما رأوا ما أنعم اللّه عليهم وأكرمهم به "وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا " بأن من علينا, وأوحى إلى قلوبنا, فآمنت به, وانقادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار, وحفظ اللّه علينا إيماننا وأعمالنا, حتى أوصلنا بها إلى هذه الدار. فنعم الرب الكريم, الذي ابتدأنا بالنعم, وأسدى من النعم الظاهرة. والباطنة, ما لا يحصيه المحصون, ولا يعده العادون . "وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ " أي: ليس في نفوسنا قابلية للهدى, لولا أنه تعالى منَّ علينا بهدايته واتباع رسله . "لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ " أي: حين كانوا يتمتعون بالنعيم, الذي أخبرت به الرسل, وصار حق يقين لهم, بعد أن كان علم يقين لهم - قالوا لقد تحققنا, ورأينا ما وعدتنا به الرسل, وأن جميع ما جاءوا به حق اليقين لا مرية فيه ولا إشكال . "وَنُودُوا " تهنئة لهم, وإكراما, وتحية, واحتراما. " أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا " أي كنتم الوارثين لها, وصارت إقطاعا لكم, إذ كان إقطاع الكفار النار. أورثتموها "بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ". قال بعض السلف: أهل الجنة نجوا من النار بعفو اللّه, وأدخلوا الجنة برحمة اللّه, واقتسموا المنازل, وورثوها, بالأعمال الصالحة, وهي من رحمته, بل من أعلى أنواع رحمته.

"وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ

رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ "
يقول تعالى - بعد ما ذكر استقرار كل من الفريقين في الدارين, ووجدا ما أخبرت به الرسل, ونطقت به الكتب, من الثواب والعقاب, أن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا: " أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا " حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح, الجنة, فأدخلناها, ورأينا ما وصفه لنا . 'فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ " على الكفر والمعاصي 'حَقًّا ". 'قَالُوا نَعَمْ " قد وجدناه حقا, فبين للخلق كلهم, بيانا لا شك فيه, صدق وعد الله, ومن أصدق من الله قيلا, وذهبت عنهم الشكوك والشبه, وصار الأمر حق اليقين. وفرح المؤمنون بوعد الله, واغتبطوا, وأيس الكفار من الخير, وأقروا على أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب . 'فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ " أي: بين أهل النار وأهل الجنة, بأن قال " أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ " أي: بعده وإقصاؤه, عن كل خير 'عَلَى الظَّالِمِينَ " إذ فتح الله لهم أبواب رحمته, فصدفوا أنفسهم عنها, ظلما, وصدوا عن سبيل الله بأنفسهم, وصدوا غيرهم, فضلوا وأضلوا.

"الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ "
والله تعالى يريد أن تكون مستقيمة, ويعتدل سير السالكين إليه. وهؤلاء 'وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا " أي: منحرفة صادة عن سواء السبيل . 'وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ". وهذا الذي أوجب لهم الانحراف عن الصراط, والإقبال على شهوات النفوس المحرمة, عدم إيمانهم بالبعث, وعدم خوفهم من العقاب, ورجائهم للثواب. ومفهوم هذا, أن رحمة الله على المؤمنين, وبره شامل لهم, وإحسانه, متواتر عليهم.

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ "
أي: وبين أصحاب الجنة, وأصحاب النار, حجاب يقال له "الأعراف 'لا من الجنة, ولا من النار, يشرف على الدارين, وينظر من عليه, حال الفريقين. وعلى هذا الحجاب, رجال يعرفون كلا من أهل الجنة والنار, بسيماهم, أي: علاماتهم, التي بها يعرفون ويميزون. فإذا نظروا إلى أهل الجنة, نادوهم " أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ " أي: يحيونهم, ويسلمون عليهم. وهم - إلى الآن - لم يدخلوا الجنة, ولكنهم يطمعون في دخولها ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم, إلا لما يريد بهم من كرامته.

وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ "
'وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ " ورأوا منظرا شنيعا, وهولا فظيعا 'قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ". فأهل الجنة - إذا رآهم أهل الأعراف - يطمعون أن يكونوا معهم في الجنة, ويحيونهم, ويسلمون عليهم. وعند انصراف أبصارهم, بغير اختيارهم, لأهل النار, يستجيرون من حالهم هذا, على وجه العموم.

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ "
ثم ذكر الخصوص بعد العموم فقال : 'وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ " وهم من أهل النار, وقد كانوا في الدنيا لهم أبهة وشرف, وأموال, وأولاد. فقال لهم أصحاب الأعراف - حين رأوهم منفردين في العذاب, بلا ناصر ولا مغيث : 'مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ " في الدنيا, الذي كنتم تستدفعون به المكاره, وتتوسلون به إلى مطالبكم في الدنيا, فاليوم اضمحل, ولم يغن عنكم شيئا. وكذلك, أي شيء نفعكم استكباركم على الحق, وعلى ما جاء به, وعلى من اتبعه.

"أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ "
ثم أشاروا لهم, إلى أناس من أهل الجنة, كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار, فقالوا لأهل النار: " أَهَؤُلَاءِ " الذين أدخلهم الله الجنة " الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ " احتقارا لهم, وازدراء, وإعجابا بأنفسكم, قد حنثتم في أيمانكم, وبدا لكم من الله, ما لم يكن لكم في حساب. " ادْخُلُوا الْجَنَّةَ " بما كنتم تعملون, أي: قيل لهؤلاء الضعفاء, إكراما واحتراما: ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة. " لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ " فيما يستقبل من

المكاره "وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ " على ما مضى, بل آمنون مطمئنون, فرحون بكل خير. وهذا كقوله تعالى " إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ " إلى أن قال "فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ". واختلف أهل العلم والمفسرون, من هم أصحاب الأعراف, وما أعمالهم؟. والصحيح من ذلك, أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم, فلا رجحت سيئاتهم, فدخلوا النار, ولا رجحت حسناتهم, فدخلوا الجنة فصاروا في الأعراف ما شاء اللّه. ثم إن اللّه تعالى يدخلهم - برحمته - الجنة, فإن رحمته تسبق وتغلب غضبه, ورحمته وسعت كل شيء.

وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ "
أي: ينادي أصحاب النار أصحاب الجنة, حين يبلغ منهم العذاب كل مبلغ, وحين يمسهم الجوع المفرط, والظمأ الموجع, يستغيثون بهم, فيقولون: " أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ " من الطعام. فأجابهم أهل الجنة بقولهم: " إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا " أي: ماء الجنة وطعامها "عَلَى الْكَافِرِينَ ". وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات اللّه, واتخاذهم دينهم الذي أمروا أن يستقيموا عليه, ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه.

"الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ "
"لَهْوًا وَلَعِبًا " أي: لهت قلوبهم, وأعرضت عنه, ولعبوا, واتخذوه سخريا. أو أنهم جعلوا بدل دينهم, اللهو واللعب, واستعاضوا بذلك عن الدين القيم . "وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا " بزينتها وزخرفها, وكثرة دعاتها, فاطمأنوا إليها, ورضوا بها, وفرحوا, وأعرضوا عن الآخرة ونسوها. "فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ " أي: نتركهم في العذاب "كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا " فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا, وليس أمامهم عرض ولا جزاء . "وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ " والحال أن جحودهم هذا لا عن قصور في آيات اللّه وبيناته,

"وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ "
بل قد "جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ " أي بينا فيه جميع المطالب, التي يحتاج إليها الخلق "عَلَى عِلْمٍ " من اللّه بأحوال العباد في كل زمان ومكان, وما يصلح لهم وما لا يصلح. ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور, فيجهل بعض الأحوال, فيحكم حكما غير مناسب. بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء, ووسعت رحمته كل شيء . "هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " أي: تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب, الهداية من الضلال, وبيان الحق والباطل, والغيّ والرشد. ويحصل أيضا لهم به الرحمة, وهي: الخير والسعادة في الدنيا والآخرة فينتفى عنهم بذلك, الضلال والشقاء. وهؤلاء الذين حق عليهم العذاب, لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم, ولا انقادوا لأوامره ونواهيه, فلم يبق فيهم حيلة, إلا استحقاقهم أن يحل بهم, ما أخبر به القرآن.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ "
ولهذا قال : "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ " أي: وقوع ما أخبر به, كما قال يوسف عليه السلام حين وقعت رؤياه : "هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ". "يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ " متندمين متأسفين على ما مضى, متشفعين في مغفرة ذنوبهم. مقرين بما أخبرت به الرسل : "قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ " إلى الدنيا "فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ " وقد فات الوقت عن الرجوع إلى الدنيا . "فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ". وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا, ليعملوا غير عملهم, كذب منهم, مقصودهم به, دفع ما حل بهم, قال تعالى : "وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ".
"قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ " حين فوتوها الأرباح, وسلكوا بها سبيل الهلاك. وليس ذلك كخسران الأموال والأثاث, أو الأولاد, إنما هذا خسران لا جبران لمصابه . "وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ " في الدنيا, مما تمنيهم أنفسهم به, ويعدهم به الشيطان. قدموا على ما لم يكن لهم في حساب, وتبين لهم باطلهم وضلالهم, وصدق ما جاءتهم به الرسل.

"إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ "

يقول تعالى, مبينا أنه الرب المعبود وحده لا شريك له " إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ " وما فيهما, على عظمهما وسعتهما, وإحكامهما, وإتقانهما, وبديع خلقهما . "فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ " أولها: يوم الأحد, وآخرها, يوم الجمعة. فلما قضاهما, وأودع فيهما من أمره ما أودع " اسْتَوَى " تبارك وتعالى "عَلَى الْعَرْشِ " العظيم, الذي يسع السماوات والأرض, وما فيهما, وما بينهما. استوى, استواء يليق بجلاله, وعظمته, وسلطانه. فاستوى على العرش, واحتوى على الممالك, وأجرى عليهم أحكامه الكونية, وأحكامه الدينية, ولهذا قال : "يُغْشِي اللَّيْلَ " المظلم " النَّهَارَ " المضيء, فيظلم ما على وجه الأرض, ويسكن الآدميون, وتأوى المخلوقات إلى مساكنها, ويستريحون من التعب, والذهاب والإياب, الذي حصل لهم في النهار . "يَطْلُبُهُ حَثِيثًا " كلما جاء الليل, ذهب النهار; وكلما جاء النهار, ذهب الليل, وهكذا أبدا, على الدوام, حتى يطوي اللّه هذا العالم, وينتقل العباد إلى دار غير هذه الدار . "وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ " أي بتسخيره وتدبيره, الدال على ما له من أوصاف الكمال. فخلقها وعظمها, دال على كمال قدرته. وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان, دال على كمال حكمته. وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية وما دونها, دال على سعة رحمته وعلمه, وأنه الإله الحق, الذي لا تنبغي العبادة إلا له. " أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ " أي: له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها, وسفليها, أعيانها, وأوصافها, وأفعالها, والأمر المتضمن للشرائع والنبوات. فالخلق: يتضمن أحكامه الكونية القدرية. والأمر: يتضمن أحكامه الدينية الشرعية. وثم أحكام الجزاء, وذلك يكون في دار البقاء . "تَبَارَكَ اللَّهُ " أي: عظم وتعالى, وكثر خيره وإحسانه. فتبارك في نفسه, لعظمة أوصافه وكمالها. وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل, والبر الكثير. فكل بركة في الكون, فمن آثار رحمته, ولهذا قال : "تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ". ولما ذكر من عظمته وجلاله, ما يدل ذوي الألباب على أنه وحده, المعبود المقصود في الحوائج كلها, أمر بما يترتب على ذلك فقال: " ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا " إلى "مِنَ الْمُحْسِنِينَ ".

"ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ "

الدعاء: يدخل فيه, دعاء المسألة, ودعاء العبادة. فأمر بدعائه "تَضَرُّعًا " أي: إلحاحا في المسألة, ودءوبا في العبادة . "وَخُفْيَةً " أي لا جهر أو علانية, يخاف منه الرياء, بل خفية, وإخلاصا للّه تعالى. " إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " أي: المتجاوزين للحد في كل الأمور. ومن الاعتداء: كون العبد يسأل اللّه مسائل لا تصلح له, أو ينقطع في السؤال, أو يبالغ في رفع صوته بالدعاء, فكل هذا داخل في الاعتداء المنهي عنه.

"وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ "

"وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ " بعمل المعاصي "بَعْدَ إِصْلَاحِهَا " بالطاعات, فإن المعاصي, تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق, كما قال تعالى :"ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ " كما أن الطاعات, تصلح بها, الأخلاق, والأعمال, والأرزاق, وأموال الدنيا والآخرة . "وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا " أي: خوفا من عقابه, وطمعا في ثوابه. طمعا في قبولها, وخوفا من ردها لا دعاء عبد مدل على ربه, قد أعجبته نفسه, ونزل نفسه فوق منزلته, أو دعاء من هو غافل لاه. وحاصل ما ذكر اللّه من آداب الدعاء: الإخلاص فيه للّه وحده, لأن ذلك يتضمنه الخفية. وإخفاؤه وإسراره, أن يكون القلب خائفا طامعا لا غافلا, ولا آمنا ولا غير مبال بالإجابة, وهذا من إحسان الدعاء فإن الإحسان في كل عبادة, بذل الجهد فيها, وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه, ولهذا قال: " إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ " في عبادة اللّه, المحسنين إلى عباد اللّه. فكلما كان العبد أكثر إحساناً, كان أقرب إلى رحمة ربه, وكان ربه قريبا منه برحمته. وفي هذا من الحث على الإحسان, ما لا يخفى.

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ "

بين تعالى, أثرا من آثار قدرته, ونفحة من نفحات رحمته فقال : "وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ " أي: الرياح المبشرات بالغيث, التي تثيره بإذن اللّه, من الأرض, فيستبشر الخلق برحمة اللّه, وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله . "حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ " الرياح " سَحَابًا ثِقَالًا " قد أثاره بعضها, وألفته ريح أخرى, وألحقته ريح أخرى "سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ " قد كادت تهلك حيواناته, وكاد أهله أن ييأسوا من رحمة اللّه . "فَأَنْزَلْنَا بِهِ " أي: بذلك البلد الميت " الْمَاءُ " الغزير من ذلك السحاب وسخر اللّه له ريحا تدره, وريحا تفرقه بإذن اللّه. "فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ " فأصبحوا مستبشرين برحمة اللّه, راتعين بخير اللّه.

وقوله "كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات, كذلك نخرج الموتى من قبورهم, بعد ما كانوا رفاتا متمزقين. وهذا استدلال واضح, فإنه لا فرق بين الأمرين. فمنكر البعث, استبعادا له - مع أنه يرى ما هو نظيره - من باب العناد, وإنكار المحسوسات. وفي هذا, الحث على التذكر والتفكر في آلاء اللّه, والنظر إليها بعين الاعتبار والاستدلال لا بعين الغفلة والإهمال.

"وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ "

ثم ذكر تفاوت الأراضي, التي ينزل عليها المطر فقال : "وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ " أي: طيب التربة والمادة, إذا نزل عليه مطر "يَخْرُجُ نَبَاتُهُ " الذي هو مستعد له "بِإِذْنِ رَبِّهِ " أي: بإرادة اللّه ومشيئته, فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء, حتى يأذن اللّه بذلك . "وَالَّذِي خَبُثَ " من الأراضي " لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا " أي: إلا نباتا خاسا لا نفع فيه ولا بركة . "كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ " أي: ننوعها ونبينها ونضرب فيها الأمثال ونسوقها لقوم يشكرون اللّه بالاعتراف بنعمه, والإقرار بها, وصرفها في مرضاة اللّه. فهم الذين ينتفعون بما فصل اللّه في كتابه, من الأحكام, والمطالب الإلهية لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم. فيتلقونها مفتقرين إليها فرحين بها, فيتدبرونها, ويتأملونها, فيبين لهم من معانيها, بحسب استعدادهم. وهذا مثال للقلوب, حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادة الحياة, كما أن الغيث, مادة الحيا. فإن القلوب الطيبة, حين يجيئها الوحي, تقبله وتعلمه, وتنبت بحسب, طيب أصلها, وحسن عنصرها. وأما القلوب الخبيثة, التي لا خير فيها, فإذا جاءها الوحي, لم يجد محلا قابلا, بل يجدها غافلة معرضة, أو معارضة, فيكون كالمطر الذي يمر على السباخ والرمال والصخور, فلا: يؤثر فيها شيئا, وهذا كقوله تعالى " أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا " الآيات.

"لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ "

لما ذكر تعالى, من أدلة توحيده, جملة صالحة, أيد ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيده, مع أممهم المنكرين لذلك. وكيف أيد اللّه أهل التوحيد, وأهلك من عاندهم ولم ينقد لهم. وكيف اتفقت دعوة المرسلين على دين واحد, ومعتقد واحد. فقال عن نوح - أول المرسلين -: "لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ " يدعوهم إلى عبادة اللّه وحده, حين كانوا يعبدون الأوثان . "فَقَالَ " لهم : "يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ " أي: وحده "مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ " لأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور, وما سواه مخلوق مدبر, ليس له من الأمر شيء. ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب اللّه فقال: " إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ". وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام, وشفقته عليهم, حيث خاف عليهم العذاب الأبدي, والشقاء السرمدي, كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم. فلما قال لهم هذه المقالة, ردوا عليه أقبح رد.

"قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ "

"قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ " أي: الرؤساء الأغنياء المتبوعون الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق, وعدم انقيادهم للرسل. " إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ " فلم يكفهم - قبحهم اللّه - أنهم لم ينقادوا له, بل استكبروا عن الانقياد له, وقدحوا فيه أعظم قدح, ونسبوه إلى الضلال. ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه, ضلالا مبينا, واضحا لكل أحد. وهذا من

أعظم أنواع المكابرة, التي لا تروج على أضعف الناس عقلا. وإنما هذا الوصف, منطبق على قوم نوح, الذين جاءوا إلى أصنام, قد صوروها ونحتوها بأيديهم, من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر, ولا تغني عنهم شيئا. فنزلوها منزلة فاطر السماوات, وصرفوا لها ما أمكنهم, من أنواع القربات. فلولا أن لهم أذهانا تقوم بها حجة اللّه عليهم لحكم عليهم بأن المجانين أهدى منهم, بل هم أهدى منهم وأعقل. فرد نوح عليهم ردا لطيفا, وترقق لهم, لعلهم ينقادون له فقال:

"قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ "
"يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ " أي: لست ضالا في مسألة من المسائل, بوجه من الوجوه, وإنما أنا هاد مهتد. بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه, أولي العزم من المرسلين, أعلى أنواع الهدايات وأكملها, وأتمها وهي هداية الرسالة التامة الكاملة, ولهذا قال : "وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ " أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق, بأنواع التربية, الذي من أعظم تربيته, أن أرسل إلى عباده رسلا, تأمرهم بالأعمال الصالحة, والأخلاق الفاضلة, والعقائد الحسنة وتنهاهم عن أضدادها ولهذا قال:

"أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ "
" أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ " أي: وظيفتي تبليغكم, ببيان توحيده, وأوامره, ونواهيه, على وجه النصيحة لكم, والشفقة عليكم . "وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " فالذي يتعين أن تطيعوني وتنقادوا لأمري إن كنتم تعلمون.

"أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ "
" أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ " أي: كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها, وهو: أن جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة, على يد رجل منكم, تعرفون حقيقته وصدقه وحاله؟!! فهذه الحال من عناية اللّه بكم وبره وإحسانه الذي يتلقى بالقبول والشكر. وقوله : "لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ " أي لينذركم العذاب الأليم, وتفعلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى اللّه, ظاهرا وباطنا, وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة اللّه الواسعة.

فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ "
فلم يفد فيهم, ولا نجح "فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ " أي: السفينة التي أمر اللّه نوحا عليه السلام بصنعها, وأوحى إليه أن يحمل من كل صنف من الحيوانات, زوجين اثنين وأهله, ومن آمن معه, فحملهم فيها ونجاهم اللّه بها . "وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ " عن الهدى, أبصروا الحق, وأراهم اللّه - على يد نوح - من الآيات البينات, ما به يؤمن أولوا الألباب, فسخروا منه, واستهتروا به, وكفروا.

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ "
أي: أرسلنا "وَإِلَى عَادٍ " الأولى, الذين كانوا في أرض اليمن. " أَخَاهُمْ " في النسب "هُودًا " عليه السلام, يدعوهم إلى التوحيد, وينهاهم عن الشرك والطغيان في الأرض . "قَالَ " لهم : "يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ " سخطه وعذابه, إن أقمتم على ما أنتم عليه, فلم يستجيبوا ولا انقادوا.

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ "
"قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ " رادين لدعوته, قادحين في رأيه. " إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ " أي: ما نراك إلا سفيها غير رشيد. ويغلب على ظننا, أنك من جملة الكاذبين. وقد انقلبت عليهم الحقيقة, واستحكم عماهم, حيث ذموا نبيهم, عليه السلام, بما هم متصفون به, وهو أبعد الناس عنه, فإنهم السفهاء حقا, الكاذبون. وأي: سفه أعظم ممن قابل أحق الحق, بالرد والإنكار, وتكبر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء, وانقاد قلبه وقالبه, لكل شيطان مريد, ووضع العبادة في غير موضعها, فعبد من لا يغني عنه شيئا من الأشجار, والأحجار؟!! وأي: كذب, أبلغ من كذب, من نسب هذه الأمور إلى

اللّه تعالى؟!!

"قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ "
'قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ " بوجه من الوجوه, بل هو الرسول, المرشد الرشيد. " وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ "

"أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ "
" أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ". فالواجب عليكم أن تتلقوا ذلك بالقبول والانقياد, وطاعة رب العباد.

"أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ "
" أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ " أي كيف تعجبون من أمر, لا يتعجب منه, وهو أن اللّه أرسل إليكم, رجلاً منكم تعرفون أمره, يذكركم بما فيه مصالحكم, ويحثكم على ما فيه النفع لكم, فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين . "وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ " أي: واحمدوا ربكم واشكروه, إذ مكن لكم في الأرض, وجعلكم تخلفون الأمم الهالكة, الذين كذبوا الرسل, فأهلكهم اللّه وأبقاكم, لينظر كيف تعملون. واحذروا أن تقيموا على التكذيب, كما أقاموا, فيصيبكم ما أصابهم. اذكروا نعمة اللّه عليكم التي خصكم بها وهي أن 'وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً " في القوة, وكبر الأجسام, وشدة البطش . 'فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ " أي: نعمه الواسعة, وأياديه المتكررة. " لَعَلَّكُمْ " إذا ذكرتموها بشكرها, وأداء حقها "تُفْلِحُونَ " أي: تفوزون بالمطلوب, وتنجون من المرهوب. فوعظهم, وذكرهم, وأمرهم بالتوحيد, وذكر لهم وصف نفسه, وأنه ناصح أمين. وحذرهم أن يأخذهم اللّه كما أخذ من قبلهم, وذكرهم, نعم اللّه عليهم وإدرار الأرزاق إليهم, فلم ينقادوا, ولا استجابوا.

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ "
'قَالُوا " متعجبين من دعوته, ومخبرين له أنهم من الحال أن يطيعوه. " أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ". قبحهم اللّه, جعلوا الأمر الذي هو أوجب الواجبات, وأكمل الأمور من الأمور التي يعارضون بها, ما وجدوا عليه آباءهم فقدموا ما عليه الآباء الضالون, من الشرك, وعبادة الأصنام, على ما دعت إليه الرسل, من توحيد اللّه وحده لا شريك له, وكذبوا نبيهم, وقالوا : 'فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ " وهذا الاستفتاح منهم على أنفسهم.

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ "
'قَالَ " لهم هود عليه السلام : 'قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ " أي لا بد من وقوعه, فإنه قد انعقدت أسبابه, وحان وقت الهلاك. " أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ " أي: كيف تجادلون على أمور لا حقائق لها, وعلى أصنام سميتوها آلهة, وهي لا شيء من الإلهية فيها, ولا مثقال ذرة و 'مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ " فإنها لو كانت صحيحة, لأنزل اللّه بها سلطانا. فعدم إنزاله له, دليل على بطلانها, فإنه ما من مطلوب ومقصود وخصوصا الأمور الكبار - إلا وقد بين اللّه فيها من الحجج, ما يدل عليها, ومن السلطان, ما لا تخفى معه . 'فَانْتَظِرُوا " ما يقع بكم من العقاب, الذي وعدتكم به " إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ " وفرق بين الانتظارين, انتظار من يخشى وقوع العقاب, ومن يرجو من اللّه النصر والثواب, ولهذا فتح اللّه بين الفريقين فقال:

فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ "
'فَأَنْجَيْنَاهُ " أي: هودا 'وَالَّذِينَ " آمنوا 'مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا " فإنه الذي هداهم للإيمان, وجعل إيمانهم سببا ينالون به رحمته فأنجاهم برحمته . 'وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا " أي: استأصلناهم بالعذاب الشديد الذي لم يبق منهم أحدا, وسلط اللّه عليهم الريح العقيم, ما

تذر من شيء أتت عليه, إلا جعلته كالرميم. فأهلكوا فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الذين أقيمت عليهم الحجج, فلم ينقادوا لها, وأمروا بالإيمان, فلم يؤمنوا فكان عاقبتهم الهلاك, والخزي, والفضيحة . 'وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ". وقال هنا 'وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ " بوجه من الوجوه, بل وصفهم التكذيب والعناد, ونعتهم, الكبر والفساد.

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "
أي وأرسلنا 'وَإِلَى ثَمُودَ " القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحجر وما حوله, من أرض الحجاز, وجزيرة العرب. أرسل الله إليهم " أَخَاهُمْ صَالِحًا " نبيا يدعوهم, إلى الإيمان والتوحيد وينهاهم عن الشرك والتنديد . 'قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ " دعوته عليه الصلاة والسلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين - الأمر بعبادة الله, وبيان أنه ليس للعباد, إله غير الله . 'قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ " أي خارق من خوارق العادات, التي لا تكون إلا آية سماوية لا يقدر الناس عليها, ثم فسرها بقوله 'هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً " أي: هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها إلى الله تعالى, إضافة تشريف, لكم فيها آية عظيمة. وقد ذكر وجه الآية في قوله "لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ". وكان عندهم بئر كبيرة, وهي المعروفة ببئر الناقة, يتناوبونها, هم والناقة. للناقة يوم تشربها, ويشربون اللبن من ضرعها, ولهم يوم, يردونها, وتصدر الناقة عنهم. وقال لهم نبيهم صالح عليه السلام 'فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ " فلا عليكم من مئونتها شيء . 'وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ " أي: بعقر أو غيره , 'فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ".

"وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ "
'وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ " في الأرض تتمتعون بها وتدرگون مطالبكم "مِنْ بَعْدِ عَادٍ " الذين أهلكهم الله, وجعلكم خلفاء من بعدهم . 'وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ " أي: مكن لكم فيها, وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون . "تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا " أي: من الأراضي السهلة, التي ليست بجبال . 'وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا " كما هو مشاهد إلى الآن, من آثارهم التي في الجبال, من المساكن والحجر ونحوها, وهي باقية, ما بقيت الجبال . 'فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ " أي: نعمه, وما خولكم من الفضل والرزق والقوة . 'وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ " أي لا تخربوا في الأرض, بالفساد والمعاصي, فإن المعاصي, تدع الديار العامرة, بلاقع وقد أخلت ديارهم منهم, وأبقيت مساكنهم, موحشة بعدهم.

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ "
'قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ " أي: الرؤساء والأشراف, الذين تكبروا عن الحق. " لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا " ولما كان المستضعفون, ليسوا كلهم مؤمنين, قالوا : "لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ". أي: أهو صادق أم كاذب؟. فقال المستضعفون: " إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ " من توحيد الله, والخبر عنه, وأمره ونهيه.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ "
'قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ " حملهم الكبر على أن لا ينقادوا للحق, الذي انقاد له الضعفاء.

فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ "
'فَعَقَرُوا النَّاقَةَ " التي توعدهم إن مسوها بسوء, أن يصيبهم عذاب أليم . 'وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ " أي: قسوا عنه, واستكبروا عن أمره الذي من عتا عنه, أذاقه العذاب الشديد لا جرم, أحل الله بهم من النكال, ما لم يحل بغيرهم . 'وَقَالُوا " مع هذه الأفعال, متجرئين, على الله, معجزين له, غير مبالين بما فعلوا, بل مفتخرين بها : "يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا "

من العذاب " إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ". فقال: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب.

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ "
'فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ " على ركبهم, قد أبادهم اللّه, وقطع دابرهم.

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ "
'فَتَوَلَّى عَنْهُمْ " صالح عليه السلام, حين أحل اللّه بهم العذاب . 'وَقَالَ " مخاطبا لهم, توبيخا وعتابا, بعد ما أهلكهم اللّه : "يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ " أي: جميع ما أرسلني اللّه به إليكم, قد أبلغتكم به, وحرصت على هدايتكم, واجتهدت في سلوككم الصراط المستقم, والدين القويم . 'وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ " بل رددتم قول النصحاء, وأطعتم كل شيطان رجيم. واعلم أن كثيرا من المفسرين يذكرون في هذه القصة, أن الناقة قد خرجت من صخرة صماء ملساء, اقترحوها على صالح, وأنها تمخضت تمخض الحامل, فخرجت الناقة, وهم ينظرون, وأن لها فصيلا حين عقروها, رغى ثلاث رغيات, وانفلق له الجبل, ودخل فيه. وأن صالحا عليه السلام قال لهم: آية نزول العذاب بكم, أن تصبحوا في اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرة, واليوم الثاني: محمرة, والثالث: مسودة. فكان كما قال. هذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب اللّه, وليس في القرآن ما يدل على شيء منها, بوجه من الوجوه. بل لو كانت صحيحة, لذكرها اللّه تعالى, لأن فيها من العجائب والعبر والآيات, ما لا يهمله تعالى, ويدع ذكره, حتى يأتي من طريق من لا يوثق بنقله. بل القرآن يكذب بعض هذه المذكورات, فإن صالحا قال لهم "تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ " أي: تنعموا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جدا, فإنه ليس لكم من المتاع واللذة, سوى هذا. وأي لذة وتمتع, لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب, وذكر لهم وقوع مقدماته, فوقعت يوما فيوما, على وجه يعمهم ويشملهم لأن أحمرار وجوههم واصفرارها واسوادها من العذاب. هل هذا إلا مناقض للقرآن, ومضاد له؟!!. فالقرآن, فيه الكفاية والهداية, عن ما سواه. نعم لو صح شيء عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم, مما لا يناقض كتاب اللّه, فعلى الرأس والعين, وهو مما أمر القرآن باتباعه . 'وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ". وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب اللّه بالأخبار الإسرائيلية, ولو على تجويز الرواية عنهم, بالأمور التي لا يجزم بكذبها, فإن معاني كتاب اللّه, يقينية, وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب, فلا يمكن اتفاقهما.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ "
أي: واذكر عبدنا 'وَلُوطًا " عليه الصلاة والسلام, إذ أرسلناه إلى قومه,يأمرهم بعبادة اللّه وحده, وينهاهم عن الفاحشة, التي ما سبقهم بها أحد من العالمين. " أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ " أي: الخصلة التي بلغت - في الظلم والشناعة - إلى أن استغرقت أنواع الفحش . 'مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ " فكونها فاحشة من أشنع الأشياء, وكونهم ابتدعوها, وابتكروها, وسنوها لمن بعدهم, من أشنع ما يكون أيضا.

"إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ "
ثم بينها بقوله: " إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ " أي: كيف تذرون النساء, التي خلقهن اللّه لكم, وفيهن المستمتع الموافق للشهوة والفطرة, وتقبلون على أدبار الرجال, التي هي غاية ما يكون في الشناعة والخبث, وهي تخرج منه الأنتان والأخباث, التي يستحيي من ذكرها فضلا عن ملامستها وقربها . "بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ " أي: متجاوزون لما حده اللّه متجرئون على محارمه.

"وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ "
'وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ " أي: يتنزهون عن فعل الفاحشة . 'وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ".

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ "
'فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ " أي: الباقين المعذبين. أمره اللّه أن يسري بأهله ليلا, فإن العذاب مصبح قومه. فسرى بهم, إلا امرأته أصابها ما أصابهم.

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ "
'وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا " أي: حجارة حارة شديدة, من سجيل, وجعل اللّه عاليها سافلها.
'فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ " الهلاك والخزي الدائم.

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ "
أي: وأرسلنا 'وَإِلَى مَدْيَنَ " القبيلة المعروفة " أَخَاهُمْ " في النسب شُعَيْبًا " يدعوهم إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له, ويأمرهم بإيفاء المكيال والميزان: وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم, وأن لا يعثوا في الأرض مفسدين, بالإكثار من عمل المعاصي. ولهذا قال 'وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ". فإن ترك المعاصي, امتثالا لأمر اللّه, وتقربا إليه - خير, وأنفع للعبد, من ارتكابها الموجب لسخط الجبار, وعذاب النار.

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ "
'وَلَا تَقْعُدُوا " للناس "بِكُلِّ صِرَاطٍ " أي: طريق من الطرق التي يكثر سلوكها, تحذرون الناس منها "تُوعَدُونَ " من سلوكها 'وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ " من أراد الاهتداء به " وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا " أي: تبغون سبيل اللّه تكون معوجة, وتميلونها, اتباعا لأهوائكم. وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم, الاحترام والتعظيم, للسبيل التي نصبها اللّه لعباده, ليسلكوها إلى مرضاته, ودار كرامته, ورحمهم بها أعظم رحمة, وتصدون لنصرتها, والدعوة إليها, والذب عنها لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها, الصادين الناس عنها, فإن هذا كفر لنعمة اللّه, ومحادة للّه, وجعل أقوم الطرق وأعدلها, مائلة, وتشنعون على من سلكها . 'وَاذْكُرُوا " نعمة اللّه عليكم " إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ " أي: نماكم بما أنعم عليكم من الزوجات, والنسل, والصحة. وأنه ما ابتلاكم بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم, ولا سلط عليكم عدوا يجتاحكم, ولا فرقكم في الأرض. بل أنعم عليكم, باجتماعكم. وإدرار الأرزاق, وكثرة النسل . 'وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ " فإنكم لا تجدون في جموعهم إلا الشتات, ولا في ربوعهم, إلا الوحشة والانبتات. ولم يورثوا ذكرا حسنا, بل أتبعوا في هذه الدنيا, لعنة, ويوم القيامة خزيا وفضيحة.

وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ "
'وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا " وهم الجمهور منهم. " فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ " فينصر المحق, ويوقع العقوبة على المبطل.

"قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ "
'قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ " وهم الأشراف, والكبراء منهم, الذين اتبعوا أهواءهم, ولهوا بلذاتهم. فلما أتاهم الحق, ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة, ردوه, واستكبروا عنه. فقالوا لنبيهم شعيب, ومن معه من المؤمنين المستضعفين : "لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ". استعملوا قوتهم السبعية, في مقابلة الحق, ولم يراعوا دينا, ولا ذمة, ولا حقا. وإنما راعوا, واتبعوا آهواءهم, وعقولهم السفيهة, التي دلتهم على هذا القول الفاسد. فقالوا: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنكم من قريتنا. فـ "شعيب" عليه الصلاة والسلام, كان يدعوهم,

طامعا في إيمانهم, والآن لم يسلم, حتى توعدوه إن لم يتابعهم - بالجلاء عن وطنه, الذي هو ومن معه أحق به منهم . 'قَالَ " لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجبا من قولهم: " أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ " أي: أنتابعكم على دينكم وملتكم الباطلة, ولو كنا كارهين لها لعلمنا ببطلانها, فإنما يدعى إليها, من له نوع رغبة فيها. أما من يعلن بالنهي عنها, والتشنيع على من اتبعها فكيف يدعى إليها؟!!

قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ "
'قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا " أي: اشهدوا علينا, أننا إن عدنا إليها بعد ما نجانا الله منها, وأنقذنا من شرها, أننا كاذبون مفترون على الله الكذب. فإننا نعلم, أنه لا أعظم افتراء, ممن جعل لله شريكا, وهو الواحد الأحد, الفرد الصمد, الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا, ولا شريكا في الملك . 'وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا " أي: يمتنع على مثلنا أن نعود فيها فإن هذا من المحال. فآيسهم عليه الصلاة والسلام, من كونه يوافقهم, من وجوه متعددة. من جهة أنهم كارهون لها, مبغضون لما هم عليه من الشرك. ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذبا, وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه, فإنهم كاذبون. ومنها: اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها. ومنها: أن عودتهم فيها - بعد ما هداهم الله - من المحالات, بالنظر إلى حالتهم الراهنة, وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى, والاعتراف له بالعبودية, وأنه الإله وحده, الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له, وأن آلهة المشركين, أبطل الباطل, وأمحل المحال. وحيث أن الله منَّ عليهم, بعقول يعرفون بها الحق والباطل, والهدى والضلال. وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله, وإرادته النافذة في خلقه, التي لا خروج لأحد عنها, ولو تواترت الأسباب, وتوافقت القوى, فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئا أو يتركونه. ولهذا استثنى 'وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا " أي: فلا يمكننا ولا غيرنا, الخروج عن مشيئته, التابعة لعلمه وحكمته. وقد 'وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا " فيعلم ما يصلح للعباد وما يدبرهم عليه. " عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا " أي: اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم, وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم, فإن من توكل على الله, كفاه, ويسر له أمر دينه ودنياه . 'رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ " أي: انصر المظلوم, وصاحب الحق, على الظالم المعاند للحق 'وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ " وفتحه تعالى لعباده, نوعان. فتح العلم, بتبيين الحق من الباطل, والهدى من الضلال, ومن هو المستقيم على الصراط, ممن هو منحرف عنه. والنوع الثاني: فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين, والنجاة والإكرام للصالحين. فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم, بالحق والعدل, وأن يريهم من آياته وعبره, ما يكون فاصلا بين الفريقين.

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ "
'وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ " محذرين عن اتباع شعيب . "لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ " هذا ما سولت لهم أنفسهم أن الخسارة والشقاء, في اتباع الرشد والهدى. ولم يدروا أن الخسارة كل الخسارة, في لزوم ما هم عليه من الضلال والإضلال, وقد علموا ذلك حين وقع بهم النكال.

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ "
'فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ " أي: الزلزلة الشديدة 'فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ " أي: صرعى ميتين, هامدين.

"الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ "
قال تعالى ناعيا حالهم " الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا " أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم, وكأنهم ما تمتعوا في عرصاتها, ولا تفيئوا في ظلالها, ولا غنوا في مسارح أنهارها, ولا أكلوا من ثمار أشجارها. فأخذهم العذاب, فنقلهم من مورد اللهو واللعب واللذات, إلى مستقر الحزن والشقاء, والعقاب; والدركات, ولهذا قال: " الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ " أي: الخسار محصور فيهم لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة, وذلك

هو الخسران المبين لا من قالوا لهم : "لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ".

 فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ "
فحين هلكوا, تولى عنهم نبيهم, عليه الصلاة والسلام 'وَقَالَ " معاتبا وموبخا ومخاطبا لهم بعد موتهم : "يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي " أي: أوصلتها إليكم, وبينتها حتى بلغت منكم, أقصى ما يمكن أن تصل إليه, وخالطت أفئدتكم 'وَنَصَحْتُ لَكُمْ " فلم تقبلوا نصحي, ولا انقدتم لإرشادي, بل فسقتم وطغيتم . 'فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ " أي: فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم, أتاهم الخير فردوه, ولم يقبلوه, ولا يليق بهم إلا الشر. فهؤلاء غير حقيقين أن يحزن عليهم, بل يفرح بإهلاكهم ومحقهم. فعياذا بك اللهم من الخزي والفضيحة, وأي شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم؟!!.

 وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ "
يقول تعالى : 'وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ " يدعوهم إلى عبادة اللّه, وينهاهم عن ما هم فيه من الشر, فلم ينقادوا له: " إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا " أي: ابتلاهم اللّه "بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ " أي: بالفقر, والمرض, وأنواع البلايا . "لَعَلَّهُمْ " إذا أصابتهم, خضعت نفوسهم "لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ " إلى اللّه, ويستكينون للحق.

 ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ "
"ثُمَّ " إذا لم يفد فيهم, واستمر استكبارهم, وازداد طغيانهم . "بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ 'فَأَدَرَّ عليهم الأرزاق, وعافى أبدانهم, ورفع عنهم البلايا . 'حَتَّى عَفَوْا " أي: كثروا, وكثرت أرزاقهم وانبسطوا في نعمة اللّه وفضله, ونسوا ما مر عليهم من البلايا . 'وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ " أي: هذه عادة جارية, لم تزل موجودة في الأولين واللاحقين, تارة يكونون في سراء وتارة في ضراء, وتارة في فرح, ومرة في ترح, على حسب تقلبات الزمان, وتداول الأيام. وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير, ولا للاستدراج والنكير. حتى إذا اغتبطوا, وفرحوا بما أوتوا, وكانت الدنيا, أسر ما كانت إليهم . 'فَأَخَذْنَاهُمْ " بالعذاب "بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ " أي لا يخطر لهم الهلاك على بال وظنوا أنهم قادرون على ما آتاهم اللّه, وأنهم غير زائلين ولا منتقلين عنه.

"وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ "
لما ذكر تعالى أن المكذبين للرسل, يبتلون بالضراء, موعظة وإنذارا وبالسراء, استدراجا ومكرا, ذكر أن أهل القرى, لو آمنوا بقلوبهم, إيمانا صادقا, صدقته الأعمال, واستعملوا تقوى اللّه تعالى, ظاهرا وباطنا, بترك جميع ما حرم اللّه - لفتح عليهم بركات من السماء والأرض. فأرسل السماء عليهم مدرارا, وأنبت لهم من الأرض, ما به يعيشون, وتعيش بهائمهم, في أخصب عيش, وأغزر رزق, من غير عناء ولا تعب, ولا كد ولا نصب. ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا 'فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ " بالعقوبات والبلايا, ونزع البركات, وكثرة الآفات, وهي بعض جزاء أعمالهم. وإلا, فلو آخذهم بجميع ما كسبوا, ما ترك على ظهرها من دابة .ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ".

"أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ"
" أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى " أي: المكذبة, بقرينة السياق " أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا " أي: عذابنا الشديد " بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ " أي: في غفلتهم, وغرتهم, وراحتهم.

"أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ "
" أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ " أي: أي شيء يؤمنهم من ذلك, وهم قد فعلوا أسبابه, وارتكبوا من الجرائم العظيمة, ما يوجب بعضه, الهلاك؟!.

"أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ "
"أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ" حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون, ويملي لهم, إن كيده متين . "فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ " فإن من أمن من عذاب اللّه, فإنه لم يصدق بالجزاء على الأعمال, ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان. وهذه الآية الكريمة, فيها من التخويف البليغ, على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمنا, على ما معه من الإيمان. بل لا يزال خائفا وجلا, أن يبتلى ببلية, تسلب ما معه من الإيمان, وأن لا يزال داعيا بقوله: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك". وأن يعمل ويسعى, في كل سبب يخلصه من الشر, عند وقوع الفتن, فإن العبد - ولو بلغت به الحال ما بلغت - فليس على يقين من السلامة.

"أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ "
يقول تعالى - منبها للأمم الغابرين بعد هلاك الأمم الغابرين " أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ " أي أو لم يتبين ويتضح, للأمم الذين ورثوا الأرض, بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم, ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين؟. أو لم يهتدوا أن اللّه, لو شاء لأصابهم بذنوبهم, فإن هذه سنة في الأولين والآخرين. وقوله : "وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ " أي: إذا نبههم اللّه, فلم ينتبهوا, وذكرهم, فلم يتذكروا, وهداهم بالآيات والعبر, فلم يهتدوا, فإن اللّه تعالى يعاقبهم, ويطبع على قلوبهم, فيعلوها الران والدنس, حتى يختم عليها, فلا يدخلها حق, ولا يصل إليها خير, ولا يسمعون ما ينفعهم, وإنما يسمعون, ما به تقوم الحجة عليهم.

"تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ "
"تِلْكَ الْقُرَى " الذين تقدم ذكرهم "نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا " ما يحصل به عبرة للمعتبرين, وازدجار للظالمين. وموعظة للمتقين . "وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ " أي: جاءت هؤلاء المكذبين رسلهم, تدعوهم إلى ما فيه سعادتهم, وأيدهم اللّه بالمعجزات الظاهرة, والبينات المبينات للحق, بيانا كاملا, ولكنهم لم يفدهم هذا, ولا أغنى عنهم شيئا . "فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ " أي: بسبب تكذيبهم, وردهم الحق أول مرة. ما كان يهديهم للإيمان, جزاء لهم على ردهم الحق, كما قال تعالى "وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ". "كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ " عقوبة منه. وما ظلمهم اللّه ولكنهم ظلموا أنفسهم.

"وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ "
"وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ " أي: وما وجدنا لأكثر الأمم, الذين أرسل اللّه إليهم الرسل من عهد, أي: من ثبات والتزام, لوصية اللّه, التي أوصى بها جميع العالمين, ولا انقادوا لأوامره, التي ساقها إليهم, على ألسنة رسله . "وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ " أي: خارجين عن طاعة اللّه, متبعين لأهوائهم, بغير هدى من اللّه. فاللّه تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل, وإنزال الكتب وأمرهم باتباع عهده وهداه. فلم يمتثل لأمره إلا القليل من الناس, الذين سبقت لهم من اللّه, سابقة السعادة. وأما أكثر الخلق, فأعرضوا عن الهدى, واستكبروا عما جاءت به الرسل, فأحل اللّه بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل.

"ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ "
أي: ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل, موسى الكليم, الإمام العظيم, والرسول الكريم, إلى قوم عتاة جبابرة, وهم فرعون وملأه, من أشرافهم وكبرائهم. فأراهم من آيات اللّه العظيمة ما لم يشاهد له نظير "فَظَلَمُوا بِهَا " بأن لم ينقادوا لحقها الذي من لم ينقد له, فهو ظالم, بل استكبروا عنها . "فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ " كيف أهلكهم اللّه, وأتبعهم الذم واللعنة, في الدنيا, ويوم القيامة, بئس الرفد المرفود, وهذا مجمل, فصله بقوله:

وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ "
'وَقَالَ مُوسَى " حين جاء إلى فرعون, يدعوه إلى الإيمان . "يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ " أي: إني رسول من مرسل عظيم, وهو رب العالمين, الشامل للعالم العلوي والسفلي, مربي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية, التي من جملتها, أنه لا يتركهم سدى, بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين. وهو الذي لا يقدر أحد, أن يتجرأ عليه, ويدعي أنه أرسله, ولم يرسله.

"حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ "
فإذا كان هذا شأنه, وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته, فحقيق علي أن لا أكذب عليه, ولا أقول عليه إلا الحق. فإني لو قلت غير ذلك, لعاجلني بالعقوبة, وأخذني أخذ عزيز مقتدر. فهذا موجب لأن ينقادوا له ويتبعوه, خصوصا وقد جاءهم ببينة من اللّه واضحة, على صحة ما جاء به من الحق فوجب عليهم, أن يعملوا بمقصود رسالته, ولها مقصودان عظيمان. إيمانهم به, واتباعهم له, وإرسال بني إسرائيل, الشعب الذي فضله اللّه على العالمين, أولاد الأنبياء, وسلسلة يعقوب عليه السلام, الذي موسى عليه الصلاة والسلام, واحد منهم.

قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ "
فقال له فرعون: " إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ".

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ "
'فَأَلْقَى عَصَاهُ " في الأرض 'فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ " أي: حية ظاهرة, تسعى, وهم يشاهدونها.

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ "
'وَنَزَعَ يَدَهُ " من جيبه 'فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ " من غير سوء. فهاتان آيتان كبيرتان, دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدقه, وأنه رسول رب العالمين. ولكن الذين لا يؤمنون, لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون, حتى يروا العذاب الأليم.

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ "
فلهذا 'قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ " - حين بهرهم ما رأوا من الآيات, ولم يؤمنوا, وطلبوا لها التأويلات الفاسدة-: " إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ " أي: ماهر في سحره.

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ "
ثم خوفوا ضعفاء الأحلام, وسفهاء العقول, بأنه : "يُرِيدُ "موسى بفعله هذا " أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ " أي: يريد أن يجليكم عن أوطانكم 'فَمَاذَا تَأْمُرُونَ " أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى, وما يندفع به ضرره بزعمهم عنهم. فإن ما جاء به, إن لم يقابل بما يبطله ويدحضه, وإلا دخل في عقول أكثر الناس.

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ "
فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن قالوا لفرعون: " أَرْجِهْ وَأَخَاهُ " أي: احبسهما, وأمهلهما, وابعث في المدائن أناسا, يحشرون أهل المملكة ويأتون بكل سحار عليم, أي: يجيئون بالسحرة المهرة, ليقابلوا ما جاء به موسى. فقالوا: يا موسى, اجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت, مكانا سوي . 'قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى "

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ "
وقال هنا 'وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ " طالبين منه الجزاء إن غلبوا 'قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ".

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ "
'قَالَ " فرعون : "نَعَمْ " لكم أجر 'وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ". فوعدهم الأجر والتقريب, وعلو المنزلة عنده, ليجتهدوا ويبذلوا وسعهم وطاقتهم, في مغالبة موسى.

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ "
فلما حضروا مع موسى, بحضرة الخلق العظيم , 'قَالُوا " على وجه التألي وعدم المبالاة, بما جاء به موسى : "يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ " ما معك 'وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ".

قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ "
'قَالَ " موسى: " أَلْقُوا " لأجل أن يرى الناس ما معهم, وما مع موسى . 'فَلَمَّا أَلْقَوْا " حبالهم وعصيهم, إذا هي من سحرهم, كأنها حيات تسعى. وبذلك 'سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ " لم يوجد له نظير من السحر.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ "
'وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ 'فَأَلْقَاهَا 'فَإِذَا هِيَ " حية تسعى, و "تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ " أي: يكذبون به ويموهون.

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "
'فَوَقَعَ الْحَقُّ " أي: تبين وظهر, واستعلن في ذلك المجمع . 'وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "

فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ "
'فَغُلِبُوا هُنَالِكَ " أي: في ذلك المقام . 'وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ " أي: حقيرين, قد اضمحل باطلهم, وتلاشى سحرهم, ولم يحصل لهم المقصود, الذي ظنوا حصوله. وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر, الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته, ما لا يعرفه غيرهم. فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات اللّه لا يدان لأحد بها.

وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ "
'وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ " أي: وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات.

"قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ "
'قَالَ "لَهُمْ 'فِرْعَوْنَ " متهددا لهم على الإيمان: " آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ". كان الخبيث حاكما مستبدا على الأديان والأقوال, قد تقرر عنده وعندهم, أن قوله هو المطاع, وأمره نافذ فيهم, ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه. وبهذه الحالة تنحط الأمم, وتضعف عقولها ونفوذها, وتعجز عن المدافعة عن حقوقها, ولهذا قال اللّه عنه : 'فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ " وقال هنا " آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ " أي: فهذا سوء أدب منكم وتجرؤ عَليَّ. ثم موه على قومه وقال: " إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ". أي: إن موسى كبيركم الذي علمكم السحر, فتواطأتم أنتم وهو, على أن تنغلبوا له, فيظهر, فتتبعوه, ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم, فتخرجوا منها أهلها. وهذا كذب يعلم هو, ومن سير الأحوال, أن موسى عليه الصلاة والسلام, لم يجتمع بأحد منهم, وأنهم جمعوا على نظر فرعون, ورسله. وأن ما جاء به موسى, آية إلهية, وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى, حتى عجزوا, وتبين لهم الحق, فاتبعوه. ثم توعدهم فرعون بقوله: " فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ " ما أحل بكم من العقوبة.

"لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ "
" لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ " زعم الخبيث أنهم مفسدون في الأرض, وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين, من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف, أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى . "ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ " في جذوع النخل, لتختزوا بزعمه " أَجْمَعِينَ " أي لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد, بل كل سيذوق هذا العذاب.

قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ "
فقال السحرة, الذين آمنوا, لفرعون حين تهددهم: " إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ " أي: فلا نبالي بعقوبتك, فاللّه خير وأبقى, فاقض ما أنت قاض.

وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ "
"وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا" أي: وما تعيب منا على إنكارك علينا, وتوعدك لنا؟ فليس لنا ذنب " إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا " فإن كان هذا ذنبا يعاب عليه, ويستحق صاحبه العقوبة, فهو ذنبنا. ثم دعوا اللّه أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا : "رَبَّنَا أَفْرِغْ " أي: أفض "عَلَيْنَا صَبْرًا " أي: عظيما, كما يدل عليه التنكير, لأن هذه محنة عظيمة, تؤدي إلى ذهاب النفس. فيحتاج فيها من الصبر, إلى شيء كثير, ليثبت الفؤاد, ويطمئن المؤمن على إيمانه, ويزول عنه الانزعاج الكثير . "وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ " أي: منقادين لأمرك, متبعين لرسولك. والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه, وأن اللّه تعالى ثبتهم على الإيمان.

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ "
هذا, وفرعون وملأه, وعامتهم المتبعون للملأ, قد استكبروا عن آيات اللّه, وجحدوا بها, ظلما وعلوا, وقالوا لفرعون مهيجين له على الإيقاع بموسى, وزاعمين أن ما جاء به باطل وفساد: " أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ " بالدعوة إلى اللّه, وإلى مكارم الأخلاق, ومحاسن الأعمال, التي هي الصلاح في الأرض, وما هم عليه هو الفساد, ولكن الظالمين لا يبالون بما يقولون . "وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ " أي يدعك أنت وآلهتك, وينهى عنك, ويصد الناس عن اتباعك . "قَالَ " فرعون مجيبا لهم, بأنه سيدع بني إسرائيل مع موسى, بحالة لا ينمون فيها, ويأمن فرعون وقومه - بزعمه - من ضررهم :"سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ " أي: نستبقيهن فلا نقتلهن, فإذا فعلنا ذلك, أمنا من كثرتهم, وكنا مستخدمين لباقيهم, ومسخرين لهم على ما نشاء من الأعمال . "وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ " لا خروج لهم عن حكمنا, ولا قدرة, وهذا نهاية الجبروت والعتو والقسوة من فرعون.

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ "
"قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ " موصيا لهم في هذه الحالة, التى لا يقدرون معها على شيء, ولا مقاومة إلا بالمقاومة الإلهية, والاستعانة الربانية: " اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ " أي: اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم, ودفع ما يضركم. وثقوا باللّه, أنه سيتم أمركم "وَاصْبِرُوا " أي: ألزموا الصبر على ما يحل بكم, منتظرين للفرج. " إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ " ليست لفرعون ولا لقومه, حتى يتحكموا فيها . "يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ " أي: يداولها بين الناس, على حسب مشيئته وحكمته. ولكن العاقبة للمتقين, فإنهم - وإن امتحنوا مدة ابتلاء من اللّه وحكمة - فإن النصر لهم . "وَالْعَاقِبَةُ " الحميدة "لِلْمُتَّقِينَ " على قومهم. وهذه وظيفة العبد, أنه عند القدرة, أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير, ما يقدر عليه, وعند العجز, أن يصبر ويستعين اللّه, وينتظر الفرج.

قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ "
"قَالُوا " لموسى متضجرين من طول ما مكثوا في عذاب فرعون, وأذيته: " أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا " فإنهم كانوا يسومونا سوء العذاب, يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا " وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا " كذلك . "قَالَ " لهم موسى, مرجيا لهم بالفرج والخلاص من شرهم: " عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ " أي: يمكنكم فيها, ويجعل لكم التدبير فيها "فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ " هل تشكرون أم تكفرون؟. وهذا وعد, أنجزه اللّه, لما جاء الوقت الذي أراده اللّه. قال اللّه تعالى - في بيان ما عامل به آل فرعون في هذه المدة الأخيرة. أنها على عادته وسنته في الأمم, أن يأخذهم بالبأساء والضراء, لعلهم يضرعون. الآيات:

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ "
'وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ " أي: بالدهور والجدب , 'وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ " أي: يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم, معاتبة من اللّه لهم, لعلهم يرجعون عن كفرهم. فلم ينجع فيهم ولا أفاد, بل استمروا على الظلم والفساد.

"فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ "
'فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ " أي: الخصب وإدرار الرزق . 'قَالُوا لَنَا هَذِهِ " أي: نحن مستحقون لها, فلم يشكروا اللّه عليها . 'وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ " ي: قحط وجدب "يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ " أي: يقولوا: إنما جاءنا, بسبب مجيء موسى, واتباع بنى إسرائيل له. قال اللّه تعالى " أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ " بقضائه وقدرته, ليس كما قالوا بل إن ذنوبهم وكفرهم, هو السبب في ذلك . 'وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " أي: فلذلك قالوا ما قالوا.

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ "
'وَقَالُوا " مبينين لموسى أنهم لا يزالون, ولا يزولون عن باطلهم . 'مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ " أي: قد تقرر عندنا, أنك ساحر, فمهما جئت بآية, جزمنا أنها سحر, فلا نؤمن لك, ولا نصدق. وهذا غاية ما يكون من العناد, أن يبلغ بالكافرين, إلى أن تستوي عندهم الحالات, سواء نزلت عليهم الآيات, أم لم تنزل.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ "
'فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ " أي: الماء الكثير, الذي أغرق أشجارهم وزروعهم, وأضرهم ضررا كثيرا . 'وَالْجَرَادَ " فأكل ثمارهم, وزروعهم, ونباتهم . 'وَالْقُمَّلَ " قيل: إنه الدباء, أي: صغار الجراد, والظاهر, أنه القمل المعروف 'وَالضَّفَادِعَ " فملأت أوعيتهم, وأقلقتهم, وآذتهم أذية شديدة . 'وَالدَّمَ " إما أن يكون الرعاف, أو كما قال كثير من المفسرين, أن ماءهم الذي يشربون, انقلب دما, فكانوا لا يشربون إلا دما, ولا يطبخون. " آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ " أي: أدلة وبينات, على أنهم كانوا كاذبين ظالمين, وعلى أن ما جاء به موسى, حق وصدق . 'فَاسْتَكْبَرُوا " لما رأوا الآيات 'وَكَانُوا " في سابق أمرهم 'قَوْمًا مُجْرِمِينَ ". فلذلك عاقبهم اللّه تعالى, بأن أبقاهم على الغي والضلال.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ "
'وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ " أي: العذاب, يحتمل أن المراد به: الطاعون, كما قاله كثير من المفسرين. ويحتمل أن يراد به, ما تقدم من الآيات, الطوفان, والجراد, والقمل, والضفادع, والدم, فإنها رجز وعذاب, وأنهم كلما أصابهم واحد منها . 'قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ " أي: تشفعوا بموسى بما عهد اللّه عنده, من الوحي والشرع. " لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ " وهم في ذلك كذبة لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب, وظنوا أنه إذا رفع لا يصيبهم غيره

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ "
'فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ " أي: إلى مدة قدر اللّه بقاءهم إليها, وليس كشفا مؤبدا, وإنما هو مؤقت. " إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ " العهد الذي عاهدوا عليه موسى, ووعدوه بالإيمان به, وإرسال بني إسرائيل. فلا آمنوا به, ولا أرسلوا معه بني إسرائيل, بل استمروا على كفرهم يعمهون, وعلى تعذيب بني إسرائيل دائبين.

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ "
'فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ " أي: حين جاء الوقت المؤقت لهلاكهم, أمر اللّه موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلا, وأخبره أن فرعون سيتبعهم هو وجنوده . 'فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ " يجمعون الناس, ليتبعوا بني إسرائيل, وقال لهم: " إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ

كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ". وقال هنا : "فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ " أي: بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عما دلت عليه من الحق.

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ "
"وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ " في الأرض, أي: بني إسرائيل, الذين كانوا خدمة لآل فرعون, يسومونهم سوء العذاب أورثهم الله "مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا " والمراد بالأرض ههنا, أرض مصر, التي كانوا فيها مستضعفين, أذلين أي: ملكهم الله جميعا, ومكنهم فيها " الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا " حين قال لهم موسى " اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ". "وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ " من الأبنية الهائلة, والمساكن المزخرفة "وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ " فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا, إن في ذلك لآية لقوم يعلمون.

"وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ "
"وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ " بعد ما أنجاهم الله من عدوهم فرعون وقومه, وأهلكهم الله, وبنوا إسرائيل ينظرون . "فَأَتَوْا " أي: مروا "عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ " أي: يقيمون عندها ويتبركون بها, ويعبدونها . "قَالَ " لهم موسى: " إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ " وأي جهل أعظم من جهل الإنسان, ربه وخالقه وأراد أن يسوي به غيره, ممن لا يملك نفعا ولا ضرا, ولا موتا, ولا حياة, ولا نشورا؟!!.

"إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "
ولهذا قال لهم موسى " إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ", لأن دعاءهم إياها باطل, وهي باطلة بنفسها, فالعمل باطل, وغايته باطلة.

قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ "
"قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا " أي: أطلب لكم إلها غير الله المألوه, الكامل في ذاته, وصفاته, وأفعاله . "وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ " فيقتضي أن تقابلوا فضله, وتفضيله, بالشكر. وذلك بإفراد الله وحده, بالعبادة, والكفر بما يدعي من دونه . "قَالُوا " مع جهلهم وسفههم, لنبيهم موسى, بعد ما أراهم الله من الآيات ما أراهم . "يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ " أي: اشرع لنا, أن نتخذ أصناما آلهة, كما اتخذها هؤلاء.

وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ "
ثم ذكرهم بما امتن الله به عليهم, فقال : "وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ " أي: من فرعون وآله . "يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ " أي: يوجهون إليكم من العذاب أسوأه وهو أنهم كانوا " يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ " أي: النجاة من عذابهم "بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ " أي: نعمة جليلة, ومنحة جزيلة. أو في ذلك العذاب الصادر منهم لكم, بلاء من ربكم عليكم عظيم. فلما ذكرهم موسى ووعظهم, انتهوا عن ذلك.

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ "
ولما أتم الله نعمته عليهم, بالنجاة من عدوهم, وتمكينهم في الأرض, أراد تبارك وتعالى, أن يتم نعمته عليهم, بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعية, والعقائد المرضية. فواعد موسى ثلاثين ليلة, وأتمها بعشر, فصارت أربعين ليلة, ليستعد موسى, ويتهيأ لوعد الله,

ويكون لنزولها, موقع كبير لديهم, وتشوق إلى إنزالها. ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه, قال لهرون - موصيا له على بني إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته:- " اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي " أي: كن خليفتي فيهم, واعمل فيهم, بما كنت أعمل . "وَأَصْلَحَ " أي: اتبع طريق الصلاح "وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ " وهم الذين يعملون بالمعاصي.

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ "
"وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا " الذي وقتناه له لإنزال الكتاب "وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ " بما كلمه, من وحيه, وأمره, ونهيه, تشوق إلى رؤية اللّه, ونزعت نفسه لذلك, حبا لربه, واشتياقا لرؤيته.
"قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ " اللَّهِ "لَنْ تَرَانِي " أي: لن تقدر الآن على رؤيتي, فإن اللّه تبارك وتعالى, أنشأ الخلق في هذه الدار, على نشأة لا يقدرون بها, ولا يثبتون لرؤية اللّه. وليس في هذا, دليل على أنهم لا يرونه في الجنة. فإنه قد دلت النصوص القرآنية, والأحاديث النبوية, على أن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى, ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم, وأنه ينشئهم نشأة كاملة, يقدرون معها على رؤية اللّه تعالى. ولهذا رتب اللّه الرؤية في هذه الآية, على ثبوت الجبل, فقال - مقنعا لموسى في عدم إجابته للرؤية -: "وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ " إذا تجلى اللّه له "فَسَوْفَ تَرَانِي ". " فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ " الأصم الغليظ "جَعَلَهُ دَكًّا " أي: انهال مثل الرمل, انزعاجا من رؤية اللّه وعدم ثبوته لها . "وَخَرَّ مُوسَى " حين رأى ما رأى "صَعِقًا " أي: مغشيا عليه. " فَلَمَّا أَفَاقَ " تبين له حينئذ, أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية اللّه, فموسى أولى أن لا يثبت لذلك. واستغفر ربه, لما صدر منه من السؤال, الذي لم يوافق, موضعا, ولذلك : "قَالَ سُبْحَانَكَ " أي: تنزيها لك, وتعظيما عما لا يليق بجلالك . "تُبْتُ إِلَيْكَ " من جميع الذنوب, وسوء الأدب معك . "وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ " أي: جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه, بما كمل اللّه له, مما كان يجهله قبل ذلك, فلما منعه اللّه من رؤيته - بعد ما كان متشوقا إليها - أعطاه خيرا كثيرا فقال:

"قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ "
"يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ " أي: اخترتك واجتبيتك, وفضلتك, وخصصتك بفضائل عظيمة, ومناقب جليلة . "بِرِسَالَاتِي " التي لا أجعلها, ولا أخص بها, إلا أفضل الخلق . "وَبِكَلَامِي " إياك من غير واسطة, وهذه فضيلة, اختص بها موسى الكليم, وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين . "فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ " من النعم, وخذ ما آتيتك, من الأمر والنهي, بانشراح صدر, وتلقه بالقبول والانقياد . "وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ " لله, على ما خصك وفضلك.

وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ "
"وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ " يحتاج إليه العباد "مَوْعِظَةً " ترغب النفوس في أفعال الخير, وترهبهم من أفعال الشر . "وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ " من الأحكام الشرعية, والعقائد, والأخلاق, والآداب . "فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ " أي: بجد واجتهاد على إقامتها . "وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا " وهي الأوامر الواجبة, والمستحبة, فإنها أحسنها. وفي هذا دليل, على أن أوامر اللّه - في كل شريعة - كاملة, عادلة, حسنة . "سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ " بعد ما أهلكهم اللّه, وأبقى ديارهم عبرة بعدهم, يعتبر بها المؤمنون الموفقون المتواضعون.

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ "
وأما غيرهم, فقال عنهم "سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ " أي عن الاعتبار في آيات الأفقية, والنفسية, والفهم لآيات الكتاب " الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ". أي: يتكبرون على عباد اللّه, وعلى الحق, وعلى من جاء به. فمن كان بهذه الصفة, حرمه اللّه خيرا

كثيرا, وخذله, ولم يفقه من آيات اللّه, ما ينتفع به. بل ربما انقلبت عليه الحقائق, واستحسن القبيح . "وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا " لإعراضهم, واعتراضهم, ومحادتهم للّه ورسوله . "وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ " أي: الهدى والاستقامة, وهو الصراط الموصل إلى اللّه, وإلى دار كرامته. " لَا يَتَّخِذُوهُ " أي لا يسلكوه ولا يرغبوا فيه سَبِيلًا ". "وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ " أي: الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء "يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ". والسبب في انحرافهم هذا الانحراف "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ". فردهم لآيات اللّه, وغفلتهم عما يراد بها, واحتقارهم لها - هو الذي أوجب لهم من سلوك طريق الغي, وترك طريق الرشد, ما أوجب.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "
"وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا " العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا . "وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ " لأنها على غير أساس, وقد فقد شرطها وهو, الإيمان بآيات اللّه والتصديق بجزائه . "هَلْ يُجْزَوْنَ " في بطلان أعمالهم, وحصول ضد مقصودهم " إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " فإن أعمال من لا يؤمن باليوم الآخر لا يرجو فيها ثوابا, وليس لها غاية تنتهي إليها, فلذلك اضمحلت وبطلت.

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ "
"وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا " صاغه السامري وألقى عليه قبضة من أثر الرسول فصار "لَهُ خُوَارٌ " وصوت فعبدوه, واتخذوه إلها . "فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى " فنسى موسى, وذهب يطلبه. وهذا من سفههم, وقلة بصيرتهم. كيف اشتبه عليهم, رب الأرض والسماوات, بعجل من أنقص المخلوقات؟!! ولهذا قال - مبينا أنه ليس فيه من الصفات الذاتية, ولا الفعلية, ما يوجب أن يكون إلها. " أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ " أي: وعدم الكلام, نقص عظيم, فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد, الذي لا يتكلم "وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا " أي لا يدلهم طريقا دينيا, ولا يحصل لهم مصلحة دنيوية. لأن من المتقرر في العقول والفطر, أن اتخاذ إله لا يتكلم, ولا ينفع, ولا يضر, من أبطل الباطل, وأسمج السفه, ولهذا قال: " اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ " حيث وضعوا العبادة في غير موضعها, وأشركوا باللّه, ما لم ينزل به سلطانا. وفيها دليل على أن من أنكر كلام اللّه, فقد أنكر خصائص إلهية اللّه تعالى. لأن اللّه ذكر, أن عدم الكلام, دليل على عدم صلاحية الذي لا يتكلم, للإلهية.

وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ "
"وَلَمَّا " رجع موسى إلى قومه, فوجدهم على هذه الحال, وأخبرهم بضلالهم, ندموا " سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ " أي: من الهم والندم على فعلهم . "وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا " فتنصلوا, إلى اللّه وتضرعوا "قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا " فيدلنا عليه, ويرزقنا عبادته, ويوفقنا لصالح الأعمال . "وَيَغْفِرْ لَنَا " ما صدر منا من عبادة العجل . "لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ " الذين خسروا الدنيا والآخرة.

"وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ "
"وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا " أي: ممتلئا غضبا وغيظا عليهم, لتمام غيرته, عليه السلام, وكمال نصحه وشفقته . "قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي " أي: بئس الحالة التي خلفتموني بها من بعد ذهابي عنكم, فإنها حالة تفضي إلى الهلاك الأبدي, والشقاء السرمدي. " أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ " حيث وعدكم بإنزال الكتاب. فبادرتم - برأيكم الفاسد - إلى هذه الخصلة القبيحة . "وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ " أي: رماها من الغضب "وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ " هرون ولحيته "يَجُرُّهُ إِلَيْهِ " وقال له : "مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ". "قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ".

و 'قَالَ " هنا " ابْنَ أُمَّ " هذا ترقيق لأخيه, بذكر الأم وحدها. وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه: " إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي " أي: احتقروني حين قلت لهم : "يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي " 'وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي " أي: فلا تظن بي تقصيراً 'فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ " بنهرك لي, ومسكك إياي بسوء. فإن الأعداء, حريصون على أن يجدوا عليَّ عثرة, أو يطلعوا لي على زلة . 'وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " فتعاملني معاملتهم. فندم موسى عليه السلام, على ما استعجل من صنعه بأخيه, قبل أن يعلم براءته, مما ظنه فيه من التقصير.

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ "
و 'قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي " هرون 'وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ " أي: في وسطها, واجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب, فإنها حصن حصين, من جميع الشرور, وثم كل الخير وسرور . 'وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ " أي: أرحم بنا من كل راحم, أرحم بنا, من آبائنا, وأمهاتنا, وأولادنا, وأنفسنا.

"إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ "
قال اللّه تعالى - مبينا حال أهل العجل الذين عبدوه: " إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ " أي: إلها " سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا " كما اغضبوا ربهم واستهانوا بأمره. " وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ " فكل مفتر على اللّه, كاذب على شرعه, متقول عليه ما لم يقل, فإن له نصيبا من الغضب, من اللّه, والذل في الحياة الدنيا. وقد نالهم غضب اللّه, حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم, وأنه لا يرضى اللّه عنهم إلا بذلك. فقتل بعضهم بعضا, وانجلت المعركة, عن كثير من القتلى ثم تاب اللّه عليهم بعد ذلك.

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ "
ولهذا ذكر حكما عاما يدخلون فيه وغيرهم فقال : 'وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ " من شرك, وكبائر, وصغائر "ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا " بأن ندموا على ما مضى, وأقلعوا عنه, وعزموا على أن لا يعودوا 'وَآمِنُوا " باللّه, وبما أوجب اللّه من الإيمان به. ولا يتم الإيمان, إلا بأعمال القلوب, وأعمال الجوارح المترتبة على الإيمان, " إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا " أي: بعد هذه الحالة, حالة التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات . "لَغَفُورٌ " يغفر السيئات ويمحوها, ولو كانت ملء قراب الأرض . 'رَحِيمٌ " بقبول التوبة, والتوفيق لأفعال الخير وقبولها.

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ "
'وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ " أي: سكن غضبه, وتراجعت نفسه, وعرف ما هو فيه, اشتغل بأهم الأشياء عنده. فـ " أَخَذَ الْأَلْوَاحَ " التي ألقاها, وهي ألواح عظيمة المقدار, جليلة 'وَفِي نُسْخَتِهَا " أي: مشتملة ومتضمنة 'هُدًى وَرَحْمَةً " أي: فيها الهدى من الضلالة, وبيان الحق من الباطل, وأعمال الخير, وأعمال الشر, والهدى لأحسن الأعمال, والأخلاق, والآداب, ورحمة وسعادة, لمن عمل بها, وعلم أحكامها ومعانيها, ولكن ليس كل أحد يقبل هدى اللّه ورحمته. وإنما يقبل ذلك وينقاد له, ويتلقاه بالقبول "لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ " أي: يخافون منه ويخشونه. وأما من لم يخف اللّه, ولا المقام بين يديه, فإنه لا يزداد بها, إلا عتوا ونفورا, وتقوم عليه حجة اللّه فيها.

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ "
و لما تاب بنو إسرائيل وتراجعوا إلى رشدهم 'وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ " أي: منهم سُبْعِينَ رَجُلًا " من خيارهم, ليعتذروا لقومهم عند ربهم, ووعدهم اللّه ميقاتا يحضرون فيه. فلما حضروه, قالوا: يا موسى " أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً " فتجرأوا على اللّه جراءة كبيرة, وأساءوا الأدب معه: فـ " أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ " فصعقوا وهلكوا. فلم يزل موسى عليه الصلاة والسلام, يتضرع إلى اللّه ويتبتل 'قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ " أن يحضروا ويكونون في

حالة يعتذرون فيها لقومهم, فصاروا هم الظالمين . 'وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا " أي: ضعفاء العقول, سفهاء الأحلام, فتضرع إلى اللّه, واعتذر بأن المتجرئين على اللّه, ليس لهم عقول كاملة, تردعهم عما قالوا وفعلوا, وبأنهم حصل لهم فتنة يخطر بها الإنسان, ويخاف من ذهاب دينه فقال: " إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ " أي: أنت خير من غفر, وأولى من رحم, وأكرم من أعطى, وتفضل. فكأن موسى عليه الصلاة والسلام, قال: المقصود يا رب بالقصد الأول لنا كلنا, هو التزام طاعتك, والإيمان بك, وأن من حضره عقله ورشده, وتم على ما وهبته من التوفيق, فإنه لم يزل مستقيما. وأما من ضعف عقله, وسفه رأيه, وصرفته الفتنة, فهو الذي فعل ما فعل, لذينك السببين. ومع هذا, فأنت أرحم الراحمين, وخير الغافرين, فاغفر لنا وارحمنا. فأجاب اللّه سؤاله, وأحياهم من بعد موتهم, وغفر لهم ذنوبهم.

"وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ "

وقال موسى في تمام دعائه 'وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً " من علم نافع, ورزق واسع, وعمل صالح . 'وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ", وهي ما أعد اللّه لأوليائه الصالحين من الثواب. " إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ " أي: رجعنا مقرين بتقصيرنا, منيبين في جميع أمورنا . 'قَالَ " اللّه تعالى 'عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ " ممن كان شقيا, متعرضا لأسبابه . 'وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ " من العالم العلوي والسفلي, البر والفاجر, المؤمن والكافر. فلا مخلوق, إلا قد وصلت إليه رحمة اللّه, وغمره فضله وإحسانه. ولكن الرحمة الخاصة, المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة, ليست لكل أحد. ولهذا قال عنها : 'فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ " المعاصي, صغارها, وكبارها . 'وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ " الواجبة مستحقيها 'وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ". ومن تمام الإيمان بآيات اللّه, معرفة معناها, والعمل بمقتضاها. ومن ذلك اتباع النبي صلى الله عليه وسلم, ظاهرا وباطنا, في أصول الدين, وفروعه.

"الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "

" الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ " احتراز عن سائر الأنبياء, فإن المقصود بهذا, محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم. والسياق في أحوال بني إسرائيل وأن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم, شرط في دخولهم في الإيمان, وأن المؤمنين به, المتبعين, هم أهل الرحمة المطلقة, التي كتبها اللّه لهم. ووصفه بالأمي, لأنه من العرب, الأمة الأمية, التي لا تقرأ ولا تكتب, وليس عندها قبل القرآن كتاب. " الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ " باسمه وصفته, التي من أعظمها وأجلها, ما يدعو إليه, وينهى عنه. وأنه "يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ " وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه, ونفعه . 'وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ " وهو: كل ما عرف قبحه في العقول, والفطر. فيأمرهم بالصلاة, والزكاة, والصوم, والحج, وصلة الأرحام, وبر الوالدين, والإحسان إلى الجار, والمملوك, وبذل النفع لسائر الخلق, والصدق, والعفاف, والبر, والنصيحة, وما أشبه ذلك. وينهى عن الشرك باللّه, وقتل النفوس بغير حق, والزنا, وشرب ما يسكر العقل, والظلم لسائر الخلق, والكذب, والفجور, ونحو ذلك. فأعظم دليل يدل على أنه رسول اللّه, ما دعا إليه, وأمر به, ونهى عنه, وأحله, وحرمه. فإنه 'وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ " من المطاعم, والمشارب, والمناكح . 'وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ " من المطاعم, والمشارب, والمناكح, والأقوال, والأفعال . 'وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ " أي: ومن وصفه أن دينه, سهل سمح ميسر لا إصر فيه, ولا أغلال, ولا مشقات, ولا تكاليف ثقال . 'فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ " أي: عظموه وبجلوه 'وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ " وهو القرآن, الذي يستضاء به في ظلمات الشك والجهالات ويقتدى به, إذا تعارضت المقالات. " أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " الظافرون, بخير الدنيا والآخرة, والناجون من شرهما. لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح. وأما من لم يؤمن بهذا النبي الأمي, ويعزره, وينصره, ولم يتبع النور الذي أنزل

معه, فأولئك هم الخاسرون. ولما دعا أهل التوراة من بني إسرائيل, إلى اتباعه, وكان ربما توهم متوهم, أن الحكم مقصور عليهم, أتى بما يدل على العموم فقال:

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ "

'قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا " أي: عربيكم, وعجميكم, أهل الكتاب فيكم, وغيرهم. " الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " يتصرف فيها بأحكامه الكونية والتدابير السلطانية, وبأحكامه الشرعية الدينية, التي من جملتها: أن أرسل إليكم رسولا عظيما. يدعوكم إلى اللّه, وإلى دار كرامته. ويحذركم من كل ما يباعدكم منه, ومن دار كرامته. " لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ " أي لا معبود بحق, إلا اللّه وحده لا شريك له, ولا تعرف عبادته إلا من طريق رسله . "يُحْيِي وَيُمِيتُ " أي: من جملة تدابيره: الإحياء والإماتة, التي لا يشاركه فيها أحد. وقد جعل اللّه الموت, جسرا, ومعبرا, يعبر الإنسان منه إلى دار البقاء, التي من آمن بها, صدق الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم, قطعا . 'فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ " إيمانا في القلب, متضمنا لأعمال القلوب والجوارح. " الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ", أي: آمنوا بهذا الرسول المستقيم في عقائده, وأعماله . 'وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ " في مصالحكم الدينية والدنيوية, فإنكم إذا لم تتبعوه, ضللتم ضلالا بعيدا.

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ "

'وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ " أي: جماعة "يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ " أي: يهدون الناس في تعليمهم إياهم, وفتواهم لهم, ويعدلون به في الحكم بينهم, في قضاياهم, كما قال تعالى " وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ". وفي هذا فضيلة لأمة موسى, عليه الصلاة والسلام, وأن اللّه تعالى, جعل منهم هداة يهدون بأمره. وكان الإتيان بهذه الآية الكريمة, فيه نوع احتراز مما تقدم. فإنه تعالى, ذكر فيما تقدم, جملة من معايب بني إسرائيل, المنافية لكمال المناقضة للهداية. فربما توهم متوهم, أن هذا يعم جميعهم, فذكر تعالى, أن منهم طائفة مستقيمة هادية مهدية.

"وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ "

'وَقَطَّعْنَاهُمُ " أي: قسمناهم " اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا " أي: اثنتي عشرة قبيلة, متعارفة, متوالفة, كل بني رجل من أولاد يعقوب, قبيلة . 'وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ " أي: طلبوا منه أن يدعو اللّه تعالى, أن يسقيهم ما يشربون منه, وتشرب منه مواشيهم. وذلك لأنهم - واللّه أعلم - في محل قليل الماء. فأوحى اللّه لموسى, إجابة لطلبتهم " أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ " يحتمل أنه حجر معين. ويحتمل أنه اسم جنس, يشمل أي حجر كان. فضربه, 'فَانْبَجَسَتْ " أي: انفجرت من ذلك الحجر " اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا " جارية سارحة . 'قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ " أي: قد قسم على كل قبيلة من تلك القبائل الاثنتي عشرة, وجعل لكل منهم عينا, فعلموها, واطمأنوا, واستراحوا من التعب والمزاحمة, وهذا من تمام نعمة اللّه عليهم . 'وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ " فكن يسترهم من حر الشمس . 'وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ " وهو الحلوى . 'وَالسَّلْوَى " وهو لحم طير, من أحسن أنواع الطيور, وألذها. فجمع اللّه لهم, بين الظلال, والشراب, والطعام الطيب, من الحلوى واللحوم, على وجه الراحة والطمأنينة. وقيل لهم : "كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا " حين لم يشكروا اللّه, ولم يقوموا بما أوجب اللّه عليهم . 'وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " حيث فوتوها كل خير, وعرضوها للشر والنقمة, وهذا كان مدة لبثهم في التيه.

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ "

'وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ " أي: ادخلوها لتكون وطنا لكم ومسكنا, وهي "إيلياء" "

وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ " أي: قرية كانت كثيرة الأشجار, غزيرة الثمار, رغيدة العيش, فلذلك أمرهم اللّه أن يأكلوا منها حيث شاءوا . "وَقُولُوا " حين تدخلون الباب : "حِطَّةٌ " أي: احطط عنا خطايانا, واعف عنا . "وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا " أي: خاضعين لربكم, مستكينين لعزته, شاكرين لنعمته. فأمرهم بالخضوع, وسؤال المغفرة, ووعدهم على ذلك, مغفرة ذنوبهم والثواب العاجل والآجل فقال : "نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ " من خير الدنيا والآخرة. فلم يمتثلوا هذا الأمر الإلهي, بل خالفوا.

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ "
"فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ " أي: عصوا اللّه واستهانوا بأمره "قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ " فقالوا, بدل طلب المغفرة, وقولهم "حطة", "حبة في شعيرة". وإذا بدلوا القول - مع يسره وسهولته - فتبديلهم للفعل من باب أولى. ولهذا دخلوا يزحفون على أستاههم. " فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ " حين خالفوا أمر اللّه وعصوه "رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ " أي: عذابا شديدا, إما الطاعون وإما غيره, من العقوبات السماوية. وما ظلمهم اللّه بعقابه, وإنما كان ذلك "بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ".

وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ "
"وَاسْأَلْهُمْ " أي: اسأل بني إسرائيل "عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ " أي: على ساحله, في حال تعديهم وعقاب اللّه إياهم. " إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ " وكان اللّه تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه ولا يصيدوا فيه صيدا, فابتلاهم اللّه, وامتحنهم. فكانت " تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا " أي: كثيرة طافية على وجه البحر . "وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ " أي: إذا ذهب يوم السبت " لَا تَأْتِيهِمْ " أي: تذهب في البحر, فلا يرون منها شيئا "كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ". ففسقهم, هو الذي أوجب أن يبتليهم اللّه, وأن تكون لهم هذه المحنة. وإلا, فلو لم يفسقوا, لعافاهم اللّه, ولما عرضهم للبلاء والشر. فتحيلوا على الصيد, فكانوا يحفرون لها حفرا, وينصبون لها الشباك. فإذا جاءت يوم السبت, ووقعت في تلك الحفر والشباك, لم يأخذوها في ذلك اليوم. فإذا جاء يوم الأحد, أخذوها, وكثر فيهم ذلك,

"وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ "
وانقسموا ثلاث فرق. معظمهم, اعتدوا وتجرأوا, وأعلنوا بذلك. وفرقة أعلنت بنهيهم, والإنكار عليهم. وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم, ونهيهم لهم وقالوا : "لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا " كأنهم يقولون لا فائدة في وعظ من اقتحم محارم اللّه, ولم يصغ للنصيح, بل استمر على اعتدائه وطغيانه, فإنه لابد أن يعاقبهم اللّه, إما بهلاك, أو عذاب شديد. فقال الواعظون: نعظهم وننهاهم "مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ " أي: لنعذر فيهم . "وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ " أي: يتركون ما هم فيه من المعصية, فلا نيأس من هدايتهم, فربما نجح فيهم الوعظ, وأثر فيهم اللوم. وهذا هو المقصود الأعظم, من إنكار المنكر, ليكون معذرة, وإقامة حجة على المأمور المنهي, ولعل اللّه أن يهديه, فيعمل بمقتضى ذلك الأمر, والنهي.

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ "
"فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ " أي: تركوا ما ذكروا به, واستمروا على غيهم واعتدائهم. " أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ " وهكذا سنة اللّه في عباده, أن العقوبة إذا نزلت, نجا منها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر . "وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا " وهم الذين اعتدوا في السبت "بِعَذَابٍ بَئِيسٍ " أي: شديد "بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ". وأما الفرقة الأخرى التي قالت للناهين "لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ". فاختلف المفسرون في نجاتهم, وهلاكهم. والظاهر, أنهم كانوا من الناجين, لأن اللّه خص الهلاك بالظالمين, وهو لم يذكر, أنهم ظالمون. فدل على أن العقوبة, خاصة بالمعتدين في السبت. ولأن الأمر بالمعروف,

والنهي عن المنكر, فرض كفاية. إذا قام به البعض, سقط عن الآخرين, فاكتفوا بإنكار أولئك. ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم "لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا " فأبدوا من غضبهم عليهم, ما يقتضي أنهم كارهون أشد الكراهة, لفعلهم, وأن اللّه سيعاقبهم أشد العقوبة.

"فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ "
"فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ " أي: قسوا فلم يلينوا, ولا اتعظوا . "قُلْنَا لَهُمْ " قولا قدريا, " كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ " فانقلبوا بإذن اللّه قردة, وأبعدهم اللّه من رحمته. ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقي منهم فقال:

"وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ "
"وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ " أي: أعلم إعلاما, صريحا . "لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ " أي: يهينهم, ويذلهم. " إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ " لمن عصاه, حتى إنه يعجل له العقوبة في الدنيا . "وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ " لمن تاب إليه وأناب, يغفر له الذنوب, ويستر عليه العيوب, ويرحمه, بأن يتقبل منه الطاعات, ويثيبه عليها بأنواع المثوبات. وقد فعل اللّه بهم ما وعدهم به, فلا يزالون في ذل وإهانة, تحت حكم غيرهم لا تقوم لهم راية, ولا ينصر لهم عَلَمٌ.

"وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ "
"وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا " أي: فرقناهم ومزقناهم في الأرض, بعد ما كانوا مجتمعين. "مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ " القائمون بحقوق اللّه, وحقوق عباده . "وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ " أي: دون الصلاح, إما مقتصدون, وإما الظالمون لأنفسهم . "وَبَلَوْنَاهُمْ " على عادتنا وسنتنا, " بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ " أي: باليسر والعسر . "لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " عما هم عليه مقيمون, من الردى, ويراجعون ما خلقوا له من الهدى, فلم يزالوا بين صالح, وطالح, ومقتصد.

"فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ "
"فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ " زاد شرهم "وَرِثُوا " بعدهم " الْكِتَابُ " وصار المرجع فيه إليهم, وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم, وتبذل لهم الأموال, ليفتوا ويحكموا, بغير الحق, وفشت فيهم الرشوة . "يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ " مقرين بأنه ذنب وأنهم ظلمة : "سَيُغْفَرُ لَنَا " وهذا قول خال من الحقيقة, فإنه ليس استغفارا وطلبا للمغفرة على الحقيقة. فلو كان ذلك, لندموا على ما فعلوا, وعزموا على أن لا يعودوا. ولكنهم - إذا أتاهم عرض آخر, ورشوة أخرى - يأخذونه. فاشتروا بآيات اللّه ثمنا قليلا, واستبدلوا الذي هو أدنى, بالذي هو خير. قال اللّه تعالى - في الإنكار عليهم, وبيان جراءتهم-: " أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ". فما بالهم يقولون عليه غير الحق, اتباعا لأهوائهم, وميلا مع مطامعهم. والحال أنهم قد "وَدَرَسُوا مَا فِيهِ " فليس عليهم فيه إشكال, بل قد أتوا أمرهم متعمدين, وكانوا في أمرهم مستبصرين. وهذا أعظم للذنب, وأشد للوم, وأشنع للعقوبة. وهذا من نقص عقولهم, وسفاهة رأيهم, بإيثار الحياة الدنيا على الآخرة, ولهذا قال : "وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ " ما حرم اللّه عليهم, من المآكل التي تصاب, وتؤكل رشوة على الحكم, بغير ما أنزل اللّه, وغير ذلك من أنواع المحرمات. " أَفَلَا تَعْقِلُونَ " أي: أفلا تكون لكم عقول توازن بين ما ينبغي إيثاره, وما ينبغي الإيثار عليه, وما هو أولى بالسعي إليه, والتقديم له على غيره. فخاصية العقل, النظر للعواقب. وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع, يفوت نعيما عظيما باقيا فأنى له العقل والرأي؟!!.

"وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ "
وإنما العقلاء حقيقة, من وصفهم اللّه بقوله "وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ " أي: يتمسكون

به علما وعملا, فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار, التي علمها, أشرف العلوم. ويعلمون بما فيها من الأوامر, التي هي قرة العيون, وسرور القلوب, وأفراح الأرواح, وصلاح الدنيا والآخرة. ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات, إقامة الصلاة, ظاهرا وباطنا. ولهذا خصها بالذكر لفضلها, وشرفها, وكونها ميزان الإيمان. وإقامتها, داعية لإقامة غيرها من العبادات. ولما كان عملهم كله إصلاحا, قال تعالى: " إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ " في أقوالهم وأعمالهم, ونياتهم, مصلحين, لأنفسهم, ولغيرهم. وهذه الآية, وما أشبهها, دلت على أن اللّه بعث رسله, عليهم الصلاة والسلام, بالصلاح لا بالفساد, وبالمنافع لا بالمضار, وأنهم بعثوا, بصلاح الدارين, فكل من كان أصلح, كان أقرب إلى اتباعهم.

"وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ "
ثم قال تعالى "وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ " حين امتنعوا من قبول ما في التوراة. فألزمهم اللّه العمل ونتق فوق رءوسهم الجبل, فصار فوقهم "كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ " وقيل لهم "خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ " أي: بجد واجتهاد . "وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ " دراسة ومباحثة, واتصافا بالعمل "لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " إذا فعلتم ذلك.

"وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ "
يقول تعالى : "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ " أي: أخرج من أصلابهم, ذريتهم, وجعلهم يتناسلون, ويتوالدون, قرنا بعد قرن. وحين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم "وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ " أي: قررهم, بإثبات ربوبيته, بما أودعه في فطرهم, من الإقرار, بأنه ربهم, وخالقهم, ومليكهم. قالوا: "بلى" قد أقررنا بذلك, فإن اللّه تعالى, فطر عباده على الدين الحنيف القيم. فكل أحد, فهو مفطور على ذلك, ولكن الفطرة قد تغير, وتبدل, بما يطرأ على العقول من العقائد الفاسدة, ولهذا " قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ". أي: إنما امتحناكم, حتى أقررتم, بما تقرر عندكم, من أن اللّه تعالى, ربكم, خشية أن تنكروا يوم القيامة, فلا تقروا بشيء من ذلك, وتزعمون أن حجة اللّه, ما قامت عليكم, ولا عندكم بها علم, بل أنتم غافلون عنها لاهون. فاليوم, قد انقطعت حجتكم, وثبتت الحجة البالغة للّه, عليكم.

"أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ "
أو تحتجون أيضا بحجة أخرى, فتقولون: " إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ " فحذونا حذوهم, وتبعناهم في باطلهم. " أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ", فقد أودع اللّه في فطركم, ما يدلكم على أن ما مع آبائكم, باطل, وأن الحق ما جاءت به الرسل, وهذا يقاوم ما وجدتم عليه آباءكم, ويعلو عليه. نعم قد يعرض للعبد من أقوال آبائه الضالين, ومذاهبهم الفاسدة, ما يظنه هو الحق, وما ذاك إلا لإعراضه, عن حجج اللّه وبيناته, وآياته الأفقية, والنفسية. فإعراضه ذلك, وإقباله على ما قاله المبطلون, ربما صيره بحالة يفضل بها الباطل على الحق. هذا هو الصواب في تفسير هذه الآيات. وقد قيل: إن هذا يوم أخذ اللّه الميثاق على ذرية آدم, حين استخرجهم من ظهره, وأشهدهم على أنفسهم, فشهدوا بذلك. فاحتج عليهم بما أمرهم به في ذلك الوقت, على ظلمهم, في كفرهم, وعنادهم في الدنيا والآخرة. ولكن ليس في الآية, ما يدل على هذا, ولا له مناسبة, ولا تقتضيه حكمة اللّه تعالى. والواقع شاهد بذلك. فإن هذا العهد والميثاق, الذي ذكروا, أنه حين أخرج اللّه ذرية آدم من ظهره, حين كانوا في عالم كالذر لا يذكره أحد, ولا يخطر ببال آدمي. فكيف يحتج اللّه عليهم بأمر, ليس عندهم به خبر, ولا له عين ولا أثر؟!!. ولهذا لما كان هذا أمرا واضحا جليا, قال تعالى:

"وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ "
"وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ " أي: نبينها ونوضحها "وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " إلى ما أودع اللّه في فطرهم, وإلى ما عاهدوا اللّه عليه, فيرتدعوا عن القبائح.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ "
يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : "وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا " أي: علمناه كتاب اللّه, فصار العالم الكبير, والحبر النحرير . "فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ " أي: انسلخ من الاتصاف الحقيقي, بالعلم بآيات اللّه, فإن العلم بذلك, يصير صاحبه متصفا بمكارم الأخلاق, ومحاسن الأعمال, ويرقى إلى أعلى الدرجات, وأرفع المقامات. فترك هذا, كتاب اللّه وراء ظهره, ونبذ الأخلاق, التي يأمر بها الكتاب, وخلعها كما يخلع اللباس. فلما انسلخ منها, أتبعه الشيطان, أي: تسلط عليه, حين خرج من الحصن الحصين, وصار إلى أسفل سافلين, فأزه إلى المعاصي أزا . "فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ", بعد أن كان من الراشدين المرشدين.

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ "
وهذا, لأن اللّه تعالى خذله, ووكله إلى نفسه, فلهذا قال تعالى : "وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا " بأن نوفقه للعمل بها, فيرتفع في الدنيا والآخرة, فيتحصن من أعدائه . "وَلَكِنَّهُ " فعل ما يقتضي الخذلان, إذ " أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ " أي: إلى الشهوات السفلية, والمقاصد الدنيوية. " وَاتَّبَعَ هَوَاهُ " وترك طاعة مولاه . "فَمَثَلُهُ " في شدة حرصه على الدنيا, وانقطاع قلبه إليها. "كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ " أي لا يزال لاهثا في كل حال, وهذا لا يزال حريصا, حرصا قاطعا قلبه لا يسد فاقته شيء من الدنيا . "ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا " بعد أن ساقها اللّه إليهم, فلم ينقادوا لها, بل كذبوا بها, وردوها, لهوانهم على اللّه واتباعهم لأهوائهم, بغير هدى من اللّه . "فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ " في ضرب الأمثال, وفي العبر والآيات. فإذا تفكروا, علموا, وإذا علموا, عملوا.

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ "
سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ". أي: ساء وقبح, مثل من كذب بآيات اللّه, وظلم نفسه, بأنواع المعاصي, فإن مثلهم, مثل السوء. وهذا الذي آتاه اللّه آياته, يحتمل أن المراد شخص معين, قد كان منه, ما ذكره اللّه, فقص اللّه قصة تبينها للعباد. ويحتمل أن المراد بذلك, أنه اسم جنس, وأنه شامل لكل من آتاه اللّه آياته, فانسلخ منها. وفي هذه الآيات, الترغيب في العمل بالعلم, وأن ذلك رفعة من اللّه لصاحبه, وعصمة من الشيطان. والترهيب من عدم العمل به, وأنه نزول إلى أسفل سافلين, وتسليط للشيطان عليه. وفيه أن اتباع الهوى, وإخلاد العبد إلى الشهوات, يكون سببا للخذلان.

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ "
ثم قال - مبينا أنه المنفرد بالهداية والإضلال -: "مَنْ يَهْدِ اللَّهُ " بأن يوفقه للخيرات, ويعصمه من المكروهات, ويعلمه ما لم يكن يعلم. "فَهُوَ الْمُهْتَدِي " حقا لأنه أثر هدايته تعالى . "وَمَنْ يُضْلِلِ " فيخذله ولا يوفقه للخير "فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ " لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة, ألا ذلك هو الخسران المبين.

"وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ "
يقول تعالى - مبينا كثرة الغاوين الضالين, المتبعين إبليس اللعين -: "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا " أي: أنشأنا وبثنا "لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ " صارت البهائم أحسن حالة منهم . "لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا " أي لا يصل إليها فقه ولا علم, إلا مجرد قيام الحجة . "وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا " ما ينفعهم, بل فقدوا منفعتها وفائدتها . "وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا " سماعا يصل معناه إلى قلوبهم. " أُولَئِكَ " الذين بهذه الأوصاف القبيحة "كَالْأَنْعَامِ " أي: البهائم, التي فقدت العقول. وهؤلاء آثروا ما يفنى, على ما يبقى, فسلبوا خاصية العقل . "بَلْ هُمْ أَضَلُّ " من البهائم, فإن الأنعام, مستعملة فيما خلقت له. ولها أذهان, تدرك بها, مضرتها من منفعتها, فلذلك كانت أحسن حالا منهم . "وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ " الذين غفلوا عن أنفع الأشياء. غفلوا عن الإيمان باللّه, وطاعته, وذكره. خلقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار,

لتكون عونا لهم على القيام بأوامر اللّه وحقوقه, فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود. فهؤلاء حقيقون, بأن يكونوا ممن ذرأ اللّه لجهنم وخلقهم لها. فخلقهم للنار, وبأعمال أهلها, يعملون. وأما من استعمل هذه الجوارح في عبادة اللّه, وانصبغ قلبه بالإيمان باللّه ومحبته, ولم يغفل عن اللّه, فهؤلاء, أهل الجنة, وبأعمال أهل الجنة يعملون.

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "
هذا بيان, لعظيم جلاله, وسعة أوصافه, بأن له الأسماء الحسنى, أي: له كل اسم حسن. وضابطه: أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة, وبذلك كانت حسنى. فإنها لو دلت على غير صفة, بل كانت علما محضا, لم تكن حسنى. وكذلك لو دلت على صفة, ليست بصفة كمال, بل إما صفة نقص أو صفة منقسمة إلى المدح والقدح, لم تكن حسنى. فكل اسم من أسمائه, دال على جميع الصفة, التي اشتق منها, مستغرق لجميع معناها. وذلك نحو "العليم" الدال على أن له علما محيطا عاما لجميع الأشياء. فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. و "الرحيم" الدال على أن له رحمة عظيمة, واسعة لكل شيء. و "القدير" الدال على أن له قدرة عامة لا يعجزها شيء, ونحو ذلك. ومن تمام كونها "حسنى" أنه لا يدعى إلا بها, ولذلك قال : "فَادْعُوهُ بِهَا " وهذا شامل لدعاء العبادة, ودعاء المسألة. فيدعى في كل مطلوب, بما يناسب ذلك المطلوب. فيقول الداعي مثلا: اللّهم اغفر لي وارحمني, إنك أنت الغفور الرحيم, وتب عَلَيَّ يا تواب, وارزقني يا رزاق, والطف بي يا لطيف ونحو ذلك. وقوله "وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " أي: عقوبة وعذابا على إلحادهم في أسمائه. وحقيقة الإلحاد, الميل بها, عما جعلت له. إما بأن يسمى بها, من لا يستحقها, كتسمية المشركين بها لآلهتهم. وإما بنفي معانيها وتحريفها, وأن يجعل لها معنى, ما أراده اللّه ولا رسوله. وإما أن يشبه بها غيرها. فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها, ويحذر الملحدون فيها: وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم "أن للّه تسعة وتسعين اسما, من أحصاها دخل الجنة".

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ "
وقوله : "وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ " أي: ومن جملة من خلقنا, أمة فاضلة, كاملة في نفسها, مكملة لغيرها, يهدون أنفسهم وغيرهم, بالحق, فيعلمون الحق, ويعملون به, ويعلمونه, ويدعون إليه وإلى العمل به . "وَبِهِ يَعْدِلُونَ " بين الناس في أحكامهم, إذا حكموا في الأموال, والدماء والحقوق, والمقالات, وغير ذلك. وهؤلاء أئمة الهدى, ومصابيح الدجا. وهم الذين أنعم اللّه عليهم بالإيمان, والعمل الصالح, والتواصي بالحق, والتواصي بالصبر. وهم الصديقون الذين مرتبتهم, تلي مرتبة الرسالة. وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله, وعلو منزلته. فسبحان من يختص برحمته من يشاء, واللّه ذو الفضل العظيم.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ "
أي: والذين كذبوا بآيات اللّه, الدالة على صحة ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم, من الهدى, فردوها ولم يقبلوها. "سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ " بأن اللّه يدر لهم الأرزاق

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ "
"وَأُمْلِي لَهُمْ " أي: أمهلهم, حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون, ولا يعاقبون, فيزدادوا كفرا وطغيانا, وشرا إلى شرهم. وبذلك تزيد عقوبتهم, ويتضاعف عذابهم, فيضرون أنفسهم من حيث لا يعلمون, ولهذا قال: " إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ " أي: قوي بليغ.

"أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ "
" أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ " صلى الله عليه وسلم "مِنْ جِنَّةٍ " أي: أو لم يعملوا أفكارهم, وينظروا: هل في صاحبهم, الذي يعرفونه, ولا يخفى عليهم من حاله شيء, هل هو مجنون. فلينظروا في أخلاقه وهديه, ودله وصفاته, وينظروا في ما دعا إليه. فلا يجدون فيه من الصفات, إلا أكملها, ولا من الأخلاق إلا أتمها, ولا من العقل والرأي, إلا ما فاق به العالمين, ولا يدعو إلا لكل خير, ولا ينهى إلا عن كل شر. أفبهذا يا أولي الألباب جنة؟!! أم

هو الإمام العظيم, والناصح المبين, والماجد الكريم, والرءوف الرحيم؟!!. ولهذا قال: " إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ " أي: يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب, ويحصل لهم الثواب.

"أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ "
" أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " فإنهم إذا نظروا إليها, وجدوها أدلة على توحيد ربها, وعلى ما له من صفات الكمال. وكذلك لينظروا إلى جميع 'وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ " فإن جميع أجزاء العالم, تدل أعظم دلالة, على الله وقدرته, وحكمته, وسعة رحمته, وإحسانه, ونفوذ مشيئته, وغير ذلك من صفاته العظيمة, الدالة على تفرده بالخلق, والتدبير, الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود, المسبح الموحد المحبوب.
وقوله 'وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ " أي: لينظروا في خصوص حالهم, ولينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم, ويفجأهم الموت, وهم في غفلة معرضون, فلا يتمكنون حينئذ, من استدراك الفارط . 'فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ " أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل, فأي حديث يؤمنون به؟!! أبكتب الكذب والضلال؟ أم بحديث كل مفتر دجال؟. ولكن الضال لا حيلة فيه, ولا سبيل إلى هدايته.

مَّنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ "
ولهذا قال تعالى 'مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ " أي: يتحيرون ويترددون, فلا يخرجون من طغيانهم, ولا يهتدون إلى حق.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ "
يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : "يَسْأَلُونَكَ " أي: المكذبون لك, المتعنتون 'عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا " أي: متى وقتها, الذي تجيء به, ومتى تحل بالخلق؟ . 'قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي " أي: إنه تعالى المختص بعلمها. " لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ " أي لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه, إلا هو . "ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " أي: خفى علمها على أهل السماوات والأرض, واشتد أمرها أيضا عليهم, فهم من الساعة مشفقون. " لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً " أي: فجأة من حيث لا يشعرون, لم يستعدوا لها, ولم يتهيأوا لها . "يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا " أي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة, كأنك مستحف عن السؤال عنها, ولم يعلموا أنك - لكمال علمك بربك, وما ينفع السؤال عنه - غير مبال بالسؤال الخالي من المصلحة, المتعذر علمه, فإنه لا يعلمها نبي مرسل, ولا ملك مقرب. وهي من الأمور التي أخفاها عن الخلق, لكمال حكمته, وسعة علمه . 'قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ". فلذلك حرصوا, على ما لا ينبغي الحرص عليه. وخصوصا مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم, ويدعون ما يجب عليهم, من العلم, ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه, ولا هم مطالبون بعلمه.

"قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ "
'قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا " فإني فقير مدبر لا يأتيني خير, إلا من الله, ولا يدفع عني الشر, إلا هو, وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى . 'وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ". أي: لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع, ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكروه, لعلي بالأشياء قبل كونها, وعلمي بما تفضي إليه. ولكني - لعدم علمي - قد ينالني ما ينالني من السوء, وقد يفوتني ما يفوتني, من مصالح الدنيا ومنافعها. فهذا أول دليل, على أني لا علم لي بالغيب.
" إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ " أنذر بالعقوبات الدينية والدنيوية, والأخروية, وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك, وأحذر منها . 'وَبَشِيرٌ " بالثواب العاجل, ببيان الأعمال الموصلة إليه, والترغيب فيها. ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة, وإنما ينتفع بذلك, ويقبله, المؤمنون.
وهذه الآيات الكريمات, مبينة جهل من يقصد النبي صلى الله عليه وسلم, ويدعوه لحصول نفع, أو دفع ضر. فإنه ليس بيده شيء من الأمر, ولا ينفع من لم ينفعه الله, ولا

يدفع الضر, عمن لم يدفعه اللّه عنه, ولا له من العلم, إلا ما علمه اللّه. وإنما ينفع, من قبل ما أرسل به, من البشارة والنذارة, وعمل بذلك. فهذا نفعه عليه السلام, الذي فاق نفع الآباء والأمهات, والأخلاء والإخوان, بما حث العباد على كل خير, وحذرهم عن كل شر, وفيه لهم, غاية البيان والإيضاح.

"هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ "
أي : "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ " أيها الرجال والنساء, المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفرقكم . "مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ " وهو: آدم أبو البشر صلى الله عليه وسلم . "وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا " أي: خلق من آدم زوجته حواء "لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا " لأنها إذا كانت منه, حصل بينهما من المناسبة والموافقة, ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر, فانقاد كل منها إلى صاحبه, بزمام الشهوة . "فَلَمَّا تَغَشَّاهَا " أي تجللها مجامعا لها قدر الباري أن يوجد من تلك الشهوة, وذلك الجماع, النسل, وحينئذ "حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا " وذلك في ابتداء الحمل لا تحس به الأنثى, ولا يثقلها . "فَلَمَّا " استمرت و " أَثْقَلَتْ " به حين كبر في بطنها, فحينئذ صار في قلوبهما الشفقة على الولد, وعلى خروجه حيا, صحيحا, سالما لا آفة فيه. لذلك " دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا " ولدا "صَالِحًا " أي: صالح الخلقة تامها لا نقص فيه "لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ".

"فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ "
"فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا " على وفق ما طلبا, وتمت عليهما النعمة فيه "جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا " أي: جعلا للّه شركاء في ذلك الولد, الذي انفرد اللّه بإيجاده, والنعمة به, وأقرَّ به أعين والديه فَعَبَّداه لغير اللّه. إما أن يسمياه بعبد غير اللّه كـ "عبد الحارث" و "عبد العزى, و "عبد الكعبة" ونحو ذلك. أو يشركا في اللّه في العبادة, بعد ما منَّ اللّه عليهما بما منَّ به, من النعم التي لا يحصيها أحد من العباد. وهذا انتقال من النوع إلى الجنس, فإن أول الكلام, في آدم وحواء. ثم انتقل الكلام في الجنس. ولا شك أن هذا موجود في الذرية كثيرا, فلذلك قررهم اللّه على بطلان الشرك, وأنهم في ذلك, ظالمون, أشد الظلم, سواء كان الشرك في الأقوال, أم في الأفعال. فإن اللّه, هو الخالق لهم, من نفس واحدة, الذي خلق منها زوجها وجعل لهم من أنفسهم أزواجا, ثم جعل بينهم من المودة والرحمة, ما يسكن بعضهم إلى بعض, ويألفه, ويلتذ به. ثم هداهم إلى ما به تحصل الشهوة واللذة, والأولاد, والنسل. ثم أوجد الذرية في بطون الأمهات, وقتا موقوتا, تتشوف إليه نفوسهم ويدعون اللّه أن يخرجه سويا صحيحا, فأتم اللّه عليهم النعمة وأنالهم مطلوبهم. أفلا يستحق أن يعدوه, ولا يشركوا في عادته أحدا, ويخلصوا له الدين.

"أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ "
ولكن الأمر جاء على العكس, فأشركوا باللّه "مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ "

"وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ "
"وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ " أي: لعاديها "نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ". فإذا كانت لا تخلق شيئا, ولا مثقال ذرة, بل هي مخلوقة, ولا تستطيع أن تدفع المكروه عن من يعدها, ولا عن أنفسها فكيف تتخذ مع اللّه آلهة؟!! إن هذا إلا أظلم الظلم, وأسفه السفه.

"وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ "
"وَإِنْ تَدْعُوهُمْ " أي: وإن تدعوا, أيها المشركون هذه الأصنام, التي عدتموها من دون اللّه " إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ". فصار الإنسان أحسن حالة منها, لأنها لا تسمع, ولا تصر, ولا ت هدِي ولا تُهد ى. وكل هذا, إذا تصوره اللي العاقل تصورا مجردا, جزم طلان إلهيتها, وسفاهة من عدها.

"إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ "
وهذا من نوع التحدي للمشركين العابدين للأوثان. يقول تعالى " إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ " أي لا فرق بينكم وبينهم, فكلكم عبيد للّه مملوكون. فإن كنتم

كما تزعمون صادقين, في أنها تستحق من العبادة شيئا "فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ " فإن استجابوا لكم, وحصلوا مطلوبكم وإلا تبين, أنكم كاذبون في هذه الدعوى, مفترون على اللّه أعظم الفرية. وهذا لا يحتاج إلى تبيين فيه, فإنكم إذا نظرتم إليها وجدتم صورتها, دالة على أنه ليس لديها من النفع شيء.

"أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ "
فليس لها أرجل تمشي بها, ولا أيد تبطش بها, ولا أعين تبصر بها, ولا آذان تسمع بها, فهي عادمة لجميع الآلات والقوى, الموجودة في الإنسان. فإذا كانت لا تجيبكم إذا دعوتموها, فهي عباد أمثالكم, بل أنتم أكمل منها, وأقوى على كثير من الأشياء, فلأي شيء عبدتموها . "قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ " أي: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم, على إيقاع السوء والمكروه بي, من غير إمهال ولا إنظار. فإنكم غير بالغين لشيء من المكروه بي.

"إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ "
" إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ " الذي يتولاني, فيجلب لي المنافع ويدفع عني المضار. " الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ " الذي فيه الهدى, والشفاء, والنور. وهو من توليه وتربيته لعباده الخاصة الدينية . "وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ " الذين صلحت نياتهم وأعمالهم, وأقوالهم, كما قال تعالى " اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ". فالمؤمنون الصالحون - لما تولوا ربهم بالإيمان والتقوى, ولم يتولوا غيره, ممن لا ينفع, ولا يضر - تولاهم اللّه, ولطف بهم, وأعانهم على ما فيه الخير والمصلحة, في دينهم, ودنياهم, ودفع عنهم - بإيمانهم - كل مكروه, كما قال تعالى " إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ".

"وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ "
وهذا أيضا في بيان عدم استحقاق هذه الأصنام, التي يعبدونها, من دون اللّه, لشيئا من العبادة, لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار, في نصر أنفسها, ولا في نصر عابديها, وليس لها قوة العقل والاستجابة.

"وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ "
فلو دعوتها إلى الهدى, لم تهتد, وهي صور لا حياة فيها. فتراهم ينظرون إليك, وهم لا يبصرون حقيقة, لأنهم صوروها على صور الحيوانات, من الآدميين أو غيرهم, وجعلوا لها أبصارا, وأعضاء. فإذا رأيتها, قلت: هذه حية, فإذا تأملتها, عرفت أنها جمادات لا حراك بها, ولا حياة. فبأي رأي اتخذها المشركون آلهة مع اللّه؟ ولأي مصلحة, أو نفع, عكفوا عندها, وتقربوا لها, بأنواع العبادات؟ فإذا عرف هذا, عرف أن المشركين وآلهتهم التي عبدوها, لو اجتمعوا, وأرادوا أن يكيدوا, من تولاه فاطر السماوات والأرض, متولي أحوال عباده الصالحين, لم يقدروا على كيده, بمثقال ذرة من الشر, لكمال عجزهم وعجزها, وكمال قوة اللّه واقتداره, وقوة من احتمى بجلاله, وتوكل عليه. وقيل: إن معنى قوله "وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ " أن الضمير يعود إلى المشركين المكذبين لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم. فتحسسهم ينظرون إليك يا رسول اللّه, نظر اعتبار, يتبين به الصادق من الكاذب. ولكنهم لا يبصرون حقيقتك, وما يتوسمه المتوسمون فيك, من الجمال والكمال, والصدق.

"خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ "
هذه الآية جامعة, لحسن الخلق مع الناس, وما ينبغي في معاملتهم. فالذي ينبغي أن يعامل به الناس, أن يأخذ العفو, أي: ما سمحت به أنفسهم, وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق. فلا يكلفهم, ما لا تسمح به طبائعهم, بل يشكر من كل أحد, ما قابله به, من قول, وفعل, جميل, أو ما هو دون ذلك, ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم. ولا يتكبر على الصغير لصغره, ولا ناقص العقل لنقصه, ولا الفقير لفقره. بل يعامل الجميع, باللطف, والمقابلة بما تقضيه الحال, وتنشرح له صدورهم . "وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ " أي: بكل قول حسن, وفعل جميل, وخلق كامل للقريب والبعيد. فاجعل ما يأتي إلى الناس

منك, إما تعليم علم, أو حثا على خير, من صلة رحم, أو بَرٍّ والدين, أو إصلاح بين الناس, أو نصيحة نافعة, أو رأي مصيب, أو معاونة على بر وتقوى, أو زجر عن قبيح, أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية, أو دنيوية. ولما كان لابد من أذية الجاهل, أمر اللّه تعالى أن يقابل الجاهل, بالإعراض عنه, وعدم مقابلته بجهله. فمن آذاك, بقوله, أو فعله لا تؤذه, ومن حرمك لا تحرمه, ومن قطعك فَصِلْهُ, ومن ظلمك فاعدل فيه. وأما ما ينبغي أن يعامل به العبد شياطين الجن, فقال تعالى : "وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ " إلى "ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ".

"وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ "
أي: أي وقت, وفي أي حال "يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ " أي: تحس منه بوسوسة, وتثبيط عن الخير, أو حث على الشر, وإيعاز به . "فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ " أي: التجئ واعتصم باللّه, واحتم بحماه " إِنَّهُ سَمِيعٌ " لما تقول . "عَلِيمٌ " بنيتك وضعفك, وقوة التجائك له, فسيحميك من فتنته, ويقيك من وسوسته, كما قال تعالى : "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ " إلى آخر السورة.

"إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ "
ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان, الذي لا يزال مرابطا, ينتظر غرته وغفلته, ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين, وأن المتقي - إذا أحس بذنب, ومسه طائف من الشيطان, فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب - تذكر من أي باب أُتِيَ, ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه, وتذكر ما أوجب اللّه عليه, وما عليه من لوازم الإيمان, فأبصر واستغفر اللّه تعالى, واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح, والحسنات الكثيرة. فرد شيطانه خاسئا حسيرا, قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

"وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ "
وأما إخوان الشياطين, وأولياؤهم, فإنهم إذا وقعوا في الذنوب لا يزالون يمدونهم في الغي, ذنبا بعد ذنب, ولا يقصرون عن ذلك. فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء, لأنها طمعت فيهم, حين رأتهم سلسي القياد لها, وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

"وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ "
أي لا يزال هؤلاء المكذبون لك في تعنت وعناد, ولو جاءتهم الآيات الدالة على الهدى والرشاد. فإذا جئتهم بشيء من الآيات الدالة على صدقك, لم ينقادوا . "وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ " من آيات الاقتراح, التي يعينونها "قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا " أي: هلا اخترت الآية, فصارت الآية الفلانية, والمعجزة الفلانية كأنك أنت المنزل للآيات, المدبر لجميع المخلوقات, ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شيء. أو لو لا اخترعتها من نفسك . "قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ", فأنا عبد متبع, مدبر. واللّه تعالى هو الذي ينزل الآيات ويرسلها, على حسب ما اقتضاه حمده, وطلبته حكمته البالغة. فإن أردتم آية لا تضمحل على تعاقب الأوقات, وحجة لا تبطل في جميع الآنات. فإن "هَذَا " القرآن العظيم, والذكر الحكيم " بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ " يستبصر به في جميع المطالب الإلهية, والمقاعد الإنسانية, وهو الدليل والمدلول فمن تفكر وتدبره, علم أنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه, ولا من خلفه. وبه قامت الحجة, على كل من بلغه, ولكن أكثر الناس لا يؤمنون. وإلا فمن آمن, فهو "هُدًى " له من الضلال "وَرَحْمَةٌ " له من الشقاء. فالمؤمن, مهتد بالقرآن, متبع له, سعيد في دنياه وأخراه. وأما من لم يؤمن به, فإنه ضال شقي, في الدنيا والآخرة.

"وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ "
هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب اللّه يتلى, فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات. والفرق بين الاستماع والإنصات, أن الإنصات في الظاهر, بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه. وأما الاستماع له, فهو أن يلقي سمعه, ويحضر قلبه, ويتدبر ما يستمع. فإن من لازم على هذين الأمرين, حين يتلى كتاب اللّه, فإنه ينال خيرا كثيرا, وعلما غزيرا, وإيمانا مستمرا متجددا, وهدى متزايدا, وبصيرة في دينه. ولهذا رتب اللّه حصول الرحمة عليهما. فدل ذلك, على أن من تلي عليه الكتاب, فلم يستمع له ولم ينصت, أنه محروم الحظ, من الرحمة, قد فاته خير كثير. ومن أوكد ما يؤمر مستمع

القرآن, أنه يستمع له وينصت, في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه, فإنه مأمور بالإنصات. حتى إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات, أولى من قراءته الفاتحة, وغيرها.

"وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ "
الذكر لله تعالى, يكون بالقلب, ويكون باللسان, ويكون بهما, وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله. فأمر اللّه, عبده ورسوله, محمدا أصلا, وغيره تبعا - بذكر ربه في نفسه أي: مخلصا خاليا . "تَضَرُّعًا " بلسانك, مكررا لأنواع الذكر . "وَخِيفَةً " في قلبك بأن تكون خائفا من اللّه وَجِلَ القلب منه, خوفا أن يكون عملك غير مقبول. وعلامة الخوف, أن يسعى ويجتهد, في تكميل العمل وإصلاحه, والنصح به . "وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ " أي: كن متوسطا لا تجهر بصلاتك, ولا تخافت بها, وابتغ بين ذلك سبيلا . "بِالْغُدُوِّ " أول النهار " وَالْآصَالِ " آخره وهذان الوقتان, فيهما مزية وفضيلة على غيرهما . "وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ " الذين نسوا اللّه, فأنساهم أنفسهم. فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة. وأعرضوا عمن كل السعادة والفوز, في ذكره وعبوديته. وأقبلوا على من كل الشقاوة والخيبة, في الاشتغال به. وهذه من الآداب, التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها. وهي: الإكثار من ذكر اللّه آناء الليل والنهار, خصوصا طَرَفَي النهار, مخلصا خاشعا, متضرعا, متذللا, ساكنا, متواطئا عليه قلبه ولسانه بأدب ووقار, وإقبال على الدعاء والذكر, وإحضار له بقلبه, وعدم غفلة, فإن اللّه لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه. ثم ذكر تعالى أن له عبادا. مستديمين لعبادته, ملازمين لخدمته وهم الملائكة, لتعلموا أن اللّه لا يريد أن يتكثر بعبادتكم من قلة, ولا ليتعزز بها من ذلة. وإنما يريد نفع أنفسكم, وأن تربحوا عليه, أضعاف أضعاف, ما عملتم, فقال:

"إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ "
" إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ " من الملائكة المقربين, وحملة العرش والكروبيين. " لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ " بل يذعنون لها, وينقادون لأوامر ربهم "وَيُسَبِّحُونَهُ " الليل والنهار لا يفترون. "وَلَهُ " وحده لا شريك له "يَسْجُدُونَ ", فليقتد العباد, بهؤلاء الملائكة الكرام. وليداوموا على عبادة الملك العلام تم تفسير سورة الأعراف وللّه الحمد والشكر والثناء. وصلى اللّه على محمد وآله وصحبه وسلم

سورة الأنفال

"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ "
الأنفال, هي: الغنائم, التي ينفلها اللّه لهذه الأمة, من أموال الكفار. وكانت هذه الآيات في هذه السورة, قد نزلت في قصة "بدر" أول غنيمة كبيرة غنمها المسلون من المشركين. فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع. فسألوا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عنها, فأنزل اللّه "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ " كيف تقسم وعلى من تقسم؟ "قُلْ " لهم " الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ " يضعانها حيث شاءا, فلا اعتراض لكم على حكم اللّه ورسوله. بل عليكم إذا حكم اللّه ورسوله, أن ترضوا بحكمهما, وتسلموا الأمر لهما. وذلك داخل في قوله " فَاتَّقُوا اللَّهَ " بامتثال أوامره, واجتناب نواهيه . "وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ " أي: أصلحوا ما بينكم من التشاحن, والتقاطع, والتدابر, بالتوادد, والتحاب, والتواصل. فبذلك تجتمع كلمتكم, ويزول ما يحصل - بسبب التقاطع - من التخاصم, والتشاجر والتنازع. ويدخل في إصلاح ذات البين, تحسين الخلق لهم, والعفو عن المسيئين منهم فإنه - بذلك - يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء, والتدابر. والأمر الجامع لذلك كله قوله "وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ". فإن الإيمان يدعو إلى طاعة اللّه ورسوله. كما أن من لم يطع اللّه ورسوله, فليس بمؤمن. ومن نقصت طاعته للّه ورسوله, فذلك لنقص إيمانه.

"إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ "

ولما كان الإيمان قسمين, إيمانا كاملا يترتب عليه المدح والثناء, والفوز التام, وإيمانا, دون ذلك - ذكر الإيمان الكامل فقال: " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ " الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان. " الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ " أي: خافت ورهبت, فأوجبت لهم, خشية الله تعالى, الانكفاف عن المحارم, فإن خوف الله تعالى, أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب . 'وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ". ووجه ذلك, أنهم يلقون له السمع, ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك, يزيد إيمانهم. لأن التدبر من أعمال القلوب, ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى, كانوا يجهلونه, ويتذكرون ما كانوا نسوه. أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير, واشتياقا إلى كرامة ربهم. أو وجلا من العقوبات, وازدجارا عن المعاصي, وكل هذا مما يزداد به الإيمان . 'وَعَلَى رَبِّهِمْ " وحده لا شريك له "يَتَوَكَّلُونَ " أي: يعتمدون في قلوبهم على ربهم, في جلب مصالحهم, ودفع مضارهم الدينية, والدنيوية, ويثقون بأن الله تعالى, سيفعل ذلك. والتوكل, هو, الحامل للأعمال كلها, فلا توجد ولا تكمل, إلا به.

"الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ "
" الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ " من فرائض, ونوافل, بأعمالها الظاهرة والباطنة, كحضور القلب فيها, الذي هو روح الصلاة ولبها . 'وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ " النفقات الواجبة, كالزكوات, والكفارات, والنفقة على الزوجات والأقارب, وما ملكت أيمانهم. والمستحبة كالصدقة في جميع طرق الخير.

"أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ "
" أُولَئِكَ " الذين اتصفوا بتلك الصفات 'هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا " لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان, بين الأعمال الباطنة, والأعمال الظاهرة, بين العلم والعمل, بين أداء حقوق الله, وحقوق عباده. وقدم تعالى أعمال القلوب, لأنها أصل لأعمال الجوارح, وأفضل منها. وفيها دليل على أن الإيمان, يزيد وينقص, فيزيد بفعل الطاعة, وينقص بضدها. وأنه ينبغي للعبد, أن يتعاهد إيمانه وينميه. وأن أولى ما يحصل به ذلك, تدبر كتاب الله تعالى, والتأمل لمعانيه. ثم ذكر ثواب المؤمنين حقا فقال : "لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ " أي: عالية بحسب علو أعمالهم . 'وَمَغْفِرَةٌ " لذنوبهم 'وَرِزْقٌ كَرِيمٌ " وهو ما أعد الله لهم في دار كرامته, مما لا عين رأت: ولا أذن سمعت, ولا خطر على قلب بشر. ودل هذا, على أن من يصل إلى درجتهم في الإيمان - وإن دخل الجنة - فلن ينال ما نالوا, من كرامة الله التامة.

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ "
قدم تعالى - أمام هذه الغزوة الكبرى المباركة - الصفات التي على المؤمنين أن يقوموا بها, لأن من قام بها, استقامت أحواله, وصلحت أعماله, التي من أكبرها, الجهاد في سبيله. فكما أن إيمانهم, هو الإيمان الحقيقي, وجزاءهم هو الحق الذي وعدهم الله به. كذلك أخرج الله رسوله صلى الله عليه وسلم, من بيته إلى لقاء المشركين في "بدر" بالحق الذي يحبه الله تعالى, وقد قدره وقضاه. وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم في ذلك الخروج, أنه يكون بينهم وبين عدوهم قتال. فحين تبين لهم أن ذلك واقع, جعل فريق من المؤمنين, يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم, في ذلك, ويكرهون لقاء عدوهم, كأنما يساقون إلى الموت, وهم ينظرون. والحال أن هذا لا ينبغي منهم, خصوصا بعد ما تبين لهم أن خروجهم بالحق, ومما أمر الله به, ورضيه. فهذه الحال, ليس للجدال فيها محل, لأن الجدال, محله وفائدته, عند اشتباه الحق, والتباس الأمر. فأما إذا وضح وبان, فليس إلا الانقياد والإذعان. هذا, وكثير من المؤمنين, لم يجر منهم من هذه المجادلة شيء, ولا كرهوا لقاء عدوهم. وكذلك الذين عاتبهم الله, انقادوا للجهاد أشد الانقياد, وثبتهم الله, وقيض لهم من الأسباب, ما تطمئن به قلوبهم كما سيأتي ذكر بعضها. وكان أصل خروجهم ليتعرضوا لعير, خرجت مع أبي سفيان بن حرب لقريش إلى الشام, قافلة كبيرة. فلما سمعوا برجوعها من الشام, ندب النبي صلى الله عليه وسلم, الناس. فخرج معه, ثلثمائة, وبضعة عشر رجلا, معهم سبعون بعيرا, يعتقبون عليها, ويحملون عليها متاعهم. فسمع بخبرهم قريش, فخرجوا لمنع عيرهم, في عدد كثير وعُدَدٍ وافرة, من السلاح, والخيل, والرجال, يبلغ عددهم قريبا من الألف.

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ

اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ "
فوعد اللّه المؤمنين, إحدى الطائفتين, إما أن يظفروا بالعير, أو بالنفير. فأحبوا العير لقلة ذات يد المسلمين, ولأنها غير ذات الشوكة. ولكن اللّه تعالى, أحب لهم, وأراد أمرا, أعلى مما أحبوا. أراد أن يظفروا بالنفير, الذي خرج فيه كبراء المشركين وصناديدهم . "وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ " فينصر أهله "وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ". أي يستأصل أهل الباطل, ويُرِيَ عباده من نصرة للحق أمرا لم يكن يخطر ببالهم.

"لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ "
"لِيُحِقَّ الْحَقَّ " بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته وصدقه . "وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ " بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه "وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ " فلا يبالي اللّه بهم.

"إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ "
أي: اذكروا نعمة اللّه عليكم, لما قارب التقاؤكم بعدوكم, استغثتم بربكم, وطلبتم منه أن يعينكم وينصركم "فَاسْتَجَابَ لَكُمْ " وأغاثكم بعدة أمور. منها أن اللّه أمدكم "بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ " أي: يردف بعضهم بعضا.

"وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ "
"وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ " أي إنزال الملائكة " إِلَّا بُشْرَى " أي: لتستبشر بذلك نفوسكم. " وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ " وإلا فالنصر بيد اللّه, ليس بكثرة عدد, ولا عُدَدٍ. " إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ " لا يغالبه مغالب, بل هو القهار, الذي يخذل من بلغوا من الكثرة, ومن العدد والآلات, ما بلغوا . "حَكِيمٌ " حيث قدر الأمور بأسبابها, ووضع الأشياء مواضعها.

"إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ "
ومن نصره واستجابته لدعائكم, أن أنزل عليكم نعاسا "يُغَشِّيكُمُ " أي: فيذهب ما في قلوبكم من الخوف والوجل, ويكون " أَمَنَةً " لكم, وعلامة على النصر والطمأنينة. ومن ذلك أنه أنزل عليكم من السماء مطرا, ليطهركم به من الحدث والخبث, وليطهركم من وساوس الشيطان, ورجزه . "وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ " أي: يثبتها فإن ثبات القلب, أصل ثبات البدن . "وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ " فإن الأرض كانت سهلة دهسة فلما نزل عليها المطر, تلبدت, وثبتت به الأقدام.

"إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ "
ومن ذلك أن اللّه أوحى إلى الملائكة " أَنِّي مَعَكُمْ " بالعون والنصر والتأييد . "فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا " أي: ألقوا في قلوبهم, وألهموم الجراءة على عدوهم, ورغبوهم في الجهاد وفضله. "سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ " الذي هو أعظم جند لكم عليهم. فإن اللّه إذا ثبت المؤمنين, وألقى الرعب في قلوب الكافرين, لم يقدر الكافرون على الثبات لهم, ومنحهم اللّه أكتافهم . "فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ " أي: على الرقاب "وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ". أي: مفصل. وهذا خطاب, إما للملائكة الذين أوحى إليهم أن يثبتوا الذين آمنوا, فيكون في ذلك دليل, أنهم باشروا القتال يوم بدر. أو للمؤمنين يشجعهم اللّه, ويعلمهم كيف يقتلون المشركين, وأنهم لا يرحمونهم.

"ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ "
"ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ " أي: حاربوهما, وبارزوهما بالعداوة . "وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ " ومن عقابه تسليط أوليائه على أعدائه, وتقتيلهم.

"ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ "
"ذَلِكُمْ " العذاب المذكور "فَذُوقُوهُ " أيها المشاققون للّه ورسوله عذابا معجلا . "وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ". وفي هذه القصة من آيات اللّه العظيمة, ما يدل على أن ما جاء

به محمد صلى الله عليه وسلم, رسول اللّه حقا. منها: أن اللّه وعدهم وعدا, فأنجزهموه. ومنها: ما قال اللّه تعالى "قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ " الآية. ومنها: إجابة دعوة اللّه للمؤمنين, لما استغاثوه, بما ذكره من الأسباب. وفيها الاعتناء العظيم, بحال عباده المؤمنين, وتقييض الأسباب, التي بها ثبت إيمانهم, ثبتت أقدامهم, وزال عنهم المكروه والوساوس الشيطانية. ومنها: أن من لطف اللّه بعبده, أن يسهل عليه طاعته, وييسرها بأسباب داخلية وخارجية.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ "
أمر اللّه تعالى عباده المؤمنين, بالشجاعة الإيمانية, والقوة في أمره, والسعي في جلب الأسباب المقوية للقلوب والأبدان. ونهاهم عن الفرار, إذا التقى الزحفان فقال : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا " أي: صف القتال, وتزاحف الرجال, واقتراب بعضهم من بعض . "فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ", بل اثبتوا لقتالهم, واصبروا على جلادهم, فإن في ذلك, نصرة لدين اللّه, وقوة لقلوب المؤمنين, وإرهابا للكافرين.

"وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ "
"وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ " أي: رجع "بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ " أي مقره "جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ". وهذا يدل على أن الفرار من الزحف, من غير عذر, من أكبر الكبائر, كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد. ومفهوم الآية: أن المتحرف للقتال, وهو الذي ينحرف من جهة إلى أخرى, ليكون أمكن له في القتال, وأنكى لعدوه, فإنه لا بأس بذلك, لأنه لم يول دبره فارا, وإنما ولى دبره, ليستعلى على عدوه, أو يأتيه من محل يصيب فيه غرته, أو ليخدعه بذلك, أو غير ذلك من مقاصد المحاربين, وأن المتحيز إلى فئة تمنعه وتعينه على قتال الكفار, فإن ذلك جائز. فإن كانت الفئة في العسكر, فالأمر في هذا واضح. وإن كانت الفئة في غير محل المعركة كانهزام المسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين, فقد ورد من آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز. ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون, أن الانهزام أحمد عاقبة, وأبقى عليهم. أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار في ثباتهم لقتالهم, فيبعد - في هذه الحال - أن تكون من الأحوال المرخص فيها, لأنه - على هذا - لا يتصور الفرار المنهي عنه. وهذه الآية مطلقة, وسيأتي في آخر السورة تقييدها بالعدد.

"فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ "
يقول تعالى - لما انهزم المشركون يوم بدر, وقتلهم المسلمون . "فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ " بحولكم وقوتكم "وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ " حيث أعانكم على ذلك بما تقدم ذكره . "وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ". وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم, وقت القتال, دخل العريش, وجعل يدعو اللّه, ويناشده في نصرته. ثم خرج منه, فأخذ حفنة من تراب, فرماها في وجوه المشركين, فأوصلها اللّه إلى وجوههم. فما بقي منهم واحد إلا وقد أصاب وجهه, وفمه, وعينيه منها. فحينئذ انكسر حدهم, وفتر زندهم, وبان فيهم الفشل والضعف, فانهزموا. يقول تعالى لنبيه: لست بقوتك - حين رميت التراب - أوصلته إلى أعينهم, وإنما أوصلناه إليهم, بقوتنا واقتدارنا . "وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا " أي: إن اللّه تعالى, قادر على انتصار المؤمنين من الكافرين, من دون مباشرة قتال. ولكن اللّه أراد أن يمتحن المؤمنين, ويوصلهم بالجهاد, إلى أعلى الدرجات, وأرفع المقامات, ويعطيهم أجرا حسنا, وثوابا جزيلا. " إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " يسمع تعالى, ما أسر به العبد, وما أعلن, ويعلم ما في قلبه, من النيات الصالحة وضدها. فيقدر على العباد أقدارا, موافقة لعلمه وحكمته, ومصلحة عباده, ويجزي كلا بحسب نيته وعمله.

"ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ "
"ذَلِكُمْ " النصر, من اللّه لكم "وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ " أي: مضعف كل مكر وكيد,

يكيدون به الإسلام وأهله, وجاعل مكرهم محيقا بهم.

"إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ "
" إِنْ تَسْتَفْتِحُوا " أيها المشركون, أي: تطلبون من اللّه أن يوقع بأسه وعذابه. على المعتدين الظالمين . "فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ " حين أوقع اللّه بكم من عقابه, ما كان نكالا لكم, وعبرة للمتقين . "وَإِنْ تَنْتَهُوا " عن الاستفتاح "فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ " لأنه ربما أمهلكم, ولم يعجل لكم النقمة . "وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ " أي: أعوانكم وأنصاركم, الذين تحاربون وتقاتلون, معتمدين عليهم "شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ " ومن كان اللّه معه فهو المنصور وإن كان ضعيفا قليلا عدده. وهذه المعية التي أخبر اللّه أنه يؤيد بها المؤمنين, تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان. فإذا أديل العدو على المؤمنين في بعض الأوقات, فليس ذلك إلا تفريطا من المؤمنين وعدم قيام بواجب الإيمان ومقتضاه, وإلا فلو قاموا بما أمر اللّه به من كل وجه. لما انهزمت لهم راية انهزاما مستقرا ولا أديل عليهم عدوهم أبدا.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ "
لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين, أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذي يدركون معيته فقال : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ" بامتثال أمرهما واجتناب نهيهما . "وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ " أي: عن هذا الأمر الذي هو طاعة اللّه, وطاعة رسوله . "وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ " ما يتلى عليكم من كتاب اللّه, وأوامره, ووصاياه, ونصائحه. فتوليكم, في هذه الحال, من أقبح الأحوال.

"وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ "
"وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ " أي لا تكتفوا بمجرد الدعوى الخالية, التي لا حقيقة لها, فإنها حالة لا يرضاها اللّه ولا رسوله. فليس الإيمان بالتمني والتحلي, ولكنه ما وقر في القلوب, وصدقته الأعمال.

"إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ "
يقول تعالى: " إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ " من لم تفد فيهم الآيات والنذر. وهم " الصُّمُّ " عن استماع الحق " الْبُكْمُ " عن النطق به. " الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ " ما ينفعهم, ويؤثرونه على ما يضرهم. فهؤلاء, شر عند اللّه, من شرار الدواب, لأن اللّه أعطاهم, أسماعا وأبصارا, وأفئدة, ليستعملوها في طاعة اللّه, فاستعملوها في معاصيه, وعدموا - بذلك - الخير الكثير. فإنهم كانوا, بصدد أن يكونوا من خيار البرية, فأبوا هذا الطريق, واختاروا لأنفسهم, أن يكونوا من شر البرية. والسمع الذين نفاه اللّه عنهم, سمع المعنى المؤثر في القلب. وأما سمع الحجة, فقد قامت حجة اللّه تعالى عليهم, بما سمعوه من آياته. وإنما لم يسمعهم السماع النافع, لأنه لم يعلم فيهم خيرا يصلحون به لسماع آياته.

"وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ "
"وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ " على الفرض والتقدير "لَتَوَلَّوْا " عن الطاعة "وَهُمْ مُعْرِضُونَ "لا التفات لهم إلى الحق, بوجه من الوجوه. وهذا دليل على أن اللّه تعالى لا يمنع الإيمان والخير, إلا عمن لا خير فيه, والذي لا يزكو لديه, ولا يثمر عنده. وله الحمد تعالى والحكمة, في هذا.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ "
يأمر تعالى, عباده المؤمنين, بما يقتضيه الإيمان منهم, وهو: الاستجابة للّه وللرسول, أي: الانقياد لما أمر به, والمبادرة إلى ذلك, والدعوة إليه, والاجتناب لما نهيا عنه, والانكفاف عنه, والنهي عنه. وقوله " إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ " وصف ملازم لكل ما دعا اللّه ورسوله إليه, وبيان لفائدته وحكمته, فإن حياة القلب والروح, بعبودية اللّه تعالى, ولزوم طاعته, وطاعة رسوله, على الدوام. ثم حذر عن عدم الاستجابة للّه وللرسول فقال : "وَاعْلَمُوا

أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ " فإياكم أن تردوا أمر اللّه, أول ما يأتيكم, فيحال بينكم وبينه, إذا أردتموه بعد ذلك, وتختلف قلوبكم فإن اللّه يحول بين المرء وقلبه, يقلب القلوب حيث شاء, ويصرفها, أنى شاء. فليكثر العبد من قول "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك" يا مصرف القلوب, اصرف قلبي إلى طاعتك . "وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ " أي: تجمعون ليوم لا ريب فيه, فيجازي المحسن بإحسانه, والمسيء بعصيانه.

"وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ "
"وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً " بل تصيب فاعل الظلم وغيره. وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير, فإن عقوبته, تعم الفاعل وغيره. وتُتَّقَى هذه الفتنة, بالنهي عن المنكر, وقمع أهل الشر والفساد, وأن لا يمكنوا من المعاصي والظلم, مهما أمكن. " وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ " لمن تعرض لمساخطه, وجانب رضاه.

"وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ "
يقول تعالى - ممتنا على عباده, في نصرهم بعد الذلة, وتكثيرهم بعد القله, وإغنائهم بعد العيلة . "وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ " أي: مقهورون تحت حكم غيركم " تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ " أي: يأخذوكم . "فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ " فجعل لكم بلدا تأوون إليه, وانتصر من أعدائكم على أيديكم, وغنمتم من أموالهم, ما كنتم به أغنياء . "لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " اللّه على منته العظيمة, وإحسانه التام, بأن تعبدوه, ولا تشركوا به شيئا.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ "
يأمر تعالى, عباده المؤمنين, أن يؤدوا ما ائتمنهم اللّه عليه, من أوامره, ونواهيه. فإن الأمانة قد عرضها اللّه على السماوات والأرض والجبال, فأبين أن يحملنها وأشفقن منها, وحملها الإنسان, إنه كان ظلوما جهولا. فمن أدى الأمانة, استحق من اللّه الثواب الجزيل, ومن لم يؤدها بل خانها, استحق العقاب الوبيل, وصار خائنا للّه وللرسول ولأمانته, منقصا لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات, وأقبح الشيات, وهي الخيانة, مفوتا لها أكمل الصفات وأتمها, وهي: الأمانة.

"وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ "
ولما كان العبد ممتحنا بأمواله وأولاده, فربما حملته محبته ذلك, على تقديم هوى نفسه, على أداء أمانته, أخبر اللّه تعالى أن الأموال والأولاد, فتنة يبتلى اللّه بهما عبادة, وأنهما عارية, ستؤدى لمن أعطاها, وترد لمن استودعها "وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ". فإن كان لكم عقل ورَأْيٌ, فآثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة. فالعاقل يوازن بين الأشياء, ويؤثر أولاها بالإيثار, وأحقها بالتقديم.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ "
امتثال العبد لتقوى ربه, عنوان السعادة, وعلامة الفلاح. وقد رتب اللّه على التقوى من خير الدنيا والآخرة, شيئا كثيرا. فذكر هنا, أن من اتقى اللّه, حصل له أربعة أشياء, كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها: الأول: الفرقان, وهو: العلم والهدى, الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال, والحق والباطل, والحلال والحرام, وأهل السعادة من أهل الشقاوة. الثاني والثالث, تكفير السيئات, ومغفرة الذنوب. وكل واحد منها داخل في الآخر, عند الإطلاق, وعند الاجتماع. يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر, ومغفرة الذنوب, بتكفير الكبائر. الرابع: الأجر العظيم, والثواب الجزيل, لمن اتقاه, وآثر رضاه على هوى نفسه . "وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ".

"وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ "
أي واذكر, أيها الرسول, ما منَّ اللّه به عليك . "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا " حين تشاور

المشركون في دار الندوة, فيما يصنعون بالنبي صلى الله عليه وسلم, إما أن يثبتوه عندهم بالحبس, ويوثقوه. وإما أن يقتلوه فيستريحوا - بزعمهم - من دعوته. وإما أن يخرجوه ويجلوه من ديارهم. فكلٌّ أبدى من هذه الآراء رأيا رآه. فاتفق رأيهم, على رأي رآه شريرهم, أبو جهل, لعنه اللّه. وهو أن يأخذ من كل قبيلة من قبائل قريش, فتى, ويعطوه سيفا صارما, ويقتله الجميع قتلة رجل واحد, ليتفرق دمه في القبائل. فيرضى بنو هاشم ثَمَّ بديته, فلا يقدرون على مقاومة جميع قريش. فترصدوا للنبي صلى الله عليه وسلم, في الليل, ليوقعوا به, إذا قام من فراشه. فجاء الوحي من السماء, وخرج عليهم, فذرَّ على رءوسهم التراب وخرج, وأعمى اللّه أبصارهم عنه. حتى إذا استبطأوه, جاءهم آت وقال: خيبكم اللّه, قد خرج محمد, وذَرَّ على رءوسكم التراب. فنفض كل منهم التراب عن رأسه. ومنع اللّه رسوله منهم, وأذن له في الهجرة إلى المدينة. فهاجر إليها, وأيده اللّه بأصحابه المهاجرين والأنصار. ولم يزل أمره يعلو, حتى دخل مكة عنوة, وقهر أهلها. فأذعنوا له, وصاروا تحت حكمه, بعد أن خرج مستخفيا منهم, خائفا على نفسه. فسبحان اللطيف بعباده الذي لا يغالبه مغالب.

"وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ "
يقول تعالى - في بيان عناد المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم - "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا" الدالة على صدق ما جاء به الرسول . "قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ " وهذا من عنادهم وظلمهم. وإلا فقد تحداهم اللّه, أن يأتوا بسورة من مثله, ويدعوا من استطاعوا من دون اللّه, فلم يقدروا على ذلك, وتبين عجزهم. فهذا القول الصادر من هذا القائل, مجرد دعوى, كذبه الواقع. وقد علم أنه صلى الله عليه وسلم أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب, ولا رحل ليدرس, من أخبار الأولين, فأتى بهذا الكتاب الجليل, الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

"وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ "
"وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا " الذي يدعو إليه محمد "هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ " قالوه على وجه الجزم منهم بباطلهم, والجهل بما ينبغي من الخطاب. فلو أنهم إذ أقاموا على باطلهم من الشبه والتمويهات, ما أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة ويقين منه - قالوا لمن ناظرهم, وادعى أن الحق معه. إن كان هذا هو الحق من عندك, فاهدنا له, لكان أولى لهم وأستر لظلمهم. فمنذ قالوا: " اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ " الآية, علم بمجرد قولهم, أنهم السفهاء الأغبياء, الجهلة الظالمون. فلو عاجلهم اللّه بالعقاب, لما أبقى منهم باقية.

"وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ "
ولكنه تعالى, دفع عنهم العذاب, بسبب وجود الرسول بين أظهرهم فقال : "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ " فوجوده صلى الله عليه وسلم, أمنة لهم من العذاب. وكانوا مع قولهم هذه المقالة, التي يظهرونها على رءوس الأشهاد, يدرون بقبحها فكانوا يخافون من وقوعها فيهم, فيستغفرون اللّه تعالى فلهذا قال "وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ". فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم, بعد ما انعقدت أسبابه.

"وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ "
ثم قال "وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ " أي: أي شيء يمنعهم من عذاب اللّه, وقد فعلوا ما يوجب ذلك وهو صد الناس عن المسجد الحرام, خصوصا صدهم النبي صلى الله عليه وسلم, وأصحابه, الذين هم أولى به منهم. ولهذا قال : "وَمَا كَانُوا " أي المشركون " أَوْلِيَاءَهُ " يحتمل أن الضمير يعود إلى اللّه, أي: أولياء اللّه. ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام, أي: وما كانوا أولى به من غيرهم. " إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ " وهم الذين آمنوا باللّه ورسوله, وأفردوا اللّه بالتوحيد والعبادة, وأخلصوا له الدين . "وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " فلذلك ادَّعَوْا لأنفسهم أمرا, غيرهم أولى به.

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ "
يعني: أن الله تعالى, إنما جعل بيته الحرام, ليقام فيه دينه, وتخلص له فيه العبادة.
فالمؤمنون, هم الذين قاموا بهذا الأمر. وأما هؤلاء المشركون, الذين يصدون عنه, فما كان صلاتهم فيه, التي هي أكبر أنواع العبادات " إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ". أي صفيرا وتصفيقا, فعل الجهلة الأغبياء, الذين ليس في قلوبهم تعظيم لربهم, ولا معرفة بحقوقه, ولا احترام لأفضل البقاع وأشرفها. فإذا كانت هذه صلاتهم فيه, فكيف ببقية العبادات؟!!. فبأي شيء كانوا أولى بهذا البيت من المؤمنين, الذين هم في صلاتهم خاشعون, والذين هم عن اللغو معرضون, إلى آخر ما وصفهم الله به من الصفات الحميدة, والأفعال السديدة. لا جرم, أورثهم الله بيته الحرام, ومكنهم منه. وقال- يعد ما مكن لهم منه - "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ". وقال هنا "فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ".

"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ "
يقول تعالى- مبينا لعداوة المشركين, وكيدهم, ومكرهم, ومبارزتهم لله ولرسوله, وسعيهم في إطفاء نوره, وإخماد كلمته, وأن وبال مكرهم سيعود عليهم, ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله, فقال: " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ " أي: ليبطلوا الحق, وينصروا الباطل, ويبطل توحيد الرحمن, ويقوم دين عبادة الأوثان. " فَسَيُنْفِقُونَهَا " أي: فسيصدرون هذه النفقة, وتخف عليهم, لتمسكهم بالباطل, وشدة بغضهم للحق. "ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً " أي: ندامة, وخزيا, وذلا. "ثُمَّ يُغْلَبُونَ " فتذهب أموالهم, وما أملوا, ويعذبون في الآخرة أشد العذاب. ولهذا قال: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ " أي: يجمعون إليها, ليذوقوا عذابها, وذلك لأنها دار الخبث والخبثاء.

"لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ "
والله تعال يريد أن يميز الخبيث من الطيب, ويجعل كل واحد على حدة, وفي دار تخصه. فيجعل الخبيث بعضه على بعض, من الأعمال, والأموال والأشخاص. "فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ " الذين خسروا أنفسهم, وأهليهم يوم القيامة, ألا ذلك هو الخسران المبين.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ "
هذا من لطفه تعالى بعباده, لا بمنعه كفر العباد, ولا استمرارهم في العناد, من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى, وينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغي والردى, فقال: "قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا " عن كفرهم, وذلك بالإسلام لله وحده لا شريك له. "يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ " منهم من الجرائم "وَإِنْ يَعُودُوا " إلى كفرهم وعنادهم "فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ " بإهلاك الأمم المكذبة, فلينتظروا ما حل بالمعاندين, فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون. فهذا خطابه للمكذبين.

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ "
وأما خطابه للمؤمنين, عندما أمرهم بمعاملة الكافرين, فقال: "وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ " أي: شرك, وصد عن سبيل الله ويذعنوا لأحكام الإسلام. "وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ " فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين, أن يدفع شرهم عن الدين, وأن يذب عن دين الله, الذي خلق الخلق له, حتى يكون هو العالي على سائر الأديان. "فَإِنِ انْتَهَوْا " عن ما هم عليه من الظلم "فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ " لا تخفى عليه منهم خافية.

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ "
"وَإِنْ تَوَلَّوْا " عن الطاعة, وأوضعوا في الإضاعة "فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى " الذي يتولى عباده المؤمنين, ويوصل إليهم مصالحهم, وييسر لهم منافعهم الدينية والدنيوية. "وَنِعْمَ النَّصِيرُ " الذي ينصرهم, فيدفع عنهم كيد الفجار, وتكالب الأشرار. ومن كان الله مولاه وناصره, فلا خوف عليه, ومن كان الله عليه, فلا عِزَّ له, ولا قائمة تقوم له.

"وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "
يقول تعالى : "وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ " أي: أخذتم من مال الكفار قهرا بحق, قليلا كان أو كثيرا . "فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ " أي: وباقيه لكم, أيها الغانمون, لأنه أضاف الغنيمة إليهم, وأخرج منها خمسها. فدل على أن الباقي لهم, يقسم على ما قسمه رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: للراجل سهم, والفارس سهمان سهم لفرسه, وسهم له. وأما هذا الخمس, فيقسم خمسة أسهم, سهم للّه ولرسوله, يصرف في مصالح المسلمين العامة, من غير تعيين لمصلحة, لأن اللّه جعله له ولرسوله, واللّه ورسوله غنيان عنه, فعلم أنه لعباد اللّه. فإذا لم يعين اللّه له مصرفا, دل على أن مصرفه للمصالح العامة. والخمس الثاني: لذي القربى, وهم قرابة النبي صلى الله عليه وسلم, من بني هاشم, وبني المطلب. وأضافه اللّه إلى القرابة, دليلا على أن العلة فيه, مجرد القرابة, فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم, ذكرهم وأنثاهم. والخمس الثالث, لليتامى وهم: الذين فقدت آباؤهم, وهم صغار, جعل اللّه لهم خمس الخمس, رحمة بهم, حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم, وقد فقد من يقوم بمصالحهم. والخمس الرابع للمساكين, أي: المحتاجين الفقراء, من صغار, وكبار, ذكور, وإناث والخمس الخامس, لابن السبيل, وهو: الغريب المنقطع به في غير بلده. وبعض المفسرين يقول: إن خمس الغنيمة لا يخرج عن هذه الأصناف, ولا يلزم أن يكونوا فيه, على السواء, بل ذلك تبع للمصلحة, وهذا هو الأولى.
وجعل اللّه أداء الخمس على وجهه, شرطا للإيمان فقال: " إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ " وهو يوم "بدر" الذي فرق اللّه به بين الحق والباطل, وأظهر الحق: وأبطل الباطل . "يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ " جمع المسلمين, وجمع الكافرين. أي: إن كان إيمانكم باللّه, وبالحق الذي أنزله اللّه على رسوله يوم الفرقان, الذي حصل فيه من الآيات والبراهين, ما دل على أن ما جاء به هو الحق . "وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " لا يغالب أحد إلا غلبه.

"إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ "
" إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا " أي: بعدوة الوادي القريبة من المدينة . "وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى " أي: جانبه البعيد من المدينة, فقد جمعكم واد واحد . "وَالرَّكْبُ " الذي خرجتم لطلبه, وأراد اللّه غيره " أَسْفَلَ مِنْكُمْ " مما يلي ساحل البحر . "وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ " أنتم وإياهم على هذا الوصف, وبهذه الحال " لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ " أي لا بد من تقدم أو تأخر, أو اختيار منزل, أو غير ذلك, مما يعرض لكم, أو لهم, يصدفكم عن ميعادهم . "وَلَكِنْ " اللّه جمعكم على هذه الحال "لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا " أي: مقدرا في الأزل لا بد من وقوعه. " لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ " أي ليكون حجة وبينة للمعاند, فيختار الكفر على بصيرة وجزم ببطلانه, فلا يبقى له عذر عند اللّه . "وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ " أي: يزداد المؤمن بصيرة ويقينا, بما أرى اللّه الطائفتين من أدلة الحق وبراهينه, ما هو تذكرة لأولي الألباب . "وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ " سميع لجميع الأصوات, باختلاف اللغات, على تفنن الحاجات . "عَلِيمٌ " بالظواهر, والضمائر, والسرائر, والغيب, والشهادة.

"إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ "
وكان اللّه قد أرى رسوله, المشركين في الرؤيا, قليلا, فبشر بذلك أصحابه, فاطمأنت قلوبهم, وتثبتت أفئدتهم . "وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا " فأخبرت بذلك أصحابك "لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ". فمنكم من يرى الإقدام على قتالهم, ومنكم من لا يرى ذلك, والتنازع مما يوجب الفشل . "وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ " أي: لطف بكم " إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ " أي: بما فيها من ثبات وجزع, وصدق وكذب.

"وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ

مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ "
فعلم اللّه من قلوبكم, ما صار سببا للطفه وإحسانه بكم, وصدق رؤيا رسوله. فأرى اللّه المؤمنين عدوهم, قليلا في أعينهم, ويقللكم - يا معشر المؤمنين - في أعينهم. فكل من الطائفتين, ترى الأخرى قليلة, لتقدم كل منهما على الأخرى . "لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا " من نصر المؤمنين, وخذلان الكافرين وقتل قادتهم, ورؤساء الضلال منهم, ولم يبق منهم أحد, له اسم يذكر, فيتيسر بعد ذلك انقيادهم إذا دعوا إلى الإسلام, فصار أيضا لطفا بالباقين, الذين مَنَّ اللّه عليهم بالإسلام . "وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ " أي: جميع أمور الخلائق ترجع إلى اللّه, فيميز الخبيث من الطيب, ويحكم في الخلائق بحكمه العادل, الذي لا جور فيه, ولا ظلم.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ "
يقول تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً " أي: طائفة من الكفار تقاتلكم . "فَاثْبُتُوا " لقتالها, واستعملوا الصبر, وحبس النفس, على هذه الطاعة الكبيرة, التي عاقبتها العز والنصر. واستعينوا على ذلك, بالإكثار من ذكر اللّه "لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " أي: تدركون ما تطلبون, من الانتصار على أعدائكم. فالصبر والثبات, والإكثار من ذكر اللّه, من أكبر الأسباب للنصر.

"وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ "
"وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ " في استعمال ما أمروا به, والمشي خلف ذلك في جميع الأحوال . "وَلَا تَنَازَعُوا " تنازعا يوجب تشتيت القلوب وتفرقها . "فَتَفْشَلُوا " أي: تجبنوا " وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ " أي: وتنحل عزائمكم, وتفرق قوتكم, ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة اللّه ورسوله . "وَاصْبِرُوا " نفوسكم على طاعة اللّه " إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ " بالعون والنصر والتأييد, واخشعوا لربكم, واخضعوا له.

"وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ "
"وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ " أي: هذا مقصدهم الذي خرجوا إليه, وهذا الذي أبرزهم من ديارهم, لقصد الأشر والبطر في الأرض, وليراهم الناس ويفخروا لديهم. والمقصود الأعظم: أنهم خرجوا, ليصدوا عن سبيل اللّه, من أراد سلوكه . "وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ " فلذلك أخبركم بمقاصدهم, وحذركم أن تشبهوا بهم, فإنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة. فليكن قصدكم في خروجكم, وجه اللّه تعالى, وإعلاء دين اللّه, والصد عن الطريق الموصلة إلى سخط اللّه وعقابه, وجذب الناس إلى سبيل اللّه القويم, الموصل لجنات النعيم.

"وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ "
"وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ " حسنها في قلوبهم . "وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ", فإنكم في عَدَدٍ وعُدَدٍ, وهيئة لا يقاومكم فيها محمد ومن معه . "وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ " من أن يأتيكم أحد, ممن تخشون غائلته, لأن إبليس قد تبدَّى لقريش في سورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي وكانوا يخافون من بني مدلج, لعداوة كانت بينهم. فقال لهم الشيطان: أنا جار لكم, فاطمأنت نفوسهم, وأتوا على حرد قادرين. فلما "تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ " المسلمون والكافرون, فرأى الشيطان جبريل عليه السلام يزع الملائكة خاف خوفا شديدا و "نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ " أي: ولى مدبرا . "وَقَالَ " لمن خدعهم وغرهم: " إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ". أي: أرى الملائكة الذين لا يدان لأحد بقتالهم. " إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ " أي: أخاف أن يعاجلني بالعقوبة في الدنيا "وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ". ومن المحتمل أن يكون الشيطان, سول لهم, ووسوس في صدورهم, أنه لا غالب لهم اليوم من الناس, وأنه جار لهم. فلما أوردهم مواردهم, نكص عنهم, وتبرأ منهم, كما قال تعالى : "كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ

فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ".

"إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ "
" إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ " أي: شك وشبهة, من ضعفاء الإيمان, للمؤمنين, حين أقدموا - مع قلتهم - على قتال المشركين مع كثرتهم . "غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ " أي: أوردهم الدين الذي هم عليه, هذه الموارد, التي لا يدان لهم بها, ولا استطاعة لهم بها. يقولونه, احتقارا لهم, واستخفافا بعقولهم, وهم - والله - الأخفَّاءُ عقولا, الضعفاء أحلاما. فإن الإيمان, يوجب لصاحبه, الإقدام على الأمور الهائلة, التي لا يقدم عليها الجيوش العظام. فإن المؤمن المتوكل على الله, الذي يعلم أنه, ما من حول, ولا قوة, ولا استطاعة لأحد, إلا بالله تعالى. وأن الخلق, لو اجتمعوا كلهم, على نفع شخص, بمثقال ذرة, لم ينفعوه. ولو اجتمعوا على أن يضروه, لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه, وعلم أنه على الحق, وأن الله تعالى حكيم رحيم, في كل ما قدره وقضاه فإنه لا يبالي بما أقدم عليه, من قوة وكثرة, وكان واثقا بربه, مطمئن القلب لا فزعا ولا جبانا. ولهذا قال: " وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ "لا تغالب قوته قوة . "حَكِيمٌ " فيما قضاه وأجراه.

"وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ "
يقول تعالى: ولو ترى الذين كفروا بآيات الله, حين توفاهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم, وقد اشتد بهم القلق, وعظم كربهم, و " الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ " يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم, ونفوسهم ممتنعة مستعصية على الخروج, لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم. ولهذا قال : "وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ " أي: العذاب الشديد المحرق.

"ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ "
ذلك العذاب, حصل لكم غير ظلم ولا جور, من ربكم, وإنما هو بما قدمت أيديكم, من المعاصي, التي أثرت لكم ما أثرت, وهذه سنة الله في الأولين والآخرين. فإن دأب هؤلاء المكذبين أي: سنتهم, وما أجرى الله عليهم من الهلاك, بذنوبهم.

"كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ "
"كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ " من الأمم المكذبة . "كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ "لا يعجزه أحد يريد أخذه , بالعقاب " مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ".

"ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ "
"ذَلِكَ " العذاب الذي أوقعه الله بالأمم المكذبة, وأزال عنهم ما هم فيه, من النعم والنعيم, بسبب ذنوبهم, وتغييرهم ما بأنفسهم . "بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ " من نعم الدين والدنيا, بل يبقيها, ويزيدهم منها, إن ازدادوا له شكرا . "حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ " من الطاعة إلى المعصية, فيكفروا نعمة الله, ويبدلوا بها كفرا, فيسلبهم إياها, ويغيرها عليهم, كما غيروا ما بأنفسهم. ولله الحكمة في ذلك والعدل والإحسان إلى عباده, حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم, وحيث جذب قلوب أوليائه إليه, بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره . "وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " يسمع جميع ما نطق به الناطقون, سواء من أسر القول ومن جهر به. ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر, وتخفيه السرائر, فيجري على عباده من الأقدار, ما اقتضاه علمه, وجرت به مشيئته.

"كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ "
"كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ " أي: فرعون وقومه "وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ " حين

جاءتهم "فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ " كل بحسب جرمه . "وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ " من المهلكين المعذبين "كَانُوا ظَالِمِينَ " لأنفسهم, ساعين في هلاكها, لم يظلمهم اللّه, ولا أخذهم بغير جرم اقترفوه. فليحذر المخاطبون, أن يشابهوهم في الظلم, فيحل اللّه بهم من عقابه, ما أحل بأولئك الفاسقين.

"إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ "
" إِنَّ " هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث - الكفر, وعدم الإيمان, والخيانة - بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه, ولا قول قالوه. هم "شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ " فهم شر من الحمير والكلاب وغيرها, لأن الخير معدوم منهم, والشر متوقع فيهم.

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ "
فإذهاب هؤلاء ومحقهم, هو المتعين, لئلا يسري داؤهم لغيرهم ولهذا قال : "فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ " أي: تجدنهم في حال المحاربة, بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق . "فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ " أي نكل بهم غيرهم, وأوقع بهم من العقوبة, ما يصيرون به, عبرة لمن بعدهم "لَعَلَّهُمْ " أي: من خلفهم "يَذَّكَّرُونَ " صنيعهم, لئلا يصيبهم ما أصابهم. وهذه من فوائد العقوبات والحدود, المرتبة على المعاصي, أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي, بل وزجرا لمن عملها, أن لا يعاودها. ودل تقييد هذه العقوبة في الحرب, أن الكافر - ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر - أنه إذا أُعْطِيَ عهدا لا يجوز خيانته وعقوبته.

"وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ "
أي: وإذا كان بينك وبين قوم, عهد وميثاق, على ترك القتال, فخفت منهم خيانة. بأن ظهر من قرائن أحوالهم, ما يدل على خيانتهم, من غير تصريح منهم بالخيانة . "فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ " عهدهم, أي: ارمه عليهم, وأخبرهم أنه لا عهد بينك وبينهم . "عَلَى سَوَاءٍ " أي: حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك, ولا يحل لك أن تغدرهم, أو تسعى في شيء مما منعه, موجب العهد, حتى تخبرهم بذلك. " إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ " بل يبغضهم أشد البغض. فلا بد من أمر بيِّن, يبرئكم من الخيانة. ودلت الآية, على أنه, إذا وجدت الخيانة المحققة منهم, لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم, لأنه لم يخف منهم, بل علم ذلك, ولعدم الفائدة ولقوله : "عَلَى سَوَاءٍ ". وهنا قد كان معلوما عند الجميع غدرهم. ودل مفهومها أيضا, أنه إذا لم يُخَفْ منهم خيانة, بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك, أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم, بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته.

"وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ "
أي لا يحسب الكافرون بربهم, المكذبون بآياته, أنهم سبقوا اللّه وفاتوه, فإنهم لا يعجزونه, واللّه لهم بالمرصاد. وله تعالى الحكمة البالغة, في إمهالهم, وعدم معاجلتهم بالعقوبة, التي من جملتها, ابتلاء عباده المؤمنين, وامتحانهم, وتزودهم من طاعته ومراضيه, ما يصلون به المنازل العالية, واتصافهم بأخلاق وصفات, لم يكونوا بغيره, بالغيها. فلهذا قال لعباده المؤمنين : "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ " إلى "وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ".

"وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ "
أي : "وَأَعِدُّوا " لأعدائكم الكفار, الساعين في هلاككم, وإبطال دينكم . "مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ " أي: كل ما تقدرون عليه, من القوة العقلية والبدنية; وأنواع الأسلحة ونحو ذلك, مما يعين على قتالهم. فدخل في ذلك, أنواع الصناعات, التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات, من المدافع, والرشاشات, والبنادق, والطيارات الجوية, والمراكب البرية والبحرية, والقلاع, والخنادق, وآلات الدفاع, والرأي والسياسة, التي بها يتقدم المسلمون, ويندفع عنهم به, شر أعدائهم, وتَعَلُّم الرَّمْيِ, والشجاعة, والتدبير. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم "ألا إن القوة الرَّمْيُ". ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال. ولهذا قال تعالى : "وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ". وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان, وهي إرهاب الأعداء, والحكم يدور مع علته. فإذا كان شيء

موجودا أكثر إرهابا منها, كالسيارات البرية والهوائية, المعدة للقتال, التي تكون النكاية فيها أشد, كانت مأمورا بالاستعداد بها, والسعي لتحصيلها. حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلُّم الصناعة, وجب ذلك, لأن "ما لا يتم الواجب إلا به, فهو واجب". وقوله "تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ " ممن تعلمون أنهم أعداؤكم . 'وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ " ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت, الذي يخاطبهم الله به " اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ " فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم. ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذلك, النفقات المالية, في جهاد الكفار. ولهذا قال تعالى مرغبا في ذلك : 'وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ " قليلا كان أو كثيرا "يُوَفَّ إِلَيْكُمْ " أجره يوم القيامة مضاعفا أضعافا كثيرة. حتى إن النفقة في سبيل الله, تضاعف إلى سبعمائة ضعف, إلى أضعاف كثيرة . 'وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ " أي لا تنقصون, من أجرها وثوابها, شيئا.

"وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ "
يقول تعالى 'وَإِنْ جَنَحُوا " أي: الكفار المحاربون أي: مالوا "لِلسَّلْمِ " أي: الصلح وترك القتال . 'فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ " أي: أجبهم إلى ما طلبوا, متوكلا على ربك, فإن في ذلك فوائد كثيرة. منها: أن طلب العافية, مطلوب كل وقت, فإذا كانوا, هم المبتدئين في ذلك, كان أولى لإجابتهم. ومنها: أن في ذلك استجماما لقواكم, واستعدادا منكم لقتالهم في وقت آخر, إن احتيج إلى ذلك. ومنها: أنكم, إذا أصلحتم, وأمن بعضكم بعضا, وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر, فإن الإسلام يعلو, ولا يعلى عليه. فكل من له عقل وبصيرة, إذا كان معه إنصاف, فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان, لحسنه في أوامره ونواهيه, وحسنه في معاملته للخلق, والعدل فيهم, وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه, فحينئذ يكثر الراغبون فيه, والمتبعون له. فصار هذا السلم, عونا للمسلمين على الكافرين. ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة, وهي أن يكون الكفار, قصدهم بذلك, خدع المسلمين, وانتهاز الفرصة فيهم.

"وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ "
فأخبرهم الله, أنه حسبهم وكافيهم خداعهم, وأن ذلك يعود عليهم ضرره فقال : 'وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ " أي: كافيك ما يؤذيك, وهو القائم بمصالحك ومهماتك, فقد سبق لك من كفايته لك ونصره, ما يطمئن به قلبك. وإنه 'هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ " أي: أعانك بمعونة سماوية وهو: النصر منه, الذي لا يقاومه شيء, ومعونة بالمؤمنين بأن قيضهم لنصرك.

"وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ "
'وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ " فاجتمعوا وائتلفوا, وازدادت قوتهم, بسبب إجتماعهم. ولم يكن هذا بسعي أحد, ولا بقوة, غير قوة الله. وإنك "لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا " من ذهب, وفضة وغيرهما, لتأليفهم بعد تلك النفرة, والفرقة الشديدة 'مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ " لأنه لا يقدر على تقليب القلوب إلا الله تعالى . 'وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " ومن عزته, أن ألف بين قلوبهم, وجمعها بعد الفرقة كما قال تعالى : 'وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ".

"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ "
ثم قال تعالى "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ " أي: كافيك 'وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ " أي: وكافي أتباعك من المؤمنين. وهذا وعد من الله, لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله, بالكفاية, والنصرة على الأعداء. فإذا أتوا بالسبب, الذي هو الإيمان والاتباع, فلابد أن يكفيهم ما أهمهم, من أمور الدين والدنيا, وإنما تتخلف الكفاية, بتخلف شرطها.

"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ "
يقول تعالى, لنبيه صلى الله عليه وسلم : "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ " أي:

حثهم واستنهضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم, وينشط هممهم, من الترغيب في الجهاد, ومقارعة الأعداء, والترهيب من ضد ذلك, وذكر فضائل الشجاعة, والصبر, وما يترتب على ذلك, من خير في الدنيا والآخرة, وذكر مضار الجبن, وأنه من الأخلاق الرذيلة, المنقصة للدين والمروءة, وأن الشجاعة بالمؤمنين, أولى من غيرهم " إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ". " إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ " أيها المؤمنون "عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا " يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار. وذلك "بِأَنَّهُمْ " أي: الكفار "قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ " أي لا علم عندهم, بما أعد الله للمجاهدين في سبيله, فهم يقاتلون لأجل العلو في الأرض, والفساد فيها. وأنتم تفقهون المقصود من القتال, أنه لإعلاء كلمة الله, وإظهار دينه والذب عن كتاب الله, وحصول الفوز الأكبر عند الله. وهذه كلها, دواع للشجاعة والصبر, والإقدام على القتال.

"الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ "
ثم إن هذا الحكم خففه الله على العباد فقال: " الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا " فلذلك اقتضت رحمته وحكمته, التخفيف . "فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ " بعونه وتأييده.
وهذه الآيات, صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين, بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين, يغلبون ذلك المقدار المعين في مقابلته من الكفار, وأن الله يمتن عليهم, بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية. ولكن معناها وحقيتها, الأمر, وأن الله أمر المؤمنين - في أول الأمر - أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة, والعشرة من المائة, والمائة من الألف.
ثم إن الله خفف ذلك, فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثليهم من الكفار, فإن زادوا على مثليهم, جاز لهم الفرار, ولكن يرد على هذا أمران. أحدهما: أنها بصورة الخبر, والأصل في الخبر, أن يكون على بابه, وأن المقصود بذلك, الامتنان, والإخبار بالواقع.
والثاني: تقييد ذلك العدد, أن يكونوا صابرين, بأن يكونوا متدربين على الصبر. ومفهوم هذا, أنهم إذا لم يكونوا صابرين, فإنه يجوز لهم الفرار, ولو أقل من مثلهم, إذا غلب على ظنهم الضرر, كما تقتضيه الحكمة الإلهية. ويجاب عن الأول, بأن قوله: " الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ " إلى آخرها, دليل على أن هذا الأمر لازم, وأمر محتم, ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد. فهذا ظاهر في أنه أمر, وإن كان في صيغة الخبر. وقد يقال: إن في إتيانه بلفظ الخبر, نكتة بديعة لا توجد فيه, إذا كان بلفظ الأمر. وهي: تقوية قلوب المؤمنين, والبشارة بأنهم, سيغلبون الكافرين. ويجاب عن الثاني: أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين, أنه حث على الصبر, وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك. فإذا فعلوها, صارت الأسباب الإيمانية, والأسباب المادية, مبشرة بحصول ما أخبر الله به, من النصر, لهذا العدد القليل

مَّا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ "
هذه معاتبة من الله لرسوله وللمؤمنين, يوم "بدر" إذ أسروا المشركين, وأبقوهم لأجل الفداء. وكان رَأْيُ أمير المؤمنين, عمر بن الخطاب في هذه الحال, قتلهم واستئصالهم.
فقال تعالى : "مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ " أي: ما ينبغي, ولا يليق به, إذا قاتل الكفار, الذين يريدون أن يطفئوا نور الله, ويسعونَ لإخماد دينه, وأن لا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله, أن يتسرع إلى أسرهم وإبقائهم, لأجل الفداء, الذي يحصل منهم, وهو عرض قليل, بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادتهم, وإبطال شرهم.
فما دام لهم شر وصولة, فالأوفق أن لا يؤسروا. فإذا أثخن في الأرض, وبطل شر المشركين, واضمحل أمرهم, فحينئذ لا بأس بأخذ الأسرى منهم, وإبقائهم. يقول تعالى: " تُرِيدُونَ " بأخذكم الفداء وإبقائهم "عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا " أي لا لمصلحة تعود إلى دينكم. " وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ " بإعزاز دينه, ونصر أوليائه, وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم, فيأمركم بما يوصل إلى ذلك . "وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " أي: كامل العزة, ولو شاء أن ينتصر من الكفار, من دون قتال, لفعل ولكنه حكيم, يبتلي بعضكم ببعض.

"لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ "
"لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ " به القضاء والقدر, أنه قد أحل لكم الغنائم, وأن اللّه رفع عنكم - أيتها الأمة - العذاب "لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ " وفي الحديث "لو نزل عذاب يوم بدر, ما نجا منه إلا عمر".

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ "
'فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا " وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة, أن أحل لها الغنائم, ولم تحل لأمة قبلها . 'وَاتَّقُوا اللَّهَ " في جميع أموركم ولازموها, شكرا لنعم اللّه عليكم. " إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ " يغفر لمن تاب إليه, جميع الذنوب. ويغفر لمن لم يشرك به شيئا, جميع المعاصي . 'رَحِيمٌ " بكم, حيث أباح لكم الغنائم, وجعلها حلالا طيبا.

"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ "
وهذه نزلت في أسارى يوم بدر, وكان من جملتهم, العباس, عم رسول اللّه صلى الله عليه وسلم. فلما طلب منه الفداء, ادَّعى أنه مسلم قبل ذلك, فلم يسقطوا عنه الفداء. فأنزل اللّه تعالى, جبرا لخاطره, ومن كان على مثل حاله . "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ " أي: من المال, بأن ييسر لكم من فضله, خيرا كثيرا, مما أخذ منكم . 'وَيَغْفِرْ لَكُمْ " ذنوبكم, ويدخلكم الجنة 'وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ". وقد أنجز اللّه وعده للعباس وغيره, فحصل له - بعد ذلك - من المال, شيء كثير. حتى إنه مرة, لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم, مال كثير, أتاه العباس, فأمره أن يأخذ منه بثوبه, ما يطيق حمله فأخذ منه, ما كاد أن يعجز عن حمله.

وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ "
'وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ " في السعي لحربك, ومنابذتك . 'فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ " فليحذروا خيانتك, فإنه تعالى قادر عليهم, وهم تحت قبضته. واللّه عليم حكيم أي: عليم بكل شيء, حكيم, يضع الأشياء مواضعها. ومن علمه وحكمته, أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة, وقد تكفل بكفايتكم, شأن الأسرى وشرهم, إن أرادوا خيانة.

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ "
هذا عقد موالاة ومحبة, عقدها اللّه بين المهاجرين, الذين آمنوا وهاجروا في سبيل اللّه. وتركوا أوطانهم للّه, لأجل الجهاد في سبيل اللّه. وبين الأنصار, الذين آووا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم, وأصحابه وأعانوهم في ديارهم وأموالهم وأنفسهم. فهؤلاء, بعضهم, أولياء بعض, لكمال إيمانهم, وتمام اتصال بعضهم ببعض . 'وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ". فإنهم قطعوا ولايتكم, بانفصالهم عنكم, في وقت شدة الحاجة إلى الرجال. فلما لم يهاجروا, لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء. لكنهم 'وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ " أي: لأجل قتال من قاتلهم " فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ " والقتال معهم. وأما من قاتلوهم لغير ذلك, من المقاصد, فليس عليكم نصرهم. وقوله تعالى " إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ " أي: عهد بترك القتال, فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون, الذين لم يهاجروا قتالهم, فلا تعينوهم عليهم, لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق . 'وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ " يعلم ما أنتم عليه, من الأحوال, فيشرع لكم من الأحكام, ما يليق بكم.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ "
لما عقد الولاية بين المؤمنين, أخبر أن الكفار, حيث جمعهم الكفر فبعضهم أولياء بعض, فلا يواليهم إلا كافر مثلهم. وقوله " إِلَّا تَفْعَلُوهُ " أي: موالاة المؤمنين, ومعاداة الكافرين, بأن واليتموهم أو عاديتموهم كلهم, أو واليتم الكافرين, وعاديتم المؤمنين "تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي

الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ " فإنه يحصل بذلك, من الشر, ما لا ينحصر, من اختلاط الحق بالباطل, والمؤمن بالكافر, وعدم كثير من العبادات الكبار, كالجهاد, والهجرة, وغير ذلك من مقاصد الشرع, والدين, التي تفوت, إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء, بعضهم لبعض.

"وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ "
الآيات السابقات, في ذكر عقد الموالاة, بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار. وهذه الآيات, في بيان مدحهم وثوابهم, فقال : "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ " من المهاجرين والأنصار أي: المؤمنون "حَقًّا " لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به, من الهجرة, والنصرة, والموالاة, بعضهم لبعض, وجهادهم لأعدائهم, من الكفار والمنافقين . "لَهُمْ مَغْفِرَةٌ " من اللّه, تمحى بها سيئاتهم, وتضمحل بها زلاتهم. ولهم "وَرِزْقٌ كَرِيمٌ " أي: خير كثير, من الرب الكريم, في جنات النعيم. وربما حصل لهم من الثواب المعجل, ما تقر به أعينهم, وتطمئن به قلوبهم.

"وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ "
وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار, ممن اتبعهم بإحسان فآمن وهاجر وجاهد في سبيل اللّه . "فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ " لهم ما لكم وعليهم ما عليكم. فهذه الموالاة الإيمانية - وقد كانت في أول الإسلام - لها وقع كبير, وشأن عظيم حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم, آخى بين المهاجرين والأنصار. أخوة خاصة, غير الأخوة الإيمانية العامة, وحتى كانوا يتوارثون بها, فأنزل اللّه "وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ". فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات, وأصحاب الفروض. فإن لم يكونوا, فأقرب قراباته, من ذوي الأرحام, كما دل عليه عموم الآية الكريمة. وقوله "فِي كِتَابِ اللَّهِ " أي: في حكمه وشرعه. " إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " ومنه ما يعلمه, من أحوالكم, التي يجري من شرائعه الدينية عليكم, ما يناسبها. تم تفسير سورة الأنفال - وللّه الحمد والمنة

سورة التوبة

"بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ "
أي: هذه براءة من اللّه, ومن رسوله إلى جميع المشركين المعاندين, أن لهم أربعة أشهر, يسيحون في الأرض على اختيارهم, آمنين من المؤمنين, وبعد الأربعة الأشهر, فلا عهد لهم, ولا ميثاق. وهذا لمن كان له عهد مطلق, غير مقدر, أو مقدر بأربعة أشهر, فأقل. أما من كان له عهد مقدر, بزيادة على أربعة أشهر, فإنه يتعين أن يتمم له عهده, إذا لم يخف منه خيانة, ولم يبدأ بنقض العهد. ثم أنذر المعاهدين في مدة عهدهم, أنهم, وإن كانوا آمنين, فإنهم لن يعجزوا اللّه, ولن يفوتوه. وأنه, من استمر منهم على شركه, فإنه لا بد أن يخزيه. فكان هذا, مما يجلبهم إلى الدخول في الإسلام, إلا من عاند, وأصر, ولم يبال بوعيد اللّه.

"وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ "
هذا ما وعد اللّه به المؤمنين, من نصر دينه, وإعلاء كلمته, وخذلان أعدائهم, من المشركين, الذين أخرجوا الرسول ومن معه, من مكة, من بيت اللّه الحرام, وأجلوهم مما لهم التسلط عليه, من أرض الحجاز. نصر اللّه رسوله والمؤمنين حتى افتتح مكة, وأذل المشركين, وصار للمؤمنين, الحكم والغلبة, على تلك الديار. فأمر النبي صلى الله عليه وسلم, مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر, وهو: يوم النحر, وقت اجتماع الناس, مسلمهم, وكافرهم, من جميع جزيرة العرب, أن يؤذن بأن اللّه بريء ورسوله من المشركين. فليس لهم عنده, عهد وميثاق, فأينما وجدوا قتلوا, وقيل لهم لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا, وكان سنة تسع من الهجرة. وحج بالناس أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه, وأذن ببراءة يوم النحر, ابن عم رسول اللّه صلى الله عليه

وسلم, علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه. ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة, ورهبهم من الاستمرار على الشرك فقال : 'قَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ". أي: فائتيه, بل أنتم في قبضته, قادر أن يسلط عليكم عباده المؤمنين. " وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ " أي: مؤلم مفظع في الدنيا, بالقتل, والأسر, والجلاء, وفي الآخرة, بالنار, وبئس القرار.

"إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ "
أي هذه البراءة التامة المطلقة, من جميع المشركين. " إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " واستمروا على عهدهم, ولم يجر منهم ما يوجب النقص, فلا نقصوكم شيئا, ولا عاونوا عليكم أحدا, فهؤلاء أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم, قَلَّتْ, أو كثرت. لأن الإسلام لا يأمر بالخيانة, وإنما يأمر بالوفاء. " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ " الذين أدوا ما أمروا به, واتقوا الشرك والخيانة, وغير ذلك, من المعاصي.

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ "
يقول تعالى 'قَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ " أي: التي حرم فيها قتال المشركين المعاهدين, وهي أشهر التيسير الأربعة, وتمام المدة, لمن له مدة أكثر منها, فقد برئت منهم الذمة. " فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ " في أي مكان وزمان. 'وَخُذُوهُمْ " أسرى " وَاحْصُرُوهُمْ " أي: ضيقوا عليهم, فلا تدعوهم يتوسعون في بلاد اللّه وأرضه, التي جعلها معبدا لعباده. فهؤلاء, ليسوا أهلا لسكناها, ولا يستحقون منها شبرا, لأن الأرض أرض اللّه, وهم أعداؤه, المنابذون له ولرسله, المحاربون, الذين يريدون أن تخلو الأرض من دينه, ويأبى اللّه إلا أن يتم نوره, ولو كره الكافرون . 'وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ " أي: كل ثنية وموضع, يمرون عليه, ورابطوا في جهادهم, وابذلوا غاية مجهودكم في ذلك, ولا تزالوا على هذا الأمر, حتى يتوبوا من شركهم. ولهذا قال : 'قَإِنْ تَابُوا " من شركهم 'وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ " أي: أدوها بحقوقها 'وَآتُوا الزَّكَاةَ " لمستحقيها 'قَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ " أي: اتركوهم, وليكونوا مثلكم, لهم ما لكم, وعليهم ما عليكم. " إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ " يغفر الشرك فما دونه, للتائبين, ويرحمهم, بتوفيقهم للتوبة, ثم قبولها منهم. وفي هذه الآية, دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة, فإنه يقاتل حتى يؤديها, كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ "
لما كان ما تقدم من قوله 'قَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ " أمرا عاما في جميع الأحوال, وفي كل الأشخاص منهم, ذكر تعالى, أن المصلحة إذا اقتضت تقريب بعضهم, جاز, بل وجب ذلك فقال : 'وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ " أي: طلب منك أن تجيره, وتمنعه من الضرر, لأجل أن يسمع كلام اللّه, وينظر حالة الإسلام . 'قَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ " ثم إن أسلم, فذاك, وإلا فأبلغه مأمنه, أي: المحل الذي يأمن فيه. والسبب في ذلك, أن الكفار قوم لا يعلمون. فربما كان استمرارهم على كفرهم, لجهل منهم, إذا زال, اختاروا عليه الإسلام. فلذلك أمر اللّه رسوله, وأمته أسوته في الأحكام, أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام اللّه. وفي هذا حجة صريحة, لمذهب أهل السنة والجماعة, القائلين بأن القرآن كلام اللّه غير مخلوق, لأنه تعالى, هو المتكلم به, وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها. وبطلان مذهب المعتزلة, ومن أخذ بقولهم: أن القرآن مخلوق. وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول, ليس هذا, محل ذكرها.

"كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ "
هذا بيان للحكمة الموجبة, لأن يتبرأ اللّه ورسوله من المشركين, فقال : "كَيْفَ يَكُونُ

لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ " هل قاموا بواجب الإيمان, أم تركوا رسول اللّه والمؤمنين من أذيتهم؟. حاربوا الحق ونصروا الباطل؟ أما سعوا في الأرض فسادا, فيحق عليهم أن يتبرأ اللّه منهم, وأن لا يكون لهم عهد عنده, ولا عند رسوله؟. " إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ " فإن لهم - في العهد - وخصوصا في هذا المكان الفاضل - حرمة أوجب أن يراعوا فيها . "فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ", ولهذا قال : "كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا " إلى قوله "لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ".

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ "
أي : "كَيْفَ " يكون للمشركين عند اللّه عهد وميثاق والحال أنهم "وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ " بالقدرة والسلطة لا يرحموكم, و " لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً " أي لا ذمة ولا قرابة, ولا يخافون اللّه فيكم, بل يسومونكم سوء العذاب, فهذه حالكم معهم لو ظهروا. ولا يغرنكم منهم, ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم, فإنهم "يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ " الميل والمحبة لكم, بل هم الأعداء حقا, المبغضون لكم صدقا . "وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ " لا ديانة لهم, ولا مروءة.

"اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "
" اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا " أي: اختاروا الحظ العاجل الخسيس في الدنيا. على الإيمان باللّه ورسوله, والانقياد لآيات اللّه . "فَصَدُّوا " بأنفسهم, وصدوا غيرهم "عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "

"لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ "
" لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً " أي: لأجل عداوتهم للإيمان " إِلًّا وَلَا ذِمَّةً " أي: لأجل عداوتهم للإيمان وأهله. فالوصف, الذي جعلهم يعادونكم لأجله ويبغضونكم, هو الإيمان. فذبوا عن دينكم, وانصروه, واتخذوا من عاداه, عدوا, ومن نصره لكم وليا, واجعلوا الحكم يدور معه, وجودا وعدما لا تجعلوا الولاية والعداوة, طبعية تميلون بها, حيثما مال الهوى, وتتبعون فيها النفس الأمارة بالسوء, ولهذا:

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ "
"فَإِنْ تَابُوا " عن شركهم, ورجعوا إلى الإيمان "وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ " وتناسوا تلك العداوة إذ كانوا مشركين, لتكونوا عباد اللّه المخلصين, وبهذا يكون العبد, عبدا حقيقة. لما بين من أحكامه العظيمة ما بين, ووضح منها ما وضح, أحكاما وحِكَمًا, وحُكْمًا, وحكمة قال : "وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ " أي: نوضحها ونميزها "لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ " فإليهم سياق الكلام. وبهم تعرف الآيات والأحكام, وبهم عرف دين الإسلام, وشرائع الدين. اللهم اجعلنا من القوم الذين يعلمون, ويعملون بما يعلمون, برحمتك وجودك, وكرمك, وإحسانك, يا رب العالمين.

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ "
يقول تعالى - بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين, إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء . "وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ " أي: نقضوها وحلوها, أو أعانوا على قتالكم, أو نقصوكم . "وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ " أي: عابوه, وسخروا منه. ويدخل في هذا, جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين, أو إلى القرآن . "فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ " أي: القادة فيه, الرؤساء الطاعنين في دين الرحمن, الناصرين لدين الشيطان. وخصهم بالذكر, لعظم جنايتهم, ولأن غيرهم تبع. وليدل على أن من طعن في الدين, وتصدى للرد عليه, فإنه من أئمة الكفر. " إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ " أي لا عهود, ولا مواثيق, يلازمون على الوفاء بها, بل لا يزالون خائنين, ناكثين للعهد لا يوثق منهم . "لَعَلَّهُمْ " في قتالهم إياهم " يَنْتَهُونَ " عن الطعن في دينكم, وربما دخلوا فيه

"أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ

فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ "
ثم حث على قتالهم, وهيج المؤمنين بذكر الأوصاف, التي صدرت من هؤلاء الأعداء, والتي هم موصوفون بها, المقتضية لقتالهم فقال: " أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ " الذي يجب احترامه, وتوقيره, وتعظيمه؟ وهموا أن يجلوه ويخرجوه من وطنه, وسعوا في ذلك ما أمكنهم .. 'وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ " حيث نقضوا العهد, وأعانوا عليكم. وذلك حيث أعانت قريش - وهم معاهدون - بني بكر حلفاءهم, على خزاغة, حلفاء رسول اللّه صلى الله عليه وسلم, وقاتلوا معهم كما هو مذكور مبسوط في السيرة. " أَتَخْشَوْنَهُمْ " في ترك قتالهم 'فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ". فاللّه أمركم بقتالهم, وأكد ذلك عليكم غاية التأكيد. فإن كنتم مؤمنين, فامتثلوا لأمر اللّه, ولا تخشوهم, فتتركوا أمر اللّه.

"قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ "
ثم أمر بقتالهم وذكر مات يترتب على قتالهم من الفوائد, وكل هذا, حث وإنهاض للمؤمنين على قتالهم فقال : 'قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ " بالقتل 'وَيُخْزِهِمْ " إذا نصركم اللّه عليهم, وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم ويحرص عليه . 'وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ " هذا وعد من اللّه وبشارة, قد أنجزها . 'وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ "

وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ "
'وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ " فإن في قلوبهم من الحنق والغيظ عليهم, ما يكون قتالهم وقتلهم, شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغم, والهم, إذ يرون هؤلاء الأعداء, محاربين للّه ولرسوله, ساعين في إطفاء نور اللّه, وزوالا للغيظ, الذي في قلوبكم. وهذا يدل على محبة اللّه للمؤمنين, واعتنائه بأحوالهم. حتى إنه جعل - من جملة المقاصد الشرعية - شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم. ثم قال : 'وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ " من هؤلاء المحاربين, بأن يوفقهم للدخول في الإسلام, ويزينه في قلوبهم, ويُكَرِّهَ إليهم الكفر والفسوق والعصيان . 'وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " يضع الأشياء مواضعها, ويعلم من يصلح للإيمان فيهديه, ومن لا يصلح, فيبقيه في غيه وطغيانه.

"أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ "
يقول تعالى لعباده المؤمنين - بعد ما أمرهم بالجهاد-: " أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا " من دون ابتلاء وامتحان, وأمر بما يبين به الصادق والكاذب . 'وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ " أي: علما يظهر ما في القوة إلى الخارج, ليترتب عليه الثواب والعقاب. فيعلم الذين يجاهدون في سبيله: لإعلاء كلمته 'وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً " أي: وليا من الكافرين, بل يتخذون اللّه ورسوله والمؤمنين أولياء. فشرع اللّه الجهاد, ليحصل به هذا المقصود الأعظم, وهو أن يتميز الصادقون, الذين لا يتحيزون إلا لدين اللّه, من الكاذبين, الذين يزعمون الإيمان, وهم يتخذون الولائج والأولياء, من دون اللّه, ورسوله, والمؤمنين. " اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ " أي: ما يصير منكم ويصدر, فيبتليكم بما تظهر به حقيقة ما أنتم عليه, ويجازيكم على أعمالكم, خيرها وشرها

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ "
يقول تعالى : 'مَا كَانَ " أي ما ينبغي ولا يليق "لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللّهِ " بالعبادة, والصلاة, وغيرها من أنواع الطاعات, والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر, بشهادة حالهم وفطرهم, وعلم كثير منهم, أنهم على الكفر والباطل. فإذا كانوا شَّاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ " وعدم الإيمان, الذي هو شرط لقبول الأعمال, فكيف يزعمون أنهم عُمَّارُ مساجد اللّه, والأصل منهم مفقود, والأعمال منهم باطلة؟!!. ولهذا قال: " أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ " أي: بطلت وصلت 'وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ".

"إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ "

ثم ذكر من هم عمار مساجد اللّه فقال: " إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ " الواجبة والمستحبة, بالقيام بالظاهر منها والباطن . 'وَآتَى الزَّكَاةَ " لأهلها 'وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ " أي قصر خشيته على ربه, فكف عنه ما حرم اللّه, ولم يقصر بحقوق اللّه الواجبة. فوصفهم بالإيمان النافع, وبالقيام بالأعمال الصالحة, التي أمُّها, الصلاة, والزكاة, وبخشية اللّه التي هي أصل كل خير. فهؤلاء عمار المساجد على الحقيقة وأهلها, الذين هم أهلها . 'فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ " و "عسى" من اللّه واجبة. وأما من لم يؤمن باللّه, ولا باليوم الآخر, ولا عنده خشية للّه, فهذا ليس من عمار مساجد اللّه, ولا من أهلها, الذين هم أهلها, وإن زعم ذلك, وادعاه.

"أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ "
لما اختلف بعض المسلمين, أو بعض المسلمين وبعض المشركين, في تفضيل عمارة المسجد الحرام, بالبناء, والصلاة, والعبادة فيه, وسقاية الحاج, على الإيمان باللّه, والجهاد في سبيله - أخبر اللّه تعالى بالتفاوت بينهما, فقال: " أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ " أي: سقيهم الماء من زمزم, كما هو المعروف, إذا أطلق هذا الاسم, أنه هو المراد 'وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ". فالجهاد والإيمان باللّه, أفضل من سقاية الحاج, وعمارة المسجد الحرام, بدرجات كثيرة, لأن الإيمان, أصل الدين, وبه تقبل الأعمال, وتزكو الخصال. وأما الجهاد في سبيل اللّه, فهو ذروة سنام الدين, به يحفظ الدين الإسلامي, ويتسع, وينصر الحق, ويخذل الباطل. وأما عمارة المسجد الحرام, وسقاية الحاج, فهي, وإن كانت أعمالا صالحة, فهي متوقفة على الإيمان, وليس فيها من المصالح, ما في الإيمان والجهاد, فلذلك قال: " لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ " أي: الذين وصفهم الظلم, الذين لا يصلحون لقبول شيء من الخير, بل لا يليق بهم إلا الشر.

"الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ "
ثم صرح بالفضل فقال: " الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ " بالنفقة في الجهاد, وتجهيز الغزاة 'وَأَنْفُسِهِمْ " بالخروج بالنفس " أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ " أي لا يفوز بالمطلوب, ولا ينجو من المرهوب, إلا من اتصف بصفاتهم, وتخلق بأخلاقهم.

"يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ "
"يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ " رحمة منه, وكرما, وبرا بهم, واعتناء ومحبة لهم . "بِرَحْمَةٍ مِنْهُ " أزال بها عنهم الشرور, وأوصل إليهم بها كل خير . 'وَرِضْوَانٌ " منه تعالى عليهم, الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله, فيحل عليهم رضوانه, فلا يسخط عليهم أبدا . 'وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ " من كل ما تشتهيه الأنفس, وتلذ الأعين, مما لا يعلم وصفه ومقداره, إلا اللّه تعالى, الذي منه أن اللّه أعد للمجاهدين في سبيله, مائة درجة, ما بين كل درجتين, كما بين السماء والأرض, ولو اجتمع الخلق في درجة واحدة منها لوسعتهم.

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ "
'خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا 'لا ينتقلون عنها, ولا يبغون عنها حِوَلًا. " إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ 'لا تستغرب كثرته على فضل اللّه, ولا يتعجب من عظمه وحسنه, على من يقول للشيء كن فيكون.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ "
يقول تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا " اعملوا بمقتضى الإيمان, بأن توالوا من قام به, وتعادوا من لم يقم به. و " لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ " الذين هم أقرب الناس إليكم. وغيرهم من باب أولى وأحرى, فلا تتخذوهم " أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا " أي: اختاروا على وجه الرضا والمحبة " الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ". 'وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ " لأنهم تجرأوا

على معاصي اللّه, واتخذوا أعداء اللّه أولياء. وأصل الولاية: المحبة والنصرة. وذلك أن اتخاذهم أولياء, موجب لتقديم طاعتهم على طاعة اللّه, ومحبتهم على محبة اللّه ورسوله.

قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ "
ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك, وهو أن محبة اللّه ورسوله, يتعين تقديمها على محبة كل شيء, وجعل جميع الأشياء تابعة لهما فقال : "قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ " ومثلهم الأمهات " وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ " في النسب والعشيرة "وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ " أي: قراباتكم عموما "وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا " أي: اكتسبتموها, وتعبتم في تحصيلها. خصها بالذكر, لأنها أرغب عند أهلها, وصاحبها أشد حرصا عليها, ممن تأتيه الأموال من غير تعب ولا كَدّ . "وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا " أي: رخصها ونقصها, وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات, من الأثمان, والأواني, والأسلحة, والأمتعة, والحبوب, والحروث, والأنعام, وغير ذلك , "وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا " من حسنها وزخرفتها, وموافقتها لأهوائكم. فإن كانت هذه الأشياء " أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ " فأنتم فسقة ظلمة. " فَتَرَبَّصُوا " أي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب "حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ " الذي لا مرد له. " وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ " أي: الخارجين عن طاعة اللّه, المقدمين على محبة اللّه, شيئا من المذكورات. وهذه الآية الكريمة, أعظم دليل على وجوب محبة اللّه ورسوله, وعلى تقديمها على محبة كل شيء. وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد, على من كان شيء من المذكورات أحب إليه من اللّه ورسوله, وجهاد في سبيله. وعلامة ذلك, أنه إذا عرض عليه أمران, أحدهما يحبه اللّه ورسوله, وليس لنفسه فيها هوى. والآخر, تحبه نفسه وتشتهيه, ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوبًا للّه ورسوله, أو ينقصه. فإنه إن قدم ما تهواه نفسه, على ما يحبه اللّه, دل على أنه ظالم, تارك لما يجب عليه.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ "
يمتن تعالى, على عباده المؤمنين, بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء, ومواضع الحروب والهجاء, حتى في يوم "حنين" الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة, ورأو من التخاذل والفرار, ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبها وسعتها. وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم, لما فتح مكة, سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه. فسار إليهم صلى الله عليه وسلم, في أصحابه, الذين فتحوا مكة, وممن أسلم من الطلقاء, أهل مكة. فكانوا اثنى عشر ألفا, والمشركون أربعة آلاف. فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم, وقال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة. فلما التقوا, هم وهوازن, حملوا على المسلمين حملة واحدة, فانهزموا لا يلوي أحد على أحد, ولم يبق مع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم, إلا نحو مائة رجل, ثبتوا معه, وجعلوا يقاتلون المشركين. وجعل النبي صلى الله عليه وسلم, يركض بغلته نحو المشركين ويقول "أنا النبي لا كذب, أنا ابن عبد المطلب". ولما رأى من المسلمين ما رأى, أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار, وبقية المسلمين, وكان رفيع الصوت فناداهم: يا أصحاب السمرة, يا أهل سورة البقرة. فلما سمعوا صوته, عطفوا عطفة رجل واحد, فاجتلدوا مع المشركين. فهزم اللّه المشركين, هزمة شنيعة, واستولوا على معسكرهم, ونسائهم, وأموالهم. وذلك قوله تعالى "لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ " وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف. " إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا " أي: لم تفدكم شيئا, قليلا ولا كثيرا "وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ " بما أصابكم من الهم والغم, حين انهزمتم "بِمَا رَحُبَتْ " أي على رحبها وسعتها . "ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ " أي منهزمين.

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ "
"ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ " والسكينة: ما يجعله اللّه في القلوب, وقت القلاقل والزلازل, والمفظعات, ما يثبتها, ويسكنها, ويجعلها مطمئنة, وهي

من نعم اللّه العظيمة على العباد . "وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا " وهم الملائكة, أنزلهم اللّه معونة للمسلمين يوم حنين, يثبتونهم, ويبشرونهم بالنصر . "وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا " بالهزيمة والقتل, واستيلاء المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم . "وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ " يعذبهم اللّه في الدنيا, ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب غليظ.

"ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ "
"ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ " فتاب اللّه على كثير, ممن كانت الوقعة عليهم, وأتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم, مسلمين تائبين, فرد عليهم نساءهم, وأولادهم . "وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " أي: ذو مغفرة واسعة, ورحمة عامة, يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين, ويرحمهم - بتوفيقهم للتوبة والطاعة, والصفح عن جرائمهم, وقبول توباتهم. فلا ييأسنَّ أحد من رحمته ومغفرته, ولو فعل من الذنوب والإجرام, ما فعل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ "
يقول تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ " باللّه الذين عبدوا معه غيره "نَجَسٌ " أي خبثاء في عقائدهم وأعمالهم. وأي نجاسة أبلغ, ممن كان يعبد مع اللّه آلهة لا تنفع ولا تضر, ولا تغني عنه شيئا؟!!. وأعمالهم ما بين محاربة للّه, وصد عن سبيل اللّه, ونصر للباطل, ورد للحق, وعمل بالفساد في الأرض لا في الصلاح. فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها, عنهم . "فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا " وهو سنة تسع من الهجرة, حين حج بالناس أبو بكر الصديق. وبعث النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمه, عليا, أن يؤذن يوم الحج الأكبر بـ "براءة". فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك, ولا يطوف بالبيت عريان. وليس المراد هنا, نجاسة البدن, فإن الكافر - كغيره - طاهر البدن, بدليل أن اللّه تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها, ولم يأمر بغسل ما أصاب منها. والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار, ولم ينقل عنهم أنهم تقذروا ا منها, تَقَذُّرَهُم من النجاسات. وإنما المراد - كما تقدم - نجاستهم المعنوية, بالشرك. فكما أن التوحيد والإيمان, طهارة, فالشرك نجاسة. وقوله "وَإِنْ خِفْتُمْ " أيها المسلمون "عَيْلَةً " أي: فقرا وحاجة, من منع المشركين من قربان المسجد الحرام, بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم, من الأمور الدنيوية . "فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ " فليس الرزق مقصورا على باب واحد, ومحل واحد, بل لا ينغلق باب, إلا وفتح غيره أبواب كثيرة, فإن فضل اللّه واسع, وجوده عظيم. خصوصا لمن ترك شيئا لوجه اللّه الكريم, فإن اللّه أكرم الأكرمين. وقد أنجز اللّه وعده, فإن اللّه قد أغنى المسلمين من فضله, وبسط لهم من الأرزاق, ما كانوا به من أكبر الأغنياء والملوك. وقوله: " إِنْ شَاءَ " تعليق للإغناء بالمشيئة, لأن الغنى في الدنيا, ليس من لوازم الإيمان, ولا يدل على محبة اللّه, فلهذا علقه اللّه بالمشيئة. فإن اللّه يعطي الدنيا, من يحب, ومن لا يحب, ولا يعطي الإيمان والدين, إلا من يحب. " إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " أي: علمه واسع, يعلم من يليق به الغنى, ومن لا يليق. ويضع الأشياء مواضعها, وينزلها منازلها. وتدل الآية الكريمة, وهي قوله "فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ", أن المشركين - بعد ما كانوا, هم الملوك والرؤساء بالبيت, ثم صار بعد الفتح, الحكم لرسول اللّه والمؤمنين, مع إقامتهم في البيت, ومكة المكرمة, ثم نزلت هذه الآية. ولما مات النبي صلى الله عليه وسلم, أمر أن يجلوا من الحجاز, فلا يبقى فيها دينان. وكل هذا لأجل بُعْدِ كل كافر عن المسجد الحرام, فيدخل في قوله "فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ".

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ "
هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من " الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ " إيمانا صحيحا يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم . "وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ " فلا يتبعون شرعه, في تحريم المحرمات . "وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ " أي لا يدينون بالدين الصحيح, وإن زعموا أنهم على دين, فإنه دين, غير الحق. لأنه إما دين مبدل, وهو: الذي لم يشرعه اللّه أصلا. وإما دين منسوخ قد شرعه اللّه, ثم غيره بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم, فيبقى التمسك به بعد النسخ, غير جائز. فأمره بقتال هؤلاء, وحث على ذلك,

لأنهم يدعون إلى ما هم عليه, ويحصل الضرر الكثير منهم للناس, بسبب أنهم أهل كتاب.
وغيى ذلك القتال 'حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ " أي: المال الذي يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم, وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم, بين أظهر المسلمين, يؤخذ منهم كل عام, كلٌّ على حسب حاله, من غني, وفقير, ومتوسط, كما فعل ذلك أمير المؤمنين, عمر بن الخطاب وغيره, من أمراء المؤمنين. وقوله 'عَنْ يَدٍ " أي: حتى يبذلوها في حال ذلهم, وعدم اقتدارهم, ويعطوها بأيديهم, فلا يرسلون بها خادما, ولا غيره, بل لا تقبل إلا من أيديهم . 'وَهُمْ صَاغِرُونَ ". فإذا كانوا بهذه الحال, وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية, وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم, وحال الأمن من شرهم وفتنتهم, واستسلموا للشروط التي أجراها المسلمون, بما ينفي عزهم وتكبرهم, ويوجب ذلهم وصغارهم, وجب على الإمام أو نائبه, أن يعقدها لهم. وإلا, بأن لم يفوا, ولم يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون, لم يجز إقرارهم بالجزية, بل يقاتلون حتى يسلموا. واستدلوا بهذه الآية, الجمهور, الذين يقولون لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب, لأن اللّه لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم. وأما غيرهم, فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا. وألحق بأهل الكتاب - في أخذ الجزية, وإقرارهم في ديار المسلمين, المجوس. فإن النبي صلى الله عليه وسلم, أخذ الجزية من مجوس هجر. ثم أخذها أمير المؤمنين عمر, من الفرس المجوس. وقيل: إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار, من أهل الكتاب وغيرهم. لأن هذة الآية, نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم, فيكون هذا القيد إخبارا بالواقع لا مفهوما له. ويدل على هذا, أن المجوس أخذت منهم الجزية, وليسوا أهل كتاب. ولأنه قد تواتر عن المسلمين, من الصحابة ومن بعدهم, أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث. إما الإسلام, أو أداء الجزية, أو السيف, من غير فرق بين كِتَابِيٍّ وغيره.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ "
لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب, ذكر من أقوالهم الخبيثة, ما يهيج المؤمنين الذين يغارون لربهم ولدينهم, على قتالهم, والاجتهاد وبذل الوسع فيه فقال : 'وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ " وهذه المقالة, وإن لم تكن مقالة لعامتهم فقد قالها فرقة منهم فيدل ذلك, على أن في اليهود, من الخبث والشر, ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة, التي تجرأوا فيها على اللّه, وتنقصوا عظمته وجلاله وقد قيل: إن سبب ادعائهم في "عزير" أنه ابن اللّه, أنه لما تسلط الملوك على بني إسرائيل, ومزقوهم كل ممزق, وقتلوا حَمَلَةَ التوراة, وجدوا عزيرا بعد ذلك,, حافظا لها أو أكثرها, فأملاها عليهم من حفظه, واستنسخوها, فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة . 'وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ " عيسى بن مريم " ابْنُ اللَّهِ ". قال اللّه تعالى 'ذَلِكَ " القول الذي قالوه 'قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ " لم يقيموا عليه حجة ولا برهانا. ومن كان لا يبالي بما يقول لا يستغرب عليه أي قول يقوله, فإنه لا دين ولا عقل, يحجزه, عما يريد من الكلام. ولهذا قال : "يُضَاهِئُونَ " أي: يشابهون في قولهم هذا 'قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ " أي: قول المشركين الذين يقولون: "الملائكة بنات اللّه" تشابهت أقوالهم في البطلان . 'قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ " أي: كيف يصرفون على الحق, الصرف الواضح المبين, إلى القول الباطل المبين.

"اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ "
وهذا - وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة, أن تتفق على قول - يدل على بطلانه, أدنى تفكر وتسليط للعقل عليه - فإن لذلك سببا وهو أنهم: " اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ " وهم علماؤهم 'وَرُهْبَانَهُمْ " أي: العُبَّاد المتجردين للعبادة. " أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ "يُحِلُّون لهم ما حرم اللّه, فيحلونه, ويحرمون لهم ما أحل اللّه فيحرمونه, ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها. وكانوا أيضا يغلون في مشايخهم وعبادهم, ويعظمونهم, ويتخذون قبورهم أوثانا, تعبد من دون اللّه, وتقصد بالذبائح, والدعاء, والاستغاثة . 'وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ " اتخذوه إلها من دون اللّه والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر اللّه لهم على ألسنة رسله قال اللّه تعالى : 'وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ " فيخلصون له العبادة والطاعة, ويخصونه بالمحبة والدعاء. فنبذوا أمر اللّه,

وأشركوا به, ما لم ينزل به سلطانا. "سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ " أي: تنزه وتقدس, وتعالت عظمته عن شركهم وافترائهم, فإنهم ينتقصونه في ذلك, ويصفونه بما لا يليق بجلاله. واللّه تعالى العالي في أوصافه وأفعاله, عن كل ما نسب إليه, مما ينافي كماله المقدس. فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه, ولا برهان لما أضَّلوه, وإنما هو مجرد قول قالوه, وافتراء افتروه - أخبر أنهم "يُرِيدُونَ " بهذا " أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ". ونور اللّه: دينه, الذي أرسل به الرسل, وأنزل به الكتب. وسماه اللّه نورا, لأنه يستنار به في ظلمات الجهل, والأديان الباطلة. فإنه علم بالحق, وعمل بالحق, وما عداه, فإنه بضده.

"يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ " فهؤلاء اليهود والنصارى, ومن ضاهاهم من المشركين, يريدون أن يطفئوا نور اللّه, بمجرد أقوالهم, التي ليس عليها دليل أصلا. "وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ " لأنه النور الباهر, الذي لا يمكن لجميع الخلق, لو اجتمعوا على إطفائه, أن يطفئوه. والذي أنزله, جميع نواصي العباد بيده. وقد تكفل بحفظه, من كل من يريده بسوء, ولهذا قال: "وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ " وسعوا ما أمكنهم في رده وإبطاله, فإن سعيهم لا يضر الحق شيئا. ثم بين تعالى, هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه, فقال:

"هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ " "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى " الذي هو العلم النافع "وَدِينِ الْحَقِّ " الذي هو العمل الصالح فكان ما بعث اللّه به محمدا صلى الله عليه وسلم, مشتملا على بيان الحق من الباطل, في أسماء اللّه, وأوصافه, وأفعاله, وفي أحكامه وأخباره, والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب, والأرواح, والأبدان, من إخلاص الدين للّه وحده, ومحبة اللّه وعبادته, والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم, والأعمال الصالحة, والآداب النافعة, والنهي عن كل ما يضاد ذلك ويناقضه, من الأخلاق, والأعمال السيئة, المضرة للقلوب والأبدان, والدنيا والآخرة. فأرسله اللّه بالهدى ودين الحق "لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ " أي: ليعليه على سائر الأديان, بالحجة والبرهان, والسيف والسنان. وإن كره المشركون ذلك, وبغوا له الغوائل, ومكروا مكرهم, فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه. فوعد اللّه لا بد أن ينجزه, وما ضمنه, لابد أن يقوم به.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ "
هذا تحذير من اللّه تعالى لعباده المؤمنين, عن كثير من الأحبار والرهبان, أي: العلماء والعباد, الذين يأكلون أموال الناس بالباطل, أي: بغير حق, ويصدون عن سبيل اللّه. فإنهم - إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس, أو بذل الناس لهم من أموالهم - فإنه لأجل علمهم وعبادتهم, ولأجل هداهم وهدايتهم. وهؤلاء يأخذونها, ويصدون الناس عن سبيل اللّه, فيكون أخذهم لها, على هذا الوجه, سحتا وظلما. فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم, إلا ليدلوهم على الطريق المستقيم. ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق, أن يعطوهم ليفتوهم, أو يحكموا لهم بغير ما أنزل اللّه. فهؤلاء الأحبار والرهبان, ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق, وصدهم الناس عن سبيل اللّه. "وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ " أي: يمسكونها "وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ " أي: طرق الخير الموصلة إلى اللّه, وهذا هو الكنز المحرم, أن يمسكها عن النفقة الواجبة, كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات, أو الأقارب, أو النفقة في سبيل اللّه إذا وجبت. " فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ " ثم فسره بقوله:

"يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ "
"يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا " أي: على أموالهم. "فِي نَارِ جَهَنَّمَ " فيحمى كل دينار أو درهم على حدته. "فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ " في يوم القيامة كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة, ويقال لهم توبيخا ولوما: "هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ

فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ " فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم, وعذبتموها بهذا الكنز. وذكر اللّه في هاتين الآيتين, انحراف الإنسان في ماله, وذلك بأحد أمرين: إما أن ينفقه في الباطل, الذي لا يجدي عليه نفعا, بل لا يناله منه إلا الضرر المحض. وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات, التي لا تعين على طاعة اللّه, وإخراجها للصد عن سبيل اللّه. وإما أن يمسك ماله عن إخراجه في الواجبات, و"النهي عن الشيء, أمر بضده".

"إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ "

يقول تعالى " إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ " أي في قضاء اللّه وقدره. " اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا " وهي هذه الشهور المعروفة 'فِي كِتَابِ اللَّهِ " أي في حكمه القدري . "يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ " وأجرى ليلها ونهارها, وقدر أوقاتها فقسمها على هذه الشهور الاثنى عشر شهرا . 'مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ " وهي رجب الفرد, وذو القعدة, وذو الحجة, والمحرم. وسميت حرما, لزيادة حرمتها, وتحريم القتال فيها . 'فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ " يحتمل أن الضمير يعود إلى الاثنى عشر شهرا, وأن اللّه تعالى, بين أنه جعلها مقادير للعباد, وأن تعمر بطاعته, ويشكر اللّه تعالى على مِنَّتِهِ بها, وتقييضها لصالح العباد, فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها. ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم, وأن هذا نهي لهم عن الظلم فيها, خصوصا مع النهي عن الظلم كل وقت, لزيادة تحريمها, وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها. ومن ذلك, النهي عن القتال فيها, على قول من قال: إن القتال في الأشهر الحرم لم ينسخ تحريمه, عملا بالنصوص العامة في تحريم القتال فيها, ومنهم من قال: إن تحريم القتال فيها منسوخ, أخذا بعموم نحو قوله تعالى : 'وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً " أي: قاتلوا جميع أنواع المشركين, والكافرين برب العالمين. ولا تخصوا أحدا منهم بالقتال دون أحد, بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك, قد اتخذوا أهل الإيمان أعداء لهم, لا يألونهم من الشر شيئا. ويحتمل أن 'كَافَّةً " حال من الواو فيكون معنى هذا: وقاتلوا جميعكم المشركين, فيكون فيها وجوب النفير, على جميع المؤمنين. وقد نسخت على هذا الاحتمال بقوله : 'وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً " الآية. 'وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ " بعونه, ونصره, وتأييده. فلتحرصوا على استعمال تقوى اللّه, في سركم, وعلنكم, والقيام بطاعته. خصوصا عند قتال الكفار, فإنه في هذه الحال, بما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

"إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ "

النسيء هو: ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم. وكان من جملة بدعهم الباطلة, أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال, في بعض أوقات الأشهر الحرم, رأوا - بآرائهم الفاسدة - أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم, التي حرم اللّه القتال فيها, وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم, أو يقدموه, ويجعلوا مكانه من أشهر الحل, ما أرادوا. فإذا جعلوه مكانه, أحلوا القتال فيه, وجعلوا الشهر الحلال حراما. فهذا - كما أخبر اللّه عنهم - أنه زيادة في كفرهم وضلالهم, لما فيه من المحاذير. منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم, وجعلوه بمنزلة شرع اللّه ودينه. واللّه ورسوله بريئان منه. ومنها: أنهم قلبوا الدين, فجعلوا الحلال حراما, والحرام حلالا. ومنها: أنهم مَوَّهوا على اللّه بزعمهم, وعلى عباده, ولبسوا عليهم دينهم, واستعملوا الخداع والحيلة في دين اللّه. ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع, مع الاستمرار عليها, يزول قبحها عن النفوس, وربما ظن, أنها عوائد حسنة, فحصل من الغلط والضلال, ما حصل. ولهذا قال : "يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ " أي: ليوافقوها في العدد, فيحلوا ما حرم اللّه. 'زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ " أي: زينت لهم الشياطين, الأعمال السيئة, فرأوها حسنة, بسبب العقيدة المزينة في قلوبهم . 'وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ " أي: الذين انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم, فلو جاءتهم كل آية, لم يؤمنوا. اعلم أن كثيرا من هذه السورة الكريمة, نزلت في غزوة تبوك. إذ ندب النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى غزو الروم, وكان الوقت حارا, والزاد قليلا, والمعيشة عسرة. فحصل من بعض

المسلمين من التثاقل, ما أوجب أن يعاتبهم اللّه تعالى عليه ويستنهضهم, فقال تعالى:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ "
"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا " ألا تعلمون بمقتضى الإيمان, ودواعي اليقين, من المبادرة لأمر اللّه, والمسارعة إلى رضاه, وجهاد أعدائه لدينكم. فـ "مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ " أي: تكاسلتم, وملتم إلى الأرض, والدعة, والكون فيها. " أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ " أي: ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا, وسعى لها, ولم يبال بالآخرة, فكأنه ما آمن بها . "فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا " التي مالت بكم, وقدمتموها على الآخرة " إِلَّا قَلِيلٌ ". أفليس قد جعل اللّه لكم عقولا ,تَزِنُون بها الأمور, وأيها أحق بالإيثار؟. أفليست الدنيا - من أولها إلى آخرها - لا نسبة لها في الآخرة. فما مقدار عمر الإنسان القصير جدا من الدنيا, حتى يجعله الغاية, التي لا غاية وراءها. فيجعل سعيه, وكده وهمه, وإرادته, لا يتعدى الحياة الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار, المشحونة بالأخطار. فبأي رَأي, رأيتم إيثارها على الدار الآخرة, الجامعة لكل نعيم, التي فيها ما تشتهيه الأنفس, وتلذ الأعين, وأنتم فيها خالدون. فواللّه ما آثر الدنيا على الآخرة, من وقر الإيمان في قلبه, ولا من جزل رأيه, ولا من عُدَّ من أولي الألباب.

"إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "
ثم توعدهم على عدم النفير فقال: " إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا " في الدنيا والآخرة. فإن عدم النفير في حال الاستنفار, من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب, لما فيه من المضار الشديدة. فإن المتخلف, قد عصى اللّه تعالى, وارتكب لنهيه, ولم يساعد على نصر دين اللّه, ولا ذب عن كتاب اللّه وشرعه, ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم, الذي يريد أن يستأصلهم, ويمحق دينهم, وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان, بل ربما فَتَّ في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء اللّه. فحقيق بمن هذا حاله, أن يتوعده اللّه بالوعيد الشديد, فقال: " إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا " فإنه تعالى متكفل بنصرة دينه وإعلاء كلمته. فسواء امتثلتم لأمر اللّه, أو ألقيتموه, وراءكم ظهريا . "وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " لا يعجزه شيء أراده, ولا يغالبه أحد.

"إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ "
أي: إلا تنصروا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم, فاللّه غني عنكم, لا تضرونه شيئا. فقد نصره في أقل ما يكون " إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا " من مكة, لما هموا بقتله, وسعوا في ذلك, وحرصوا أشد الحرص, فالجأوه إلى أن يخرج . "ثَانِيَ اثْنَيْنِ " أي: هو وأبو بكر الصديق رضي اللّه عنه. " إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ " أي: لما هربا من مكة, لجآ إلى غار ثور, في أسفل مكة, فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب. فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة, حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما فأنزل اللّه عليهما, من نصره, ما لا يخطر على البال. " إِذْ يَقُولُ " النبي صلى الله عليه وسلم "لِصَاحِبِهِ " أبي بكر لما حزن واشتد قلقه. " لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا " بعونه ونصره وتأييده . "فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ " أي: الثبات والطمأنينة, والسكون المثبتة للفؤاد. ولهذا لما قلق صاحبه سكنه و"قال لا تحزن إن اللّه معنا ". "وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا " وهي الملائكة الكرام, الذين جعلهم اللّه حرسا له . "وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى " أي: الساقطة المخذولة. فإن الذين كفروا, كانوا على حرد قادرين, في ظنهم أنهم يقدرون على قتل الرسول صلى الله عليه وسلم, وأخذه, حنقين عليه, فعملوا غاية مجهودهم في ذلك. فخذلهم اللّه, ولم يتم لهم مقصودهم, بل ولا أدركوا شيئا منه. ونصر اللّه رسوله, بدفعه عنه. وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع. فإن النصر على قسمين, نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم, بأن يتم اللّه لهم ما طلبوا, وقصدوا, ويستولوا على عدوهم, ويظهروا عليهم. والثاني نصر المستضعف, الذين طمع فيه عدوه القادر. فنصر اللّه إياه, أن يرد عنه عدوه, ويدافع عنه, ولعل هذا النصر أنفع النصرين. ونصر اللّه رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني

اثنين من هذا النوع. وقوله "وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا " أي كلماته القدرية, وكلماته الدينية, هي العالية على كلمة غيره, التي من جملتها قوله : "وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ", " إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ", "وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ". فدين الله, هو الظاهر العالي, على سائر الأديان, بالحجج الواضحة, والآيات الباهرة والسلطان الناصر . "وَاللَّهُ عَزِيزٌ " لا يغالبه مغالب, ولا يفوته هارب . "حَكِيمٌ " يضع الأشياء مواضعها, وقد يؤخر نصر حزبه, إلى وقت آخر, اقتضته الحكمة الإلهية. وفي هذه الآية الكريمة, فضيلة أبي بكر الصديق, بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة, وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة, والصحبة الجميلة. وقد أجمع المسلمون, على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة. ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي صلى الله عليه وسلم, كافرا لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها. وفيها فضيلة السكينة, وأنها من تمام نعمة الله على العبد, في أوقات الشدائد والمخاوف, التي تطيش لها الأفئدة, وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه, وثقته بوعده الصادق, وبحسب إيمانه وشجاعته. وفيها: أن الحزن قد يعرض لخواص عباده الصديقين, مع أن الأولى - إذا نزل بالعبد - أن يسعى في ذهابه عنه, فإنه مضعف للقلب, موهن للعزيمة.

"انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ "
يقول تعالى, لعباده المؤمنين - مهيجا لهم على النفير في سبيله:- " انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا " في العسر واليسر, والمنشط والمكره, والحر والبرد, وفي جميع الأحوال . "وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ " أي: ابذلوا جهدكم في ذلك, واستفرغوا وسعكم, في المال والنفس. وفي هذا دليل, على أنه - كما يجب الجهاد في النفس - يجب في المال, حيث اقتضت الحاجة, ودعت لذلك. ثم قال "ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ " أي: الجهاد في النفس والمال, خير لكم من التقاعد عن ذلك, لأن فيه رضا الله تعالى, والفوز بالدرجات العاليات عنده, والنصر لدين الله, والدخول جملة جنده وحزبه.

"لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ "
"لَوْ كَانَ " خروجهم "عَرَضًا قَرِيبًا " أي: لطلب عرض قريب, ومنفعة دنيوية, سهلة التناول وكان السفر "وَسَفَرًا قَاصِدًا " أي: قريبا سهلا. " لَاتَّبَعُوكَ " لعدم المشقة الكثيرة . "وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ " أي: طالت عليهم المسافة, وصعب عليهم السفر, فلذلك تثاقلوا عنك. وليس هذا من أمارات العبودية, بل العبد حقيقة, هو المتعبد لربه في كل حال, القائم بالعبادة السهلة والشاقة, فهذا العبد لله على كل حال . "وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ " أي: سيحلفون لتخلفهم عن الخروج - أن لهم عذرا, وأنهم لا يستطيعون ذلك . "يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ " بالقعود والكذب, والإخبار بغير الواقع . "وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ". وهذا العتاب, إنما هو للمنافقين, الذين تخلفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم, في "غزوة تبوك" وأبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا. فعفا النبي صلى الله عليه وسلم عنهم بمجرد اعتذارهم, من غير أن يمتحنهم, فيتبين له الصادق من الكاذب, ولهذا عاتبه الله على هذه المسارعة إلى قبول اعتذارهم فقال : "عَفَا اللَّهُ عَنْكَ " إلى قوله " فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ "

"عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ "
يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم "عَفَا اللَّهُ عَنْكَ " أي: سامحك, وغفر لك ما أجريت . "لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ " في التخلف "حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ". بأن تمحنهم, ليتبين لك الصادق من الكاذب, فتعذر من يستحق العذر, ممن لا يستحق ذلك.

"لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ "
ثم أخبر, أن المؤمنين باللّه واليوم الآخر لا يستأذنون في ترك الجهاد, بأموالهم وأنفسهم, لأن ما معهم من الرغبة في الخير والإيمان, يحملهم على الجهاد, من غير أن يحثهم عليه حاث, فضلا عن كونهم يستأذنون في تركه من غير عذر . "وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ " فيجازيهم

على ما قاموا به من تقواه. ومن علمه بالمتقين, أنه أخبر, أن من علاماتهم, أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد.

"إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ "

" إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ " أي: ليس لهم إيمان تام, ولا يقين صادق, فلذلك قلّتْ رغبتهم في الخير, وجبنوا عن القتال, واحتاجوا أن يستأذنوا في ترك القتال . 'فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ " أي لا يزالون في الشك والحيرة.

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ "

يقول تعالى: مبينا أن المتخلفين من المنافقين, قد ظهر منهم من القرائن, ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج بالكلية, وأن أعذارهم التي اعتذروها, باطلة, فإن العذر, هو المانع الذي يمنع, إذا بذل العبد وسعه, وسعى في أسباب الخروج, ثم منعه مانع شرعي, فهذا الذي يعذر.

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ "

وأما هؤلاء المنافقون 'وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً " أي: لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب. ولكن لما لم يعدوا له عدة, علم أنهم ما أرادوا الخروج . 'وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ " معكم في الخروج للغزو 'فَثَبَّطَهُمْ " قدرا وقضاء, وإن كان قد أمرهم, وحثهم على الخروج, وجعلهم مقتدرين عليه. ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم, بل خذلهم وثبطهم 'وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ " من النساء والمعذورين.

"لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ "

ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال "لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا " أي: نقصا. " وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ " أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم, وفرقوا جماعتكم المجتمعين. " يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ " أي: هم حريصون على فتنتكم, وإلقاء العداوة بينكم . 'وَفِيكُمْ " أناس ضعفاء العقول سَمَّاعُونَ لَهُمْ " أي: مستجيبون لدعوتهم, يغترون بهم. فإذا كانوا حريصين على خذلانكم, وإلقاء الشر بينكم, وتثبيطكم عن أعدائكم, وفيكم من يقبل منهم, ويستنصحهم. فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين, والنقص الكثير منهم؟. فللّه ما أتم الحكمة حيث ثبطهم, ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم, ولطفا من أن يداخلهم, ما لا ينفعهم, بل يضرهم . 'وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ " فيعلم عباده كيف يحذرونهم, ويبين لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم. ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشر فقال : "لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ " أي: حين هاجرتم إلى المدينة, فبذلوا الجهد . 'وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ": أي: أداروا الأفكار, وأعملوا الحيل, في إبطال دعوتكم, وخذلان دينكم, ولم يقصروا في ذلك . 'حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ " فبطل كيدهم واضمحل باطلهم. فحقيق بمثل هؤلاء, أن يحذر اللّه عباده المؤمنين منهم, وأن لا يبالي المؤمنين,, بتخلفهم عنهم.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ "

أي: ومن هؤلاء المنافقين, من يستأذن في التخلف, ويعتذر بعذر آخر عجيب. فيقول: " ائْذَنْ لِي " في التخلف 'وَلَا تَفْتِنِّي " في الخروج. فإني إذا خرجت, فرأيت نساء بين الأصفر لا أصبر عنهن, كما قال ذلك "الجد بن قيس". ومقصوده في قلبه - قبحه اللّه - الرياء والنفاق ويعبر بلسانه بأن مقصودي مقصود حسن, فإن في خروجي فتنة وتعرضا للشر, وفي عدم خروجي, عافية, وكفا عن الشر. قال اللّه تعالى - مبينا كذب هذا القول - " أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ". فإنه على تقدير صدق هذا القائل في قصده, فإن في التخلف مفسدة كبرى, وفتنة عظمى, محققة, وهي: معصية اللّه, ومعصية رسوله, والتجرى على الإثم الكبير, والوزر العظيم. وأما الخروج, فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف, وهي متوهمة. مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير, ولهذا توعدهم اللّه بقوله : 'وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ

بِالْكَافِرِينَ " ليس لهم عنها مفر ولا مناص, ولا فكاك, ولا خلاص.

"إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ "
يقول تعالى - مبينا أن المنافقين, هم الأعداء حقا, المبغضون للدين صرفا. " إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ " كنصر وإدالة على العدو "تَسُؤْهُمْ " أي: تحزنهم وتغمهم . "وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ " كإدالة العدو عليك "يَقُولُوا " متبجحين بسلامتهم من الحضور معك . "قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ " أي: قد حذرنا وعملنا, بما ينجينا من الوقوع في مثل هذه المصيبة . "وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ " بمصيبتك, وبعدم مشاركتهم إياك فيها.

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ "
قال تعالى - رادا عليهم في ذلك - "قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا " أي: ما قدره وأجراه في اللوح المحفوظ . "هُوَ مَوْلَانَا " أي: متولي أمورنا الدينية والدنيوية, فعلينا الرضا بأقداره, وليس في أيدينا من الأمر شيء . "وَعَلَى اللَّهِ " وحده "فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ " أي: ليعتمدوا عليه, في جلب مصالحهم, ودفع المضار عنهم, وليثقوا به في تحصيل مطلوبهم, فلا خاب من توكل عليه. وأما من توكل على غيره, فإنه مخذول, غير مدرك لما أمل.

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ "
أي: قل للمنافقين, الذين يتربصون بكم الدوائر: أي شيء تربصون بنا؟ فإنكم لا تربصون بنا, إلا أمرا, فيه غاية نفعنا, وهو إحدى الحسنيين. إما الظفر بالأعداء, والنصر عليهم, ونيل الثواب الأخروي والدنيوي. وإما الشهادة التي هي من أعلى درجات الخلق, وأرفع المنازل عند اللّه. وأما تربصنا بكم - يا معشر المنافقين - فنحن نتربص بكم, أن يصيبكم اللّه بعذاب من عنده, لا سبب لنا فيه, أو بأيدينا, بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم . "فَتَرَبَّصُوا " بنا الخير " إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ " بكم الشر.

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ "
يقول تعالى - مبينا بطلان نفقات المنافقين, وذاكرا السبب في ذلك - "قُلْ " لهم " أَنْفِقُوا طَوْعًا " من أنفسكم " أَوْ كَرْهًا " على ذلك, بغير اختياركم . "لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ " شيء من أعمالكم " إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ " خارجين عن طاعة اللّه.

وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ "
ثم بين صفة فسقهم وأعمالهم بقوله : "وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ " والأعمال كلها, شرط قبولها, الإيمان, فهؤلاء, لا إيمان لهم, ولا عمل صالح. حتى إن الصلاة, التي هي أفضل أعمال البدن, إذا قاموا إليها, قاموا كسالى, وقد بين اللّه ذلك فقال : "وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى " أي: متثاقلون, لا يكادون يفعلونها, من ثقلها عليهم . "وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ " من غير انشراح صدر, وثبات نفس. ففي هذا, غاية الذم, لمن فعل مثل فعلهم. وأنه ينبغي للعبد, أن لا يأتي الصلاة, إلا وهو نشيط البدن, والقلب إليها. ولا ينفق, إلا وهو منشرح الصدر, ثابت القلب, يرجو ذخرها وثوابها من اللّه وحده, ولا يتشبه بالمنافقين.

"فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ "
يقول تعالى: فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم, فإنه لا غبطة فيها. وأول بركاتها عليهم, أن قدموها على مراضي ربهم, وعصوا اللّه لأجلها " إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ". والمراد بالعذاب هنا, ما ينالهم من المشقة في تحصيلها, والسعي الشديد في ذلك, وهم القلب فيها, وتعب البدن. فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم, لم يكن لها نسبة إليها, فهي - لما ألهتهم عن اللّه وذكره - صارت وبالا عليهم, حتى في الدنيا. ومن وبالها العظيم الخطر, أن قلوبهم تتعلق بها, وإرادتهم لا تتعداها فتكون منتهى مطلوبهم,

وغاية مرغوبهم ولا يبقى في قلوبهم للآخرة نصيب, فيوجب ذلك, أن ينتقلوا من الدنيا " وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ". فأي: عقوبة أعظم من هذه العقوبة, الموجبة للشقاء الدائم, والحسرة الملازمة.

"وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ "
"وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ " قصدهم في حلفهم هذا أنهم "قَوْمٌ يَفْرَقُونَ " أي: يخافون الدوائر, وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبينوا أحوالهم. فيخافون إن أظهروا حالهم منكم, ويخافون أن تتبرأوا منهم, فيتخطفهم الناس من كل جانب. وأما حال قوي القلب, ثابت الجنان, فإنه يحمله ذلك, على بيان حاله, حسنة كانت أو سيئة. ولكن المنافقين خلع عليهم خلعة الجبن, وحلوا بحلية الكذب.

"لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ "
ثم ذكر شدة جبنهم فقال : "لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً " يلجأون إليه عندما تنزل بهم الشدائد. " أَوْ مَغَارَاتٍ " يدخلونها, فيستقرون فيها " أَوْ مُدَّخَلًا " أي: محلا يدخلونه فيتحصنون فيه "لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ " أي: يسرعون ويهرعون. فليس لهم ملكة, يقتدرون بها على الثبات.

"وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ "
أي: ومن هؤلاء المنافقين, من يعيبك في قسمة الصدقات, وينتقد عليك فيها. وليس انتقادهم فيها وعيبهم, لقصد صحيح, ولا لرأي رجيح, وإنما مقصودهم أن يعطوا منها. " فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ " وهذه حالة لا ينبغي للعبد أن يكون رضاه وغضبه, تابعا لهوى نفسه الدنيوي, وغرضه الفاسد. بل الذي ينبغي, أن يكون لمرضاة ربه, كما قال النبي صلى الله عليه وسلم , لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به".

"وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ "
وقال هنا :"وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ " أي: أعطاهم من قليل وكثير . "وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ " أي: كافينا الله, فنرضى بما قسمه لنا. وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا :"سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ " أي: متضرعون في جلب منافعنا, ودفع مضارنا. ثم بين تعالى كيفية قسمة الصدقات الواجبة فقال: " إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ " إلى "عَلِيمٌ حَكِيمٌ ".

"إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ "
يقول تعالى: " إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ " أي: الزكوات الواجبة, بدليل أن الصدقة المستحبة لكل أحد لا يخص بها أحد دون أحد. إنما الصدقات - لهؤلاء المذكورين, دون من عداهم, لأنه حصرها فيهم, وهم ثمانية أصناف. الأول والثاني الفقراء, والمساكين, وهم في هذا الموضع, صنفان متفاوتان. فالفقير, أشد حاجة من المسكين, لأن الله بدأ بهم, ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم, ففسر الفقير, بأنه الذي لا يجد شيئا, أو يجد بعض كفايته دون نصفها. والمسكين: هو الذي يجد نصفها فأكثر, ولا يجد تمام كفايته, لأنه لو وجدها لكان غنيا, فيعطون من الزكاة, ما يزول به فقرهم ومسكنتهم. والثالث: العاملون على الزكاة, وهم: كل من له عمل وشغل فيها, من حافظ لها, وجاب لها من أهلها, أو راع, أو حامل لها, أو كاتب, أو نحو ذلك. فيعطون لأجل عمالتهم, وهي أجرة لأعمالهم فيها. والرابع: المؤلفة قلوبهم. والمؤلفة قلبه هو: السيد المطاع في قومه, ممن يرجى إسلامه, أو يخشى شره أو يرجى بعطيته, قوة إيمانه, أو إسلام نظيره, أو جبايتها ممن لا يعطيها. فيعطى, ما يحصل به التأليف والمصلحة. الخامس: الرقاب, وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم. فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم, فيعانون على ذلك من الزكاة. وفك الرقبة المسلمة التي في حبس الكفار, داخل في هذا, بل أولى. ويدخل في هذا, أنه يجوز أن يعتق الرقاب استقلالا, لدخوله في قوله "وفي الرقاب". السادس, الغارمون,

وهم قسمان: أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين, وهو أن يكون بين طائفتين من الناس, شر وفتنة, فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم, بما يبذله لأحدهم أو لهم كلهم. فجعل له نصيب من الزكاة, ليكون أنشط له, وأقوى لعزمه, فيعطى, ولو كان غنيا. والثاني: من غرم لنفسه, ثم أعسر, فإنه يعطى ما يُوَفَّى به دينه. والسابع: الغازي في سبيل اللّه, وهم: الغزاة المتطوعة, الذين لا ديوان لهم. فيعطون من الزكاة, ما يعينهم على غزوهم, من ثمن سلاح, أو دابة, أو نفقة له ولعياله, ليتوفر على الجهاد, ويطمئن قلبه. وقال كثير من الفقهاء: إن تفرغ القادر على الكسب لطلب العلم, أعطى من الزكاة, لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل اللّه. وقالوا أيضا: يجوز أن يعطى منها الفقير, لحج فرضه, وفيه نظر. والثامن: ابن السبيل, وهو: الغريب المنقطع به في غير بلده. فيعطى من الزكاة, ما يوصله إلى بلده. فهؤلاء الأصناف الثمانية, الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم . 'فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ " فرضها وقدرها, تابعة لعلمه وحكمه 'وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ". واعلم أن هذه الأصناف الثمانية, ترجع إلى أمرين. أحدهما: من يعطى لحاجته ونفعه, كالفقير, والمسكين, ونحوهما. والثاني: من يعطى للحاجة إليه, وانتفاع الإسلام به. فأوجب اللّه هذه الحصة, في أموال الأغنياء, لسد الحاجات الخاصة والعامة, للإسلام والمسلمين. فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم, على الوجه الشرعي, لم يبق فقير من المسلمين. ولحصل من الأموال, ما يسد الثغور, ويجاهد به الكفار, وتحصل به جميع المصالح الدينية.

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "
أي: من هؤلاء المنافقين " الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ " بالأقوال الردية, والعيب له ولدينه. " وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ " أي لا يبالون بما يقولون من الأذية للنبي. ويقولون: إذا بلغه عنا بعض ذلك, جئنا نعتذر إليه, فيقبل منا, لأنه أذن, أي: يقبل كل ما يقال له لا يميز بين صادق وكاذب. وقصدهم - قبحهم اللّه - فيما بينهم, أنهم غير مكترثين بذلك, ولا مهتمين به. لأنه إذا لم يبلغه, فهذا مطلوبهم, وإن بلغه, اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل. فأساءوا كل الإساءة, من أوجه كثيرة, أعظمها أذية نبيهم, الذي جاء لهدايتهم, وإخراجهم من الشقاء والهلاك, إلى الهدى والسعادة. ومنها: عدم اهتمامهم أيضا بذلك, وهو قدر زائد على مجرد الأذية. ومنها: قدحهم في عقل النبي صلى الله عليه وسلم, وعدم إدراكه, وتفريقه بين الصادق والكاذب. وهو أكمل الخلق عقلا, وأتمهم إدراكا, وأثقبهم رأيا وبصيرة, ولهذا قال تعالى : 'قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ " أي: يقبل من قال له خيرا وصدقا. وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكاذبة فلسعة خلقه, وعدم اهتمامه بشأنهم, وامتثاله لأمر اللّه في قوله :'سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ". وأما حقيقة ما في قلبه ورأيه, فقال عنه : "يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ " الصادقين المصدقين, ويعلم الصادق من الكاذب, وإن كان كثيرا ما يعرض عن الذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم . 'وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ " فإنهم به مهتدون, وبأخلاقه يقتدون. وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة, بل ردوها, فخسروا دنياهم وآخرتهم . 'وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ " بالقول والفعل "لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " في الدنيا والآخرة. ومن العذاب الأليم, أنه يتحتم قتل مؤذيه وشاتمه.

"يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ "
"يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ " فيتبرأوا مما صدر منهم من الأذية وغيرها. فغايتهم أن ترضوا عليهم . 'وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ " لأن المؤمن لا يقدم شيئا على رضا ربه. فدل هذا, على انتفاء إيمانهم, حيث قدموا رضا غير اللّه ورسوله.

"أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ "
وهذا محادة للّه, ومشاقة له, وقد توعد من حاده بقوله: " أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ " بأن يكون في حد وشق مبعد عن اللّه ورسوله بأن تهاون بأوامر اللّه, وتجرأ على محارمه . 'فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ " الذي لا خزي أشنع ولا أفظع منه, حيث فاتهم النعيم المقيم, وحصلوا على عذاب الجحيم عياذا باللّه من حالهم.

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ

مَا تَحْذَرُونَ "
كانت هذه السورة الكريمة, تسمى "الفاضحة" لأنها بينت أسرار المنافقين, وهتكت أستارهم. فما زال اللّه يقول: ومنهم ومنهم, ويذكر أوصافهم, إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين. إحداهما: أن اللّه سِتِّيرٌ, يحب الستر على عباده. والثانية: أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين, الذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلي يوم القيامة. فكان ذكر الوصف, أعم وأنسب, حتى خافوا غاية الخوف. قال اللّه تعالى "لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ". وقال هنا "يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ " أي: تخبرهم وتفضحهم, وتبين أسرارهم, حتى تكون علآنية لعباده, ويكونوا عبرة للمعتبرين . "قُلِ اسْتَهْزِئُوا " أي: استمروا على ما أنتم عليه, من الاستهزاء والسخرية. " إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ " وقد وفّى تعالى بوعده, فأنزل هذه السورة التي بينتهم وفضحتهم, وهتكت أستارهم.

"وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ "
"وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ " عما قالوه من الطعن في المسلمين, وفي دينهم, يقول طائفة منهم في غزوة تبوك "ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء - يعنون النبي صلى الله عليه وسلم, وأصحابه - أرغب بطونا, وأكذب ألسنا, وأجبن عند اللقاء ونحو ذلك". ولما بلغهم أن النبي صلى الله عليه وسلم, قد علم بكلامهم, جاءوا يعتذرون إليه ويقولون: " إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ " أي: نتكلم بكلام لا قصد لنا به, ولا قصدنا الطعن والعيب. قال اللّه تعالى - مبينا عدم عذرهم وكذبهم في ذلك :- "قُلْ " لهم " أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ "

"لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ "
" لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ". فإن الاستهزاء باللّه ورسوله, كفر مخرج عن الدين. لأن أصل الدين, مبني على تعظيم اللّه, وتعظيم دينه ورسله. والاستهزاء بشيء من ذلك, مناف لهذا الأصل, ومناقض له أشد المناقضة. ولهذا لما جاءوا إلى الرسول, يعتذرون بهذه المقالة, والرسول لا يزيدهم على قوله " أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ". وقوله " إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ " لتوبتهم واستغفارهم وندمهم . "نُعَذِّبْ طَائِفَةً " منكم "بِأَنَّهُمْ " أي بسبب أنهم "كَانُوا مُجْرِمِينَ " مقيمين على كفرهم ونفاقهم. وفي هذه الآيات, دليل على أن من أسر سريرة, خصوصا السريرة, التي يمكر فيها بدينه, ويستهزئ به وبآياته ورسوله, فإن اللّه تعالى يظهرها ويفضح صاحبها, ويعاقبه أشد العقوبة. وأن من استهزأ بشيء من كتاب اللّه وسنة رسوله الثابتة عنه, أو سخر بذلك, أو تنقصه, أو استهزأ بالرسول, أو تنقصه, فإنه كافر باللّه العظيم, وأن التوبة مقبولة من كل ذنب, وإن كان عظيما.

"الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ "
يقول تعالى: " الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ " لأنهم اشتركوا في النفاق, فاشتركوا في تولي بعضهم بعضا, وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم. ثم ذكر وصف المنافقين العام, الذي لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير, فقال : "يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ " وهو: الكفر, والفسوق, والعصيان . "وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ " وهو: الإيمان, والأخلاق الفاضلة, والأعمال الصالحة, والآداب الحسنة . "وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ " عن الصدقة, وطرق الإحسان, فوصفهم البخل "نَسُوا اللَّهَ " فلا يذكرونه إلا قليلا . "فَنَسِيَهُمْ " من رحمته, فلا يوفقهم لخير, ولا يدخلهم الجنة, بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار, خالدين فيها, مخلدين. " إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ " حصر الفسق فيهم, لأن فسقهم, أعظم من فسق غيرهم, بدليل أن عذابهم, أشد من عذاب غيرهم, وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم, إذ كانوا بين أظهرهم, والاحتراز منهم شديد.

"وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ "

'وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ " جمع المنافقين والكفار, في نار جهنم, واللعنة والخلود في ذلك, لاجتماعهم في الدنيا على الكفر, والمعاداة لله ورسوله, والكفر بآياته.

"كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ "
يقول تعالى واصفا حال المنافقين: إن حالكم - أيها المنافقون - كحال أمثالكم ممن سبقوكم إلى النفاق والكفر, وقد كانوا أقوى منكم وأكثر أموالا وأولادا, استمتعوا بما قدر لهم, من حظوظ الدنيا, وأعرضوا عن ذكر الله وتقواه, وقابلوا أنبياءهم بالاستخفاف, وسخروا منهم فيما بينهم وبين أنفسهم. وقد استمتعتم بما قدر لكم, من ملاذ الدنيا كما استمتعوا, وخضتم فيما خاضوا فيه, من المنكر والباطل. إنهم قد بطلت أعمالهم, فلم تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة, وكانوا هم الخاسرين. وأنتم مثلهم في سوء الحال والمآل, والعاقبة الوخيمة.

"أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ "
يقول تعالى - محذرا للمنافقين, أن يصيبهم ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم المكذبة . 'قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ " أي: قرى قوم لوط. فكلهم " أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ " أي: بالحق الواضح الجلي, المبين لحقائق الأشياء, فكذبوا بها, فجرى عليهم, ما قص الله علينا فأنتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم . 'فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ " أي: بنصيبكم من الدنيا, فتناولتموه على وجه اللذة والشهوة, معرضين عن المراد منه. واستعنتم به على معاصي الله, ولم تتعد همتكم وإرادتكم, ما خولتم من النعم, كما فعل الذين من قبلكم 'وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا " أي: وخضتم بالباطل والزور, وجادلتم بالباطل, لتدحضوا به الحق. فهذه أعمالهم وعلومهم, استمتاع بالخلاق, وخوض بالباطل. فاستحقوا من العقوبة والإهلاك, ما استحق من قبلهم, ممن فعلوا كفعلهم. وأما المؤمنون منهم - وإن استمتعوا بنصيبهم, وما خولوا من الدنيا - فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة الله. وأما علومهم فهي علوم الرسل, وهي الوصول, إلى اليقين في جميع المطالب العالية, والمجادلة بالحق; لإدحاض الباطل. قوله 'قَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ " إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع . 'وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " حيث تجرأوا على معاصيه, وعصوا رسلهم, واتبعوا أمر كل جبار عنيد.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ "
لما ذكر أن المنافقين, بعضهم من بعض, ذكر أن المؤمنين, بعضهم أولياء بعض, ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين فقال : 'وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ" أي: ذكورهم وإناثهم " بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ " في المحبة والموالاة, والانتماء والنصرة . "يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ " وهو اسم جامع, لكل ما عرف حسنه, من العقائد الحسنة, والأعمال الصالحة, والأخلاق الفاضلة, وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم . 'وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ " وهو: كل ما خالف المعروف وناقضه, من العقائد الباطلة, والأعمال الخبيثة, والأخلاق الرذيلة . 'وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ " أي لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام. " أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ " أي: يدخلهم في رحمته, ويشملهم بإحسانه. " إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " أي: قوي قاهر, ومع قوته, فهو حكيم, يضع كل شيء موضعه اللائق به, الذي يحمد على ما خلقه وأمر به.
ثم ذكر ما أعد الله لهم من الثواب فقال:

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ "
'وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ " جامعة لكل نعيم وفرح, خالية من كل أذى وترح, تجري من تحت قصورها, ودورها, وأشجارها - الأنهار الغزيرة,

المروية للبساتين الأنيقة, التي لا يعلم ما فيها من الخيرات, إلا اللّه تعالى . "خَالِدِينَ فِيهَا لا يبغون عنها حِوَلًا "وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ " قد زخرفت, وحسنت, وأعدت لعباد اللّه المتقين. قد طاب مرآها, وطب منزلها ومقيلها, وجمعت من آلات المساكن العالية, ما لا يتمنى فوقه المتمنون, حتى إن اللّه تعالى قد أعد لهم غرفا في غاية الصفاء والحسن, يرى ظاهرها من باطنها, وباطنها من ظاهرها. فهذه المساكن الأنيقة, التي حقيق بأن تسكن إليها النفوس, وتنزع إليها القلوب, وتشتاق لها الأرواح, لأنها في جنات عدن, أي: إقامة لا يظعنون عنها, ولا يتحولون منها . "وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ " يحله على أهل الجنة " أَكْبَرُ " مما هم فيه من النعيم. فإن نعيمهم لم يطب, إلا برؤية ربهم, ورضوانه عليهم. ولأنه الغاية, التي أمَّها العابدون, والنهاية, التي سعى نحوها المحبون. فرضا رب الأرض والسماوات, أكبر من نعيم الجنات . "ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ " حيث حصلوا على كل مطلوب, وانتفى عنهم كل محذور, وحسنت وطابت منهم جميع الأمور, فنسأل اللّه أن يجعلنا معهم بجوده.

"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ " يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ " أي: بالغ في جهادهم "وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ " حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم. وهذا الجهاد يدخل فيه, الجهاد باليد, والجهاد بالحجة واللسان. فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد, واللسان, والسيف والسنان. ومن كان مذعنا للإسلام, بذمة أو عهد, فإنه يجاهد بالحجة والبرهان ويبين له محاسن الإسلام, ومساوى الشرك والكفران, فهذا ما لهم في الدنيا. وأما في الآخرة, فإن "وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ " أي: مقرهم الذي لا يخرجون منه "وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ".

"يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ " "يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ " أي: إذا قالوا قولا, كقول من قال منهم "ليخرجن الأعز منها الأذل" والكلام الذي يتكلم به, الواحد بعد الواحد, في الاستهزاء بالدين, وبالرسول. فإذا بلغهم أن النبي صلى الله عليه وسلم, قد بلغه شيء من ذلك, جاءوا إليه يحلفون باللّه, ما قالوا. قال تعالى مكذبا لهم "وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ". فإسلامهم السابق - وإن كان ظاهره, أنه أخرجهم من دائرة الكفر - فكلامهم الأخير, ينقض إسلامهم, ويدخلهم بالكفر . "وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا " وذلك حين هموا بالفتك برسول اللّه صلى الله عليه وسلم, في غزوة تبوك. فقص اللّه عليه نبأهم, فأمر من يصدهم عن قصدهم. والحال أنهم "وَمَا نَقَمُوا " وعابوا من رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ " بعد أن كانوا فقراء معوزين. وهذا من أعجب الأشياء, أن يستهينوا بمن كان سببا لإخراجهم من الظلمات إلى النور, ومغنيا لهم بعد الفقر. وهل حقه عليهم إلا أن يعظموه, ويؤمنوا به ويجلوه؟!! ثم عرض عليهم التوبة فقال : "فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ " لأن التوبة, أصل لسعادة الدنيا والآخرة . "وَإِنْ يَتَوَلَّوْا " عن التوبة والإنابة "يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ " في الدنيا, بما ينالهم من الهم, والغم, والحزن على نصرة اللّه لدينه, وإعزاز نبيه, وعدم حصولهم على مطلوبهم, وفي الآخرة, في عذاب السعير . "وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ " يتولى أمورهم, ويحصل لهم لمطلوب . "وَلَا نَصِيرٍ " يدفع عنهم المكروه. وإذا انقطعوا من ولاية اللّه تعالى فَثَمَّ أصناف الشر والخسران, والشقاء والحرمان.

"وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ " أي: ومن هؤلاء المنافقين, من أعطى اللّه عهده وميثاقه "لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ " من الدنيا فبسطها لنا ووسعها "لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ". فنصل الرحم, ونقرى الضيف, ونعين على نوائب الحق, ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة.

"فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ " "فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ " لم يفوا بما قالوا, بل "بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا " عن الطاعة والانقياد " وَهُمْ مُعْرِضُونَ " أي: غير ملتفتين إلى الخير.

"فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ " فلما لم يفوا بما عاهدوا اللّه عليه, عاقبهم و 'فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ " مستمرا " إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ". فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع, أن يعاهد ربه, إن حصل مقصوده الفلاني, ليفعلن كذا وكذا, ثم لا يفي بذلك, فإنه ربما عاقبه اللّه بالنفاق كما عاقب هؤلاء. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الثابت في الصحيحين. "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب, وإذا عاهد غدر, وإذا وعد أخلف". فهذا المنافق الذي وعد اللّه وعاهده, لئن أعطاه اللّه من فضله, ليصدقن, وليكونن من الصالحين, حدث فكذب, وعاهد فغدر, ووعد فأخلف.

"أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ "
ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع, بقوله: " أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ". وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال, التي يعلمها اللّه تعالى: وهذه الآيات, نزلت في رجل من المنافقين يقال له "ثعلبة". جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم, وسأله أن يدعو اللّه له, أن يعطيه من فضله, وأنه إن أعطاه, ليتصدقن, ويصل الرحم, ويعين على نوائب الحق, فدعا النبي صلى الله عليه وسلم, له. فكان له غنم, فلم تزل تتنامى, حتى خرج بها عن المدينة, فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس. ثم أبعد, فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة. ثم كثرت فأبعدها, فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة. ففقده النبي صلى الله عليه وسلم, فأخبر بحاله, فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها. فمروا على ثعلبة, فقال ما هذه إلا جزية, ما هذه إلا أخت الجزية. فلما لم يعطهم, جاءوا, فأخبروا بذلك, النبي صلى الله عليه وسلم, فقال "يا ويح ثعلبة" ثلاثا. فلما نزلت هذه الآية فيه, وفي أمثاله, ذهب بها بعض أهله, فبلغه إياها. فجاء بزكاته, فلم يقبلها النبي صلى الله عليه وسلم. ثم جاء بها إلى أبي بكر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها. ثم جاء بها بعد أبي بكر إلى عمر فلم يقبلها. فيقال: إنه هلك في زمن عثمان.

"الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "
وهذا أيضا من مخازي المنافقين, فكانوا - قبحهم اللّه - لا يدعون شيئا من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالا, إلا قالوا وطعنوا, بغيا وعدوانا. فلما حثَّ اللّه ورسوله على الصدقة, بادر المسلمون إلى ذلك, وبذلوا من أموالهم, كل على حسب حاله, منهم المكثر, ومنهم المقل. فيلمزون المكثر منهم, بأن قصده بنفقته, الرياء والسمعة. وقالوا للمقل الفقير: إن اللّه غني عن صدقة هذا. فأنزل اللّه تعالى " الَّذِينَ يَلْمِزُونَ " أي يعيبون, ويطعنون " الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ " فيقولون: مراءون, قصدهم الفخر والرياء. ويلمزون 'وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ " فيخرجون ما استطاعوا ويقولون: اللّه غني عن صدقاتهم 'فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ". فقوبلوا على صنيعهم بأن 'سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " فإنهم جمعوا في كلامهم هذا, بين عدة محاذير. منها: تتبعهم لأحوال المؤمنين, وحرصهم على أن يجدوا مقالا يقولونه فيهم. واللّه يقول " إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ". ومنها: طعنهم بالمؤمنين, لأجل إيمانهم, كفرا باللّه تعالى; وبغضا للدين. ومنها: أن اللمز محرم, بل هو من كبائر الذنوب, في أمور الدنيا. وأما اللمز في أمر الطاعة, فأقبح وأقبح. ومنها: أن من أطاع اللّه, وتطوع بخصلة من خصال الخير, فإن الذي ينبغي, هو إعانته, وتنشيطه على عمله. وهؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم, وعابوهم عليه. ومنها: أن حكمهم على من أنفق مالا كثيرا بأنه مراء, غلط فاحش, وحكم على الغيب, ورجم بالظن, وأي شر أكبر من هذا؟!! ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة "اللّه غني عن صدقة هذا". كلام مقصوده باطل, فإن اللّه غني عن صدقة المتصدق, بالقليل, والكثير, بل وغني عن أهل السماوات والأرض. ولكنه تعالى, أمر العباد, بما هم مفتقرون إليه. فاللّه - وإن كان غنيا عنهم - فهم فقراء إليه "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره". وفي هذا القول, من التثبيط عن الخير, ما هو ظاهر بين. ولهذا كان جزاؤهم, أن يسخر اللّه منهم, ولهم عذاب أليم.

"اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ "
" اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً " على وجه المبالغة. وإلا, فلا مفهوم لها . 'فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ " كما قال في الآية الأخرى سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ". ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم فقال: " ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ". والكافر لا ينفعه الاستغفار, ولا العمل, ما دام كافرا. " وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ " أي: الذين صار الفسق لهم وصفا, بحيث لا يختارون عليه سواه ولا يبغون به بدلا, يأتيهم الحق الواضح, فيردونه. فيعاقبهم الله تعالى, بأن لا يوفقهم له بعد ذلك.

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ "
يقول تعالى - مبينا تبجح المنافقين, بتخلفهم, وعدم مبالاتهم بذلك, الدال على عدم الإيمان, واختيار الكفر على الإيمان . 'فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ". وهذا قدر زائد على مجرد التخلف, فإن هذا تخلف محرم, وزيادة رضا بفعل المعصية, وتبجح به. 'وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ". وهذا بخلاف المؤمنين, الذين إذا تخلفوا - ولو لعذر - حزنوا على تخلفهم, وتأسفوا غاية الأسف, ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله, لما في قلوبهم من الإيمان, ويرجون من فضل الله وإحسانه, وبره وامتنانه . 'وَقَالُوا " أي: المنافقون " لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ " أي: قالوا إن النفير مشقة علينا, بسبب الحر. فقدموا راحة قصيرة منقضية, على الراحة الأبدية التامة. وحذروا من الحر الذي تقي منه الظلال, وتذهبه البكور والآصال, على الحر الشديد, الذي لا يقادر قدره, وهو النار الحامية. ولهذا قال : 'قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ " لما آثرو, ما يفنى, على ما يبقى, ولما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية, إلى المشقة الشديدة الدائمة.

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ "
قال تعالى : 'فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا " أي: فليتمتعوا في هذه الدار المنقضية, ويفرحوا بلذاتها, ويلهوا بلعبها. فسيبكون كثيرا في عذاب أليم 'جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ " من الكفر والنفاق, وعدم الانقياد لأوامر ربهم.

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ "
'فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ " وهم الذين تخلفوا من غير عذر, ولم يحزنوا على تخلفهم . 'فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ " لغير هذه الغزوة, إذا رأوا السهولة . 'فَقُلْ " لهم عقوبة " لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا " فسيغني الله عنكم. " إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ " وهذا كما قال تعالى "ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة". فإن المتثاقل المتخلف عن المأمور به عند انتهاز الفرصة, لن يوفق له بعد ذلك, ويحال بينه وبينه. وفيه أيضا تعزير لهم, فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من الممنوعين من الخروج إلى الجهاد, لمعصيتهم, كان ذلك توبيخا لهم, وعارا عليهم ونكالا, أن يفعل أحد كفعلهم.

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ "
يقول تعالى 'وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ " من المنافقين 'وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ " بعد الدفن, لتدعو له, فإن صلاته, ووقوفه على قبورهم, شفاعة منه لهم, ولا تنفع فيهم الشفاعة. " إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ " ومن كان كافرا ومات على ذلك, فما تنفعه شفاعة الشافعين. وفي ذلك عبرة لغيرهم, وزجر, ونكال لهم. وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق, فإنه لا يصلي عليه. وفي هذه الآية, دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين, والوقوف عند قبورهم, للدعاء لهم, كما كان النبي صلى الله عليه وسلم, يفعل ذلك في المؤمنين. فإن تقييد الله بالمنافقين, يدل على أنه قد كان متقررا في المؤمنين.

"وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ "
أي لا تغتر بما أعطاهم اللّه في الدنيا, من الأموال والأولاد. فليس ذلك لكرامتهم عليه, وإنما ذلك, إهانة منه لهم. " إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا " فيتعبون في تحصيلها, ويخافون من زوالها, ولا يتهنئون بها. بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها, وتلهيهم عن اللّه والدار الآخرة, حتى ينتقلوا من الدنيا "وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ " قد سلبهم حبها كل شيء, فماتوا, وقلوبهم بها متعلقة, وأفئدتهم عليها متحرقة.

"وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ "
يقول تعالى - في بيان استمرار المنافقين على التثاقل عن الطاعات, وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات . "وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ " يؤمرون فيها بالإيمان باللّه, والجهاد في سبيل اللّه. " اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ " يعني: أولي الغنى والأموال, الذين لا عذر لهم. وقد أمرهم اللّه بأموال وبنين, أفلا يشكرون اللّه ويحمدونه, ويقومون بما أوجبه عليهم, وسهل عليهم أمره. ولكن أبوا إلا التكاسل, والاستئذان في القعود "وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ".

"رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ "
قال تعالى "رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ " كيف: رضوا لأنفسهم, أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد. هل معهم فقه أو عقل, دلهم على ذلك؟. أم "طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ " فلا تعي الخير, ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح؟. فهم لا يفقهون مصالحهم. فلو فقهوا حقيقة الفقه, لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال, التي تحطهم عن منازل الرجال.

"لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "
يقول تعالى: إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد, فاللّه سيغني عنهم. وللّه عباد وخواص من خلقه, اختصهم بفضله, يقومون بهذا الأمر. وهم " الرَّسُولُ " محمد صلى الله عليه وسلم , "وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ " غير متثاقلين ولا كسلين, بل هم فرحون مستبشرون . "وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ " الكثيرة في الدنيا والآخرة . "وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " الذين ظفروا بأعلى المطالب, وأكمل الرغائب.

"أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ "
" أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ". فتبا لمن لم يرغب بما رغبوا فيه, وخسر دينه, ودنياه, وأخراه. وهذا نظير قوله تعالى "قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ".. وقوله " فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ".

"وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "
يقول تعالى "وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ". أي: جاء الذين تهاونوا, وقصروا منهم في الخروج, لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد, غير مبالين في الاعتذار, لجفائهم, وعدم حياتهم, وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف. وأما الذين كذبوا اللّه ورسوله منهم, فقعدوا وتركوا الاعتذار بالكلية. ويحتمل أن معنى قوله " الْمُعَذِّرُونَ " أي: الذين لهم عذر, أتوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم, ليعذرهم, ومن عادته, أن يعذر من له عذر . "وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ " في دعواهم الإيمان, المقتضي للخروج, وعدم علمهم بذلك. ثم توعدهم بقوله "سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " في الدنيا والآخرة.

"لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا

لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ "
لما ذكر المعتذرين, وكانوا على قسمين, قسم معذور في الشرع, وقسم غير معذور, ذكر ذلك بقوله : "لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ " في أبدانهم وأبصارهم, الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال . 'وَلَا عَلَى الْمَرْضَى " وهذا شامل لجميع أنواع المرض, الذي لا يقدر صاحبه على الخروج والجهاد, من عرج, وعمى, وحمى ذات الجنب, والفالج, وغير ذلك.

وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ "
'وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ " أي لا يجدون زادا, ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم. فهؤلاء, ليس عليهم حرج, بشرط أن ينصحوا للّه ورسوله, بأن يكونوا صادقي الإيمان, وأن يكون من نيتهم, وعزمهم, أنهم لو قدروا لجاهدوا, وأن يفعلوا ما يقدرون عليه, من الحث, والترغيب, والتشجيع على الجهاد . 'مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ " أي: من سبيل يكون عليهم فيه تبعة, فإنهم - بإحسانهم, فيما عليهم من حقوق اللّه وحقوق العباد - أسقطوا توجه اللوم عليهم. وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه, سقط عنه ما لا يقدر عليه. ويستدل بهذه الآية على قاعدة. وهي: أن من أحسن على غيره, في نفسه, أو في ماله, ونحو ذلك, ثم ترتب على إحسانه, نقص أو تلف, أنه غير ضامن لأنه محسن, ولا سبيل على المحسنين. كما أنه يدل, على أن غير المحسن - وهو المسيء - كالمفرط; أن عليه الضمان . 'وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " ومن مغفرته ورحمته, عفا عن العاجزين, وأثابهم بنيتهم الجازمة, ثواب القادرين الفاعلين . 'وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ " فلم يصادفوا عندك شيئا 'قُلْتَ " لهم معتذرا " لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ " فإنهم عاجزون, باذلون لأنفسهم, وقد صدر منهم من الحزن والمشقة, ما ذكره اللّه عنهم. فهؤلاء لا حرج عليهم, وإذا سقط الحرج عنهم, عاد الأمر إلى أصله, وهو. أن من نوى الخير, واقترن بنيته الجازمة سَعْيٌ فيما يقدر عليه, ثم لم يقدر, فإنه ينزل منزلة الفاعل التام.

"إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ "
" إِنَّمَا السَّبِيلُ " يتوجه واللوم يتأكد 'عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ " قادرون على الخروج, ولا عذر لهم. فهؤلاء 'رَضُوا " لأنفسهم ومن دينهم "بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ " كالنساء والأطفال ونحوهم. وإنما رضوا بهذه الحال لأن اللّه 'وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ " أي. ختم عليها, فلا يدخلها خير, ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدنيوية . 'فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " عقوبة لهم, على اقترفوا.

"يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ "
لما ذكر تخلف المنافقين الأغنياء, وأنهم لا عذر لهم, أخبر أنهم سوف "يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ " من غزاتكم . 'قُلْ " لهم " لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ " أي: لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب . 'قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ " وهو الصادق في قيله, فلم يبق للاعتذار فائدة, لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر اللّه عنهم, ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر اللّه الذي, هو أعلى مراتب الصدق . 'وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ " في الدنيا, لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب. وأما مجرد الأقوال, فلا دلالة فيها على شيء من ذلك . "ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ " الذي لا تخفى عليه خافية . 'فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " من خير وشر, ويجازيكم بعدله أو بفضله, من غير أن يظلمكم مثقال ذرة. وأعلم أن المسيء المذنب له ثلاث حالات. إما أن يقبل قوله وعذره, ظاهرا وباطنا, ويعفى عنه, بحيث يبقى كأنه لم يذنب. وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلي, على ذنبهم. وإما أن يعرض عنهم, ولا يقابلوا بما فعلوا, بالعقوبة الفعلية.

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ "

وهذه الحال الثالثة, هي التي أمر اللّه بها في حق المنافقين. ولهذا قال :سُيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ". أي لا توبخوهم, ولا تجلدوهم أو تقتلوهم. " إِنَّهُمْ رِجْسٌ " أي: إنهم قذر خبثاء, ليسوا بأهل لأن يبالى بهم, وليس التوبيخ والعقوبة مفيدا فيهم. ويكفيهم أن 'وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ".

"يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ "
وقوله : "يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ " أي: ولهم أيضا هذا المقصد الآخر منكم, غير مجرد الإعراض, بل يحبون أن ترضوا عنهم, كأنهم ما فعلوا شيئا . 'فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ " أي: فلا ينبغي لكم - أيها المؤمنون - أن ترضوا عن من لم يرض اللّه عنه, بل عليكم أن توافقوا ربكم, في رضاه وغضبه. وتأمل كيف قال : 'فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ " ولم يقل "فإن اللّه لا يرضى عنهم" ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح, وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم, فإن اللّه يتوب عليهم, ويرضى عنهم. وأما ما داموا فاسقين, فإن اللّه لا يرضى عليهم, لوجود المانع من رضاه. وهو: خروجهم عن ما رضيه اللّه لهم, من الإيمان والطاعة, إلى ما يغضبه من الشرك, والنفاق, والمعاصي. وحاصل ما ذكره اللّه, أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد, من غير عذر, إذا اعتذروا للمؤمنين, وزعموا أن لهم أعذارا في تخلفهم, فإن المنافقين يريدون بذلك, أن تعرضوا عنهم, وترضوا, وتقبلوا عذرهم. فأما قبول العذر منهم, والرضا عنهم, فلا حبا, ولا كرامة لهم. وأما الإعراض عنهم, فيعرض المؤمنون عنهم, إعراضهم عن الأمور الردية والرجس. وفي هذه الآيات, إثبات الكلام للّه تعالى في قوله 'قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ". وإثبات الأفعال الاختيارية للّه, الواقعة بمشيئته تعالى وقدرته, في هذا, وفي قوله: " وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ " أخبر أنه سيراه بعد وقوعه. وفيها إثبات الرضا للّه عن المحسنين, والغضب والسخط, على الفاسقين.

"الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ "
يقول تعالى " الْأَعْرَابِ " وهم سكان البادية والبراري " أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا " من الحاضرة, الذين فيهم كفر ونفاق, وذلك لأسباب كثيرة. منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية, والأعمال والأحكام. فهم أحرى 'وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ " من أصول الإيمان, وأحكام الأوامر والنواهي. بخلاف الحاضرة, فإنهم أقرب, لأن يعلموا حدود ما أنزل اللّه على رسوله, فيحدث لهم - بسبب هذا العلم - تصورات حسنة, وإرادات للخير, الذي يعلمون منه, ما لا يكون في البادية. وفيهم من لطافة الطبع, والانقياد للداعي, ما ليس في البادية. ويجالسون أهل الإيمان, ويخالطونهم أكثر من أهل البادية. فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية, وإن كان في البادية والحاضرة, كفار ومنافقون, ففي البادية أشد وأغلظ, مما في الحاضرة.

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ "
ومن ذلك, أن الأعراب أحرص على الأموال, وأشح فيها. فمنهم 'مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ " من الزكاة والنفقة في سبيل اللّه وغير ذلك . 'مَغْرَمًا " أي: يراها خسارة ونقصا لا يحتسب فيها, ولا يريد بها وجه اللّه, ولا يكاد يؤديها إلا كرها . 'وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ " أي: من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم, أنهم يودون وينتظرون فيهم, دوائر الدهر, وفجائع الزمان. وهذا سينعكس عليهم فتكون 'عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ". وأما المؤمنون, فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم, ولهم العقبى الحسنة . 'وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " يعلم نيات العباد, وما صدرت عنه الأعمال, من إخلاص وغيره وليس الأعراب كلهم مذمومين.

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ "
بل منهم 'مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ" فيسلم بذلك من الكفر والنفاق ويعمل بمقتضى الإيمان . 'وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ " أي: يحتسب نفقته, ويقصد بها وجه اللّه تعالى, والقرب منه ويجعلها وسيلة إلى 'وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ " أي: دعائه لهم, وتبريكه عليهم. قال

تعالى - مبينا لنفع صلوات الرسول: " أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ " تقربهم إلى اللّه, وتنمي أموالهم, وتحل فيها البركة .سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ " في جملة عباده الصالحين " إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ". فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه, ويعم عباده برحمته, التي وسعت كل شيء, ويخص عباده المؤمنين, برحمة يوفقهم فيها إلى الخيرات, ويحميهم فيها من المخالفات, ويجزل لهم فيها أنواع المثوبات. وفي هذه الآية, دليل على أن الأعراب, كأهل الحاضرة, منهم الممدوح ومنهم المذموم. فلم يذمهم اللّه, على مجرد تعربهم وباديتهم, إنما ذمهم, على ترك أوامر اللّه, وأنهم في مظنة ذلك. ومنها: أن الكفر والنفاق, يزيد وينقص, ويغلظ ويخف, بحسب الأحوال. ومنها: فضيلة العلم, وأن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه, لأن اللّه ذم الأعراب, وأخبر أنهم أشد كفرا ونفاقا, وذكر السبب الموجب لذلك, وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل اللّه على رسوله. ومنها: أن العلم النافع, الذي هو أنفع العلوم, معرفة حدود ما أنزل اللّه على رسوله, من أصول الدين وفروعه, كمعرفة حدود الإيمان, والإسلام, والإحسان, والتقوى, والفلاح, والطاعة, والبر, والصلة, والإحسان, والكفر, والنفاق, والفسوق, والعصيان, والزنا, والخمر, والربا, ونحو ذلك. فإن في معرفتها, يتمكن العارف من فعلها, إن كانت مأمورا بها, أو تركها, إن كانت محظورة ومن الأمر بها أو النهي عنها. ومنها: أنه ينبغي للمؤمن, أن يؤدي ما عليه من الحقوق, منشرح الصدر, مطمئن النفس, ويحرص أن تكون مغنما, ولا تكون مغرما.

"وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ "
"وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ " هم: الذين سبقوا هذة الأمة وبدورها للإيمان والهجرة, والجهاد, وإقامة دين اللّه . "مِنَ الْمُهَاجِرِينَ " الذين, أخرجوا من ديارهم وأموالهم, يبتغون فضلا من اللّه ورضوانا, وينصرون اللّه ورسوله, أولئك هم الصادقون. ومن "وَالْأَنْصَارِ " الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم, يحبون من هاجر إليهم, ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا, ويؤثرون على أنفسهم, ولو كان بهم خصاصة . "وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ " بالاعتقادات, والأقوال, والأعمال. فهؤلاء, هم الذين سلموا من الذم, وحصل لهم نهاية المدح, وأفضل الكرامات من اللّه . "رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ " ورضاه تعالى, أكبر من نعيم الجنة . "وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ " الجارية, التي تساق إلى سَقْي الجنان, والحدائق الزاهية الزاهرة, والرياض الفاخرة . "خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا "لا يبغون عنها حولا, ولا يطلبون منها بدلا. لأنهم مهما تمنوه, أدركوه, ومهما أرادوه, وجدوه . "ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ " الذي حصل لهم فيه, كل محبوب للنفوس, ولذة للأرواح, ونعيم للقلوب, وشهوة للأبدان; واندفع عنهم كل محذور.

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ "
يقول تعالى : "وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ " أيضا منافقون " مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ " أي: تمرنوا عليه, وأزدادوا فيه طغيانا. " لَا تَعْلَمُهُمْ " بأعيانهم, فتعاقبهم, أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم, لما للّه في ذلك من الحكمة الباهرة . "نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ " يحتمل أن التثنية على بابها, وأن عذابهم عذاب في الدنيا, وعذاب في الآخرة. ففي الدنيا, ما ينالهم من الهم والغم, والكراهة, لما يصيب المؤمنين, من الفتح والنصر. وفي الآخرة عذاب النار, وبئس القرار. ويحتمل أن المراد, سنغلظ عليهم العذاب, ونضاعفه عليهم, ونكرره.

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ "
يقول تعالى : "وَآخَرُونَ " ممن بالمدينة: ومن حولها, بل ومن سائر البلاد الإسلامية. " اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ " أي: أقروا بها, وندموا عليها, وسعوا في التوبة منها, والتطهر من أدرانها . "خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ", ولا يكون العمل صالحا, إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان, المخرج عن الكفر والشرك, الذي هو شرط لكل عمل صالح. فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة, بالأعمال السيئة, من التجري على بعض المحرمات, والتقصير في بعض الواجبات, مع الاعتراف بذلك والرجاء, بأن يغفر اللّه لهم. فهؤلاء "

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ " وتوبته على عبده نوعان. الأول: التوفيق للتوبة والثاني: قبولها بعد وقوعها منهم. " إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ " أي: وصفه المغفرة والرحمة, اللتان لا يخلو مخلوق منهما. بل لا بقاء للعالم العلوي والسفلي إلا بهما. فلو يؤاخذ اللّه الناس بظلمهم, ما ترك على ظهرها من دابة. "إن اللّه يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا". ومن مغفرته: أن المسرفين على أنفسهم, الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة, إذا تابوا إليه وأنابوا, ولو قبيل موتهم بأقل القليل, فإنه يعفو عنهم, ويتجاوز عن سيئاتهم. فهذه الآية, دالة على أن المخلط المعترف النادم, الذي لم يتب توبة نصوحا, أنه تحت الخوف والرجاء, وهو إلى السلامة أقرب. وأما المخلط الذي لم يعترف, ولم يندم على ما مضى منه, بل لا يزال مصرا على الذنوب, فإنه يخاف عليه أشد الخوف.

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ "
قال تعالى لرسوله, ومن قام مقامه, آمرا له بما يطهر المؤمنين, ويتمم إيمانهم : "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً " وهي الزكاة المفروضة . "تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا " أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة . "وَتُزَكِّيهِمْ " أي: تنميهم, وتزيد في أخلاقهم الحسنة, وأعمالهم الصالحة, وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي, وتنمي أموالهم . "وَصَلِّ عَلَيْهِمْ " أي: ادع لهم, أي: للمؤمنين عموما وخصوصا, عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم. " إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ " أي: طمأنينة لقلوبهم, واستبشار لهم . "وَاللَّهُ سَمِيعٌ " لدعائك, سمع إجابة وقبول. " عَلِيمٌ " بأحوال العباد ونياتهم, فيجازي كل عامل بعمله, وعلى قدر نيته. فكان النبي صلى الله عليه وسلم, يمتثل لأمر اللّه, ويأمرهم بالصدقة, ويبعث عماله لجبايتها. فإذا أتاه وأخذ صدقته, دعا له, وبرَّك. ففي هذه الآية, دلالة على وجوب الزكاة, في جميع الأموال. وهذا إذا كانت للتجارة, ظاهرة, فإنها أموال تنمى ويكتسب بها. فمن العدل أن يواسى منها الفقراء, بأداء ما أوجب اللّه فيها من الزكاة. وما عدا أموال التجارة, فإن كان المال ينمى, كالحبوب, والثمار, والماشية المتخذة للنماء, والدر, والنسل, فإنها تجب فيها الزكاة, وإلا, لم تجب فيها, لأنها إذا كانت للقنية, لم تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في العادة, مالا يتمول, ويطلب منه المقاصد المالية, وإنما صرف عن المالية بالقنية ونحوها. وفيها أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى, حتى يخرج زكاة ماله, وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها, لأن الزكاة والتطهير, متوقف على إخراجها. وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه, لمن أدى زكاته, بالبركة. وأن ذلك ينبغي, أن يكون جهرا, بحيث يسمعه المتصدق, فيسكن إليه. ويؤخذ من المعنى, أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن, بالكلام اللين, والدعاء له, ونحو ذلك, مما يكون فيه طمأنينة, وسكون لقلبه.

"أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ "
أي: أما علموا سعة رحمة اللّه, وعموم كرمه, وأنه "يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ " التائبين, من أي ذنب كان, بل يفرح تعالى بتوبة عبده, إذا تاب, أعظم فرح يقدر . "وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ " منهم أي يقبلها, ويأخذها بيمينه, فيربيها لأحدهم, كما يربي الرجل فلوه, حتى تكون التمرة الواحدة, كالجبل العظيم فكيف بما هو أكبر, وأكثر من ذلك . "وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ " أي: كثير التوبة على التائبين. فمن تاب إليه, تاب عليه, ولو تكررت منه المعصية مرارا. ولا يمل اللّه من التوبة على عباده, حتى يملوا هم, ويأبوا إلا النفار والشرود عن بابه, وموالاتهم عدوهم. " الرَّحِيمِ " الذي وسعت رحمته كل شيء, وكتبها للذين يتقون, ويؤتون الزكاة, ويؤمنون بآياته, ويتبعون رسوله.

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ "
يقول تعالى : "وَقُلْ " لهؤلاء المنافقين: " اعْمَلُوا " ما ترون من الأعمال, واستمروا على باطلكم, فلا تحسبوا أن ذلك, سيخفى . "فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ " أي لا بد أن يتبين عملكم ويتضح . "وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " من خير وشر. ففي هذا, التهديد والوعيد الشديد, على من استمر على باطله

وطغيانه, وغيه وعصيانه. ويحتمل أن المعنى: أنكم مهما عملتم من خير وشر, فإن اللّه مطلع عليكم, وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين, على أعمالكم, ولو كانت باطنة.

"وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ "
أي : "وَآخَرُونَ " من المخلفين "مُرْجَوْنَ " أي: مؤخرون " لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ". ففي هذا, التخويف الشديد للمتخلفين, والحث لهم على التوبة والندم . "وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " يضع الأشياء مواضعها, وينزلها منازلها. فإن اقتضت حكمته, أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة, فعل ذلك.

"وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ "
كان أناس من المنافقين من أهل قباء, اتخذوا مسجدا إلى جنب مسجد قباء, يريدون به المضارة والمشاقة, بين المؤمنين, ويعدونه لمن يرجونه, من المحاربين للّه ورسوله, يكون لهم حصنا عند الاحتياج إليه. فبين تعال خزيهم, وأظهر سرهم فقال : "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا " أي: مضارة للمؤمنين ولمسجدهم, الذي يجتمعون فيه "وَكُفْرًا " أي: مقصدهم فيه الكفر, إذا قصد غيرهم الإيمان . "وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ " أي: ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا . "وَإِرْصَادًا " أي: إعدادا "لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ " أي: إعانة للمحاربين للّه ورسوله, الذين تقدم حرابهم, واشتدت عداوتهم. وذلك كأبي عامر الراهب, الذي كان من أهل المدينة. فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم, وهاجر إلى المدينة, كفر به, وكان متعبدا في الجاهلية. فذهب إلى المشركين, يستعين بهم على حرب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم. فلما لم يدرك مطلوبه عندهم, ذهب إلى قيصر, بزعمه أنه ينصره. فهلك اللعين في الطريق, وكان على وعد وممالئة, هو والمنافقون. فكان مما أعدوا له, مسجد الضرار, فنزل الوحي بذلك. فبعث إليه النبي صلى الله عليه وسلم, من يهدمه, ويحرقه, فهدم وحرق, وصار بعد ذلك مزبلة. قال تعالى - بعد ما بين مقاصدهم الفاسدة في ذلك, المسجد - "وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا " في بنائنا إياه " إِلَّا الْحُسْنَى " أي: الإحسان إلى الضعيف, والعاجز والضرير . "وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ " فشهادة اللّه عليهم, أصدق من حلفهم.

"لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ "
" لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا " أي لا تصل في ذلك المسجد, الذي بني ضرارا أبدا. فاللّه يغنيك عنه, ولست بمضطر إليه . "لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ " ظهر فيه الإسلام في "قباء" وهو مسجد "قباء" أسس على إخلاص الدين للّه, وإقامة ذكره, وشعائر دينه, وكان قديما في هذا, عريقا فيه. فهذا المسجد الفاضل " أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ " وتتعبد, وتذكر اللّه تعالى, فهو فاضل, وأهله فضلاء, ولهذا مدحهم اللّه بقوله : "فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا " من الذنوب, ويتطهروا من الأوساخ, والنجاسات, والأحداث. ومن المعلوم أن من أحب شيئا لا بد أن يسعى له, ويجتهد فيما يحب. فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ, والأحداث. ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه. وكانوا مقيمين للصلاة, محافظين على الجهاد, مع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم, وإقامة شرائع الدين, وممن كانوا يتحرزون من مخالفة اللّه ورسوله. وسألهم النبي صلى الله عليه وسلم, بعد ما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم. فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء, فحمدهم على صنيعهم . "وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ " الطهارة المعنوية, كالتنزه من الشرك, والأخلاق الرذيلة. والطهارة الحسية, كإزالة الأنجاس, ورفع الأحداث.

"أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ "
ثم فاضل بين المساجد بحسب مقاصد إهلها وموافقتها لرضاه فقال: " أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ " أي: على نية صالحة, وإخلاص . "وَرِضْوَانٌ " بأن كان موافقا لأمره, فجمع في عمله, بين الإخلاص والمتابعة . "خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا " أي: على طرف "جُرُفٍ هَارٍ " أي: بال, قد تداعى للانهدام . "فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا

يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ " لما فيه مصالح دينهم ودنياهم.

"لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " " لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ " أي: شكا, وريبا ماكثا في قلوبهم. " إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ " بأن يندموا غاية الندم, ويتوبوا إلى ربهم, ويخافوه غاية الخوف, فبذلك يعفو اللّه عنهم. وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريبا إلى ريبهم, ونفاقا إلى نفاقهم . "وَاللَّهُ عَلِيمٌ " بجميع الأشياء, ظاهرها, وباطنها, خفيها, وجليها, وبما أسره العباد, وأعلنوه . "حَكِيمٌ " لا يفعل, ولا يخلق, ولا يأمر, ولا ينهى, إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به. فللّه الحمد. وفي هذه الآيات, عدة فوائد. منها: أن اتخاذ المسجد, الذي يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه, أنه محرم, وأنه يجب هدم مسجد الضرار, الذي اطلع على مقصود أصحابه. ومنها: أن العمل, وإن كان فاضلا, تغيره النية, فينقلب منهيا عنه, كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم, إلى ما ترى. ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين, فإنها من المعاصي, التي يتعين تركها وإزالتها. كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم, يتعين اتباعها, والأمر بها, والحث عليها. لأن اللّه علل اتخاذهم لمسجد الضرار, بهذا المقصد الموجب للنهي عنه, كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة للّه ورسوله. ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية, والبعد عنها, وعن قربها. ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع, كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار, ونهي عن القيام فيه. وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد "قباء" حتى قال اللّه فيه : "لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ". ولهذا كان لمسجد قباء, من الفضل, ما ليس لغيره, حتى كان صلى الله عليه وسلم, يزور قباء كل سبت, يصلي فيه, وحث على الصلاة فيه. ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية, أربع قواعد مهمة, وهي: كل عمل فيه مضارة لمسلم, أو فيه معصية للّه, فإن المعاصي من فروع الكفر, أو فيه تفريق بين المؤمنين, أو فيه معاونة لمن عادى اللّه ورسوله, فإنه محرم ممنوع منه, وعكسه بعكسه. ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء, مسجدا أسس على التقوى, فمسجد النبي صلى الله عليه وسلم, الذي أسسه بيده المباركة, وعمل فيه, واختاره اللّه له, من باب أولى وأحرى. ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة, هو العمل المؤسس على التقوى, الموصل لعامله إلى جنات النعيم. والعمل المبني على سوء القصد, وعلى البدع والضلال, هو العمل المؤسس على شفا جرف هار, فانهار به في نار جهنم, واللّه لا يهدي القوم الظالمين.

"إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ "
يخبر تعالى خبرا صدقا, ويعد وعدا حقا, بمبايعة عظيمة, ومعاوضة جسيمة. وهو: أنه " اشْتَرَى " بنفسه الكريمة "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ " فهي المثمن والسلعة المبيعة . "بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ " التي فيها, ما تشتهيه الأنفس, وتلذ الأعين, من أنواع اللذات والأفراح, والمسرات, والحور, الحسان, والمنازل الأنيقات. وصفة العقد والمبايعة, بأن يبذلوا للّه نفوسهم وأموالهم, في جهاد أعدائه, لإعلاء كلمته, وإظهار دينه "يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ". فهذا العقد والمبايعة, قد صدرت من اللّه, مؤكدة بأنواع التأكيدات . "وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ " التي هي أشرف الكتب, التي طرقت العالم, وأعلاها, وأكملها, وجاء بها أكمل الرسل, أولو العزم, وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق . "وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا " أيها المؤمنون القائمون بما وعدكم اللّه . "بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ " أي: لتعزموا بذلك, وليبشر بعضكم بعضا, ويحث بعضكم بعضا . "وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ " الذي لا فوز أكبر منه, ولا أجل, لأنه يتضمن السعادة الأبدية, والنعيم المقيم, والرضا من اللّه, الذي هو أكبر من نعيم الجنات. وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة, فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو اللّه جل جلاله. وإلى العوض, وهو أكبر الأعواض وأجلها, جنات النعيم. وإلى الثمن المبذول فيها, وهو: النفس, والمال, الذي هو أحب الأشياء للإنسان. وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع, وهو أشرف الرسل. وبأي الكتب رقم, في كتب اللّه الكبار المنزلة, على أفضل الخلق.

"التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ "
كأنه قيل: من هم المؤمنون, الذين لهم البشارة من الله, بدخول الجنات, ونيل الكرامات؟ فقال: هم " التَّائِبُونَ " أي: الملازمون للتوبة في جميع الأوقات, عن جميع السيئات. " الْعَابِدُونَ " أي: المتصفون بالعبودية لله, والاستمرار على طاعته, من أداء الواجبات والمستحبات, في كل وقت, فبذلك يكون العبد من العابدين. " الْحَامِدُونَ " لله في السراء والضراء, واليسر والعسر, المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة, المثنون على الله بذكرها وبذكره, في آناء الليل, وآناء النهار. " السَّائِحُونَ " فسرت السياحة, بالصيام, أو السياحة في طلب العلم. وفسرت بسياحة القلب, في معرفة الله ومحبته, والإنابة إليه على الدوام. والصحيح أن المراد بالسياحة: السفر في القربات, كالحج, والعمرة, والجهاد, وطلب العلم, وصلة الأقارب, ونحو ذلك. " الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ " أي: المكثرون من الصلاة, المشتملة على الركوع والسجود. " الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ " ويدخل فيه, جميع الواجبات والمستحبات. "وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ " وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه . "وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ " بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله, وما يدخل في الأوامر, والنواهي, والأحكام, وما لا يدخل, الملازمون لها فعلا وتركا . "وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ " لم يذكر ما يبشر لهم به, ليعم جميع ما رتب على الإيمان, من ثواب الدنيا, والدين والآخرة. فالبشارة متناولة لكل مؤمن. وأما مقدارها وصفتها, فإنها, بحسب حال المؤمنين, وإيمانهم, قوة, وضعفا, وعملا بمقتضاه.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ "
يعني: ما يليق ولا يحسن بالنبي والمؤمنين به " أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ". أي: لمن كفر به, وعبد معه غيره "وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ".
فإن الاستغفار لهم في هذه الحال, غلط غير مفيد, فلا يليق بالنبي والمؤمنين. لأنهم إذا ماتوا على الشرك, أو علم أنهم يموتون عليه, فقد حقت عليهم كلمة العذاب, ووجب عليهم الخلود في النار, ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين, ولا استغفار المستغفرين. وأيضا فإن النبي, والذين آمنوا معه, عليهم أن يوافقوا ربهم, في رضاه, وغضبه, ويوالوا من والاه الله, ويعادوا من عاداه الله. والاستغفار منهم, لمن تبين أنه من أصحاب النار, مناف لذلك, مناقض له.

وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ "
ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن, إبراهيم عليه السلام, لأبيه فإنه "عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ " في قوله "سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا " وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه. فلما تبين لإبراهيم, أن أباه عدو لله, سيموت على الكفر, ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير "تَبَرَّأَ مِنْهُ " موافقة لربه وتأدبا معه. " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ " أي: رجَّاع إلى الله في جميع الأمور, كثير الذكر, والدعاء, والاستغفار, والإنابة إلى ربه . "حَلِيمٌ " أي: ذو رحمة بالخلق, وصفح عما يصدر منهم إليه, من الزلات لا يستفزه جهل الجاهلين, ولا يقابل الجاني عليه بجرمه. فأبوه قال له: " لَأَرْجُمَنَّكَ " وهو يقول له "سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ". فعليكم أن تقتدوا به, وتتبعوا ملة إبراهيم في كل شيء " إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ " كما نبهكم الله عليها, وعلى غيرهما. ولهذا قال : "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا " إلى "وَلَا نَصِيرٍ ".

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ "
يعني أن الله تعالى, إذا منَّ على قوم بالهداية, وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم, فإنه تعالى, يتمم عليهم إحسانه, ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه, وتدعو إليه ضرورتهم, فلا يتركهم ضالين, جاهلين بأمور دينهم. ففي هذا, دليل على كمال رحمته, وأن شريعته وافية, بجميع ما يحتاجه العباد, في أصول الدين وفروعه. ويحتمل أن المراد بذلك "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ " فإذا بين لهم ما يتقون, فلم

ينقادوا له, عاقبهم بالإضلال. جزاء لهم, على ردهم الحق المبين. والأول, أولى. " إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " فلكمال علمه وعمومه, علمكم ما لم تكونوا تعلمون, وبين لكم ما به تنتفعون.

"إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ "

" إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ " أي: هو المالك لذلك, المدبر لعباده, بالإحياء والإماتة, وأنواع التدابير الإلهية. فإذا كان لا يخل بتدبيره القدري, فكيف يخل بتدبيره الديني, المتعلق بإلهيته, ويترك عباده سدى مهملين, أو يدعهم ضالين جاهلين, وهو أعظم توليه لعباده؟!!. فلهذا قال : "وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ " أي: ولي يتولاكم, بجلب المنافع لكم, أو "نَصِيرٍ " يدفع عنكم المضار.

"لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ "

يخبر تعالى, أنه من لطفه وإحسانه "تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ " صلى الله عليه وسلم, " وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ " فغفر لهم الزلات, ووفر لهم الحسنات, ورقاهم إلى أعلى الدرجات, وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات, ولهذا قال: " الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ " أي: خرجوا معه لقتال الأعداء, في غزوة "تبوك" وكانت في حر شديد, وضيق من الزاد والركوب, وكثرة عدد مما يدعو إلى التخلف. فاستعانوا اللّه تعالى, وقاموا بذلك "مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ " أي: تنقلب قلوبهم, ويميلوا إلى الدعة والسكون, ولكن اللّه ثبتهم, وأيدهم وقواهم. وزَيْغُ القلب, هو: انحرافه عن الصراط المستقيم. فإن كان الانحراف في أصل الدين, كان كفرا. وإن كان في شرائعه, كان بحسب تلك الشريعة, التي زاغ عنها. إما قصر عن فعلها, أو فعلها على غير الوجه الشرعي. وقوله "ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ " أي: قبل توبتهم " إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ".

"وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ "

ومن رأفته ورحمته, أن مَنَّ عليهم بالتوبة, وقبلها منهم, وثبتهم عليها. وكذلك لقد تاب " وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا " عن الخروج مع المسلمين, في تلك الغزوة, وهم "كعب بن مالك" وصاحباه, وقصتهم مشهورة معروفة, في الصحاح والسنن . "حَتَّى إِذَا " حزنوا حزنا عظيما, و "ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ " أي: على سعتها ورحبها "وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ " التي هي أحب إليهم من كل شيء. فضاق عليهم الفضاء الواسع, والمحبوب الذي لم تجر العادة بالضيق منهم. وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج, بلغ من الشدة والمشقة, ما لا يمكن التعبير عنه. وذلك لأنهم قدموا رضا اللّه ورضا رسوله على كل شيء . "وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ " أي: تيقنوا, وعرفوا بحالهم, أنه لا ينجي من الشدائد, ويلجأ إليه, إلا اللّه وحده لا شريك له. فانقطع تعلقهم بالمخلوقين, وتعلقوا باللّه ربهم, وفروا منه إليه. فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة . "ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ " أي أذن في توبتهم, ووفقهم لها "لِيَتُوبُوا " لتقع منهم, فيتوب اللّه عليهم. " إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ " أي: كثير التوبة والعفو, والغفران عن الزلات والنقصان. " الرَّحِيمِ " وصفه الرحمة العظيمة, التي لا تزال تنزل على العباد, في كل وقت وحين, في جميع اللحظات, ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية. وفي هذه الآيات, دليل على أن توبة اللّه على العبد, أجل الغايات, وأعلى النهايات, فإن اللّه جعلها نهاية خواص عباده, وامتن عليهم بها, حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها: ومنها: لطف الله بهم, وتثبيتهم في إيمانهم, عند الشدائد, والنوازل المزعجة. ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس, لها فضل ومزية, ليست لغيرها. وكلما عظمت المشقة, عظم الأجر. ومنها: أن توبة اللّه على عبده, بحسب ندمه وأسفه الشديد. وأن من لا يبالي بالذنب, ولا يحرج إذا فعله, فإن توبته مدخولة, وإن زعم أنها مقبولة. ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة, إذا تعلق القلب بالله تعالى, تعلقا تاما, وانقطع عن المخلوقين. ومنها: أن من لطف اللّه بالثلاثة, أن وسمهم بوسم, ليس بعار عليهم فقال : "خُلِّفُوا " إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم, أو خلفوا عن من بث في قبول عذرهم, أو في رده, وأنهم لم يكن تخلفهم, رغبة عن الخير, ولهذا لم يقل "تخلفوا". ومنها:

أن اللّه تعالى, من عليهم بالصدق, ولهذا أمر بالاقتداء بهم فقال : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا " الآية.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ "
أي : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا " باللّه, وبما أمر اللّه بالإيمان به, قوموا بما يقتضيه الإيمان, وهو القيام بتقوى اللّه, باجتناب ما نهى اللّه عنه, والبعد عنه . "وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ " في أقوالهم, وأفعالهم, وأحوالهم, الذين أقوالهم صدق. وأعمالهم, وأحوالهم لا تكون إلا صدقا خالية من الكسل والفتور, سالمة من المقاصد السيئة, مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة, فإن الصدق, يهدي إلى البر, وإن البر, يهدي إلى الجنة. قال تعالى : "هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ " الآية.

"مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ "
يقول تعالى - حاثا لأهل المدينة المنورة, من المهاجرين, والأنصار, ومن حولها من الأعراب, الذين أسلموا, فحسن إسلامهم : "مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ". أي: ما ينبغي لهم ذلك, ولا يليق بأحوالهم . "وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ " في بقائها وراحتها, وسكونها "عَنْ نَفْسِهِ " الكريمة الزكية. بل النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم. فعلى كل مسلم, أن يفدي النبي صلى الله عليه وسلم, بنفسه, ويقدمه عليها. فعلامة تعظيم الرسول, ومحبته, والإيمان التام به, أن لا يتخلفوا عنه. ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج فقال : "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ " أي: المجاهدين في سبيل اللّه " لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ " أي: تعب ومشقة "وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ " أي: مجاعة . "وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ " من الخوض لديارهم, والاستيلاء على أوطانهم. "وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا " كالظفر بجيش, أو سرية, أو الغنيمة لمال. " إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ " لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم. " إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ " الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله, وقيامهم بما عليهم من حقه, وحق خلقه. فهذه الأعمال, آثار من آثار عملهم.

"وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "
ثم قال : "وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا " في ذهابهم إلى عدوهم " إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ". ومن ذلك, هذه الأعمال, إذا أخلصلوا فيها للّه, ونصحوا فيها. ففي هذه الآيات, أشد ترغيب, وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل اللّه, والاحتساب لما يصيبهم فيه, من المشقات, وأن ذلك, لهم رفعة درجات, وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له, فيها أجر كبير.

"وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ "
يقول تعالى - منها لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم :- "وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً " أي: جميعا لقتال عدوهم, فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك, ويفوت به كثير, من المصالح الأخرى . "فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ " أي: من البلدان, والقبائل, والأفخاذ "طَائِفَةٌ " تحصل بها الكفاية والمقصود, لكان أولى. ثم نبه على أن في إقامة المقيمين منهم, وعدم خروجهم, مصالح, لو خرجوا, لفاتتهم. فقال : "لِيَتَفَقَّهُوا " أي: القاعدون "فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ " أي. ليتعلموا العلم الشرعي, ويعلموا معانيه, ويفقهوا أسراره, وليعلموا غيرهم, ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم. ففي هذا فضيلة العلم, وخصوصا الفقه في الدين, وأنه أهم الأمور. وأن من تعلم علما, فعليه نشره وبثه في العباد, ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم, من بركته وأجره, الذي ينمي. وأما اقتصار العالم على نفسه, وعدم دعوته إلى سبيل اللّه, بالحكمة والموعظة الحسنة, وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون, فأي منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي نتيجة, نتجت

من علمه؟ وغايته أن يموت, فيموت علمه وثمرته. وهذا غاية الحرمان, لمن آتاه اللّه علما, ومنحه فهما. وفي هذه الآية أيضا دليل, وإرشاد, وتنبيه لطيف, لفائدة مهمة. وهي: أن المسلمين ينبغي لهم, أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة, من يقوم بها, ويوفر وقته عليها, ويجتهد فيها, ولا يلتفت إلى غيرها, لتقوم مصالحهم, وتتم منافعهم, ولتكون وجهة جميعهم, ونهاية ما يقصدون, قصدا واحدا, وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم. ولو تفرقت الطرق, وتعددت المشارب, فالأعمال متباينة, والقصد واحد. وهذه من الحكمة العامة النافعة, في جميع الأمور.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ "
وهذا أيضا إرشاد آخر, بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال, أرشدهم إلى أنهم يبدأون بالأقرب فالأقرب من الكفار, والغلظة عليهم, والشدة في القتال, والشجاعة والثبات . 'وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ " أي: وليكن لديكم علم, أن المعونة من اللّه, تنزل بحسب التقوى, فلازموا على تقوى اللّه, يعنكم وينصركم على عدوكم. وهذا العموم في قوله 'قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ " مخصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا, وأنواع المصالح كثيرة جدا.

"وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ "
يقول تعالى - مبينا حال المنافقين, وحال المؤمنين عند نزول القرآن, وتفاوت ما بين الفريقين, فقال : 'وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ " فيها الأمر, والنهي, والخبر عن نفسه الكريمة, وعن الأمور الغائبة, والحث على الجهاد . 'فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا " أي: حصل الاستفهام, لمن حصل له الإيمان بها, من الطائفتين. قال تعالى - مبينا الحال الواقعة -: 'فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا " بالعلم بها, وفهمها, واعتقادها, والعمل بها, والرغبة في فعل الخير, والانكفاف عن فعل الشر . 'وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ " أي: يبشر بعضهم بعضا, بما من اللّه عليهم من آياته, والتوفيق لفهمها والعمل بها. وهذا دال على انشراح صدورهم لآيات اللّه, وطمأنينة قلوبهم, وسرعة انقيادهم, لما تحثهم عليه.

"وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ "
'وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ " أي: شك ونفاق 'فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ " أي: مرضا إلى مرضهم, وشكا إلى شكهم, من حيث إنهم كفروا بها, وعاندوها, وأعرضوا عنها, فازداد لذلك مرضهم, وترامى بهم إلى الهلاك والطبع على قلوبهم, حتى 'وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ". وهذا عقوبة لهم, لأنهم كفروا بآيات اللّه, وعصوا رسوله, فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه قال تعالى - موبخا لهم, على إقامتهم على ما هم عليه, من الكفر والنفاق.

"أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ "
" أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ " بما يصيبهم من البلايا والأمراض, وبما يبتلون من الأوامر الإلهية, التي يراد بها اختبارهم . "ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ " عما هم عليه من الشر 'وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ " ما ينفعهم, فيفعلونه, وما يضرهم, فيتركونه. فالله تعالى, يبتليهم - كما هي سنته في سائر الأمم - بالسراء والضراء وبالأوامر والنواهي, ليرجعوا إليه, ثم لا يتوبون, ولا هم يذكرون. وفي هذه الآيات, دليل على أن الإيمان يزيد وينقص, وأنه ينبغي للمؤمن, أن يتفقد إيمانه ويتعاهده, فيجدده وينميه, ليكون - دائما - في صعود.

"وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ "
يعني: أن المنافقين, الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورة, تنبئهم بما في قلوبهم . 'وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ " ليؤمنوا بها, ويعملوا بمضمونها . "نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ " جازمين على ترك العمل بها, ينتظرون الفرصة, في الاختفاء عن أعين المؤمنين, ويقولون : 'هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا " متسللين, وانقلبوا معرضين, فجازاهم اللّه بعقوبة من جنس

عملهم. فكما انصرفوا عن العمل صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ " أي: صدها عن الحق وخذلها. " بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ " فقها ينفعهم, فإنهم لو فقهوا, لكانوا - إذا نزلت سورة - آمنوا بها, وانقادوا لأمرها. والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره, من شرائع الإيمان, كما قال تعالى عنهم : "فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ "

"لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ "
يمتن تعالى, على عباده المؤمنين, بما بعث فيهم النبي الأمي, الذي من أنفسهم, يعرفون حاله, ويتمكنون من الأخذ عنه, ولا يأنفون عن الانقياد له. وهو صلى الله عليه وسلم في غاية النصح لهم, والسعي في مصالحهم . "عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ " أي: يشق عليه الأمر, الذي يشق عليكم ويعنتكم . "حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ " فيحب لكم الخير, ويسعى جهده, في إيصاله إليكم, ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان, ويكره لكم الشر, ويسعى جهده, في تنفيركم عنه . "بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ " أي: شديد الرأفة والرحمة بهم, أرحم بهم من والديهم. ولهذا كان حقه مقدما على سائر حقوق الخلق, وواجب على الأمة الإيمان به, وتعظيمه, وتوقيره, وتعزيره.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ "
"فَإِنْ " آمنوا, فذلك حظهم وتوفيقهم, وإن "تَوَلَّوا " عن الإيمان والعمل, فامض على سبيلك, ولا تزل في دعوتك, وقل : "حَسْبِيَ اللَّهُ " أي: الله يكفيني, جميع ما أهمني. " لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ " أي لا معبود بحق, سواه . "عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ " أي: اعتمدت, ووثقت به, في جلب ما ينفع, ودفع ما يضر . "وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ " الذي هو أعظم المخلوقات. وإذا كان رب العرش العظيم, الذي وسع المخلوقات, كان ربا لما دونه, عن باب أولى, وأحرى. تم تفسير سورة التوبة بعون اللّه ومنه فلله الحمد, أولا وآخرا, وظاهرا وباطنا

سورة يونس

"الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ "
يقول تعالى " الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ " وهو هذا القرآن, المشتمل على الحكمة والأحكام, الدالة آياته على الحقائق الإيمانية, والأوامر والنواهي الشرعية, الذي على جميع الأمة تلقيه بالرضا والقبول والانقياد.

"أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ "
ومع هذا, فأعرض أكثرهم, فهم لا يعلمون, فتعجبوا " أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ " عذاب الله, وخوفهم نقم الله, وذكرهم بآيات الله . "وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا " إيمانا صادقا " أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ " أي: لهم جزاء موفور, وثواب مذخور عند ربهم, بما قدموه, وأسلفوه من الأعمال الصالحة الصادقة. فتعجب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجبا, حملهم على الكفر به . "قَالَ الْكَافِرُونَ " عنه: " إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ " أي: بين السحر لا يخفى - بزعمهم - على أحد, وهذا من سفههم وعنادهم. فإنهم تعجبوا من أمر, ليس مما يتعجب منه, ويستغرب. وإنما يتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم. كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم, الذي بعثه الله من أنفسهم, يعرفونه حق المعرفة, فردوا دعوته, وحرصوا على إبطال دينه, والله متم نوره, ولو كره الكافرون.

"إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ "
يقول تعالى - مبينًا لربوبيته, وإلهيته, وعظمته:- " إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ " مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة. ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية, ولأنه رفيق في أفعاله. ومن جملة حكمته فيها, أنه خلقها بالحق وللحق, ليعرف بأسمائه وصفاته ويفرد بالعبادة . "ثُمَّ " بعد خلق السماوات والأرض "

اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ " استواء يليق بعظمته . "يُدَبِّرُ الْأَمْرَ " في العالم العلوي, والسفلي, من الإماتة والإحياء, وإنزال الأرزاق, ومداولة الأيام بين الناس, وكشف الضر عن المضرورين, وإجابة سؤال السائلين. فأنواع التدابير, نازلة منه, وصاعدة إليه, وجميع الخلق, مذعنون لعزته, خاضعون لعظمته وسلطانه . "مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ " فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة, ولو كان أفضل الخلق, حتى يأذن الله. ولا يأذن إلا لمن ارتضى, ولا يرتضي إلا أهل الإخلاص والتوحيد له . "ذَلِكُمْ " الذي هذا شأنه " اللَّهُ رَبُّكُمْ " أي: هو الله الذي له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال, ووصف الربوبية, الجامع لصفات الأفعال . "فَاعْبُدُوهُ " أي: أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية. " أَفَلَا تَذَكَّرُونَ " الأدلة الدالة, على أنه وحده, المعبود المحمود, ذو الجلال والإكرام.

"إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ " فلما ذكر حكمه القدري, وهو التدبير العام, وحكمه الديني, وهو شرعه, الذي مضمونه ومقصوده, عبادته وحده لا شريك له, ذكر الحكم الجزئي, وهو: مجازاته على الأعمال بعد الموت, فقال: " إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا " أي: سيجمعكم بعد موتكم, لميقات يوم معلوم. " وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا " أي: وعده صادق لا بد من إتمامه " إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ". فالقادر على ابتداء الخلق, قادر على إعادته. والذي يرى ابتداءه بالخلق, ثم ينكر إعادته للخلق, فهو فاقد العقل, منكر لأحد المثلين, مع إثبات ما هو أولى منه, فهذا دليل عقلي واضح, على المعاد. ثم ذكر الدليل النقلي فقال : "لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا " بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به . "وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ " بجوارحهم, من واجبات, ومستحبات . "بِالْقِسْطِ " أي: بإيمانهم وأعمالهم, جزاء قد بينه لعباده, وأخبر أنه لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين . "وَالَّذِينَ كَفَرُوا " بآيات الله, وكذبوا رسل الله . "لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ " أي: ماء حار, يشوي الوجوه, ويقطع الأمعاء . "وَعَذَابٌ أَلِيمٌ " من سائر أصناف العذاب "بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ". أي: بسبب كفرهم وظلمهم, وما ظلمهم الله, ولكن أنفسهم يظلمون.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ "
لما قرر ربوبيته وإلهيته, ذكر الأدلة العقلية الأفقية, الدالة على ذلك وعلى كماله, في أسمائه وصفاته, من الشمس والقمر, والسماوات والأرض وجميع ما خلق فيهما, من سائر أصناف المخلوقات, وأخبر أنها آيات "لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ " و "لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ". فإن العلم, يهدي إلى معرفة الدلالة فيها, وكيفية استنباط الدلائل, على أقرب وجه. والتقوى, تحدث في القلب, الرغبة في الخير, والرهبة من الشر, الناشئين عن الأدلة والبراهين; وعن العلم واليقين. وحاصل ذلك, أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة, دال على كمال قدرة الله تعالى, وعلمه, وحياته, وقيوميته. وما فيها من الأحكام, والإتقان, والإبداع والحسن, دال على كمال حكمة الله, وحسن خلقه, وسعة علمه. وما فيها, من أنواع المنافع والمصالح - كجعل الشمس ضياء, والقمر نورا, يحصل بهما من النفع الضروري وغيره مما يحصل - يدل ذلك على رحمة الله تعالى, واعتنائه بعباده, وسعة بره, وإحسانه. وما فيها من التخصيصات, دال على مشيئة الله, وإرادته النافذة. وذلك دال على أنه وحده, المعبود, والمحبوب المحمود, ذو الجلال والإكرام, والأوصاف العظام, الذي لا تنبغي الرغبة والرهبة, إلا إليه, ولا يصرف خالص الدعاء, إلا له لا لغيره, من المخلوقات المربوبات, المفتقرات إلى الله, في جميع شئونها. وفي هذه الآيات: الحث والترغيب, على التفكير في مخلوقات الله, والنظر فيها, بعين الاعتبار. فإن بذلك تنفسح البصيرة, ويزداد الإيمان والعقل, وتقوى القريحة. وفي إهمال ذلك, تهاون بما أمر الله به, وإغلاق لزيادة الإيمان, وجمود للذهن والقريحة.

"إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ "
يقول تعالى " إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا " أي لا يطمعون بلقاء الله, الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون; وأعلى ما أمله المؤملون. بل أعرضوا ذلك, وربما كذبوا به "وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا " بدلا عن الآخرة . "وَاطْمَأَنُّوا بِهَا " أي: ركنوا إليها, وجعلوها غاية أمرهم,

ونهاية قصد. فسعوا لها, وأكبوا على لذاتها وشهواتها, بأي طريق حصلت, حصلوها, ومن أي وجه لاحت, ابتدروها. قد صرفوا إرادتهم ونياتهم, وأفكارهم, وأعمالهم, إليها. فكأنهم خلقوا للبقاء فيها, وكأنها ليست بدار ممر, يتزود فيها المسافرون, إلى الدار الباقية التي, إليها, يرحل الأولون والآخرون, وإلى نعيمها ولذاتها, شمر الموفقون . "وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ " فلا ينتفعون بالآيات القرآنية, ولا بالآيات الأفقية والنفسية. والإعراض عن الدليل, مستلزم للإعراض والغفلة, عن المدلول المقصود.

"أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ "
" أُولَئِكَ " الذين هذا وصفهم "مَأْوَاهُمُ النَّارُ " أي: مقرهم ومسكنهم, التي لا يرحلون عنها. "بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ " من الكفر والشرك, وأنواع المعاصي. فلما ذكر عقابهم, ذكر ثواب المطيعين فقال: " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا " إلى " أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ".

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ "
يقول تعالى " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ " أي: جمعوا بين الإيمان, والقيام بموجبه ومقتضاه, من الأعمال الصالحة, المشتملة على أعمال القلوب, وأعمال الجوارح, على وجه الإخلاص والمتابعة . "يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ " أي: بسبب ما معهم من الإيمان, يتيبهم الله أعظم الثواب, وهو: الهداية. فيعلمهم ما ينفعهم, ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية, ويهديهم للنظر في آياته, ويهديهم في هذه الدار, إلى الصراط المستقيم, وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم. ولهذا قال : "تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ " الجارية على الدوام "فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ". أضافها الله إلى النعيم, لاشتمالها على النعيم التام. نعيم القلب بالفرح والسرور, والبهجة والحبور, ورؤية الرحمن, وسماع كلامه, والاغتباط برضاه وقربه, ولقاء الأحبة والإخوان, والتمتع بالاجتماع بهم, وسماع الأصوات المطربات, والنغمات المشجيات, والمناظر المفرحات. ونعيم البدن بأنواع المآكل, والمشارب, والمناكح, ونحو ذلك, مما لا تعلمه النفوس, ولا خطر ببال أحد, أو قدر أن يصفه الواصفون.

"دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ "
"دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ " أي عبادتهم فيها لله, أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقائض, وآخرها, تحميد لله, فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء. وإنما بقي لهم, أكمل اللذات, الذي هو ألذ عليهم, من المآكل اللذيذة. ألا وهو: ذكر الله الذي تطمئن به القلوب, وتفرح به الأرواح. وهو لهم بمنزلة النفس, من دون كلفة ومشقة. أما "وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا " فيما بينهم عند التلاقي والتزاور, فهو السلام, أي: كلام سالم من اللغو والإثم, موصوف بأنه "سَلَامٌ ". وقد قيل في تفسير قوله "دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ " إلى آخر الآية. أن أهل الجنة - إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما - قالوا سبحانك اللهم, فأحضر لهم في الحال . "وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ " إذا فرغوا " أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ".

"وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ "
وهذا من لطفه وإحسانه بعباده, أنه لو عجل لهم الشر, إذا أتوا بأسبابه, وبادرهم بالعقوبة على ذلك, كما يعجل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه "لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ " أي لمحقتهم العقوبة. ولكنه تعالى, يمهلهم, ولا يهملهم, ويعفو عن كثير من حقوقه. فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم, ما ترك على ظهرها من دابة. ويدخل في هذا, أن العبد إذا غضب على أولاده, أو أهله, أو ماله, ربما دعا عليهم دعوة, لو قبلت منه, لهلكوا, ولأضره ذلك غاية الضرر, ولكنه تعالى, حليم حكيم. وقوله : "فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا " أي لا يؤمنون بالآخرة, فلذلك لا يستعدون لها, ولا يعلمون ما ينجيهم من عذاب الله . "فِي طُغْيَانِهِمْ " أي: باطلهم, الذي جاوزوا به الحق والحد . "يَعْمَهُونَ " يترددون حائرين لا يهتدون السبيل, ولا يوفقون لأقوم دليل. وذلك عقوبة لهم على ظلمهم, وكفرهم بآيات الله.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "
وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان, من حيث هو, وأنه إذا مسه ضر, من مرض, أو مصيبة, اجتهد في الدعاء, وسأل الله في جميع أحواله, قائما, وقاعدا, ومضطجعا, وألح في الدعاء, ليكشف الله عنه ضره . "فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ " أي: استمر في غفلته, معرضا عن ربه, كأنه ما جاءه ضر, فكشفه الله عنه. فأي ظلم أعظم من هذا الظلم؟!! يطلب من الله قضاء غرضه. فإذا أناله إياه, لم ينظر إلى حق ربه, وكأنه ليس عليه لله حق. وهذا تزيين من الشيطان, زين له ما كان مستهجنا مستقبحا في العقول والفطر . "كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ " أي: المتجاوزين للحد "مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ".

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ "
يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية, بظلمهم وكفرهم, بعد ما جاءتهم البينات, على أيدي الرسل, وتبين الحق, فلم ينقادوا لها, ولم يؤمنوا. فأحل بهم عقابه, الذي لا يرد عن كل مجرم, متجرئ على محارم الله. وهذه سنته في جميع الأمم.

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ "
"ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ " أي: المخاطبين "خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ " فإن أنتم اعتبرتم, واتعظتم بمن قبلكم, واتبعتم آيات الله, وصدقتم رسله, نجوتم في الدنيا والآخرة. وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم, أحل بكم ما أحل بهم, ومن أنذر فقد أعذر.

"وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ "
يذكر تعالى, تعنت المكذبين لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم, وأنهم إذا تتلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق, أعرضوا عنها, وطلبوا وجوه التعنت فقالوا, جراءة منهم وظلما: " ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ " فقبحهم الله, ما أجرأهم على الله, وأشدهم ظلما, وردا لآياته. فإذا كان الرسول العظيم, يأمره الله, أن يقول لهم : "قُلْ مَا يَكُونُ لِي " أي ما ينبغي, ولا يليق بي " أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ". فإني رسول محض, ليس لي من الأمر شيء. " إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ " أي: ليس لي غير ذلك, فإني عبد مأمور. " إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ". فهذا قول خير الخلق, وأدبه مع أوامر ربه ووحيه. فكيف بهؤلاء السفهاء الضالين, الذين جمعوا بين الجهل والضلال, والظلم والعناد, والتعنت والتعجيز لرب العالمين, أفلا يخافون عذاب يوم عظيم؟!!. فإن زعموا أن قصدهم, أن يتبين لهم الحق بالآيات, التي طلبوا, فهم كذبة في ذلك. فإن الله قد بين من الآيات, ما يؤمن على مثله, البشر. وهو الذي يصرفها كيف يشاء, تبعا لحكمته الربانية, ورحمته بعباده.

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ "
"قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا " طويلا "مِنْ قَبْلِهِ " أي: قبل تلاوته, وقبل درايتكم به, وأنا ما خطر على بالي, ولا وقع في ظني. " أَفَلَا تَعْقِلُونَ " أني, حيث لم أتله في مدة عمري, ولا صدر مني, ما يدل على ذلك. فكيف أتقوله بعد ذلك, وقد لبثت فيكم عمرا طويلا, تعرفون حقيقة حالي, بأني أمي لا أقرأ, ولا أكتب, ولا أدرس, ولا أتعلم من أحد؟!! فأتيتكم بكتاب عظيم, أعجز الفصحاء, وأعيا العلماء. فهل يمكن - مع هذا - أن يكون من تلقاء نفسي, أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد؟ فلو أعملتم أفكاركم وعقولكم, وتدبرتم حالي وحال هذا الكتاب, لجزمتم جزما لا يقبل الريب بصدقه, وأنه الحق, الذي ليس بعده, إلا الضلال. ولكن إذا أبيتم إلا التكذيب والعناد, فأنتم لا شك أنكم ظالمون.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ "
"فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ " فلو كنت متقولا, لكنت أظلم الناس, وفاتني الفلاح, ولم تخف عليكم حالي. ولكني جئتكم بآيات الله, فكذبتم بها, فتعين فيكم الظلم. ولا بد أن أمركم سيضمحل, ولن تنالوا الفلاح, ما دمتم كذلك. ودل قوله " قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا " الآية, أن الذي حملهم على هذا التعنت, الذي صدر منهم, هو عدم إيمانهم بلقاء الله, وعدم رجائه, وأن من آمن بلقاء الله, فلا بد أن ينقاد لهذا الكتاب, ويؤمن به, لأنه حسن القصد.

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ "
يقول تعالى : "وَيَعْبُدُونَ " أي: المشركون المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم. " مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ " أي: إن معبوداتهم لا تملك لهم مثقال ذرة, من النفع, ولا تدفع عنهم شيئا . "وَيَقُولُونَ " قولا خاليا من البرهان : "هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ " أي: يعبدونهم, ليقربوهم إلى الله, ويشفعوا لهم عنده. وهذا قول من تلقاء أنفسهم, وكلام, ابتكروه, هم. ولهذا قال تعالى - مبطلا لهذا القول :- "قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ". أي: الله تعالى هو العالم, الذي أحاط علما بجميع ما في السماوات والأرض, وقد أخبركم, بأنه ليس له شريك ولا إله معه. أفأنتم- يا معشر المشركين - تزعمون أنه يوجد له فيها شركاء؟. أفتخبرونه بأمر خفي عليه, وعلمتوه؟ أأنتم أعلم أم الله؟ فهل يوجد قول أبطل من هذا القول, المتضمن أن هؤلاء الضلال الجهال السفهاء, أعلم من رب العالمين؟ فليكتف العاقل بمجرد تصور هذا القول, فإنه يجزم بفساده وبطلانه .سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ " أي: تقدس وتنزه, أن يكون له شريك أو نظير. بل هو الله الأحد الفرد الصمد, الذي لا إله, في السماوات والأرض, إلا هو. وكل معبود في العالم العلوي والسفلي سواه, فإنه باطل عقلا, وشرعا, وفطرة . "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ".

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ "
أي "وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً " متفقين على الدين الصحيح, ولكنهم اختلفوا. فبعث الله الرسل, مبشرين ومنذرين, وأنزل معهم الكتاب, ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. "وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ " بإمهال العاصين, وعدم معاجلتهم بذنوبهم . "لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ " بأن ننجي المؤمنين, ونهلك الكافرين المكذبين, وصار هذا فارقا بينهم "فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ". ولكنه, أراد امتحانهم, وابتلاء بعضهم ببعض, ليتبين الصادق من الكاذب.

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ "
"وَيَقُولُونَ " أي: المكذبون المتعنتون "لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ". يعنون: آيات الاقتراح, التي يعينونها, كقولهم "لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا " الآيات. وكقولهم " وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا " الآيات (90 إلى 93) من سورة الإسراء . "قُلْ " لهم إذا طلبوا منك آية " إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ " أي: هو المحيط علما بأحوال العباد, فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم, وحكمته البديعة, وليس لأحد تدبير في حكم ولا دليل, ولا غاية, ولا تعليل . "فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ " أي: كل ينتظر بصاحبه, ما هو أهل له, فانظروا لمن تكون العاقبة.

"وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ "
يقول تعالى : "وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ " كالصحة بعد المرض, والغنى بعد الفقر, والأمن بعد الخوف, نسوا ما أصابهم من الضراء, ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة, بل استمروا في طغيانهم ومكرهم. ولهذا قال: " إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا " أي يسعون بالباطل, ليبطلوا به الحق . "قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا " فإن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله. فمقصودهم منعكس عليهم, ولم يسلموا من التبعة, بل تكتب الملائكة عليهم, ما

يعملون, ويحصيه الله, ثم يجازيهم عليه أوفر الجزاء.

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ "
لما ذكر تعالى, القاعدة العامة في أحوال الناس, عند إصابة الرحمة لهم, بعد الضراء, واليسر بعد العسر, ذكر حالة, تؤيد ذلك, وهي: حالهم في البحر, عند اشتداده, والخوف من عواقبه. فقال : "هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ" بما يسر لكم من الأسباب الميسرة لكم فيها, وهداكم إليها . "حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ " أي: السفن البحرية "وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ " موافقة لما يهوونه, من غير انزعاج ولا مشقة . "وَفَرِحُوا بِهَا " واطمأنوا إليها. فبينما هم كذلك , "جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ " شديدة الهبوب "وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ " أي: عرفوا أنه الهلاك. فانقطع حينئذ, تعلقهم بالمخلوقين, وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده. وحينئذ "دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ " ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام. فقالوا : "لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ "

فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ "
"فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ " أي نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء, وما ألزموه أنفسهم, فأشركوا بالله, من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد, ولا يدفع عنهم المضايق. فهلا أخلصوا لله العبادة في الرخاء, كما أخلصوها في الشدة؟!!. ولكن هذا البغي, يعود وباله عليهم, ولهذا قال : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا " أي: غاية ما تؤملون ببغيكم, وشرودكم عن الإخلاص لله, أن تنالوا شيئا من حطام الدنيا وجاهها, النزر اليسير, الذي سينقضي سريعا, ويمضي جميعا, ثم تنتقلون عنه بالرغم . "ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ " في يوم القيامة "فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " وفي هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم.

"إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ "
وهذا المثل من أحسن الأمثلة, وهو مطابق لحالة الدنيا. فإن لذاتها, وشهواتها, وجاهها, ونحو ذلك, يزهو لصاحبه, إن زها وقتا قصيرا. فإذا استكمل وتم, اضمحل, وزال عن صاحبه, أو زال صاحبه عنه. فأصبح صفر اليدين منها, ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها. فذلك "كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ " أي: نبت فيها من كل صنف, وزوج بهيج "مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ " كالحبوب والثمار ومما تأكل " الْأَنْعَامِ " كأنواع العشب, والكلأ المختلف الأصناف . "حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ " أي: تزخرفت في منظرها, واكتست في زينتها, فصارت بهجة للناظرين, ونزهة للمتفرجين, وآية للمتبصرين. فصرت ترى لها منظرا عجيبا ما بين أخضر, وأصفر, وأبيض وغيره. " وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا " أي: حصل معهم طمع, بأن ذلك سيستمر ويدوم, لوقوف إرادتهم عنده, وانتهاء مطالبهم فيه. فبينما في تلك الحالة " أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ " أي: كأنها ما كانت. فهذه حالة الدنيا, سواء بسواء. "كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ " أي: نبينها ونوضحها, بتقريب المعاني إلى الأذهان, وضرب الأمثال "لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " أي: يعملون أفكارهم فيما ينفعهم. وأما الغافل المعرض, فهذا لا تنفعه الآيات, ولا يزيل عنه الشك البيان.

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ "
ولما ذكر الله حال الدنيا, وحاصل نعيمها, شوق إلى الدار الباقية فقال : "وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ " إلى "وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ". عمم تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام, والحث على ذلك, والترغيب. وخص بالهداية, من شاء استخلاصه واصطفاءه. فهذا فضله وإحسانه, والله يختص برحمته من يشاء. وذلك عدله وحكمته, وليس لأحد عليه حجة, بعد

البيان والرسل. وسمى الله الجنة "دار السلام" لسلامتها من جميع الآفات والنقائص. وذلك, لكمال نعيمها, وتمامه, وبقائه, وحسنه من كل وجه.

"لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ "
ولما دعا إلى دار السلام, كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة لها, الموصلة إليها, أخبر عنها بقوله : "لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ " أي: للذين أحسنوا في عبادة الخالق, بأن عبدوه على وجه المراقبة والنصيحة, في عبوديته, وقاموا بما قدروا عليه منها, وأحسنوا إلى عباد الله, بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعلي, من بذل الإحسان المالي, والإحسان البدني, والأمر بالمعروف, والنهي عن المنكر, وتعليم الجاهلين, ونصيحة المعرضين, وغير ذلك من وجوه البر والإحسان. فهؤلاء الذين أحسنوا, لهم "الحسنى" وهي: الجنة الكاملة في حسنها و "زيادة" وهي: النظر إلى وجه الله الكريم, وسماع كلامه, والفوز برضاه والبهجة بقربه. فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المتمنون, ويسأله السائلون. ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم فقال : "وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ". أي لا ينالهم مكروه, بوجه من الوجوه, لأن المكروه, إذا وقع بالإنسان. تبين ذلك في وجهه, وتغير, وتكدر, وأما هؤلاء - فكما قال الله عنهم - "تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ". " أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ " الملازمون لها "هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ "لا يحولون, ولا يزولون, ولا يتغيرون.

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ "
لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار. فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة المسخطة لله, من أنواع الكفر والتكذيب, وصناف المعاصي. فـ "جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا " أي: جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم. " وَتَرْهَقُهُمْ " أي تغشاهم "ذِلَّةٌ " في قلوبهم وخوف من عذاب الله لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم. وتسري تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم, فتكون سوادا في وجوههم. "كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " فكم بين الفريقين من الفرق, ويا بعد ما بينهما من التفاوت؟ ! "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ " "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ".

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ "
يقول تعالى "وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا " أي: نجمع جميع الخلائق, لميعاد يوم معلوم, ونحضر المشركين, وما كانوا يعبدون من دون الله . "ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ " أي: الزموا مكانكم ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم . "فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ " أي: فرقنا بينهم, بالبعد البدني والقلبي. فحصلت بينهم العداوة الشديدة, بعد أن بذلوا لهم في الدنيا, خالص المحبة, وصفو الوداد. فانقلبت تلك المحبة والولاية, بغضا وعداوة . "وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ " متبرئين منهم : "مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ " فإننا ننزه الله أن يكون له شريك, أو نديد.

فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ "
"فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ". ما أمرناكم بها, ولا دعوناكم لذلك, وإنما عبدتم من دعاكم إلى ذلك, وهو الشيطان كما قال تعالى: " أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ". وقال : "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ". فالملائكة الكرام, والأنبياء, والأولياء ونحوهم: يتبرأون ممن عبدهم يوم القيامة وينتصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون في ذلك. فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها. ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال, وما أسلفوا من رديء الخصال. ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين,

وأنهم مفترون على الله, قد ضلت عبادتهم, واضمحلت معبوداتهم, وتقطعت بهم الأسباب والوسائل.

" هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ "

ولهذا قال : "هُنَالِكَ " أي: في ذلك اليوم "تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ " أي: تتفقد أعمالها وكسبها, وتتبعه بالجزاء, وتجازي بحسبه, إن خيرا فخير, وإن شرا فشر . "وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ " من قولهم بصحة ما عليه من الشرك, وأن ما يعبدون من دون الله, تنفعهم, وتدفع عنهم العذاب.

" قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ "

أي: قل لهؤلاء الذين أشركوا بالله, ما لم ينزل به سلطانا - محتجا عليهم بما أقروا به, من توحيد الربوبية, على ما أنكروه من توحيد الألوهية - "قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ " بإنزال الأرزاق من السماء, وإخراج أنواعها من الأرض, وتيسير أسبابها فيها؟ " أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ " أي: من هو الذي خلقهما وهو مالكهما؟. وخصهما بالذكر, من باب التنبيه على المفضول بالفاضل, ولكمال شرفهما ونفعهما . "وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ " كإخراج أنواع الأشجار والنبات, من الحبوب والنوى, وإخراج المؤمن من الكافر, والطائر من البيضة, ونحو ذلك . "وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ " عكس هذه المذكورات . "وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ " في العالم العلوي والسفلي, وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية. فإنك إذا سألتهم عن ذلك "فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ " لأنهم يعترفون بجميع ذلك, وأن الله لا شريك له في شيء من المذكورات . "فَقُلْ " لهم إلزاما بالحجة " أَفَلَا تَتَّقُونَ " الله فتخلصون له العبادة, وحده لا شريك له, وتخلعون ما تعبدونه من دونه, من الأنداد والأوثان.

" فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ "

"فَذَلِكُمُ " الذي وصف نفسه بما وصفها به " اللَّهُ رَبُّكُمْ " أي: المألوه المعبود المحمود, المربي جميع الخلق بالنعم وهو " الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ". فإنه تعالى, المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء, الذي ما بالعباد من نعمة, إلا منه, ولا يأتي بالحسنات إلا هو, ولا يدفع السيئات إلا هو, ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العظيمة, والجلال والإكرام . "فَأَنَّى تُصْرَفُونَ " عن عبادة من هذا وصفه, إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم, ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا, ولا موتا, ولا حياة ولا نشورا. فليس له من الملك مثقال ذرة, ولا شركة له بوجه من الوجوه, ولا يشفع عند الله إلا بإذنه. فتبا لمن أشرك به, وويحا لمن كفر به. لقد عدموا عقولهم, بعد أن عدموا أديانهم, بل فقدوا دنياهم وأخراهم.

" كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ "

ولهذا قال تعالى عنهم : "كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ " بعد أن أراهم الله من الآيات البينات والبراهين النيرات, ما فيه عبرة لأولي الألباب, وموعظة للمتقين وهدى للعالمين.

"قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ "

يقول تعالى - مبينا عجز آلهة المشركين, وعدم اتصافها, بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله: " قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ " أي يبتديه "ثُمَّ يُعِيدُهُ ". وهذا استفهام, بمعنى النفي والتقرير أي: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده, وهي أضعف من ذلك, وأعجز . "قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ " من غير مشارك, ولا معاون له على ذلك . "فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ " أي: تصرفون, وتنحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء, والإعادة, إلى عبادة من لا يخلق شيئا وهم يخلقون . "قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ " ببيانه وإرشاده, أو بإلهامه وتوفيقه.

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ

أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ "
"قُلِ اللَّهُ " وحده "يَهْدِي لِلْحَقِّ " بالأدلة والبراهين, وبالإلهام والتوفيق, والإعانة إلى سلوك أقوم طريق. " أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي " أي لا يهتدي " إِلَّا أَنْ يُهْدَى " لعدم علمه, ولضلاله, وهي شركاؤهم, التي لا تهدي ولا تهتدي إلا أن تهدى " فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ " أي: أيّ شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل, بصحة عبادة أحد مع الله, بعد ظهور الحجة والبرهان, أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده. فإذا تبين أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله, أوصافا معنوية, ولا أوصافا فعلية, تقتضي أن تعبد مع الله, بل هي متصفة بالنقائص الموجبة لبطلان إلهيتها, فلأي شيء جعلت مع الله آلهة؟ فالجواب: أن هذا من تزيين الشيطان للإنسان, أقبح البهتان, وأضل الضلال, حق اعتقد ذلك وألفه, وظنه حقا, وهو لا شيء.

"وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ "
ولهذا قال : "وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ " أي: أكثر الذين يدعون من دون الله شركاء. " إِلَّا ظَنًّا " أي: ما يتبعون في الحقيقة شركاء لله, فإنه ليس لله شريك أصلا, عقلا, ولا نقلا, وإنما يتبعون الظن "وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ". فسموها آلهة, وعبدوها مع الله, " إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ". " إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ " وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة.

"وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ "
يقول تعالى : "وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ " أي: غير ممكن ولا متصور, أن يفترى هذا القرآن على الله, لأنه الكتاب العظيم, الذي " لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ": وهو الكتاب الذي "لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ". وهو الكتاب الذي تكلم به رب العالمين. فكيف يقدر أحد من الخلق, أن يتكلم بمثله, أو بما يقاربه, والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟!!. فإن كان أحد يماثل الله في عظمته, وأوصاف كماله, أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن. ولو تنزلنا على الفرض والتقدير, فتقوله أحد على رب العالمين, لعاجله بالعقوبة, وبادره بالنكال . "وَلَكِنْ " الله أنزل هذا الكتاب, رحمة للعالمين, وحجة على العباد أجمعين. أنزله "تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ " من كتب الله السماوية, بأن وافقها, وصدقها بما شهدت به, وبشرت بنزوله, فوقع كما أخبرت. " وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ " للحلال والحرام, والأحكام الدينية والقدرية, والإخبارات الصادقة. " لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ " أي لا شك ولا مرية فيه, بوجه من الوجوه. بل هو الحق اليقين "تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ " الذي ربى جميع الخلق بنعمه. ومن أعظم أنواع تربيته, أن أنزل عليهم هذا الكتاب, الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية, المشتمل على مكارم الأخلاق, ومحاسن الأعمال.

"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ "
" أَمْ يَقُولُونَ " أي المكذبون به, عنادا وبغيا: " افْتَرَاهُ " محمد على الله, واختلقه . "قُلْ " لهم - ملزما لهم بشيء - إن قدروا عليه, أمكن ما ادعوه, وإلا كان قولهم باطلا . "فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " يعاونكم على الإتيان بسورة مثله, وهذا محال. ولو كان ممكنا, لادعوا قدرتهم على ذلك, ولأتوا بمثله. ولكن لما بان عجزهم, تبين أن ما قالوه باطل لا حظ له من الحجة.

"بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ "
والذي حملهم على التكذيب بالقرآن, المشتمل على الحق, الذي لا حق فوقه, أنهم لم يحيطوا به علما. فلو أحاطوا به علما, وفهموه حق فهمه, لأذعنوا بالتصديق به. وكذلك, إلى الآن, لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب ويحل بهم النكال. وهذا التكذيب الصادر منهم, من جنس تكذيب من قبلهم. ولهذا قال : "كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ " وهو الهلاك, الذي لم يبق منهم أحدا. فليحذر هؤلاء, أن يستمروا على تكذيبهم, فيحل بهم, ما أحل بالأمم المكذبين, والقرون المهلكين. وفي هذا دليل على وجوب التثبت في الأمور, وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده, قبل أن يحيط به علما.

وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ "
"وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ " أي: بالقرآن وما جاء به . "وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ " وهم الذين لا يؤمنون به على وجه الظلم, والعناد, والفساد, فسيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ "
"وَإِنْ كَذَّبُوكَ " فاستمر على دعوتك, وليس عليك من حسابهم من شيء, وما من حسابك عليهم من شيء, لكل عمله . "فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ". كما قال تعالى "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ".

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ "
يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول, ولما جاء به. وأن منهم "مَنْ يَسْتَمِعُونَ " إلى النبي صلى الله عليه وسلم, وقت قراءته للوحي لا على وجه الاسترشاد, بل على وجه التفرج والتكذيب, وتطلب العثرات, وهذا استماع, غير نافع, ولا مجد على أهله خيرا لا جرم, انسد عليهم باب التوفيق, وحرموا من فائدة الاستماع. ولهذا قال " أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ". وهذا الاستفهام, بمعنى النفي المتقرر. أي لا تسمع الصم, الذين لا يستمعون القول, ولو جهرت به, وخصوصا إذا كان عقلهم معدوما. فإذا كان من المحال إسماع الأصم, الذي لا يعقل, للكلام, فهؤلاء المكذبون, كذلك, ممتنع إسماعك إياهم, إسماعا ينتفعون به. وأما سماع الحجة, فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة. فهذا طريق عظيم, من طرق العلم, قد انسد عليهم, وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخير. ثم ذكر انسداد الطريق الثاني, وهو: طريق النظر فقال:

"وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ "
"وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ " فلا يفيدهم نظرهم إليك, ولا استراحوا لك شيئا. فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون, فكذلك لا تهدي هؤلاء. فإذا فسدت عقولهم, وأسماعهم, وأبصارهم, التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق, فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق؟. ودل قوله "وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ " الآية, أن النظر إلى حالة النبي صلى الله عليه وسلم, وهديه, وأخلاقه, وأعماله, وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه, وصحة ما جاء به, وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة.

"إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ "
وقوله: " إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا " فلا يزيد في سيئاتهم, ولا ينقص من حسناتهم. " وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " يجيئهم الحق, فلا يقبلونه, فيعاقبهم الله بعد ذلك, بالطبع على قلوبهم, والختم على أسماعهم وأبصارهم.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ "
يخبر تعالى, عن سرعة انقضاء الدنيا, وأن الله تعالى, إذا حشر الناس, وجمعهم ليوم لا ريب فيه كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار, وكأنه, ما مر عليهم نعيم ولا بؤس. وهم يتعارفون بينهم, كحالهم في الدنيا. ففي هذا اليوم, يربح المتقون, ويخسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين, إلى الصراط المستقيم, والدين القويم, حيث فاتهم النعيم, واستحقوا دخول النار.

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ "

أي لا تحزن أيها الرسول, على هؤلاء المكذبين, ولا تستعجل لهم, فإنهم لا بد أن يصيبهم الذي نعدهم من العذاب. إما في الدنيا, فتراه بعينك, وتقر به نفسك. وإما في الآخرة بعد الوفاة, فإن مرجعهم إلى الله, وسينبئهم بما كانوا يعملون, أحصاه ونسوه, والله على كل شيء شهيد. ففيه الوعيد الشديد لهم, والتسلية للرسول الذي كذبه قومه وعاندوه.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ "
يقول تعالى : "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ " من الأمم الماضية "رَسُولٌ " يدعوهم إلى توحيد الله ودينه. " فَإِذَا جَاءَ " هم "رَسُولُهُمْ " بالآيات, صدقه بعضهم, وكذبه آخرون. فيقضي الله بينهم بالقسط, بنجاة المؤمنين, وإهلاك المكذبين "وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ " بأن يعذبوا قبل إرسال الرسول, وبيان الحجة, أو يعذبوا بغير جرمهم. فليحذر المكذبون لك, من مشابهة الأمم المهلكين, فيحل بهم, ما حل بأولئك. ولا يستبطئوا العقوبة ويقولوا : "مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " فإن هذا ظلم منهم, حيث طلبوه من النبي صلى الله عليه وسلم. فإنه ليس له من الأمر شيء, وإنما عليه البلاغ والبيان للناس. وأما حسابهم, وإنزال العذاب عليهم, فمن الله تعالى, ينزل عليهم إذا جاء الأجل, الذي أجله فيه, والوقت الذي قدره فيه, الموافق لحكمته الإلهية. فإذا جاء ذلك الوقت لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. فليحذر المكذبون من الاستعجال, فإنهم مستعجلون بعذاب الله, الذي إذا نزل لا يرد بأسه عن القوم المجرمين, ولهذا قال : "قُلْ أَرَأَيْتُمْ " إلى "تَكْسِبُونَ ".

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ "
يقول تعالى "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا " وقت نومكم بالليل " أَوْ نَهَارًا " في وقت غفلتكم "مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ " أي: أي بشارة استعجلوا بها, وأي عقاب ابتدروه؟.

"أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ "
" أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ " فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله, ويقال لهم - توبيخا وعتابا في تلك الحال, التي زعموا أنهم يؤمنون. " الْآنَ " تؤمنون في حال الشدة والمشقة؟ "وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ " فإن سنة الله في عباده أنه يعتبهم إذا استعتبوه قبل وقوع العذاب. فإذا وقع العذاب لا ينفع نفسا إيمانها, كما قال تعالى عن فرعون, لما أدركه الغرق "قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ " وأنه يقال له " الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ". وقال تعالى : "فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ". وقال هنا " أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ " تدعون الإيمان . "وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ " فهذا ما عملت أيديكم, وهذا ما استعجلتم به.

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ "
"ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا " حين يوفون أعمالهم يوم القيامة : "ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ " أي: العذاب الذي تخلدون فيه, ولا يفتر عنكم ساعة . "هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ " من الكفر والتكذيب والمعاصي.

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ "
يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : "وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ " أي: يستخبرك المكذبون على وجه التعنت والعناد لا على وجه التبين والاسترشاد. " أَحَقٌّ هُوَ " اى: أصحيح حشر العباد, وبعثهم بعد موتهم ليوم المعاد, وجزاء العباد بأعمالهم, إن خيرا فخير, وإن شرا فشر؟ "قُلْ " لهم مقسما على صحته, مستدلا عليه بالدليل الواضح والبرهان: " إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ " لا مرية فيه ولا شبهة تعتريه . "وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ " لله أن يبعثكم. فكما ابتدأ خلقكم, ولم تكونوا شيئا, كذلك يعيدكم مرة أخرى, ليجازيكم بأعمالكم.

"وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ "
وإذا كانت القيامة "وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ " بالكفر والمعاصي. جميع "مَا فِي الْأَرْضِ "

من ذهب وفضة وغيرهما, لتفتدي به من عذاب الله " لَافْتَدَتْ بِهِ " ولما نفعها ذلك, وإنما النفع والضر, والثواب والعقاب, على الأعمال الصالحة, والسيئة . 'وَأَسَرُّوا " أي: الذين ظلموا " النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ " ندموا على ما قدموا, ولات حين مناص . 'وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ " أي: العدل التام, الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه.

"أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ "
" أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " يحكم فيهم بحكمه الديني والقدري, وسيحكم فيهم بحكمه الجزائي. ولهذا قال: " أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " فلذلك لا يستعدون للقاء الله, بل ربما لم يؤمنوا به, وقد تواترت عليه الأدلة القطعية, والبراهين النقلية والعقلية.

هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ "
'هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ " أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة, وسائر أنواع التدابير لا شريك له في ذلك . 'وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ " يوم القيامة, فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ "
يقول تعالى - مرغبا الخلق, في الإقبال على هذا الكتاب الكريم, بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ " أي: تعظكم, وتنذركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله, المقتضية لعقابه, وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها . 'وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ " وهو: هذا القرآن, شفاء لما في الصدور, من أمراض الشهوات الصادرة عن الانقياد للشرع, وأمراض الشبهات, القادحة في العلم اليقيني. فإن ما فيه من المواعظ, والترغيب, والترهيب, والوعد والوعيد, مما يوجب للعبد الرغبة والرهبة. وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير, والرهبة عن الشر, ونمتا على تكرر ما يرد إليها, من معاني القرآن, أوجب ذلك, تقديم مراد الله على مراد النفس, وصار ما يرضي الله, أحب إلى العبد من شهوة نفسه. وكذلك ما فيه, من البراهين, والأدلة, التي صرفها الله, غاية التصريف, وبينها أحسن بيان, مما يزيل الشبه القادحة في الحق, ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين. وإذا صح القلب من مرضه, ورفل بأثواب العافية, تبعته الجوارح كلها, فإنها تصلح بصلاحه, وتفسد بفساده . 'وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ " فالهدى هو, العلم بالحق والعمل به. والرحمة هي: ما يحصل من الخير والإحسان, والثواب العاجل والآجل, لمن اهتدى به. فالهدى, أجل الوسائل, والرحمة, أكمل المقاصد والرغائب. ولكن لا يهتدي به, ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين. وإذا حصل الهدى, وحلت الرحمة الناشئة عنه, حصلت السعادة والفلاح, والربح والنجاح, والفرح والسرور.

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ "
ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك فقال : 'قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ " الذي هو: القرآن, الذي هو أعظم نعمة ومنة, وفضل تفضل الله به على عباده 'وَرَحْمَتُهُ " الدين والإيمان, وعبادة الله ومحبته ومعرفته . 'فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ " من متاع الدنيا ولذاتها. فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين لا نسبة بينها, وبين جميع ما في الدنيا, مما هو مضمحل زائل عن قريب. وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته, لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها, وشكرها لله تعالى وقوتها, وشدة الرغبة في العلم والإيمان, الداعي للازدياد منهما, وهذا فرح محمود. بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها, أو الفرح بالباطل, فإن هذا مذموم. كما قال تعالى عن قوم قارون له: " لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ". وكما قال تعالى, في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل, المناقض, لما جاءت به الرسل: 'فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ".

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ "
يقول تعالى - منكرا على المشركين, الذين ابتدعوا تحريم ما أحل الله, وتحليل ما حرمه: 'قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ " يعني أنواع الحيوانات المحللة, التي جعلها الله

رزقا لهم ورحمة في حقهم . 'فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا " قل لهم - موبخا على هذا القول الفاسد-: " آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ " ومن المعلوم, أن الله لم يأذن لهم, فعلم أنهم مفترون.

وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ "
'وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " أن يفعل الله بهم من النكال, ويحل بهم من العقاب. قال تعالى : 'وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ". " إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ " كثير, وذو إحسان جزيل . 'وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ " إما أنهم لا يقومون بشكرها. وإما أن يستعينوا بها على معاصيه. وإما أن يحرموا منها, ويردوا ما منَّ الله به على عباده. وقليل منهم الشاكر, الذي يعترف بالنعمة, ويثني بها على الله, ويستعين بها على طاعته. ويستدل بهذه الآية, على أن الأصل في جميع الأطعمة, الحل, إلا ما ورد الشرع بتحريمه, لأن الله أنكر على من حرم الرزق, الذي أنزله لعباده.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ "
يخبر تعالى, عن عموم مشاهدته, واطلاعه على جميع أحوال العباد, في حركاتهم, وسكناتهم, وفي ضمن هذا, الدعوة لمراقبته على الدوام فقال : 'وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ " أي: حال من أحوالك الدينية والدنيوية . 'وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ " أي: وما تتلو من القرآن, الذي أوحاه الله إليك . 'وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ " صغير أو كبير " إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ " أي: وقت شروعكم فيه, واستمراركم على العمل به. فراقبوا الله في أعمالكم, وأدوها على وجه النصيحة والاجتهاد فيها. وإياكم, وما يكره الله تعالى, فإنه مطلع عليكم, عالم بظواهركم وبواطنكم . 'وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ " أي: ما يغيب عن علمه, وسمعه, وبصره, ومشاهدته "مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ " أي: قد أحاط به علمه, وجرى به قلمه. وهاتان المرتبتان, من مراتب القضاء والقدر, كثيرا ما يقرن الله بينهما, وهما: العلم المحيط بجميع الأشياء, وكتابته المحيطة بجميع الحوادث, كقوله تعالى: " أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ".

"أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ "
يخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه, ويذكر أعمالهم وأوصافهم, وثوابهم. فقال: " أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ " فيما يستقبلونه, مما أمامهم, من المخاوف والأهوال . 'وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " على ما أسلفوا, لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال. وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون, ثبت لهم الأمن والسعادة, والخير الكثير, الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

"الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ "
ثم ذكر وصفهم فقال: " الَّذِينَ آمَنُوا " بالله, وملائكته, وكتبه, ورسله, واليوم الآخر, وبالقدر, خيره وشره, وصدقوا إيمانهم, باستعمال التقوى, بامتثال الأوامر, واجتناب النواهي. فكل من كان مؤمنا تقيا, كان لله تعالى وليا, لذلك كانت "لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ".

لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ "
"لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ". أما البشارة في الدنيا, فهي: الثناء الحسن, والمودة في قلوب المؤمنين, والرؤيا الصالحة, وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق, وصرفه عن مساوئ الأخلاق. وأما في الآخرة, فأولها. البشارة عند قبض أرواحهم, كما قال تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ". وفي القبر, ما يبشر به من رضا الله تعالى, والنعيم, المقيم. وفي الآخرة, تمام البشرى, بدخول جنات النعيم,

والنجاة من العذاب الأليم. " لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ " بل ما وعد الله, فهو حق لا يمكن تغييره ولا تبديله, لأنه الصادق في قيله, الذي لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه. " ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ " لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور, والظفر بكل مطلوب محبوب. وحصر الفوز فيه, لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى. والحاصل أن البشرى شاملة لكل خير وثواب, رتبه الله في الدنيا والآخرة, على الإيمان والتقوى, ولهذا أطلق ذلك, فلم يقيده.

وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ "
أي: ولا يحزنك قول المكذبين فيك, من الأقوال, التي يتوصلون بها إلى القدح فيك, وفي دينك فإن أقوالهم لا تعزهم. ولا تضرك شيئا. " إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا " يؤتيها من يشاء, ويمنعها ممن يشاء. قال تعالى "مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا " أي: فليطلبها بطاعته, بدليل قوله بعده " إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ " ومن المعلوم, أنك على طاعة الله, وأن العزة لك ولأتباعك, من الله . "وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ". وقوله : "هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " أي: سمعه قد أحاط بجميع الأصوات, فلا يخفى عليه شيء منها. وعلمه, قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن, فلا يعزب عنه مثقال ذرة, في السماوات والأرض, ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. وهو - تعالى - يسمع قولك, وقول أعدائك فيه, ويعلم ذلك تفصيلا, فاكتف بعلم الله وكفايته, فمن يتق الله, فهو حسبه.

"أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ "
يخبر تعالى: أن له ما في السماوات والأرض, خلقا وملكا, يتصرف فيهم بما يشاء من أحكامه. فالجميع مماليك لله, مسخرون, مدبرون لا يستحقون شيئا من العبادة. وليسوا شركاء لله, بوجه الوجوه, ولهذا قال : "وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ " أي: الذي لا يغني من الحق شيئا "وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ " في ذلك, خرص إفك وبهتان. فإن كانوا صادقين, في أن معبوداتهم شركاء لله, فليظهروا من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من العبادة, فلن يستطيعوا. فهل منهم أحد يخلق شيئا, أو يرزق, أو يملك شيئا من المخلوقات, أو يدبر الليل والنهار, الذي جعله الله قياما للناس؟.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ "
و "هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ " في النوم والراحة بسبب الظلمة, التي تغشى وجه الأرض, فلو استمر الضياء, لما قروا, ولما سكنوا. جعل الله "وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا " أي: مضيئا, يبصر به الخلق, فينصرفون في معايشهم, ومصالح دينهم ودنياهم. " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ " عن الله, سمع فهم, وقبول, واسترشاد لا سمع تعنت وعناد. فإن في ذلك لآيات, لقوم يسمعون, ويستدلون بها, على أنه, وحده, المعبود وأنه الإله الحق, وأن إلهية ما سواه باطلة, وأنه الرءوف الرحيم العليم الحكيم.

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ "
يقول تعالى - مخبرا عن بهت المشركين لرب العالمين - "قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ". فنزه نفسه عن ذلك بقوله :"سُبْحَانَهُ " أي: تنزه عما يقول الظالمون, في نسبة النقائص, إليه علوا كبيرا, ثم برهن عن ذلك, بعدة براهين. أحدها: قوله "هُوَ الْغَنِيُّ " أي: الغني منحصر فيه, وأنواع الغنى مستغرقة فيه. فهو الغني, الذي له الغنى التام, بكل وجه واعتبار, من جميع الوجوه. فإذا كان غنيا من كل وجه, فلأي شيء يتخذ الولد؟ ألحاجة منه إلى الولد, فهذا مناف لغناه فلا يتخذ أحد ولدا إلا لنقص في غناه. البرهان الثاني, قوله : "لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ " وهذه كلمة جامعة عامة لا يخرج عنها موجود من أهل السماوات والأرض, الجميع مخلوقون عبيد مماليك. ومن المعلوم أن هذا الوصف العام, ينافي أن يكون له ولد. فإن الولد من جنس والده لا يكون مخلوقا ولا مملوكا. فملكيته لما في السماوات والأرض عموما, تنافي الولادة. البرهان الثالث, قوله: " إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا " أي: هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن لله ولدا, فلو كان لهم دليل,

لأبدوه. فلما تحداهم وعجزهم على إقامة الدليل, علم بطلان ما قالوه, وأن ذلك قول بلا علم. ولهذا قال: " أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " فإن هذا من أعظم المحرمات.

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ "
'قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ " أي لا ينالون مطلوبهم, ولا يحصل لهم مقصودهم.

مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ "
وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم, في الدنيا, قليلا, ثم ينتقلون إلى الله, ويرجعون إليه, فيذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون , 'وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ".

"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ "
يقول تعالى لنبيه 'وَاتْلُ عَلَيْهِمْ " أي: على قومك "نَبَأَ نُوحٍ " في دعوته لقومه, حين دعاهم إلى الله مدة طويلة, فمكث فيهم, ألف سنة إلا خمسين عاما, فلم يزدهم دعاؤه إياهم, إلا طغيانا فتمللوا منه, وسئموا. وهو, عليه الصلاة والسلام, غير متكاسل, ولا متوان في دعوتهم, فقال لهم : "يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ " أي: إن كان مقامي عندكم, وتذكيري إياكم, ما ينفعكم "بِآيَاتِ اللَّهِ " الأدلة الواضحة البينة, قد شق عليكم, وعظم لديكم, وأردتم أن تنالوني بسوء أو تردوا الحق . 'فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ " أي: اعتمدت على الله, في دفع كل شر يراد بي, وبما أدعو إليه, فهذا جندي, وعدتي. وأنتم, فأتوا بما قدرتم عليه, من أنواع العَدَدَ والعُددَ . 'فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ " كلكم, بحيث لا يتخلف منكم أحد, ولا تدخروا من مجهودكم شيئا. وأحضروا 'وَشُرَكَاءَكُمْ " الذي كنتم تعبدونهم وتوالونهم, من دون الله, رب العالمين . "ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً " أي: مشتبها خفيا, بل ليكن ذلك ظاهرا علانية . "ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ " أي: اقضوا علي بالعقوبة والسوء, الذي في إمكانكم . 'وَلَا تُنْظِرُونِ " أي لا تمهلوني ساعة من نهار. فهذا برهان قاطع, وآية عظيمة, على صحة رسالته, وصدق ما جاء به. حيث كان وحده لا عشيرة تحميه, ولا جنود تؤويه. وقد بادأ قومه. بتسفيه آرائهم, وفساد دينهم, وعيب آلهتهم. وقد حملوا من بغضه, وعداوته, ما هو أعظم من الجبال الرواسي, وهم أهل القدرة والسطوة. وهو يقول لهم: اجتمعوا, أنتم وشركاؤكم, ومن استطعتم, وأبدوا كل ما تقدرون عليه, من الكيد, فأوقعوا بي, إن قدرتم على ذلك, فلم يقدروا على شيء من ذلك. فعلم أنه الصادق حقا, وهم الكاذبون فيما يوعدون, ولهذا قال:

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ "
'فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ " عن ما دعوتكم إليه, فلا موجب لتوليكم, لأنه تبين أنكم لا تولون عن باطل إلى حق, وإنما تولون عن حق قامت الأدلة على فساده. ومع هذا 'فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ " على دعوتي, وعلى إجابتكم, فتقولوا: هذا جاءنا, ليأخذ أموالنا, فتمتنعون لأجل ذلك. " إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ " أي لا أريد الثواب والجزاء, إلا منه . 'وَأُمِرْتُ " أيضا فإني ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلى ضده. بل " أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ " فأنا أول داخل, وأول فاعل, لما أمرتكم به.

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ "
'فَكَذَّبُوهُ " بعد ما دعاهم ليلا ونهارا, وسرا وجهارا, فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارا . 'فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ " الذي أمرناه, أن يصنعه بأعيننا, وقلنا له - إذا فار التنور,: " احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ " ففعل ذلك. فأمر الله السماء أن تمطر بماء منهمر وفجر الأرض عيونا, فالتقى الماء على أمر قد قدر " وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ " تجري بأعيننا . 'وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ " في الأرض, بعد إهلاك المكذبين. ثم بارك الله في ذريته, وجعل ذريته, هم الباقين, ونشرهم في أقطار الأرض . 'وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا " بعد ذلك البيان, وإقامة البرهان . 'فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ

عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ " وهو: الهلاك المخزي, واللعنة المتتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم, لا تسمع فيهم إلا لوما, ولا ترى إلا قدحا وذما. فليحذر هؤلاء المكذبون, أن يحل بهم, ما حل بأولئك الأقوام المكذبين, من الهلاك, والخزي, والنكال.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ "
أي : "ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ " أي: من بعد نوح عليه السلام "رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ " المكذبين, يدعونهم إلى الهدى, ويحذرونهم من أسباب الردى . "فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ " أي: كل نبي أيد دعوته, بالآيات الدالة على صحة ما جاء به . "فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ " يعني: أن الله تعالى عاقبهم, حيث جاءهم الرسول, فبادروا بتكذيبه, فطبع الله على قلوبهم, وحال بينهم وبين الإيمان, بعد أن كانوا متمكنين منه, كما قال تعالى : "وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ". ولهذا قال هنا "كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ " أي: نختم عليها, فلا يدخلها خير. وما ظلمهم الله, ولكنهم ظلموا أنفسهم, بردهم الحق, لما جاءهم, وتكذيبهم الأول.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ "
أي : "ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ " أي: من بعد هؤلاء الرسل, الذين أرسلهم الله إلى القوم المكذبين المهلكين . "مُوسَى " بن عمران, كليم الرحمن, أحد أولي العزم من المرسلين, وأحد الكبار المقتدى بهم, المنزل عليهم الشرائع المعظمة الواسعة. وجعلنا معه أخاه " وَهَارُونَ " وزيرا وبعثناهما " إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ " أي: كبار دولته ورؤسائهم, لأن عامتهم, تبع للرؤساء . "بِآيَاتِنَا " الدالة على صدق ما جاءا به, من توحيد الله, والنهي عن عبادة ما سوى الله تعالى . "فَاسْتَكْبَرُوا " عنها, ظلما وعلوا, بعد ما استيقنوها . "وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ " أي: وصفهم الإجرام والتكذيب.

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ "
"فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا " الذي هو أكبر أنواع الحق وأعظمها, وهو من عند الله, الذي خضعت لعظمته الرقاب, وهو رب العالمين, المربي جميع خلقه بالنعم. فلما جاءهم الحق من عند الله, على يد موسى, ردوه فلم يقبلوه. و "قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ " لم يكفهم - قبحهم الله - إعراضهم ولا ردهم إياه, حتى جعلوه أبطل الباطل, وهو السحر: الذي حقيقته: التمويه, بل جعلوه سحرا مبينا, ظاهرا, وهو الحق المبين.

قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ "
ولهذا "قَالَ " لهم "مُوسَى " - موبخا لهم عن ردهم الحق, الذي لا يرده إلا أظلم الناس:- " أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ " أي: أتقولون إنه سحر مبين. " أَسِحْرٌ هَذَا " أي: فانظروا وصفه, وما اشتمل عليه. فبمجرد ذلك يجزم بأنه الحق . "وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ "لا في الدنيا, ولا في الآخرة. فانظروا لمن تكون العاقبة, ومن له الفلاح, وعلى يديه النجاح. وقد علموا بعد ذلك, وظهر لكل أحد, أن موسى عليه السلام, هو الذي أفلح, وفاز بظفر الدنيا والآخرة.

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ "
"قَالُوا " لموسى, رادين لقوله بما لا يرد به: " أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا " أي: أجئتنا لتصدنا عما وجدنا عليه آباءنا, من الشرك, وعبادة غير الله, وتأمرنا بأن نعبد الله وحده لا شريك له؟ فجعلوا قول آبائهم الضالين, حجة, يردون بها الحق, الذي جاءهم به موسى عليه السلام. وقوله : "وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ " أي: وجئتمونا لتكونوا أنتم الرؤساء, ولتخرجونا من أراضينا. وهذا تمويه منهم, وترويج على جهالهم, وتهييج لعوامهم, على معاداة موسى, وعدم الإيمان به. وهذا لا يحتج به, من عرف الحقائق, وميز بين الأمور, فإن الحجج لا تدفع, إلا بالحجج والبراهين. وأما من جاء بالحق, فرد قوله بأمثال هذه الأمور, فإنها تدل على عجز موردها, عن الإتيان بما يرد القول الذي جاء خصمه, لأنه

لو كان له حجة, لأوردها, ولم يلجأ إلى قوله: قصدك كذا, أو مرادك كذا, سواء كان صادقا في قوله وإخباره عن قصد خصمه, أم كاذبا. مع أن موسى عليه الصلاة والسلام, كل من عرف حاله, وما يدعو إليه, عرف أنه ليس له قصد في العلو في الأرض. وإنما قصده, كقصد إخوانه المرسلين, هداية الخلق, وإرشادهم لما فيه نفعهم. ولكن حقيقة الأمر, كما نطقوا به بقولهم : "وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ " أي: تكبرا وعنادا لا لبطلان ما جاء به موسى وهارون, ولا لاشتباه فيه, ولا لغير ذلك من المعاني, سوى الظلم والعدوان, وإرادة العلو, الذي رموا به موسى وهارون.

"وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ "
"وَقَالَ فِرْعَوْنُ " معارضا للحق, الذي جاء به موسى, ومغالبا لملإه وقومه: " ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ " أي: ماهر بالسحر, متقن له. فأرسل في مدائن مصر, من أتاه بأنواع السحرة, على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم.

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ "
"فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ " للمغالبة لموسى "قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ". أي: أي شيء أردتم لا أعين لكم شيئا. وذلك لأنه جازم بغلبته, غير مبال بهم, وبما جاءوا به.

فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ "
"فَلَمَّا أَلْقَوْا " حبالهم وعصيهم, إذا هي كأنها حيات تسعى . "قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ " أي: هذا السحر الحقيقي العظيم. ولكن مع عظمته " إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ". فإنهم يريدون بذلك, نصر الباطل على الحق, وأي فساد أعظم من هذا؟!!. وهكذا كل مفسد, عمل عملا, واحتال كيدا, أو أتى بمكر, فإن عمله سيبطل ويضمحل. وإن حصل لعمله رواج في وقت ما, فإن مآله, الاضمحلال والمحق. وأما المصلحون, الذين قصد بأعمالهم, وجه الله تعالى, وهي أعمال ووسائل نافعة, مأمور بها, فإن الله يصلح أعمالهم ويرقيها, وينميها على الدوام. فألقى موسى عصاه, فتلقفت جميع ما صنعوا, فبطل سحرهم, واضمحل باطلهم.

وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ "
"وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ " فأذعن السحرة, حين تبين لهم الحق. فتوعدهم فرعون بالصلب, وتقطيع الأيدي والأرجل فلم يبالوا بذلك وثبتوا على إيمانهم. وأما فرعون وملأه, وأتباعهم, فلم يؤمن منهم أحد, بل استمروا في طغيانهم يعمهون.

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ "
ولهذا قال : "فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ " أي: شباب من بني إسرائيل, صبروا على الخوف, لما ثبت في قلوبهم الإيمان . "عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ " عن دينهم "وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ" أي: له القهر والغلبة فيها, فحقيق بهم أن يخافوا من بطشته. خصوصا "وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ " أي: المتجاوزين للحد, فيالبغي والعدوان. والحكمة - والله أعلم - بكونه, ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه, أن الذرية والشباب, أقبل للحق, وأسرع له انقيادا. بخلاف الشيوخ ونحوهم, ممن تربى على الكفر فإنهم - بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة - أبعد عن الحق من غيرهم.

وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ "
"وَقَالَ مُوسَى " موصيا لقومه بالصبر, ومذكرا لهم ما يستعينون به على ذلك فقال :- "يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ " فقوموا بوظيفة الإيمان بالله . "فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ " أي: اعتمدوا عليه, والجأوا إليه واستنصروه.

فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ "
"فَقَالُوا " ممتثلين لذلك "عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " أي:

تسلطهم علينا, فيفتنونا, أو يغلبونا, فيفتنونا بذلك, ويقولون: لو كانوا على حق لما غلبوا.

وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ "
'وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ " لنسلم من شرهم, ولنقيم على ديننا, على وجه نتمكن به, من إقامة شرائعه, وإظهاره, من غير معارض, ولا منازع.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ "
'وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ " حين اشتد الأمر على قومهما, من فرعون وقومه, وحرصوا على فتنتهم عن دينهم. " أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا " أي: مروهم أن يجعلوا لهم بيوتا, يتمكنون بها من الاستخفاء فيها . 'وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً " أي: اجعلوها محلا, تصلون فيها, حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس, والبيع العامة . 'وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ " فإنها معونة على جميع الأمور . 'وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ " بالنصر والتأييد, وإظهار دينهم, فإن مع العسر يسرا, إن مع العسر يسرا. وإذا اشتد الكرب, وضاق الأمر, فرجه الله, ووسعه.

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ "
فلما رأى موسى, القسوة والإعراض من فرعون وملإه, دعا عليهم, وأمن هارون على دعائه, فقال : 'رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً " يتزينون بها من أنواع الحلي والثياب, والبيوت المزخرفة, والمراكب الفاخرة, والخدام . 'وَأَمْوَالًا " عظيمة 'فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ". أي: إن أموالهم, يستعينون بها على الإضلال في سبيلك, فيضلون ويضلون . 'رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ " أي: أتلفها عليهم: إما بالهلاك, وإما بجعلها حجارة, غير منتفع بها . 'وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ " أي: قسها 'فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ". قال ذلك, غضبا عليهم, حيث تجرأوا على محارم الله, وأفسدوا عباد الله, وصدوا عن سبيله. ولكمال معرفته بربه, بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا, بإغلاق باب الإيمان عليهم.

"قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ "
'قَالَ " الله تعالى 'قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ". هذا دليل على أن موسى, كان يدعو, وهارون يؤمن على دعائه, وأن الذي يؤمن, يكون شريكا للداعي في ذلك الدعاء . 'فَاسْتَقِيمَا " على دينكما, واستمرا على دعوتكما . 'وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ " أي لا تتبعان سبيل الجهال الضلال, المنحرفين عن الصراط المستقيم, المتبعين لطرق الجحيم. فأمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلا, وأخبره أنهم سيتبعونه. وأرسل فرعون في المدائن حاشرين. يقولون " إِنَّ هَؤُلَاءِ " أي: موسى وقومه "لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ". فجمع جنوده, قاصيهم ودانيهم, فأتبعهم بجنوده, بغيا وعدوا أي: أخرجهم باغين على موسى وقومه, ومعتدين في الأرض. وإذا اشتد البغي, واستحكم الذنب, فانتظر العقوبة.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ "
'وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ " وذلك أن الله أوحى إلى موسى, لما وصل البحر, أن يضربه بعصاه, فضربه, فانفلق اثنى عشر طريقا, وسلكه بنو إسرائيل. وساق فرعن وجنوده خلفه داخلين. فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر, وفرعون وجنوده داخلين فيه, أمر الله البحر, فالتطم على فرعون وجنوده, فأغرقهم, وبنو إسرائيل ينظرون. حتى إذا أدرك فرعون الغرق, وجزم بهلاكه 'قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ " وهو الله الإله الحق الذي لا إله إلا هو 'وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ " أي: المنقادين لدين الله, ولما جاء به موسى.

"آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ "
قال الله تعالى - مبينا أن هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع له-: " آلْآنَ " تؤمن, وتقر

برسول الله "وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ " أي: بارزت بالمعاصي, والكفر والتكذيب "وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ " فلا ينفعك الإيمان كما جرت عادة الله, أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية, أنه لا ينفعهم إيمانهم, لأن إيمانهم, صار إيمانا مشاهدا كإيمان من ورد القيامة, والذي ينفع, إنما هو الإيمان بالغيب.

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ "
"فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ". قال المفسرون: إن بني إسرائيل لما في قلوبهم من الرعب العظيم, من فرعون, كأنهم لم يصدقوا بإغراقه, وشكوا في ذلك. فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة مرتفعة ببدنه, ليكون لهم عبرة وآية . "وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ " فلذلك تمر عليهم وتتكرر فلا ينتفون بها, لعدم إقبالهم عليها. وأما من له عقل وقلب حاضر, فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل.

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ "
"وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ " أي: أنزلهم الله وأسكنهم في مساكن آل فرعون, وأورثهم أرضهم وديارهم . "وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ " من المطاعم والمشارب وغيرهما " فَمَا اخْتَلَفُوا " في الحق "حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ " الموجب لاجتماعهم وائتلافهم. ولكن بغى بعضهم على بعض, وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحق, فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير. " إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ " بحكمة العدل الناشئ على علمه التام, وقدرته الشاملة. وهذا هو الداء, الذي يعرض لأهل الدين الصحيح. وهو: أن الشيطان إذا أعجزه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية, سعى في التحريش بينهم, وإلقاء العداوة والبغضاء, فحصل من الاختلاف ما هو موجب ذلك. ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض, وعداوة بعضهم لبعض, ما هو قرة عين اللعين. وإلا فإذا كان ربهم واحدا, ورسولهم واحدا, ودينهم واحدا, ومصالحهم العامة متفقة, فلأي شيء يختلفون اختلافا, يفرق شملهم, ويشتت أمرهم, ويحل رابطتهم ونظامهم, فيفوت من مصالحهم الدينية والدنيوية ما يفوت, ويموت من دينهم, بسبب ذلك ما يموت؟. فنسألك اللهم, لطفا بعبادك المؤمنين, يجمع شملهم ويرأب صدعهم, ويرد قاصيهم على دانيهم, يا ذا الجلال والإكرام.

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ "
يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : "فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ " هل هو صحيح, أم غير صحيح؟ . "فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ " أي: اسأل أهل الكتب المنصفين, والعلماء الراسخين, فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به, وموافقته لما معهم. فإن قيل: إن كثيرا من أهل الكتاب, من اليهود والنصارى, بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم, كذبوا رسول الله, وعاندوه, وردوا عليه دعوته. والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم, وجعل شهادتهم حجة لما جاء به, وبرهانا على صدقه, فكيف يكون ذلك؟ فالجواب عن هذا, من عدة أوجه. منها: أن الشهادة, إذا أضيفت إلى طائفة, أو أهل مذهب, أو بلد ونحوهم, فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم. وأما من عداهم, فلو كانوا أكثر من غيرهم, فلا عبرة فيهم, لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق, وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين, كـ "عبد الله بن سلام" وأصحابه, وكثير ممن أسلم في وقت النبي صلى الله عليه وسلم, وخلفائه, ومن بعدهم. ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول, مبنية على كتابهم التوراة الذي ينتسبون إليه. فإذا كان موجودا في التوراة, ما يوافق القرآن ويصدقه, ويشهد له بالصحة, فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم, على إنكار ذلك, لم يقدح بما جاء به الرسول. ومنها: أن الله تعالى أمر رسوله, أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه, وظهر ذلك, وأعلنه على رءوس الأشهاد. ومن المعلوم أن كثيرا منهم, من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول, محمد صلى الله عليه وسلم. فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله, لأبدوه, وأظهروه وبينوه. فلما لم يكن شيء من ذلك, كان عدم رد المعادي, وإقرار المستجيب, من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه. ومنها:

أنه ليس أكثر أهل الكتاب, رد دعوة الرسول, بل أكثرهم استجاب لها, وانقاد طوعا واختيارا, فإن الرسول بعث, وأكثر أهل الأرض المتدينين, أهل الكتاب. فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة, حتى انقاد للإسلام, أكثر أهل الشام, ومصر, والعراق, وما جاورها من البلدان, التي هي مقر دين أهل الكتاب. فلم يبق إلا أهل الرياسات, الذين آثروا رياساتهم على الحق, ومن تبعهم من العوام الجهلة, ومن تدين بدينهم اسما لا معنى, كالإفرنج, الذين حقيقة أمرهم, أنهم دهرية, منحلون عن جميع أديان الرسل. وإنما انتسبوا للدين المسيحي, ترويجا لملكهم, وتمويها لباطلهم, كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البينة الظاهرة. وقوله : "لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ " أي: الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه "مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ " كقوله تعالى "كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ".

"وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ "
"وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ". وحاصل هذا: أن الله نهى عن شيئين: الشك في هذا القرآن والامتراء منه. وأشد من ذلك, التكذيب به, وهو آيات الله البينات, التي لا تقبل التكذيب بوجه, ورتب على هذا الخسار وهو: عدم الربح أصلا, وذلك بفوات الثواب, في الدنيا والآخرة, وحصول العقاب, في الدنيا والآخرة. والنهي عن الشيء أمر بضده, فيكون أمرا بالتصديق التام بالقرآن, وطمأنينة القلب إليه, والإقبال عليه, علما وعملا. فبذلك يكون العبد من الرابحين, الذين أدركوا أجل المطالب, وأفضل الرغائب, وأتم المناقب, وانتفى عنهم الخسار.

"إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ "
يقول تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ". أي: إنهم من الضالين الغاوين أهل النار, لا بد أن يصيروا إلى ما قدره الله وقضاه, فلا يؤمنون, ولو جاءتهم كل آية, فلا تزيدهم الآيات إلا طغيانا, وغيا إلى غيهم. وما ظلمهم الله, ولكن ظلموا أنفسهم, بردهم للحق, لما جاءهم أول مرة, فعاقبهم الله, بأن طبع على قلوبهم وأسماعهم, وأبصارهم, فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم, الذي وعدوا به. فحينئذ يعلمون حق اليقين, أن ما هم عليه هو الضلال, وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق. ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئا. فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم, ولا هم يستعتبون. وأما الآيات, فإنها تنفع من له قلب, أو ألقى السمع وهو شهيد.

"فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ "
يقول تعالى : "فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ " من القرى المكذبين " آمَنَتْ " حين رأيت العذاب " فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا " أي: لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه, حين رأى العذاب, كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريبا, لما قال: " آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ" فقيل له " آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ". وكما قال تعالى " فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ". وقال تعالى "حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ". والحكمة في هذا ظاهرة, فإن الإيمان الاضطراري, ليس بإيمان حقيقة, ولو صرف عنه العذاب, والأمر الذي اضطره إلى الإيمان, لرجع إلى الكفران. وقوله " إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ " فهم مستثنون من العموم السابق. ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة, لم تصل إلينا, ولم تدركها أفهامنا. قال الله تعالى "وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ " إلى قوله "وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ". ولعل الحكمة في ذلك, أن غيرهم من المهلكين, لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه. وأما قوم يونس, فإن الله أعلم أن إيمانهم سيستمر, بل قد استمر فعلا وثبتوا عليه, والله أعلم.

"وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ "
يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا " بأن يلهمهم الإيمان, ويوزع قلوبهم للتقوى, فقدرته صالحة لذلك. ولكنه اقتضت

حكمته, أن كان بعضهم مؤمنين, وبعضهم كافرين. " أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ " أي لا تقدر على ذلك, وليس في إمكانك, ولا قدرة لغير الله على شيء من ذلك.

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ "
"وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ " بإرادته ومشيئته, وإذنه القدري الشرعي. فمن كان من الخلق قابلا لذلك, ويزكو عنده الإيمان, وفقه وهداه . "وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ " أي: الشر والضلال "عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ " عن الله أوامره ونواهيه, ولا يلقوا بالا لنصائحه ومواعظه:

قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ "
يدعو تعالى عباده, إلى النظر لما في السماوات والأرض. والمراد بذلك: نظر الفكر والاعتبار والتأمل, لما فيها, وما تحتوي عليه, والاستبصار. فإن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون, وعبرا لقوم يوقنون, تدل على أن الله وحده, المعبود المحمود, ذو الجلال والإكرام, والأسماء والصفات العظام . "وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ " فإنهم لا ينتفعون بالآيات لإعراضهم وعنادهم.

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ "
"فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ " أي: فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله, بعد وضوحها, " إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ " أي: من الهلاك والعقاب, فإنهم صنعوا كصنيعهم وسنة الله جارية في الأولين والآخرين . "قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ " فستعلمون من تكون له العاقبة الحسنة, والنجاة في الدنيا والآخرة, وليست إلا للرسل وأتباعهم.

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ "
ولهذا قال : "ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا " من مكاره الدنيا والآخرة, وشدائدهما . "كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا " أوجبناه على أنفسنا "نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ " فإن الله يدافع عن الذين آمنوا, فإنه - بحسب ما مع العبد من الإيمان - تحصل له النجاة من المكاره.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ "
يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم, سيد المرسلين, وإمام المتقين وخير الموقنين : "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي " أي: في ريب واشتباه فإني لست في شك منه, بل لدي العلم اليقين أنه الحق, وأن ما تدعون من دون الله باطل, ولي على ذلك, الأدلة الواضحة, والبراهين الساطعة. ولهذا قال : "فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ " من الأنداد, والأصنام وغيرهما, لأنها لا تخلق ولا ترزق, ولا تدبر شيئا من الأمور, وإنما هي مخلوقة مسخرة, ليس فيها ما يقتضي عبادتها . "وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ " أي: هو الله الذي خلقكم, وهو الذي يميتكم, ثم يبعثكم, ليجازيكم بأعمالكم. فهو الذي يستحق أن يعبد, ويصلى له ويسجد.

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ "
"وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا " أي: أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله, وأقم جميع شرائع الدين حنيفا, أي: مقبلا على الله, معرضا عما سواه . "وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " لا في حالهم, ولا تكن معهم.

وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ "
"وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ " وهذا وصف لكل مخلوق, أنه لا ينفع ولا يضر, وإنما النافع الضار, هو الله تعالى . "فَإِنْ فَعَلْتَ " أي: دعوت من دون الله, ما لا ينفعك ولا يضرك "فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ " أي: الضارين أنفسهم بإهلاكها. وهذا الظلم هو

الشرك كما قال تعالى " إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ". فإذا كان خير الخلق, لو دعا مع الله غيره, لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره؟!!
"وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ "
هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده, المستحق للعبادة, فإنه: للنافع الضار, المعطي, المانع, الذي إذا مس بضر, كفقر ومرض, ونحوها "فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ " لأن الخلق, لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء, لم ينفعوا إلا بما كتبه الله, ولو اجتمعوا على أن يضروا أحدا, لم يقدروا على شيء من ضرره, إذا لم يرده. ولهذا قال : "وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ " أي لا يقدر أحد من الخلق, أن يرد فضله وإحسانه كما قال تعالى "مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ". "يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ " أي: يختص برحمته من شاء من خلقه, والله ذو الفضل العظيم . "وَهُوَ الْغَفُورُ " لجميع الزلات, الذي يوفق عبده, لأسباب مغفرته. ثم إذا فعلها العبد, غفر الله ذنوبه, كبارها, وصغارها. " الرَّحِيمِ " الذي وسعت رحمته كل شيء, ووصل جوده إلى جميع الموجودات, بحيث لا تستغنى عن إحسانه, طرفة عين. فإذا عرف العبد بالدليل القاطع, أن الله, هو المنفرد بالنعم, وكشف. النقم, وإعطاء الحسنات, وكشف السيئات والكربات, وأن أحدا من الخلق, ليس بيده من هذا شيء, إلا ما أجراه الله على يده, جزم بأن الله هو الحق, وأن ما يدعون من دونه, هو الباطل. ولهذا - لما بين الدليل الواضح قال بعده:-

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ "
أي : "قُلْ " يا أيها الرسول, لما تبين البرهان "يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ " أي: الخبر الصادق المؤيد بالبراهين, الذي لا شك فيه, بوجه من الوجوه, وهو واصل إليكم من ربكم, الذي من أعظم تربيته لكم, أن أنزل إليكم هذا القرآن, الذي فيه تبيان لكل شيء, وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية, والأخلاق المرضية, ما فيه أعظم تربية لكم, وإحسان منه إليكم, فقد تبين الرشد من الغي, ولم يبق لأحد شبهة . "فَمَنِ اهْتَدَى " بهدى الله بأن علم الحق وتفهمه, وآثره على غيره "فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ " والله تعالى غني عن عباده, وإنما ثمرة أعمالهم, راجعة إليهم . "وَمَنْ ضَلَّ " عن الهدى بأن أعرض عن العلم بالحق, أو عن العمل به . "فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا " ولا يضر الله شيئا, فلا يضر إلا لنفسه . "وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ " فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها, وإنما أنا لكم نذير مبين, والله عليكم وكيل. فانظروا لأنفسكم, ما دمتم في مدة الإمهال.

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ "
"وَاتَّبِعْ " أيها الرسول "مَا يُوحَى إِلَيْكَ " علما, وعملا, وحالا, ودعوة إليه . "وَاصْبِرْ " على ذلك, فإن هذا, أعلى أنواع الصبر, وأن عاقبته حميدة, فلا تكسل, ولا تضجر, بل دم على ذلك, واثبت . "حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ " بينك وبين من كذبك "وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ " فإن حكمه, مشتمل على العدل التام, والقسط الذي يحمد عليه. وقد امتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه, وثبت على الصراط المستقيم, حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان, ونصره على أعدائه بالسيف والسنان بعد ما نصره الله عليهم, بالحجة والبرهان. فلله الحمد, والثناء الحسن, كما ينبغي لجلاله, وعظمته, وكماله, وسعة إحسانه. تم تفسير سورة يونس - والحمد لله رب العالمين

سورة هود

"الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ "
يقول تعالى: هذا "كِتَابٌ " عظيم, ونزل كريم. " أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ " أي: أتقنت وأحسنت, صادقة أخبارها, عادلة أوامرها ونواهيها, فصيحة ألفاظه بهية معانيه . "ثُمَّ فُصِّلَتْ " أي: ميزت, وبينت بيانا, في أعلى أنواع البيان . "مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ " يضع الأشياء مواضعها,

وينزلها منالها لا يأمر, ولا ينهى, إلا بما تقتضيه حكمته . "خَبِيرٌ " مطلع على الظواهر والبواطن. فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير, فلا تسأل بعد هذا, عن عظمته وجلالته, واشتماله على كمال الحكمة, وسعة الرحمة.

"أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ "
وإنما أنزل الله كتابه لأجل " أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ " أي: لأجل إخلاص الدين كله لله, وأن لا يشرك به أحد من خلقه. " إِنَّنِي لَكُمْ " أيها الناس "مِنْهُ " أي: من الله ربكم "نَذِيرٌ " لمن تجرأ على المعاصي, بعقاب الدنيا والآخرة . "وَبَشِيرٌ " للمطيعين لله, بثواب الدنيا والآخرة.

"وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ "
"وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ " عن ما صدر منكم من الذنوب "ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ " فيما تستقبلون من أعماركم, بالرجوع إليه, بالإنابة والرجوع, عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه. ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال : "يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا " أي: يعطيكم من رزقه, ما تتمتعون به, وتنتفعون. " إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى " أي: إلى وقت وفاتكم "وَيُؤْتِ " منكم "كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ " أي: يعطي أهل الإحسان والبر, من فضله وبره, ما هو جزاء لإحسانهم, من حصول ما يحبون, ودفع ما يكرهون . "وَإِنْ تَوَلَّوْا " عن ما دعوتكم إليه, بل أعرضتم عنه, وربما كذبتم به "فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ " وهو يوم القيامة, الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين.

"إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "
" إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ " ليجازيهم بأعمالهم, إن خيرا فخير, وإن شرا فشر. وفي قوله : "وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " كالدليل على إحياء الله الموتى, فإنه على كل شيء قدير, ومن جملة الأشياء إحياء الموتى, وقد أخبر بذلك وهو أصدق القائلين, فيجب وقوع ذلك عقلا ونقلا.

"أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ "
يخبر تعالى عن جهل المشركين, وشدة ضلالهم أنهم "يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ " أي: يميلونها " لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ " أي: من الله, فتقع صدورهم حاجبة لعلم الله, بأحوالهم, وبصره لهيئاتهم. قال تعالى - مبينا خطأهم في هذا الظن - " أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ " أي يتغطون بها, يعلمهم في تلك الحال, التي هي من أخفى الأشياء. بل "يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ " من الأقوال والأفعال "وَمَا يُعْلِنُونَ " منها. بل ما هو أبلغ من ذلك وهو " إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ " أي: بما فيها من الإرادات, والوساوس, والأفكار, التي لم ينطقوا بها, سرا ولا جهرا. فكيف تخفى عليه حالكم, إذا ثنيتم صدوركم لتستخفوا منه. ويحتمل أن المعنى في هذا, أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول, الغافلين عن دعوته, أنهم - من شدة إعراضهم - يثنون صدورهم, أي: يحدودبون, حين يرون الرسول, لئلا يراهم, ويسمعهم دعوته, ويعظهم بما ينفعهم. فهل فوق هذا الإعراض شيء؟!! ثم توعدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم, وأنهم لا يخفون عليه, وسيجازيهم بصنيعهم.
"وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ "
أي: جميع ما دب على وجه الأرض, من آدمي, وحيوان, بري, أو بحري, فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم, فرزقهم على الله . "وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا " أي: يعلم مستقر هذه الدواب, وهو: المكان الذي تقيم فيه, وتستقر فيه, وتأوى إليه, ومستودعها: المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها, وعوارض أحوالها . "كُلٌّ " من تفاصيل أحوالها "فِي كِتَابٍ مُبِينٍ " أي: في اللوح المحفوظ المحتوي على جميع الحوادث الواقعة, والتي تقع في السماوات والأرض. الجميع قد أحاط بها علم الله, وجرى بها قلمه, ونفذت فيها مشيئته, ووسعها رزقه. فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها, وأحاط علما بذواتها, وصفاتها

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ "
يخبر تعالى, أنه "خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ " أولها: يوم الأحد, وآخرها يوم الجمعة. وحين خلق السماوات والأرض "وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ " فوق السماء السابعة. فبعد أن خلق السماوات والأرض, استوى على عرشه, يدبر الأمور, ويصرفها كيف شاء, من الأحكام القدرية, والأحكام الشرعية. ولهذا قال "لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا " أي: ليمتحنكم, إذ خلق لكم ما في السماوات والأرض, بأمره ونهيه, فينظر أيكم أحسن عملا. قال الفضيل بن عياض رحمه الله "دين الله أخلصه وأصوبه". قيل, يا أبا علي "ما أخلصه وأصوبه"؟. فقال: إن العمل إذا كان خالصا, ولم يكن صوابا, لم يقبل. وإذا كان صوابا, ولم يكن خالصا لم يقبل, حتى يكون خالصا صوابا. والخالص: أن يكون لوجه الله, والصواب: أن يكون متبعا فيه الشرع والسنة. وهذا كما قال تعالى "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ". وقال تعالى: " اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ". فالله تعالى خلق الخلق لعبادته, ومعرفته بأسمائه وصفاته, وأمرهم بذلك. فمن انقاد, وأدى ما أمر به, فهو من المفلحين, ومن أعرض عن ذلك, فأولئك هم الخاسرون. ولا بد أن يجمعهم في دار, يجازيهم فيها على ما أمرهم به ونهاهم. ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء, فقال : "وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ". أي: ولئن قلت لهؤلاء, وأخبرتهم بالبعث بعد الموت, لم يصدقوك, بل كذبوك أشد التكذيب, وقدحوا فيما جئت به, وقالوا: " إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ " ألا وهو الحق المبين.

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ "
"وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ " أي: إلى وقت مقدر فاستبطأوه, لقالوا من جهلهم وظلمهم "مَا يَحْبِسُهُ ". ومضمون هذا, تكذيبهم به, فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلا, على كذب الرسول, المخبر بوقوع العذاب, فما أبعد هذا الاستدلال!!. " أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ " فيتمكنون من النظر في أمرهم . "وَحَاقَ بِهِمْ " أي: أحاط بهم ونزل "مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ " من العذاب, حيث تهاونوا به, حتى جزموا بكذب من جاء به.

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ "
يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان, أنه جاهل ظالم, بأن الله إذا أذاقه منه رحمة, كالصحة, والرزق, والأولاد, ونحو ذلك, ثم نزعها منه, فإنه يستسلم لليأس, وينقاد للقنوط, فلا يرجو ثواب الله, ولا يخطر بباله أن الله سيردها, أو مثلها, أو خيرا منها. عليه.

وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ "
وأنه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته, أنه يفرح ويبطر, ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير ويقول : "ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ " أي: يفرح بما أوتي مما يوافق هوى نفسه, فخور بنعم الله على عباد الله. وذلك يحمله على الأشر والبطر والإعجاب بالنفس, والتكبر على الخلق, واحتقارهم, وازدرائهم. وأي عيب أشد من هذا؟!!

"إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ "
وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو, إلا من وفقه الله, وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده, وهم الذين صبروا أنفسهم عند الضراء, فلم ييأسوا, وعند السراء, فلم يبطروا, وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات. " أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ " لذنوبهم, يزول بها عنهم كل محذور . "وَأَجْرٌ كَبِيرٌ " وهو: الفوز بجنات النعيم, التي فيها, ما تشتهيه الأنفس, وتلذ الأعين.

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ "
يقول تعالى - مسليا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم, عن تكذيب المكذبين : 'فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ ". أي لا ينبغي هذا لمثلك, أن قولهم لم يؤثر فيك, ويصدك عما أنت عليه, فتترك بعض ما يوحى إليك, ويضيق صدرك, لتعنتهم بقولهم : "لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ". فإن هذا القول, ناشئ من تعنت, وظلم, وعناد, وضلال, وجهل بمواقع الحجج والأدلة. فامض على أمرك, ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة, التي لا تصدر إلا من سفيه ولا يضق لذلك صدرك. فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحا, يؤثر فيه, وينقص قدره, فيضيق صدرك لذلك؟!. أم عليك حسابهم, ومطالب بهدايتهم جبرا؟. و " إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ " فهو الوكيل عليهم, يحفظ أعمالهم, ويجازيهم بها أتم الجزاء.

"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ "
" أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ " أي: افترى محمد هذا القرآن؟. فأجابهم بقوله : 'قُلْ " لهم 'فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ". أي: إن كان قد افتراه, فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة, وأنتم الأعداء حقا, الحريصون بغاية ما يمكنكم, على إبطال دعوته. فإن كنتم صادقين, فأتوا بعشر سور مثله مفتريات.

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ "
'فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ " على شيء من ذلكم 'فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ " من عند الله لقيام الدليل والمقتضى, وانتفاء المعارض . 'وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ " أي: واعلموا " أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ " أي: هو المستحق للألوهية والعبادة . 'فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ " أي: منقادون لألوهيته, مستسلمون لعبوديته. وفي هذه الآيات, إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله, أن يصده اعتراض المعترضين, ولا قدح القادحين. خصوصا, إذا كان القدح لا مستند له, ولا يقدح فيما دعا إليه, وأنه لا يضيق صدره, بل يطمئن بذلك, ماضيا على أمره, مقبلا على شأنه. وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين, للأدلة التي يختارونها. بل يكفي إقامة الدليل, السالم عن المعارض, على جميع المسائل والمطالب. وفيها أن هذا القرآن, معجز بنفسه لا يقدر أحد من البشر, أن يأتي بمثله, ولا بعشر سور مثله, بل ولا سورة من مثله. لأن الأعداء البلغاء الفصحاء, تحداهم الله بذلك, فلم يعارضوه, لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك. وفيها: أن مما يطلب فيه العلم, ولا يكفي غلبة الظن, علم القرآن, وعلم التوحيد. لقوله تعالى : 'فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ".

مَّنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ "
يقول تعالى 'مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ". أي: كل إرادته, مقصورة على الحياة الدنيا, وعلى زينتها, من النساء, والبنين, والقناطير المقنطرة, من الذهب, والفضة, والخيل المسومة, والأنعام والحرث. قد صرف رغبته, وسعيه, وعمله, في هذه الأشياء, ولم يجعل لدار القرار من إرادته, شيئا. فهذا لا يكون إلا كافرا, لأنه لو كان مؤمنا, لكان ما معه من الإيمان, ما يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا. بل نفس إيمانه وما تيسر له من الأعمال, أثر من آثار إرادته الدار الآخرة. ولكن هذا الشقي, الذي كأنه خلق للدنيا وحدها "نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا " أي: نعطيهم ما قسم لهم, في أم الكتاب من ثواب الدنيا . 'وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ " أي لا ينقصون شيئا, مما قدر لهم, ولكن هذا منتهى نعيمهم.

"أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "
" أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ " خالدين فيها أبدا لا يفتر عنهم العذاب, وقد حرموا جزيل الثواب . 'وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا " أي: في الدنيا, أي, بطل واضمحل ما عملوه مما يكيدون به الحق وأهله, وما عملوه من أعمال الخير, التي لا أساس لها, ولا وجود

لشرطها, وهو الإيمان.

"أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ "
يذكر تعالى, حال رسوله محمد صلى الله عليه وسلم, ومن قام مقامه, من ورثته القائمين بدينه, وحججه الموقنين بذلك, وأنهم لا يوصف بهم غيرهم ولا يكون أحد مثلهم فقال: " أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ " بالوحي الذي أنزل الله فيه المسائل المهمة, ودلائلها الظاهرة, فتيقن تلك البينة . "وَيَتْلُوهُ " أي: يتلو هذه البينة والبرهان, برهان آخر " شَاهِدٌ مِنْهُ " وهو شاهد الفطرة المستقيمة, والعقل الصحيح حين شهد حقيقة, ما أوحاه الله وشرعه, وعلم بعقله حسنه, فازداد بذلك, إيمانا إلى إيمانه. ثم شاهد ثالث "وَمِنْ قَبْلِهِ " وهو "كِتَابُ مُوسَى " التوراة, التي جعلها الله " إِمَامًا " للناس "وَرَحْمَةً " لهم, يشهد لهذا القرآن بالصدق, ويوافقه فيما جاء به من الحق. أي: أفمن كان بهذا الوصف, قد تواردت عليه شواهد الإيمان, وقامت لديه, أدلة اليقين, كمن هو في الظلمات والجهالات, ليس بخارج منها؟ !لا يستوون عند الله, ولا عند عباد الله. " أُولَئِكَ " أي: الذين وفقوا لقيام الأدلة عندهم . "يُؤْمِنُونَ بِهِ " أي: بالقرآن خقيقة, فيثمر لهم إيمانهم, كل خير في الدنيا والآخرة . "وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ " أي: سائر طوائف أهل الأرض, لمتحزبة على رد الحق . "فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ " لا بد من وروده إليها "فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ ". أي: في أدنى شك "مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ". إما جهلا منهم, وضلالا. وإما ظلما وعنادا, وبغيا. وإلا, فمن كان قصده حسنا, وفهمه مستقيما, فلا بد أن يؤمن به, لأنه يرى, ما يدعوه إلى الإيمان من كل وجه.

"وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ "
يخبر تعالى, أنه لا أحد " أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا " ويدخل في هذا, كل من كذب على الله, بنسبة شريك له, أو وصفه بما لا يليق بجلاله, أو الإخبار عنه, بما لم يقل, أو ادعاء النبوة, أو غير ذلك, من الكذب على الله. فهؤلاء أعظم الناس ظلما " أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ " ليجازيهم بظلمهم. فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد "وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ " أي: الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم : "هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ". أي: لعنة لا تنقطع, لأن ظلمهم صار وصفا لهم ملازما لا يقبل التخفيف.

"الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ "
ثم وصف ظلمهم فقال " الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ " فصدوا بأنفسهم عن سبيل الله, وهي سبيل الرسل, التي دعوا الناس إليها, وصدوا غيرهم عنها, فصاروا أئمة يدعون إلى النار . "وَيَبْغُونَهَا " أي: سبيل الله "عِوَجًا " أي: يجتهدون في ميلها, وتشييبنها, وتهجينها, لتصير عند الناس, غير مستقيمة, فيحسنون الباطل ويقبحون الحق, قبحهم الله "وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ". " أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ " أي: ليسوا فائتين الله, لأنهم تحت قبضته, وفي سلطانه.

"أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ "
"وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ " فيدفعوا عنهم المكروه, أو يحصلوا لهم ما ينفعهم, بل تقطعت بهم الأسباب . "يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ " أي: يغلظ ويزداد, لأنهم ضلوا بأنفسهم, وأضلوا غيرهم . "مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ " أي: من بغضهم للحق, ونفورهم عنه, ما كانوا يستطيعون, أن يسمعوا آيات الله, سماعا ينتفعون به "قَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ". "وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ " أي: ينظرون نظر عبرة وتفكر, فيما ينفعهم. وإنما هم كالصم البكم, الذين لا يعقلون.

"أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ "

" أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ " حيث فوتوها, أعظم الثواب, واستحقوا أشد العذاب. " وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ " أي: اضمحل دينهم, الذي يدعون إليه ويحسنونه, ولم تغن عنهم آلهتم, التي يعبدون من دون الله, لما جاء أمر ربك.

"لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ "
" لَا جَرَمَ " أي: حقا وصدقا " أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ". حصر الخسار فيهم, بل جعل لهم منه أشده, لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة والعذاب.
فنستجير بالله من حالهم. ولما ذكر حال الأشقياء, ذكر أوصاف السعداء, وما لهم عند الله من الثواب. فقال: " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا " إلى قوله " أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ".

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ "
يقول تعالى " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا " بقلوبهم, أي صدقوا واعترفوا, لما أمر الله بالإيمان به, من أصول الدين وقواعده . "وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ " المشتملة على أعمال القلوب والجوارح, وأقوال اللسان . "وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ " أي: خضعوا له, واستكانوا لعظمته, وذلوا لسلطانه, وأنابوا إليه بمحبته, وخوفه, ورجائه, والتضرع إليه. " أُولَئِكَ " الذين جمعوا تلك الصفات " أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ". لأنهم لم يتركوا من الخير مطلبا, إلا أدركوه, ولا خيرا, إلا سبقوا إليه.

"مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ "
"مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ " أي: فريق الأشقياء, وفريق السعداء . "كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ " هؤلاء الأشقياء . "وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ " مثل السعداء . "هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا " لا يستوون مثلا, بل بينهما من الفرق, ما لا يأتي عليه الوصف. " أَفَلَا تَذَكَّرُونَ " الأعمال, التي تنفعكم, فتفعلونها, والأعمال التي تضركم, فتتركونها.

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ "
أي : "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا " أول المرسلين " إِلَى قَوْمِهِ " يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الشرك فقال: " إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ " أي: بينت لكم ما أنذرتكم به, بيانا زال به الإشكال.

"أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ "
" أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ " أي: أخلصوا العبادة لله وحده, واتركوا كل ما يعبد من دون الله. " إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ " إن لم تقوموا بتوحيد الله, وتطيعوني.

"فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ "
"فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ " أي: الأشراف والرؤساء, رادين لدعوة نوح عليه السلام, كما جرت العادة لأمثالهم, أنهم أول من رد دعوة المرسلين : "مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا " وهذا مانع - يزعمهم - عن اتباعه, مع أنه - في نفس الأمر - هو الصواب, الذي لا ينبغي غيره, لأن البشر, يتمكن البشر, أن يتلقوا عنه, ويراجعوه في كل أمر, بخلاف الملائكة . "وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا " أي: ما نرى اتبعك منا, إلا الأراذل والسفلة, بزعمهم. وهم - في الحقيقة - الأشراف, وأهل العقول, الذين انقادوا للحق, ولم يكونوا كالأراذل, الذين يقال لهم الملأ, الذين اتبعوا كل شيطان مريد, واتخذوا آلهة من الحجر والشجر, يتقربون إليها ويسجدون. فهل ترى أرذل من هؤلاء وأخس؟. وقولهم: " بَادِيَ الرَّأْيِ " أي. إنما اتبعوك من غير تفكر وروية, بل بمجرد ما دعوتهم, اتبعوك. يعنون بذلك, أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم, ولم يعلموا أن الحق المبين, تدعو إليه بداهة العقول, وبمجرد ما يصل إلى أولي الألباب, يعرفونه ويتحققونه لا كالأمور الخفية, التي تحتاج إلى تأمل, وفكر طويل . "وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ " أي: لستم أفضل منا فننقاد لكم . "بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ " وكذبوا في قولهم هذا, فإنهم رأوا من الآيات, التي جعلها الله مؤيدة لنوح, ما يوجب لهم الجزم التام على صدقه.

"قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ "
ولهذا "قَالَ " لهم نوح مجاوبا "يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي " أي: على يقين وجزم, يعني, وهو الرسول الكامل القدوة, الذي ينقاد له أولو الألباب, وتضمحل في جنب عقله, عقول الفحول من الرجال, وهو الصادق حقا. فإذا قال: إني على بينة من ربي, فحسبك بهذا القول, شهادة له وتصديقا . "وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ " أي: أوحى إلي وأرسلني, ومن علي بالهداية . "فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ " أي: خفيت عليكم, وبها تثاقلتم. " أَنُلْزِمُكُمُوهَا " أي: أنكرهكم على ما تحققناه, وشككتم أنتم فيه؟ "وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ " حتى حرصتم على رد ما جئت به, ليس ذلك ضارنا, وليس بقادح من يقيننا فيه, ولا قولكم وافتراؤكم علينا, صادا لنا عما كنا عليه. وإنما غايته, أن يكون صادا لكم أنتم, وموجبا لعدم انقيادكم للحق, تزعمون أنه باطل. فإذا وصلت الحال إلى هذه الغاية, فلا تقدر على إكراهكم, على ما أمر الله, ولا إلزامكم, ما نفرتم عنه, ولهذا قال: " أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ".

"وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ "
"وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ " أي: على دعوتي إياكم "مًا لَا " فستستثقلون المغرم. " إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ " وكأنهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء. فقال لهم "وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا " أي: ما ينبغي لي, ولا يليق ذلك, بل أتلقاهم بالرحب والإكرام, والإعزاز والإعظام " إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ " فمثيبهم على إيمانهم وتقواهم بجنات النعيم . "وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ " حيث تأمرونني, بطرد أولياء الله, وإبعادهم عني. وحيث رددتم الحق, لأنهم أتباعه, وحيث استدللتم على بطلان الحق بقولكم " إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ " وإنه ليس لنا عليكم من فضل.

"وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ "
"وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ " أي: من يمنعني من عذابه, فإن طردهم, موجب للعذاب والنكال, الذي لا يمنعه من دون الله مانع. " أَفَلَا تَذَكَّرُونَ " ما هو الأنفع لكم والأصلح, وتدبرون الأمور.

"وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ "
"وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ " أي: غايتي أني رسول الله إليكم, أبشركم, وأنذركم, وما عدا ذلك, فليس بيدي من الأمر شيء. فليست خزائن الله عندي, أدبرها أنا, وأعطي من أشاء, وأحرم من أشاء . "وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ " فأخبركم بسرائركم وبواطنكم "وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ". والمعنى: أني لا أدعي رتبة فوق رتبتي, ولا منزلة سوى المنزلة, التي أنزلني الله بها, ولا أحكم على الناس, بظني . "وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ " أي: الضعفاء المؤمنين, الذي يحتقرهم الملأ الذين كفروا " لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ". فإن كانوا صادقين في إيمانهم, فلهم الخير الكثير, وإن كانوا غير ذلك, فحسابهم على الله. " إِنِّي إِذًا " أي: إن قلت لكم شيئا مما تقدم "لَمِنَ الظَّالِمِينَ ". وهذا تأييس منه, عليه الصلاة والسلام لقومه, أن ينبذ فقراء المؤمنين, أو يمقتهم, وإقناع لقومه, بالطرق المقنعة للمنصف.

"قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ "
فلما رأوه لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم, ولم يدركوا منه مطلوبهم "قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ". فما أجهلهم وأضلهم, حيث قالوا هذه المقالة, لنبيهم الناصح. فهلا قالوا: إن كانوا صادقين: يا نوح قد نصحتنا, وأشفقت علينا, ودعوتنا إلى أمر, لم يتبين لنا, فنريد منك أن تبينه لنا. لننقاد لك, وإلا فأنت مشكور في نصحك. لكان هذا الجواب المنصف, للذي قد دعا إلى أمر خفي عليه. ولكنهم في قولهم, كاذبون, وعلى نبيهم متجرئون. ولم يردوا ما قاله بأدنى شبهة, فضلا عن أن يردوه بحجة. ولهذا عدلوا - من جهلهم وظلمهم - إلى الاستعجال بالعذاب, وتعجيز الله.

"قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ "
ولهذا أجابهم نوح عليه السلام بقوله " إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ " أي: إن اقتضت مشيئته وحكمته, أن ينزله بكم, فعل ذلك . "وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ " لله, وأنا ليس بيدي من الأمر شيء.

"وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ "
"وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ". أي: إن إرادة الله غالبة, فإنه إذا أراد أن يغويكم, لردكم الحق. فلو حرصت غاية مجهودي, ونصحت لكم أتم النصح - وهو قد فعل عليه السلام - فليس ذلك بنافع لكم شيئا . "هُوَ رَبُّكُمْ " يفعل بكم ما يشاء, ويحكم فيكم, بما يريد "وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ " فيجازيكم بأعمالكم.

"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ "
" أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ " هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح, كما كان السياق في قصته مع قومه, وأن المعنى: أن قومه يقولون: افترى على الله كذبا, وكذب بالوحي الذي يزعم أنه من الله, وأن الله أمره أن يقول "قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ " أي: كل عليه وزره "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ". ويحتمل أن يكون عائدا إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم, وتكون هذه الآية معترضة, في أثناء قصة نوح وقومه, لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء. فلما شرع الله في قصها على رسوله, وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته, ذكر تكذيب قومه مع البيان التام فقال: " أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ " أي. هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه. أي: فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها, فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب, ولم يرحل عنهم لدراسة على أهل الكتاب, فجاء بهذا الكتاب, الذي تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله. فإذا زعموا - مع هذا - أنه افتراه, علم أنهم معاندون, ولم يبق فائدة في حجاجهم. بل اللائق في هذه الحال, الإعراض عنهم, ولهذا قال : "قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي " أي ذنبي وكذبي . "وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ " أي: فلم تستلجون في تكذيبي.

"وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ "
وقوله : "وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ " أي: قد قسوا . "فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ" أي: فلا تحزن, ولا تبال بهم, وبأفعالهم. فإن الله, قد مقتهم, وأحق عليهم عذابه الذي لا يرد.

"وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ "
"وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا " أي: بحفظنا, ومرأى منا, وعلى مرضاتنا . "وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا " أي لا تراجعني في إهلاكهم. " إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ " أي: قد حق القول, ونفذ فيهم القدر.

"وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ "
فامتثل أمر ربه, وجعل يصنع الفلك "وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ " ورأوا ما يصنع " سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا " الآن "فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ "

"فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ "
"فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ " نحن, أم أنتم. وقد علموا ذلك, حين حل بهم العقاب.

"حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ "
"حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا " أي قدرنا بوقت نزول العذاب بهم "وَفَارَ التَّنُّورُ " أي: أنزل الله

السماء بالماء بالمنهمر, وفجر الأرض كلها عيونا حتى التنانير, التي هي محل النار في العادة, وأبعد ما يكون عن الماء, تفجرت فالتقى الماء على أمر, قد قدر . 'وَقُلْنَا " لنوح: " احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ " أي: من كل صنف من أصناف المخلوقات, ذكر وأنثى, لتبقى مادة سائر الأجناس وأما بقية الأصناف الزائدة عن الزوجين, فإن السفينة لا تطيق حملها 'وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ " ممن كان كافرا, كابنه الذي غرق . 'وَمَنْ آمَنَ " والحال أنه 'وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ".

وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ "
'وَقَالَ " نوح لمن أمره الله أن يحملهم: " ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا " أي. تجري على اسم الله, وترسي بتسخيره وأمره. " إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ " حيث غفر لنا, ورحمنا, ونجانا من القوم الظالمين.

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ "
ثم وصف جريانها كأنا نشاهدها فقال : 'وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ " أي: بنوح, ومن ركب معه 'فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ " والله حافظها وحافظ أهلها . 'وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ " لما ركب, ليركب معه " وَكَانَ " ابنه 'فِي مَعْزِلٍ " عنهم, حين ركبوا, أي: مبتعدا وأراد منه, أن يقرب ليركب. فقال له : "يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ " فيصيبك ما يصيبهم.

قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ "
'قَالَ " ابنه, مكذبا لأبيه, أنه لا ينجو إلا من ركب السفينة .'سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ " أي: سأرتقي جبلا, أمتنع به من الماء . 'قَالَ " نوح: " لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ " فلا يعصم أحدا, جبل ولا غيره, ولو تسبب بغاية ما يمكنه من الأسباب, لما نجا إن لم ينجه الله . 'وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ " الابن "مِنَ الْمُغْرَقِينَ ".

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ "
'وَقِيلَ " لما أغرقهم الله, ونجى نوحا ومن معه "يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ " الذي خرج منك, والذي نزل إليك, ابلعي الماء, الذي على وجهك 'وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي " فامتثلتا لأمر الله, فابتلعت الأرض ماءها, وأقلعت السماء . 'وَغِيضَ الْمَاءُ " أي: نضب من الأرض . 'وَقُضِيَ الْأَمْرُ " بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين . 'وَاسْتَوَتْ " السفينة 'عَلَى الْجُودِيِّ " أي: أرست على ذلك الجبل المعروف في أرض الموصل . 'وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " أي: أتبعوا بهلاكهم لعنة وبعدا, وسحقا لا يزال معهم.

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ "
'وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ". وقد قلت لي " احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ " ولن تخلف ما وعدتني به. لعله عليه الصلاة والسلام, لما حملته الشفقة, وأن الله وعده بنجاة أهله, ظن أن الوعد لعمومهم, من آمن, ومن لم يؤمن, فلذلك دعا ربه بذلك الدعاء. ومع هذا, ففوض الأمر لحكمة الله البالغة, حيث قال: " وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ".
"قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ "
'قَالَ " الله له: " إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ " الذين وعدتك بإنجائهم " إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ " أي: هذا الدعاء الذي دعوت به, لنجاة كافر لا يؤمن بالله ولا رسوله . 'فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ " أي: ما لا تعلم عاقبته, ومآله, وهل يكون خيرا, أو غير خير. " إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ " أي: أني أعظك وعظا, تكون به من الكاملين, وتنجو به من صفات الجاهلين. فحينئذ ندم نوح, عليه السلام, ندامة شديدة, على ما صدر منه,

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ

الْخَاسِرِينَ "
و 'قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ". فبالمغفرة والرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين. ودل هذا, على أن نوحا, عليه السلام, لم يكن عنده علم, بأن سؤاله لربه, في نجاة ابنه, محرم. داخل في قوله 'وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ " بل, تعارض عنده الأمران, وظن دخوله في قوله : 'وَأَهْلَكَ ". وبعد هذا, تبين له أنه داخل في المنهي عن الدعاء لهم, والمراجعة فيهم.

'قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ "
'قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ " من الآدميين وغيرهم من الأزواج التي حملها معه. فبارك الله في الجميع, حتى ملأوا أقطار الأرض ونواحيها. " وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ " في الدنيا "ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ " أي: هذا الإنجاء, ليس بمانع لنا من أن من كفر بعد ذلك, أحللنا به العقاب, وإن متعوا قليلا, فسيؤخذون بعد ذلك.

'تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ "
قال الله لنبيه, محمد صلى الله عليه وسلم بعد ما قص عليه هذه القصة المبسوطة, التي لا يعلمها إلا من عليه برسالته . "تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا " فيقولوا: إنه كان يعلمها. فاحمد الله, واشكره, واصبر على ما أنت عليه, من الدين القويم, والصراط المستقيم, والدعوة إلى الله. " إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ " الذين يتقون الشرك وسائر المعاصي. فستكون لك العاقبة على قومك, كما كانت لنوح على قومه.

'وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ "
أي وأرسلنا 'وَإِلَى عَادٍ " وهم القبيلة المعروفة في الأحقاف, من أرض اليمن. " أَخَاهُمْ " في النسب 'هُودًا " ليتمكنوا من الأخذ عنه والعلم بصدقه.

'يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ "
'قَالَ " لهم "يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ " أي: أمرهم بعبادة الله وحده, ونهاهم عما هم عليه, من عبادة غير الله, وأخبرهم أنهم قد افتروا على الله الكذب في عبادتهم لغيره, وتجويزهم لذلك, وأوضح لهم وجوب عبادة الله, وفساد عبادة ما سواه. ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد فقال "يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ". أي: غرامة من أموالكم, على ما دعوتكم إليه, فتقولوا: هذا يريد أن يأخذ أموالنا, وإنما أدعوكم وأعلمكم مجانا. " إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ " ما أدعوكم إليه, وأنه موجب لقبوله, منتفي المانع عن رده.

'وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ "
'وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ " عما مضى منكم "ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ " فيما تستقبلونه, بالتوبة النصوح, والإنابة إلى الله تعالى. فإنكم إذا فعلتم ذلك "يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا " بكثرة الأمطار, التي تخصب بها الأرض, ويكثر خيرها . 'وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ " فإنهم كانوا من أقوى الناس, ولهذا قالوا: "من أشد منا قوة"؟. فوعدهم أنهم إن آمنوا, زادهم قوة إلى قوتهم . 'وَلَا تَتَوَلَّوْا " عنه, أي: عن ربكم 'مُجْرِمِينَ " أي: مستكبرين عن عبادته, متجرئين على محارمه.

'قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ "
'قَالُوا " رادين لقوله : "يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ " إن كان قصدهم بالبينة البينة التي يقترحونها, فهذه غير لازمة للحق, بل اللازم أن يأتي النبي بآية, تدل على صحة ما جاء به. وإن كان قصدهم أنه لم يأتهم ببينة, تشهد لما قاله بالصحة, فقد كذبوا في ذلك. فإنه ما

جاء نبي لقومه, إلا وبعث الله على يديه, من الآيات, ما يؤمن على مثله البشر. ولو لم تكن له آية, إلا دعوته إياهم لإخلاص الدين لله, وحده لا شريك له, والأمر بكل عمل صالح, وخلق جميل, والنهي عن كل خلق ذميم, من الشرك بالله, والفواحش, والظلم, وأنواع المنكرات, مع ما هو مشتمل عليه هود, عليه السلام, من الصفات, التي لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم, لكفى بها آيات وأدلة, على صدقه. بل أهل العقول, وأولو الألباب, يرون أن هذه الآية, أكبر من مجرد الخوارق, التي يراها بعض الناس, هي المعجزات فقط. ومن آياته, وبيناته الدالة على صدقه, أنه شخص واحد ليس له أنصار ولا أعوان. وهو يصرخ في قومه, وبناديهم, ويعجزهم, ويقول لهم: " إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ". " إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ". وهم الأعداء, الذين لهم السطوة والغلبة, ويريدون إطفاء ما معه من النور, بأي طريق كان, وهو غير مكترث, ولا مبال بهم, وهم عاجزون لا يقدرون أن ينالوه بشيء من السوء, إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وقولهم "وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ " أي لا نترك عبادة آلهتنا لمجرد قولك, الذي ما أقمت عليه بينة بزعمهم . "وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ " وهذا تأييس منهم لنبيهم,, هود عليه السلام, في إيمانهم, وأنهم لا يزالون في كفرهم يعمهون.

"إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ "
" إِنْ نَقُولُ " فيك " إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ " أي: أصابتك بخبال وجنون, فصرت تهذى بما لا يعقل. فسبحان من طبع على قلوب الظالمين, كيف جعلوا أصدق الخلق, الذي جاء بأحق الحق, بهذه المرتبة, التي يستحي العاقل من حكايتها عنهم لولا أن الله حكاها عنهم. ولهذا بين هود, عليه الصلاة والسلام, أنه واثق غاية الوثوق, أنه لا يصيبه منهم, ولا من آلهتهم أذى, فقال: " إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ "

مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِي "
"مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ". أي: اطلبوا إلي الضرر كلكم, بكل طريق تتمكنون بها مني " ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ " أي لا تمهلون.

"إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"
" إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ " أي: اعتمدت في أمري كله على الله "رَبِّي وَرَبُّكُمْ " أي: هو خالق الجميع, ومدبرنا وإياكم, وهو الذي ربانا . "مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا " فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإذنه. فلو اجتمعتم جميعا على الإيقاع بي, والله لم يسلطكم علي, لم تقدروا على ذلك, فإن سلطكم, فلحكمة أرادها. " إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " أي: على عدل, وقسط, وحكمة, وحمد في قضائه وقدره, وشرعه وأمره, وفي جزائه وثوابه, وعقابه لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم, التي يحمد, ويثنى عليه بها.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ "
"فَإِنْ تَوَلَّوْا " عما دعوتكم إليه "فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ " فلم يبق علي تبعة من شأنكم . "وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ " يقومون بعبادته, ولا يشركون به شيئا . "وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا " فإن ضرركم, إنما يعود إليكم, فالله لا تضره معصية العاصين. ولا تنفعه طاعة الطائعين "من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها". " إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ".

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ "
"وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا " أي: عذابنا بإرسال الريح العقيم, التي "مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ". "نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ " أي: عظيم شديد, أحله الله بـ "عاد", فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم.

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ "
"وَتِلْكَ عَادٌ " الذين أوقع الله بهم ما أوقع, بظلم منهم لأنهم "جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ " ولهذا قالوا: "ما جئتنا ببينة". فتبين بهذا, أنهم متيقنون لدعوته, وإنما عاندوا وجحدوا "وَعَصَوْا رُسُلَهُ ". لأن من عصى رسولا, فقد عصى جميع المرسلين, لأن دعوتهم واحدة.

وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ "
"وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ " أي: متسلط على عباد الله بالجبروت . "عَنْ يَدٍ " أي: معاند لآيات الله. فعصوا كل ناصح ومشفق عليهم, واتبعوا كل غاش لهم, يريد إهلاكهم لا جرم أهلكهم الله . "وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً " فما من وقت وجيل, إلا ولأنبائهم القبيحة, وأخبارهم الشنيعة, ذكر يذكرون به, وذم يلحقهم "وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ " لهم أيضا لعنة. " أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ " أي: جحدوا من خلقهم ورزقهم ورباهم. " أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ " أي: أبعدهم الله عن كل خير وقربهم من كل شر.

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ "
أي أرسلنا "وَإِلَى ثَمُودَ " وهم: عاد الثانية, المعروفون, الذين يسكنون الحجر, ووادي القرى. " أَخَاهُمْ " في النسب "صَالِحًا " عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم, يدعوهم إلى عبادة الله وحده . "قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ " أي: وحدوه, وأخلصوا له الدين "مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ "لا من أهل السماء, ولا من أهل الأرض . "هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ " أي: خلقكم منها "وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا " أي: استخلفكم فيها, وأنعم عليكم بالنعم, الظاهرة والباطنة, ومكنكم في الأرض, تبنون, وتغرسون, وتزرعون, وتحرثون ما شئتم, وتنتفعون بمنافعها, وتستغلون مصالحها. فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك, فلا تشركوا به في عبادته . "فَاسْتَغْفِرُوهُ " مما صدر منكم, من الكفر, والشرك, والمعاصي, وأقلعوا عنها. " ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ " أي: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح, والإنابة. " إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ " أي: قريب ممن دعاه دعاء مسألة, أو دعاء عبادة. يجيبه بإعطائه سؤاله, وقبول عبادته, وإثابته عليها, أجل الثواب. واعلم أن قربه تعالى نوعان: عام, وخاص. فالقرب العام قربه بعلمه, من جميع الخلق, وهو المذكور في قوله تعالى : "وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ". والقرب الخاص, قربه من عابديه, وسائليه, ومحبيه, وهو المذكور في قوله تعالى " وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ". وفي هذه الآية, وفي قوله : "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ ". وهذا النوع, قرب يقتضي إلطافه تعالى, وإجابته لدعواتهم, وتحقيقه لمرادتهم, ولهذا يقرن, باسمه "القريب" اسمه "المجيب". فلما أمرهم نبيهم صالح عليه السلام, ورغبهم في الإخلاص لله وحده, ردوا عليه دعوته, وقابلوه أشنع المقابلة.

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ "
"قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا " أي: قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع. وهذا شهادة منهم, لنبيهم صالح, أنه ما زال معروفا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم, وأنه من خيار قومه. ولكنه, لما جاءهم بهذا الأمر, الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة, قالوا هذه المقالة, التي مضمونها, أنك قد كنت كاملا, والآن أخلفت ظننا فيك, وصرت بحالة لا يرجى منك خير. وذنبه, ما قالوه عنه: " أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا " وبزعمهم أن هذا, من أعظم القدح في صالح, كيف قدح في عقولهم, وعقول آبائهم الضالين, وكيف ينهاهم عن عبادة, من لا ينفع ولا يضر, ولا يغني شيئا من الأحجار, والأشجار ونحوها. وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم, الذي لم تزل نعمه عليهم تترى, وإحسانه عليهم دائما ينزل, الذي, ما بهم من نعمة, إلا منه, ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو. "وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ " أي: ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه, شكا مؤثرا في قلوبنا الريب. وبزعمهم أنهم لو علموا, صحة ما دعاهم إليه, لاتبعوه, وهم كذبة في ذلك, ولهذا بين كذبهم في قوله:

"قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ "

'قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي " أي: برهان ويقين مني 'وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً " أي: من علي برسالته ووحيه. أي: أفأتابعكم على ما أنتم عليه, وما تدعونني إليه؟. " فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ " أي: غير خسار وتباب, وضرر.

وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ "
'وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً " لها شرب من البئر يوما, ثم يشربون كلهم من ضرعها, ولهم شرب يوم معلوم . 'فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ " أي: ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شيء . 'وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ " أي: بعقر 'فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ "

فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ "
'فَعَقَرُوهَا فَقَالَ " لهم صالح : 'تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ " بل لا بد من وقوعه.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ "
'فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا " بوقوع العذاب 'نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ " أي: نجيناهم من العذاب والخزي والفضيحة. " إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ " ومن قوته وعزته, أن أهلك الأمم الطاغية, ونجى الرسل وأتباعهم.

وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ "
'وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ " فقطعت قلوبهم . 'فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ " أي: خامدين لا حراك لهم.

كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ "
'كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا " أي: كأنهم - لما جاءهم العذاب - ما تمتعوا في ديارهم, ولا أنسوا فيها, ولا تنعموا بها يوما من الدهر قد فارقهم النعيم, وتناولهم العذاب السرمدي, الذي ينقطع, والذي كأنه لم يزل. " أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ " أي: جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المبصرة. " أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ " فما أشقاهم وأذلهم, نستجير بالله من عذاب الدنيا وخزيها.

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ "
أي : 'وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا " من الملائكة الكرام, رسولنا " إِبْرَاهِيمَ " الخليل "بِالْبُشْرَى " أي: بالبشارة بالولد, حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط, وأمرهم أن يمروا على إبراهيم, فيبشروه بإسحق. فلما دخلوا عليه 'قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ " أي: سلموا عليه, ورد علهم السلام. ففي هذا مشروعية السلام, وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام وأن السلام قبل الكلام, وأنه ينبغي أن يكون الرد, أبلغ من الابتداء, لأن سلامهم بالجملة الفعلية, الدالة على التجدد, ورده بالجملة الأسمية, الدالة على الثبوت والاستمرار, وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية . 'فَمَا لَبِثَ " إبراهيم لما دخلوا عليه " أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ " أي: بادر لبيته, فاستحضر لأضيافه عجلا مستويا على الرضف سمينا, فقربه إليهم فقال: ألا تأكلون؟.

فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ "
'فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ " أي: إلى تلك الضيافة 'نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً " وظن أنهم أتوه بشر ومكروه, وذلك قبل أن يعرف أمرهم . 'قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ " أي: إنا رسل الله, أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط.

وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ "
'وَامْرَأَتُهُ " أي: وامرأة إبراهيم 'قَائِمَةٌ " تخدم أضيافه 'فَضَحِكَتْ " حين سمعت بحالهم, وما أرسلوا به, تعجبا . 'فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ " فتعجبت من ذلك

"قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ "
و 'قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا " فهذان مانعان من وجود الولد " إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ".

قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ "
'قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ " فإن أمره لا عجب فيه, لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء, فلا يستغرب على قدرته شيء, وخصوصا فيما يدبره ويمضيه, لأهل هذا البيت المبارك. " رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ " أي لا تزال رحمته, وإحسانه, وبركاته, وهي: الزيادة من خيره وإحسانه, وحلول الخير الإلهي 'عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ". أي: حميد الصفات, لأن صفاته, صفات كمال. حميد الأفعال, لأن أفعاله, إحسان, وجود, وبر, وحكمة, وعدل, وقسط. مجيد, والمجد: هو عظمة الصفات وسعتها, فله صفات الكمال; وله من كل صفة كمال, أكملها, وأتمها, وأعمها.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ "
'فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ " الذي أصابه من خيفة أضيافه 'وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى " بالولد, التفت حينئذ, إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط. وقال لهم: "إن فيها لوطا, قالوا نحن أعلم بمن فيها, لننجينه وأهله, إلا امرأته".

"إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ "
" إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ " أي: ذو خلق وسعة صدر, وعدم غضب, عند جهل الجاهلين. " أَوَّاهٌ " أي: متضرع إلى الله في جميع الأوقات . 'مُنِيبٌ " أي: رجاع إلى الله, بمعرفته ومحبته, والإقبال عليه, والإعراض عمن سواه, فلذلك كان يجادل عن من حتم الله بهلاكهم.

يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ "
فقيل له : "يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا " الجدال " إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ " بهلاكهم 'وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ " فلا فائدة في جدالك.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ "
'وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا " أي: الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا . "لُوطًا سِيءَ بِهِمْ " أي: شق عليه مجيئهم . 'وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ " أي: شديد حرج. لأنه علم أن قومه لا يتركونهم, لأنهم في صور شباب, جرد, مرد, في غاية الكمال والجمال, ولهذا وقع ما خطر بباله.

وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ "
'وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ " أي: يسرعون ويبادرون, يريدون أضيافه بالفاحشة, التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين . 'قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ " من أضيافي, وهذا كما عرض سليمان صلى الله عليه وسلم, على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه, لاستخراج الحق. ولعلمه أن بناته ممتنع منالهن, ولا حق لهم فيهن. والمقصود الأعظم, دفع هذه الفاحشة الكبرى . 'فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي " أي: إما أن تراعوا تقوى الله, وإما أن تراعوني في ضيفي, ولا تخزوني عندهم. " أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ " فينهاكم, ويزجركم. وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم, من الخير والمروءة.

قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ "
'قَالُوا " له : "لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ " أي لا نريد إلا الرجال, ولا لنا رغبة في النساء.

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ "
فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام, و 'قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ

" كقبيلة مانعة, لمنعتكم. وهذا بحسب الأسباب المحسوسة, وإلا, فإنه يأوي إلى أقوى الأركان وهو الله, الذي لا يقوم لقوته أحد, ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه, واشتد الكرب.

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ "
'قَالُوا " له : "يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ " أي: أخبروه بحالهم, ليطمئن قلبه . "لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ " بسوء. ثم قال جبريل بجناحه, فطمس أعينهم, فانطلقوا يتوعدون لوطا بمجيء الصبح. وأمر الملائكة لوطا, أن يسري بأهله "بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ " أي: بجانب منه قبل الفجر بكثير, ليتمكنوا من البعد عن قريتهم . 'وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ " أي: بادروا بالخروج, وليكن همكم النجاة ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم. " إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا " من العذاب 'مَا أَصَابَهُمُ " لأنها تشارك قومها في الإثم, فتدلهم على أضياف لوط, إذا نزل به أضياف. " إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ " فكأن لوطا, استعجل ذلك, فقيل له: " أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ".

"فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ "
'فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا " بنزول العذاب, وإحلاله فيهم 'جَعَلْنَا " ديارهم 'عَالِيَهَا سَافِلَهَا " أي. قلبناها عليهم 'وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ " أي: من حجارة النار الشديدة الحرارة 'مُنْضُودٍ " أي. متتابعة, تتبع من شذ عن القرية.

مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ "
'مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ " أي: معلمة, عليها علامة العذاب والغضب . 'وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ " الذين يشابهون لفعل قوم لوط "بِبَعِيدٍ ". فليحذر العباد, أن يفعلوا كفعلهم, لئلا يصيبهم ما أصابهم.

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ "
أي وأرسلنا 'وَإِلَى مَدْيَنَ " القبيلة المعروفة, الذين يسكنون مدين, في أدنى فلسطين. " أَخَاهُمْ " في النسب شُعَيْبًا " لأنهم يعرفونه, ويتمكنون من الأخذ عنه . 'قَالَ " لهم : "يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ " أي: أخلصوا له العبادة. فإنهم كانوا يشركون. وكانوا - مع شركهم - يبخسون المكيال والميزان, ولهذا نهاهم عن ذلك فقال : 'وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ " بل أوفوا الكيل والميزان بالقسط. " إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ " أي بنعمة كثيرة, وصحة, وكثرة أموال وبنين, فاشكروا الله على ما أعطاكم, ولا تكفروا بنعمة الله, فيزيلها عنكم . 'وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ " أي: عذابا يحيط بكم, ولا يبقى منكم باقية.

وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ "
'وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ " أي: بالعدل الذي ترضون أن تعطوه . 'وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ " أي لا تنقصوا من أشياء الناس, فتسرقوها بأخذها, بنقص المكيال والميزان . 'وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ " فإن الاستمرار على المعاصي, يفسد الأديان, والعقائد, والدين, والدنيا, ويهلك الحرث, والنسل.

بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ "
"بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ " أي: يكفيكم ما أبقى الله لكم من الخير, وما هو لكم. فلا تطمعوا في أمر لكم عنه غنية, وهو ضار لكم جدا. " إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ " فاعملوا بمقتضى الإيمان. " وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ " أي: لست بحافظ لأعمالكم, ووكيل عليها. وإنما الذي يحفظها, الله تعالى, وأما أنا, فأبلغكم ما أرسلت به.

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ "
'قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا " أي: قالوا ذلك على وجه التهكم

بنبيهم, والاستبعاد لإجابتهم له. ومعنى كلامهم: أنه لا موجب لنهيك لنا, إلا أنك تصلي لله, وتتعبد له. فإن كنت كذلك, أفيوجب لنا أن نترك ما يعبد آباؤنا, لقول ليس عليه دليل, إلا أنه موافق لك, فكيف نتبعك, ونترك آباءنا الأقدمين, أولي العقول والألباب؟! وكذلك لا يوجب قولك لنا: " أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا " ما قلت لنا, من وفاء الكيل, والميزان, وأداء الحقوق الواجبة فيها, بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا, لأنها أموالنا, فليس لك فيها تصرف. ولهذا قالوا في تهكمهم: " إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ " أي: إنك أنت الذي, الحلم والوقار, لك خلق, والرشد لك سجية, فلا يصدر عنك إلا رشد, ولا تأمر إلا برشد, ولا تنهى إلا عن غي, أي: ليس الأمر كذلك. وقصدهم, أنه موصوف بعكس هذين الوصفين: بالسفه والغواية. أي: أن المعنى: كيف تكون أنت الحليم الرشيد, وآباؤنا هم السفهاء الغاوين؟!! وهذا القول الذي أخرجوه بصيغة التهكم, وأن الأمر بعكسه, ليس كما ظنوه. بل الأمر كما قالوه. إن صلاته تأمره أن ينهاهم, عما كان يعبد آباؤهم الضالون, وأن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون, فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر, وأي فحشاء ومنكر, أكبر من عبادة غير الله, ومن منع حقوق عباد الله, أو سرقتها, بالمكاييل, والموازين, وهو, عليه الصلاة والسلام الحليم الرشيد.

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ "

"قَالَ " لهم شعيب : "يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي " أي: يقين وطمأنينة, في صحة ما جئت به . "وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا " أي. أعطاني الله من أصناف المال, ما أعطاني . "وَمَا " أنا " أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ " فلست أريد أن أنهاكم عن البخس, في المكيال, والميزان, وأفعل أنا, حتى تتطرق إلي التهمة في ذلك. بل ما أنهاكم عن أمر, إلا وأنا, أول مبتدر لتركه. " إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ " أي: ليس لي من المقاصد, إلا أن تصلح أحوالكم, وتستقيم منافعكم, وليس لي من المقاصد الخاصة لي وحدي, شيء بحسب استطاعتي. ولما كان هذا, فيه نوع تزكية للنفس, دفع هذا بقوله: " وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ " أي: ما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير, والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالى لا بحولي, ولا بقوتي . "عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ " أي: اعتمدت في أموري, ووثقت في كفايته . "وَإِلَيْهِ أُنِيبُ " في أداء ما أمرني به, من أنواع العبادات. وفي هذا التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات. وبهذين الأمرين, تستقيم أحوال العبد, وهم الاستعانة بربه, والإنابة إليه, كما قال تعالى "فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ " وقال: " إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ".

"وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ "

"وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي " أي لا تحملنكم مخالفتي ومشاقتي " أَنْ يُصِيبَكُمْ " من العقوبات "مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ "لا في الدار, ولا في الزمان

وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ "

"وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ " عما اقترفتم من الذنوب "ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ " فيما يستقبل من أعماركم, بالتوبة النصوح, والإنابة إليه بطاعته, وترك مخالفته. " إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ " لمن تاب وأناب, يرحمه, فيغفر له, ويتقبل توبته, ويحبه. ومعنى الودود, من أسمائه تعالى, أنه يحب عباده المؤمنين, ويحبونه, فهو "فعول" بمعنى "فاعل" ومعنى "مفعول".

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ "

"قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ " أي: تضجروا من نصائحه ومواعظه لهم, فقالوا: "ما نفقه كثيرا مما تقول" وذلك لبغضهم لما يقول, ونفرتهم عنه . "وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا " أي: في نفسك, لست من الكبار والرؤساء بل من المستضعفين . "وَلَوْلَا رَهْطُكَ " أي: جماعتك وقبيلتك "لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ". أي: ليس لك قدر في صدورنا, ولا احترام في أنفسنا, وإنما احترمنا قبيلتك, بتركنا إياك.

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ "
"قَالَ " لهم مترققا لهم , "يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ". أي: كيف تراعونني لأجل رهطي, ولا تراعونني لله, فصار رهطي أعز عليكم من الله . "وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا " أي: نبذتم أمر الله, وراء ظهوركم, ولم تبالوا به, ولا خفتم منه. " إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ "لا يخفى عليه من أعمالكم, مثقال ذرة, في الأرض, ولا في السماء, فسيجازيكم على ما عملتم أتم الجزاء.

وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ "
ولما أعيوه وعجز عنهم قال : "يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ " أي. على حالتكم ودينكم. " إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ " ويحل عليه عذاب مقيم "وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ " أنا أم أنتم, وقد علموا بذلك ذلك حين وقع عليهم العذاب . "وَارْتَقِبُوا " ما يحل بي " إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ " ما يحل بكم.

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ "
"وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا " بإهلاك قوم شعيب "نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ "لا تسمع لهم صوتا, ولا ترى منهم حركة

كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ "
"كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا " أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم, ولا تنعموا فيها حين أتاهم العذاب. " أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ " إذ أهلكها الله وأخزاها "كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ " أي: قد اشتركت هاتان القبيلتان, في السحق, والبعد, والهلاك. وشعيب عليه السلام, كان يسمى خطيب الأنبياء, لحسن مراجعته لقومه. وفي قصته من الفوائد والعبر, شيء كثير. منها: أن الكفار, كما يعاقبون, ويخاطبون, بأصل الإسلام, فكذلك بشرائعه وفروعه, لأن شعيبا دعا قومه إلى التوحيد, وإلى إيفاء المكيال والميزان, وجعل الوعيد, مرتبا على مجموع ذلك. ومنها: أن نقص المكاييل والموازين, من كبائر الذنوب, وتخشى العقوبة العاجلة, على من تعاطى ذلك, وأن ذلك, من سرقة أموال الناس. وإذا كان سرقتهم في المكاييل والموازين, موجبة للوعيد, فسرقتهم - على وجه القهر والغلبة - من باب أولى, وأحرى. ومنها: أن الجزاء عن جنس العمل. فمن بخس أموال الناس, يريد زيادة ماله, عوقب بنقيض ذلك, وكان سببا لزوال الخير, الذي عنده, من الرزق لقوله: " إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ " أي: فلا تتسببوا إلى زواله بفعلكم. ومنها: أن على العبد, أن يقنع بما آتاه الله, ويقنع بالحلال عن الحرام, وبالمكاسب المباحة, عن المكاسب المحرمة, وأن ذلك خير له لقوله : "بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ ". ففي ذلك, من البركة, وزيادة الرزق, ما ليس في التكالب على الأسباب المحرمة, من المحق, وضد البركة. ومنها: أن ذلك, من لوازم الإيمان, وآثاره, فإنه رتب العمل به, على وجود الإيمان. فدل, على أنه إذا لم يوجد العمل, فالإيمان ناقص, أو معدوم. ومنها: أن الصلاة, لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين, وأنها من أفضل الأعمال. حتى إنه متقرر عند الكفار فضلها, وتقديمها على سائر الأعمال, وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر, وهي ميزان للإيمان وشرائعه. فبإقامتها على وجهها, تكمل أحوال العبد, وبعدم إقامتها, تختل أحواله الدينية. ومنها: أن المال الذي يرزقه الله الإنسان - وإن كان الله قد خوله إياه - فليس له أن يصنع فيه ما يشاء, فإنه أمانة عنده, عليه أن يقيم حق الله فيه, بأداء ما فيه, من الحقوق, والامتناع من المكاسب, التي حرمها الله ورسوله لا كما يزعمه الكفار, ومن أشبههم, أن أموالهم, لهم أن يصنعوا فيها ما يشاءون ويختارون,, سواء وافق حكم الله, أو خالفه. ومنها: أن من تكملة دعوة الداعي وتمامها, أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به. وأول منته, عما ينهى غيره عنه, كما قال شعيب عليه السلام : "وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ " ولقوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ". ومنها: أن وظيفة الرسل, وسنتهم, وملتهم, إرادة الإصلاح, بحسب القدرة والإمكان, بتحصيل المصالح وتكميلها, أو بتحصيل ما يقدر عليه منها, وبدفع المفاسد وتقليلها, ويراعون

المصالح الخاصة. وحقيقة المصلحة, هي التي تصلح بها أحوال العباد, وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية. ومنها: أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح, لم يكن ملوما ولا مذموما, في عدم فعله, ما لا يقدر عليه. فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه, وفي غيره, ما يقدر عليه. ومنها: أن العبد, ينبغي له أن لا يتكل على نفسه طرفة عين. بل لا يزال مستعينا بربه, متوكلا عليه, سائلا له التوفيق. وإذا حصل له شيء من التوفيق, فلينسبه لمولیه ومسديه, ولا يعجب بنفسه لقوله : "وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ". ومنها: الترهيب بأخذات الأمم, وما جرى عليهم, وأنه ينبغي أن تذكر القصص, التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين, في سياق الوعظ والزجر. كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى, عند الترغيب, والحث على التقوى. ومنها: أن التائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه, ويعفى عنه فإن الله تعالى يحبه ويوده. ولا عيرة بقول من يقول "إن التائب إذا تاب, فحسبه أن يغفر له, ويعود عليه بالعفو, وأما عود الود الحب فإنه لا يعود". فإن الله قال : "وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ". ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة, قد يعلمون بعضها, وقد لا يعلمون شيئا منها. وربما دفع عنهم, بسبب قبيلتهم, وأهل وطنهم الكفار, كما دفع الله عن شعيب, رجم قومه, بسبب رهطه. وأن هذه الروابط, التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعي فيها, بل ربما تعين ذلك. لأن الإصلاح مطلوب, على حسب القدرة والإمكان. فعلى هذا, لو سعى المسلمون الذين تحت ولاية الكفار, وعملوا على جعل الولاية جمهورية, يتمكن فيها الأفراد والشعوب, من حقوقهم, الدينية والدنيوية, لكان أولى, من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم, الدينية والدنيوية, وتحرص على إبادتها, وجعلهم عملة وخدما لهم. نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين, وهم الحكام, فهو المتعين. ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة, فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا, مقدمة. والله أعلم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ "
يقول تعالى : "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى " بن عمران "بِآيَاتِنَا " الدالة على صدق ما جاء به, كالعصا, واليد ونحوهما, من الآيات التي أجراها الله على يدي موسى عليه السلام. " وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ " أي: حجة ظاهرة بينة, ظهرت ظهور الشمس.

"إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ "
" إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ " أي: أشراف قومه, لأنهم المتبوعون, وغيرهم تبع لهم, فلم ينقادوا لما مع موسى من الآيات, التي أراهم إياها, كما تقدم بسطها في سورة الأعرف "فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ " بل هو ضال غاو لا يأمر إلا بما هو ضرر محض لا جرم - لما اتبعه قومه - أرداهم وأهلكهم.
"يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ "
"يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ " أي: في الدنيا "لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ " أي: يلعنهم الله وملائكته, والناس أجمعون في الدنيا والآخرة. "بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ " أي: بئس ما اجتمع لهم, وترادف عليهم, من عذاب الله, ولعنة الدنيا والآخرة.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ "
ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم, قال الله تعالى لرسوله : "ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ " لتنذر به, ويكون آية على رسالتك, وموعظة وذكرى للمؤمنين . "مِنْهَا قَائِمٌ " لم يتلف, بل بقي من آثار ديارهم, ما يدل عليهم. ومنها "وَحَصِيدٌ " قد تهدمت مساكنهم, واضمحلت منازلهم, فلم يبق لها أثر.

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ "
"وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ " بأخذهم بأنواع العقوبات "وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ " بالشرك والكفر, والعناد . "فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ " وهكذا كل من التجأ إلى غير الله, لم ينفعه ذلك, عند نزول الشدائد . "وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ " أي. خسار ودمار, بالضد مما خطر ببالهم.

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ "
أي: يقصمهم بالعذاب ويبيدهم, ولا ينفعهم, ما كانوا يدعون, من دون الله من شيء.

"إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ "
" إِنَّ فِي ذَلِكَ " المذكور, من أخذه للظالمين, بأنواع العقوبات. " لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ " أي: لعبرة ودليلا, على أن أهل الظلم والإجرام, لهم العقوبة الدنيوية, والعقوبة الأخروية. ثم انتقل من هذا, إلى وصف الآخرة فقال : "ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ ". أي: جمعوا لأجل ذلك اليوم, للمجازاة, وليظهر لهم, من عظمة الله وعدله العظيم, ما به يعرفونه حق المعرفة . "وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ " أي: يشهده الله وملائكته, وجميع المخلوقين.

وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ "
"وَمَا نُؤَخِّرُهُ " أي: إتيان يوم القيامة " إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ " إذا انفضى أجل الدنيا وما قدر الله فيها من الخلق, فحينئذ ينقلهم إلى الدار الأخرى, ويجري عليهم أحكامه الجزائية, كما أجرى عليهم في الدنيا, أحكامه الشرعية.

"يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ "
"يَوْمَ يَأْتِ " ذلك اليوم, ويجتمع الخلق " لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ " حتى الأنبياء, والملائكة الكرام لا يشفعون إلا بإذنه . "فَمِنْهُمْ " أي: الخلق "شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ". فالأشقياء, هم الذين كفروا بالله, وكذبوا رسله, وعصوا أمره. والسعداء, هم: المؤمنون المتقون.

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ "
وأما جزاؤهم "فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا " أي: حصلت لهم الشقاوة, والخزي والفضيحة . "فَفِي النَّارِ " منغمسون في عذابها, مشتد عليه عقابها . "لَهُمْ فِيهَا " من شدة ما هم فيه "زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ " وهو أشنع الأصوات وأقبحها.

خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ "
"خَالِدِينَ فِيهَا " أي: في النار, التي هذا عذابها "مُا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ " أي: خالدين فيها أبدا, إلا المدة التي شاء الله, أن لا يكونوا فيها, كما قاله جمهور المفسرين. فالاستثناء على هذا, راجع إلى ما قبل دخولها, فهم خالدون فيها جميع الأزمان, سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها. " إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ " فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته, فعله, تبارك وتعالى لا يرده أحد عن مراده.

وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ "
"وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا " أي: حصلت لهم السعادة, والفلاح, والفوز "فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ " ثم أكد ذلك بقوله . "عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ " أي: ما أعطاهم الله من النعيم المقيم, واللذة العالية, فإنه دائم مستمر, غير منقطع بوقت من الأوقات. نسأل الله الكريم من فضله أن يجعلنا منهم.

"فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ "
يقول الله تعالى, لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : "فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ " المشركون, أي لا تشك في حالهم, وأن ما هم عليه باطل, فليس لهم, دليل شرعي ولا عقلي. وإنما دليلهم وشبهتهم, أنهم "مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ". ومن المعلوم أن هذا, ليس بشبهة, فضلا عن أن يكون دليلا, لأن أقوال ما عدا الأنبياء, يحتج بها. خصوصا أمثال هؤلاء الضالين, الذين كثر خطأهم وفساد أقوالهم, في أصول الدين. فإن أقوالهم, وإن اتفقوا عليها, فإنها خطأ وضلال . "وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ " أي لا بد أن ينالهم نصيب من الدنيا, مما كتب لهم, وإن كثر ذلك النصيب, أو راق في عينك, فإنه لا يدل على صلاح حالهم. فإد الله يعطي الدينا, من يحب, ومن لا يحب, ولا يعطي الإيمان

والدين الصحيح, إلا من يحب. والحاصل أنه لا يغتر باتفاق الضالين, على قول الضالين من آبائهم الأقدمين. ولا على ما خولهم الله, وآتاهم من الدنيا.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾
يخبر تعالى, أنه آتى موسى الكتاب, الذي هو التوراة, الموجب للاتفاق على أوامره ونواهيه, والاجتماع, ولكن, مع هذا, فإن المنتسبين إليه, اختلفوا فيه اختلافا, أضر بعقائدهم, وبجامعتهم الدينية . ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ بتأخيرهم, وعدم معاجلتهم بالعذاب ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ بإحلال العقوبة بالظالم, ولكنه تعالى, اقتضت حكمته, أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة, وبقوا في شك مريب. وإذا كانت هذه حالهم, مع كتابهم, فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك, غير مستغرب, من طائفة اليهود, أن لا يؤمنوا به, وأن يكونوا في شك منه مريب.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾
﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي لا بد أن يقضي الله بينهم يوم القيامة, بحكمه العدل, فيجازي كلا بما يستحق. ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ من خير وشر ﴿خَبِيرٌ ﴾ فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم, دقيقها وجليلها.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾
ثم لما أخبر بعدم استقامتهم, التي أوجبت اختلافهم وافتراقهم, أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم, ومن معه, من المؤمنين, أن يستقيموا كما أمروا, فيسلكوا ما شرعه الله, من الشرائع, ويعتقدوا, ما أخبر الله من العقائد الصحيحة, ولا يزيغوا عن ذلك, يمنة, ولا يسرة, ويدوموا على ذلك, ولا يطغوا, بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة. وقوله ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي لا يخفى عليه من أعمالكم شيء, وسيجازيكم عليها. ففيه ترغيب لسلوك الاستقامة, وترهيب من ضدها, ولهذا حذرهم عن الميل إلى من تعدى الاستقامة فقال:

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾
﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ فإنكم, إذا ملتم إليهم, ووافقتموهم على ظلمهم, أو رضيتم ما عليه من الظلم ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ إن: فعلتم ذلك ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ يمنعونكم من عذاب الله, ولا يحصلون لكم شيئا, من ثواب الله . ﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾ أي لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم. ففي هذه الآية: التحذير من الركون إلى كل ظالم. والمراد بالركون, الميل والانضمام إليه بظلمه, وموافقته, على ذلك, والرضا بما هو عليه من الظلم. وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة, فكيف حال الظلمة؟!! نسأل الله العافية من الظلم.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾
يأمر تعالى: بإقامة الصلاة كاملة ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ أي: أوله وآخره. ويدخل في هذا, صلاة الفجر, وصلاتا الظهر والعصر . ﴿وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾ ويدخل في ذلك, صلاة المغرب والعشاء. ويتناول ذلك قيام الليل, فإنها مما تزلف العبد, وتقربه إلى الله تعالى. ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي: فهذه الصلوات الخمس, وما ألحق بها من التطوعات, من أكبر الحسنات. وهي - مع أنها حسنات - تقرب إلى الله, وتوجب الثواب, فإنها تذهب السيئات وتمحوها. والمراد بذلك: الصغائر, كما قيدتها الأحاديث الصحيحة, عن النبي صلى الله عليه وسلم, مثل قوله: "والصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة, ورمضان إلى رمضان, مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر" بل كما قيدتها الآية التي في سورة النساء, وهي قوله عز وجل. ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ". ذلك ولعل الإشارة, لكل ما تقدم, من لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم, وعدم مجاوزته وتعديه, وعدم الركون إلى الذين ظلموا. والأمر بإقامة الصلاة, وبيان أن

الحسنات يذهبن السيئات, الجميع "ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ " يفهمون بها ما أمرهم الله به, ونهاهم عنه, ويمتثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة للخيرات, الدافعة للشرور والسيئات.

وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ "
ولكن تلك الأمور, تحتاج إلى مجاهدة النفس, والصبر عليها, ولهذا قال : 'وَاصْبِرْ " أي: احبس نفسك على طاعة الله, وعن معصيته, وإلزامها لذلك, واستمر ولا تضجر . 'فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ " بل يتقبل الله عنهم أحسن الذي عملوا, ويجزيهم أجرهم, بأحسن ما كانوا يعملون. وفي هذا ترغيب عظيم, للزوم الصبر, بتشويق النفس الضعيفة, إلى ثواب الله, كلما ونت وفترت.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ "
لما ذكر تعالى, إهلاك الأمم المكذبة للرسل, وأن أكثرهم منحرفون عن أهل الكتب الإلهية, وذلك كله يقضي على الأديان بالذهاب والاضمحلال, ذكر أنه, لولا أنه جعل في القرون الماضية بقايا, من أهل الخير, يدعون إلى الهدى, وينهون عن الفساد والردى, فحصل من نفعهم, وأبقيت به الأديان, ولكنهم قليلون جدا. وغاية الأمر, أنهم نجوا, باتباعهم المرسلين, وقيامهم بما قاموا به من دينهم, ويكون حجة الله أجراها على أيديهم, ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة. لكن 'وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ " أي: اتبعوا ما هم فيه من النعيم والترف, ولم يبغوا به بدلا . 'وَكَانُوا مُجْرِمِينَ " أي: ظالمين, باتباعهم ما أترفوا فيه, فلذلك حق عليهم العقاب, واستأصلهم العذاب. وفي هذا, حث لهذه الأمة, أن يكون فيهم بقايا مصلحون, لما أفسد الناس, قائمون بدين الله, يدعون من ضل إلى الهدى, ويصبرون منهم, على الأذى, ويبصرونهم من العمى. وفي هذه الحالة, أعلى حالة يرغب فيها الراغبون, وصاحبها يكون, إماما في الدين, إذ جعل عمله خالصا لرب العالمين.

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ "
أي: وما كان الله ليهلك القرى بظلم منه لهم, والحال أنهم مصلحون, أي: مقيمون على الصلاح, مستمرون عليه. لما كان الله ليهلكهم, إلا إذا ظلموا, وقامت عليهم حجة الله. ويحتمل, أن المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق, إذا رجعوا وأصلحوا عملهم, فإن الله يعفو عنهم, ويمحوا ما تقدم من ظلمهم.

"وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ "
يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على الدين الإسلامي, فإن مشيئته غير قاصرة, ولا يمتنع عليه شيء. ولكنه اقتضت حكمته, أن لا يزالوا مختلفين, مخالفين للصراط المستقيم, متبعين للسبل الموصلة إلى النار, كل يرى الحق, فيما قاله, والضلال في قول غيره.

"إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ "
" إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ " فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به, والاتفاق عليه. فهؤلاء سبقت لهم, سابقة السعادة, وتداركتهم العناية الربانية, والتوفيق الإلهي. وأما من عداهم, فهم مخذولون موكولون إلى أنفسهم. وقوله : 'وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ " أي: اقتضت حكمته, أنه خلقهم, ليكون منهم السعداء والأشقياء, والمتفقون والمختلفون, والفريق الذي هدى الله, والفريق الذي حقت عليهم الضلالة. ليتبين للعباد, عدله, وحكمته, وليظهر, ما كمن في الطباع البشرية, من الخير والشر, ولتقوم سوق الجهاد والعبادات, التي لا تتم ولا تستقيم, إلا بالامتحان والابتلاء. ولأنه 'وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ " فلا بد أن ييسر للنار أهلا, يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ "

لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء, ما ذكر, ذكر الحكمة في ذكر ذلك, فقال: " وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ " أي, قلبك ليطمئن, ويثبت, وتصبر, كما صبر أولي العزم من الرسل. فإن النفوس تأنس بالاقتداء وتنشط على الأعمال, وتريد المنافسة لغيرها, ويتأيد الحق بذكر شواهده, وكثرة من قام به . "وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ " السورة " الْحَقُّ " اليقين, فلا شك فيه, بوجه من الوجوه. فالعلم بذلك, من العلم بالحق, الذي هو أكبر فضائل النفوس . "وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ " أي: يتعظون به, فيرتدعون عن الأمور المكروهة, ويتذكرون الأمور المحبوبة لله, فيفعلونها.

"وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ "
وأما من ليس من أهل الإيمان, فلا تنفعهم المواعظ, وأنواع التذكير, ولهذا قال : "وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ " بعد ما قامت عليهم الآيات. " اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ " أي: حالتكم التي أنتم عليها " إِنَّا عَامِلُونَ " على ما كنا عليه

"وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ "
"وَانْتَظِرُوا " ما يحل بنا " إِنَّا مُنْتَظِرُونَ " ما يحل بكم. وقد فصل الله بين الفريقين, وأرى عباده, نصره لعباده المؤمنين, وقمعه لأعداء الله المكذبين.

"وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ "
"وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " أي: ما غاب فيهما, من الخفايا, والأمور الغيبية . "وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ " من الأعمال والعمال, فيميز الخبيث من الطيب . "فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ " أي: قم بعبادته, وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه, وتوكل على الله في ذلك . "وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ " من الخير والشر, بل قد أحاط علمه بذلك, وجرى به قلمه, وسيجري عليه حكمه, وجزاؤه. تم تفسير سورة هود والحمد لله رب العالمين, وصلى الله على محمد وسلم وكان الفراغ من نسخه في يوم السبت في 21 من شهر ربيع الآخر سنة 1347

سورة يوسف

"الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ "
يخبر تعالى, أن آيات القرآن هي " آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ " أي: البين الواضحة ألفاظه, ومعانيه.

"إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ "
ومن بيانه وإيضاحه, أنه أنزله باللسان العربي, أشرف الألسنة, وأبينها. المبين, لكل ما يحتاجه الناس, من الحقائق النافعة. وكل هذا الإيضاح والتبيين "لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " أي: لتعقلوا حدوده, وأصوله, وفروعه, وأوامره, ونواهيه. فإذا عقلتم ذلك بإيقانكم, واتصفت قلوبكم بمعرفتها, أثمر ذلك, عمل الجوارح, والانقياد إليه. و "لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " أي: تزداد عقولكم, بتكرر المعاني الشريفة العالية, على أذهانكم. فتنتقلون من حال إلى أحوال, أعلى منها وأكمل.

"نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ "
"نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ " وذلك لصدقه, وسلاسة عبارته, ورونق معانيه . "بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ " أي: بما اشتمل عليه هذا القرآن, الذي أوحيناه إليك, وفضلناك به على سائر الأنبياء, وذاك محض منة, من الله وإحسان . "وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ " أي: ما كنت تدري, ما الكتاب, ولا الإيمان, قبل أن يوحي الله إليك, ولكن جعلناه نورا, نهدي به من نشاء, من عبادنا.

"إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ "
ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن, من القصص, وأنه أحسن القصص على الإطلاق, فلا يوجد من القصص, في شيء من الكتب, مثل هذا القرآن, ذكر قصه يوسف, وأبيه, وإخوته, القصة العجيبة الحسنة. فقال: " إِذْ قَالَ يُوسُفُ " إلى " إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ".
واعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله, أحسن القصص في هذا الكتاب. ثم ذكر هذه القصة, وبسطها, وذكر ما جرى فيها, فعلم بذلك, أنها قصة تامة, كاملة حسنة. فمن أراد أن يكملها أو يحسنها, بما يذكر في الإسرائيليات, التي لا يعرف لها سند, ولا ناقل, وأغلبها كذب, فهو مستدرك على الله, ومكمل لشيء, يزعم أنه ناقص. وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحا, فإن تضاعيف هذه السورة, قد ملئت في كثير من التفاسير, من الأكاذيب, والأمور الشنيعة المناقضة, لما قصه الله تعالى بشيء كثير. فعلى العبد أن يفهم عن الله, ما قصه, ويدع, ما سوى ذلك, مما ليس عن النبي صلى الله عليه وسلم, ينقل. فقوله تعالى: " إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ " يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل, عليهم الصلاة والسلام : "يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ".
فكانت هذه الرؤيا, مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام, من الارتفاع في الدينا والآخرة. وهكذا إذا أراد الله أمرا من الأصول العظام, قدم بين يديه مقدمة, توطئة له, وتسهيلا لأمره, واستعدادا لما يرد على العبد من المشاق, ولطفا بعبده, وإحسانا إليه.
فأولها يعقوب, بأن الشمس: أمه, والقمر أبوه, والكواكب, إخوته. وأنه ستنتقل به الأحول إلى أن يصير إلى حال يخضعون له, ويسجدون له, إكراما وإعظاما. وأن ذلك لا يكون, إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له, واصطفائه إياه, وإتمام نعمته عليه, بالعلم والعمل, والتمكين في الأرض. وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب, الذين سجدوا له, وصاروا تبعا له فيها ولهذا قال : "وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ "

"قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ "
ولما تم تعبيرها ليوسف, قال له أبوه : "يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا " أي: حسدا من عند أنفسهم, بأن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم. " إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ " لا يفتر عنه, ليلا ولا نهارا, ولا سرا, ولا جهارا. فالبعد عن الأسباب, التي يتسلط بها على العبد, أولى. فامتثل يوسف أمر أبيه, ولم يخبر إخوته بذلك, بل كتمها عنهم.

"وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ "
"وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ " أي: يصطفيك ويختارك بما من به عليك من الأوصاف الجليلة, والمناقب الجميلة . "وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ " أي: من تعبير الرؤيا, وبيان ما تئول إليه الأحاديث الصادقة, كالكتب السماوية ونحوها . "وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ " في الدنيا والآخرة, بأن يؤتيك في الدنيا حسنة, وفي الآخرة حسنة . "كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ " حيث أنعم الله عليهما, بنعم عظيمة واسعة, دينية, ودنيوية. " إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " أي: علمه محيط بالأشياء, وبما احتوت عليه, ضمائر العباد, من البر وغيره. فيعطي كلا, ما تقتضيه حكمته وحمده, فإنه حكيم, يضع الأشياء مواضعها, وينزلها منازلها.

"لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ "
يقول تعالى : "لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ " أي عبر وأدلة, على كثير من المطالب الحسنة . "لِلسَّائِلِينَ " أي: لكل من سأل عنها, بلسان الحال, أو بلسان المقال. فإن السائلين, هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر. وأما المعرضون, فلا ينتفعون بالآيات, ولا بالقصص, والبينات.

"إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ "
" إِذْ قَالُوا " فيما بينهم : "لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ " بنيامين, أي: شقيقه, وإلا, فكلهم إخوة. " أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ " أي: جماعة, فكيف يفضلهما بالمحبة والشفقة. " إِنَّ أَبَانَا لَفِي

ضَلَالٍ مُبِينٍ " أي: لفي خطأ بين, حيث فضلهما علينا, من غير موجب نراه, ولا أمر نشاهده.

"اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ "
" اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا " أي: غيبوه عن أبيه, في أرض بعيدة لا يتمكن من رؤيته فيها. فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين "يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ". أي: يتقرغ لكم, ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة, فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف, شغلا لا يتفرغ لكم . "وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ " أي: من بعد هذا الصنيع "قَوْمًا صَالِحِينَ " أي: تتوبون إلى الله, وتستغفرونه من بعد ذنبكم. فقدموا العزم على التوبة, قبل صدور الذنب منهم تسهيلا لفعله, وإزالة لشناعته, وتنشيطا من بعضهم لبعض.

قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ "
أي : "قَالَ قَائِلٌ " من إخوة يوسف, الذين أرادوا قتله, أو تبعيده: " لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ " فإن قتله أعظم إثما, وأشنع. والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه, من غير قتل, ولكن توصلوا إلى تبعيده بأن تلقوه "فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ " وتتوعدوه, على أنه لا يخبر بشأنكم, بل على أنه عبد مملوك آبق, لأجل أن "يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ " الذين يريدون مكانا بعيدا, فيحتفظوا فيه. وهذا القائل أحسنهم رأيا في يوسف, وأبرهم, وأتقاهم في هذه القضية. فإن بعض الشر, أهون من بعض, والضرر الخفيف, يدفع به الضرر الثقيل. فلما اتفقوا على هذا الرأي "قَالُوا يَا أَبَانَا " إلى قوله " إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ".

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ "
أي: قال إخوة يوسف, متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم : "يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ " أي: لأي شيء يدخلك الخوف منا, على يوسف, من غير سبب, ولا موجب؟ والحال "وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ " أي: مشفقون عليه, نود له ما نود لأنفسنا. وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها. فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة, لعدم إرساله معهم, ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه, الذي يحبه أبوه له, ما يقتضي أن يسمح لإرساله معهم, فقالوا:

"أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ "
" أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ " أي: يتنزه في البرية ويستأنس . "وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " أي سنراعيه, ونحفظه من كل أذى يريده.

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ "
فأجابهم بقوله: " إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ " أي مجرد ذهابكم به, يحزنني, ويشق علي, لأنني لا أقدر على فراقه, ولو مدة يسيرة. فهذا مانع من إرساله ومانع ثان, وهو: أني " وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ " أي: في حال غفلتكم عنه, لأنه صغير لا يمتنع من الذئب.

قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ "
"قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ " أي: جماعة, حريصون على حفظه. " إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ " أي لا خير فينا, ولا نفع يرجى منا, إن أكله الذئب, وغلبنا عليه. فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله, وعدم الموانع, سمح حينئذ بإرساله معهم, لأجل أنسه.
"فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ "
أي: لما ذهب إخوة يوسف, بعد ما أذن له أبوة, وعزموا أن يجعلوه في غيابة الجب, كما قال قائلهم, السابق ذكره, وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه, فنفذوا فيه قدرتهم, وألقوه في الجب. ثم إن الله, لطف به, بان أوحى إليه وهو بتلك الحال الحرجة . "لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ " أي: سيكون منك معاتبة لهم, وإخبار عن أمرهم هذا, وهم لا يشعرون بذلك الأمر. ففيه بشارة له, بأنه سينجو مما وقع فيه, وأن الله سيجمعه بأهله

وإخوته, على وجه العز والتمكين له, في الأرض.

وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ "
"وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ " ليكون إتيانهم, متأخرا عن عادتهم, وبكاؤهم دليلا لهم, وقرينة على صدقهم.

قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ "
فقالوا - معتذرين بعذر كاذب - "يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ " إما على الأقدام, أو بالرمي والنضال . "وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا " توفيرا له وراحة . "فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ " في حال غيابنا عنه واستباقنا . "وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ " أي: اعتذرنا بهذا العذر, والظاهر أنك لا تصدقنا, لما في قلبك من الحزن على يوسف, والرقة الشديدة عليه.

وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ "
ولكن عدم تصديقك إيانا لا يمنعنا أن نعتذر بالعذر الحقيقي, وكل هذا, تأكيد لعذرهم. ومما أكدوا به قولهم, أنهم "وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ " زعموا أنه دم يوسف, حين أكله الذئب, فلم يصدقهم أبوهم بذلك. و "قَالَ ": "بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا " أي: زينت لكم أنفسكم أمرا قبيحا في التفريق بيني وبينه, لأنه رأى من القرائن والأحوال, ومن رؤيا يوسف, التي قصها عليه, ما دله على ما قال . "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ " أي: أما أنا, فوظيفتي سأحرص على القيام بها, وهي أني أصبر على هذه المحنة, صبرا جميلا, سالما من السخط والتشكي إلى الخلق, وأستعين الله على ذلك لا على حولي وقوتي, فوعد من نفسه هذا الأمر وشكى إلى خالقه في قوله: " إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ " لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل, لأن النبي, إذا وعد, وفى.

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ "
أي: مكث يوسف في الجب, ما مكث, حتى "وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ " أي: قافلة تريد مصر. " فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ " أي. فرطهم ومقدمهم, الذي يعس لهم المياه, ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك . "فَأَدْلَى " ذلك الوارد "دَلْوَهُ " فتعلق فيه يوسف عليه السلام, وخرج . "قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ " أي: استبشر وقال: هذا غلام نفيس . "وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً " وكان إخوته قريبا منه, فاشتراه السيارة منهم.

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ "
"بِثَمَنٍ بَخْسٍ" أي قليل جدا, فسره بقوله : "دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ".
لأنه لم يكن لهم قصد, إلا تغييبه, وإبعاده عن أبيه, ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه.
والمعنى في هذا: أن السيارة, لما وجدوه, عزموا أن يسروا أمره, ويجعلوه من جملة بضائعهم, التي معهم, حتى جاء إخوته, فزعموا أنه عبد أبق منهم. فاشتروه منهم, بذلك الثمن, واستوثقوا منهم فيه, لئلا يهرب, والله أعلم.

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ "
أي لما ذهب به السيارة إلى مصر, وباعوه بها, فاشتراه عزيز مصر. فلما اشتراه, أعجب به, ووصى عليه امرأته وقال: " أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا " أي: إما أن ينفعنا كنفع العبيد, بأنواع الخدم. وإما أن نستمتع فيه, استمتاعنا بأولادنا, ولعل ذات أنه لم يكن لهما, ولد . "وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ " أي: كما يسرنا له أن يشتريه عزيز مصر, ويكرمه هذا الإكرام, جعلنا هذا, مقدمة لتمكينه في الأرض, من هذا الطريق. " وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ " إذا بقي لا شغل له ولا هم سوى العلم صار ذلك من أسباب

تعلمه علما كثيرا, من علم الأحكام, وعلم التعبير, وغير ذلك . "وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ " أي: أمره تعالى نافذ لا يبطله مبطل, ولا يغلبه مغالب . "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ". فلذلك يجري منهم, ويصدر, في مغالبة أحكام الله القدرية, وهم أعجز, وأضعف من ذلك.

"وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ "
أي : "وَلَمَّا بَلَغَ " يوسف " أَشُدَّهُ " أي: كمال قوته المعنوية والحسية, وصلح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة, من النبوة, والرسالة. " آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا " أي: جعلناه نبيا رسولا, وعالما ربانيا . "وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ " في عبادة الخالق, ببذل الجهد والنصح فيها, وإلى عباد الله, ببذل النفع والإحسان إليهم, نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم, علما نافعا. ودل هذا, على أن يوسف في مقام الإحسان, فأعطاه الله الحكم بين الناس, والعلم الكثير والنبوة.

"وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ "
هذه المحنة العظيمة, أعظم على يوسف, من محنة إخوته, وصبره عليها, أعظم أجرا, لأنه صبر اختيار, مع وجود الدواعي الكثيرة, لوقوع الفعل, فقدم محبة الله عليها. وأما محنته بإخوته, فصبره صبر اضطرار, بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها, طائعا أو كارها. وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام, بقي مكرما في بيت العزيز. وكان له من الجمال, والكمال, والبهاء, ما أوجب ذلك, أن " وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ " أي: هو غلامها, وتدبيرها, والمسكن واحد, يتيسر فيه إيقاع الأمر المكروه, من غير شعور أحد, ولا إحساس بشر. وزادت المصيبة, بأن " وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ " وصار المحل خاليا, وهما آمنان من دخول أحد عليهما, بسبب تغليق الأبواب. وقد دعته إلى نفسها "وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ " أي: افعل الأمر المكروه وأقبل إلي. ومع هذا, فهو غريب لا يحتشم مثله, ما يحتشمه إذا كان في وطنه, وبين معارفه. وهو أسير تحت يدها, وهي سيدته, وفيها من الجمال, ما يدعو إلى ما هنالك. وهو شاب عزب, وقد توعدته, إن لم يفعل ما تأمرة به, بالسجن, أو العذاب الأليم. فصبر عن معصية الله, مع وجود الداعي القوي فيه, لأنه قد هم فيها, هما, تركه لله, وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء. ورأى من برهان ربه - وهو ما معه من العلم والإيمان, الموجب, لترك كل ما حرم الله - ما أوجب له البعد والانكفاف, عن هذه المعصية الكبيرة . "قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ " أي.أعوذ بالله, أن أفعل هذا الفعل القبيح, لأنه مما يسخط الله, ويبعد عنه, ولأنه خيانة في حق سيدي, الذي أكرم مثواي. فلا يليق بي, أن أقابله في أهله, بأقبح مقابلة, وهذا من أعظم الظلم والظالم لا يفلح. والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل, تقوى الله, ومراعاة حق سيده, الذي أكرمه, وصيانة نفسه عن الظلم, الذي لا يفلح من تعاطاه. وكذلك ما من الله عليه, من برهان الإيمان, الذي في قلبه, يقتضي منه, امتثال الأوامر, واجتناب الزواجر. والجامع لذلك كله. أن الله صرف عنه السوء والفحشاء, لأنه من عباده المخلصين له, في عباداتهم, الذين أخلصهم الله, واختارهم, واختصهم لنفسه, وأسدى عليهم من النعم, وصرف عنهم المكاره, ما كانوا به من خيار خلقه.

"وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "
ولما امتنع من إجابة طلبها, بعد المراودة الشديدة, وذهب ليهرب عنها, ويبادر إلى الخروج من الباب, ليتخلص, ويهرب من الفتنة. فبادرت إليه, وتعلقت بثوبه, فشقت قميصه. فلما وصلا إلى الباب, في تلك الحال, ألفيا سيدها, أي. زوجها لدى الباب, فرأي أمرا شق عليه. فبادرت إلى الكذب, وادعت أن المراودة, قد كانت من يوسف, وقالت : "مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا " ولم تقل " من فعل بأهلك سوءا " تبرئة لها, وتبرئة له أيضا, من الفعل. وإنما النزاع عن الإرادة, والمراوده. " إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " أي: أو يعذب عذابا أليما.

"قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ "

فبرأ نفسه, مما رمته به, وقال : "هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي " فحينئذ احتملت الحال, صدق كل واحد منهما, ولك يعلم أيهما. ولكن الله تعالى, جعل للحق والصدق, علامات, وأمارات تدل عليه, قد يعلمها العباد, وقد لا يعلمونها. فمن الله في هذه القضية, بمعرفة الصادق منهما, تبرئة لنبيه وصفيه, يوسف عليه السلام. فبعث شاهدا من أهل بيتها, يشهد بقرينة من وجدت معه, فهو الصادق, فقال: " إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ " لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها, المراود لها, المعالج, وأنها أرادت أن تدفعه عنها, فشقت قميصه من هذا الجانب.

وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ "
'وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ". لأن ذلك, يدل على هروبه منها, وأنها هي التي طلبته, فشقت قميصه من هذا الجانب.

فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ "
'فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ " عرف بذلك صدق يوسف وبراءته, وأنها هي الكاذبة. فقال لها سيدها: " إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ " وهل أعظم من هذا الكيد, الذي برأت به نفسها, لما أرادت وفعلت, ورمت به نبي الله, يوسف عليه السلام.

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ "
ثم إن سيدها لما تحقق الأمر, قال ليوسف : "يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ". أي: اترك الكلام فيه, وتناسه, ولا تذكره لأحد, طلبا للستر على أهله . 'وَاسْتَغْفِرِي " أيتها المرأة "لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ " فأمر يوسف بالإعراض, وأمرها بالاستغفار والتوبة.

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ "
يعني: أن الخبر اشتهر وشاع في البلد, وتحدث به النسوة, فجعلن يلمنها, ويقلن: " امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا " أي: هذا أمر مستقبح, هي امرأة كبيرة القدر, وزوجها كبير القدر, ومع هذا, لم تزل تراود فتاها, الذي تحت يدها, وفي خدمتها - عن نفسه. ومع هذا فإن حبه, قد بلغ من قلبها, مبلغا عظيما . 'قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ", أي: وصل حبه إلى شغاف قلبها, وهو: باطنه وسويداؤه. وهذا أعظم ما يكون من الحب. " إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ " حيث وجدت منها هذه الحالة, التي لا ينبغي منها, وهي حالة تحط قدرها, وتضعه عند الناس. وكان هذا القول منهن مكرا, ليس المقصود به, مجرد اللوم لها, والقدح فيها. وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام, إلى رؤية يوسف, الذي فتنت به امرأة العزيز, لتحنق امرأة العزيز, وتريهن إياه, ليعذرنها ولهذا سماه: مكرا, فقال:

"فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ "
'فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ " تدعوهن إلى منزلها للضيافة . 'وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً " أي: محلا مهيأ بأنواع الفرش والوسائد, وما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة, وكان في جملة ما أتت به وأحضرته في تلك الضيافة, طعام يحتاج إلى سكين, إما أترج, أو غيره. " وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا " ليقطعن بها ذلك الطعام 'وَقَالَتِ " ليوسف: " اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ " في حالة جماله وبهائه . 'فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ " أي: أعظمنه في صدورهن, ورأين منظرا فائقا, لم يشاهدن مثله . 'وَقَطَّعْنَ " من الدهش " أَيْدِيَهُنَّ " بتلك السكاكين, اللاتي معهن . 'وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ " أي تنزيها لله 'مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ". وذلك أن يوسف, أعطي من الجمال الفائق, والنور, والبهاء, ما كان به آية للناظرين, وعبرة للمتأملين.

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ "
فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر, وأعجبهن غاية العجب, وظهر منهن من العذر

لامرأة العزيز, شيء كثير - أرادت أن تريهن جماله الباطن, بالعفة التامة - فقالت - معلنة لذلك, ومبينة لحبه الشديد, غير مبالية, ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة : 'قَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ " أي: امتنع وهي مقيمة على مراودته, لم تزدها مرور الأوقات, إلا قلقا ومحبة وشوقا لوصاله وتوقا. ولهذا قالت له بحضرتهن: " وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ". لتلجئه بهذا الوعيد, إلى حصول مقصودها منه.

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ "
فعند ذلك, اعتصم يوسف بربه, واستعان به على كيدهن و 'قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ " وهذا يدل, أن النسوة, جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدته, وجعلن يكدنه في ذلك. فاستحب السجن والعذاب الدنيوي, على لذة حاضرة, توجب العذاب الشديد . 'وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ " أي: أمل إليهن, فإني ضعيف عاجز. إن لم تدفع عني السوء, صبوت إليهن 'وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ " فإن هذا جهل. لأنه آثر لذة قليلة منغصة, على لذات متتابعات, وشهوات متنوعات, في جنات النعيم. ومن آثر هذا, على هذا, فمن أجهل منه؟!! فإن العلم والعقل, يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين, وأعظم اللذتين, ويؤثر, ما كان محمود العاقبة.

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ "
'فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ " حين دعاه 'فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ " فلم تزل تراوده وتستعين عليه, بما تقدر عليه من الوسائل, حتى آيسها, وصرف الله عنه كيدها. " إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ " لدعاء الداعي " الْعَلِيمُ " بنيته الصالحة, وبنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه. فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة, والمحنة الشديدة. وأما أسياده, فإنه لما اشتهر الخبر وبان, وصار الناس فيها, بين عاذر, ولائم, وقادح.

ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ "
"بَدَا لَهُمْ " أي: ظهر لهم "مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ " الدالة على براءته . "لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ " أي: لينقطع بذلك, الخبر, ويتناساه الناس. فإن الشيء إذا شاع, لم يزل يذكر, ويشيع, مع وجود أسبابه, فإذا عدمت أسبابه نسي. فرأوا أن هذا مصلحة لهم, فأدخلوه في السجن.

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ "
أي ولما دخل يوسف السجن, كان من جملة من 'وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ " أي: شابان, فرأى كل واحد منهما رؤيا, فقصها على يوسف ليعبرها . 'قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا " وذلك الخبز "تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ". " نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ " أي: بتفسيره, وما يئول إليه أمره. وقولهما: " إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ " أي: من أهل الإحسان إلى الخلق فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا, كما أحسنت إلى غيرنا, فتوسلا ليوسف بإحسانه.

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ "
'قَالَ " لهما مجيبا لطلبهما: " لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا " أي: فلتطمئن قلوبكما, فإني سأبادر إلى تعبير رؤياكما, فلا يأتيكما غداؤكما, أو عشاؤكما, أول ما يجيء إليكما, إلا نبأتكما بتأويله, قبل أن يأتيكما. ولعل يوسف, عليه الصلاة والسلام, قصد أن يدعوهما إلى الإيمان في هذه الحال, التي بدت حاجتهما إليه, ليكون أنجع لدعوته, وأقبل لهما. ثم قال : 'ذَلِكُمَا " التعبير الذي سأعبره لكما "مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ". أي: هذا من علم الله علمنيه, وأحسن إلي به, وذلك " إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ". والترك, كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه, يكون لمن لم يدخل فيه أصلا. فلا يقال: إن يوسف, كان من قبل, على غير ملة إبراهيم.

"وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ "

'وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ " ثم فسر تلك الملة بقوله : 'مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ " بل نفرد الله بالتوحيد, ونخلص له الدين والعبادة . 'ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ " أي: هذا من أفضل منته وإحسانه وفضله علينا, وعلى من هداه الله كما هدانا, فإنه لا أفضل من منة الله على العباد بالإسلام, والدين القويم. فمن قبله وانقاد له, فهو حظه, وقد حصل له أكبر النعم وأجل الفضائل . 'وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ " فلذلك تأتيهم المنة والإحسان, فلا يقبلونها, ولا يقومون لله بحق. وفي هذا, من الترغيب للطريق, التي هو عليها, ما لا يخفى. فإن الفتيين - لما تقرر عنده, أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال, وأنه محسن معلم - ذكر لهما أن هذه الحالة, التي أنا عليها, كلها من فضل الله وإحسانه, حيث من علي بترك الشرك, وباتباع ملة آبائي, فبهذا وصلت إلى ما رأيتما, فينبغي لكما أن تسلكا ما سلكت.

"يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ "

ثم صرح لهما بالدعوة فقال : "يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ " أي: أرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر, ولا تعطي ولا تمنع, وهي متفرقة, ما بين أشجار, وأحجار, وملائكة, وأموات, وغير ذلك من أنواع المعبودات, التي يتخذها المشركون. أذلك 'خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ " الذي له صفات الكمال, " الْوَاحِدُ " في ذاته, وصفاته, وأفعاله فلا شريك له في شيء من ذلك. " الْقَهَّارُ " الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه, فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن " ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ". ومن المعلوم, أن هذا شأنه ووصفه, خير من الآلهة المتفرقة, التي هي مجرد أسماء لا كمال لها, ولا فعال لديها.

"مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ "

ولهذا قال : 'مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ " أي: كسوتموها أسماء, سميتموها آلهة, وهي لا شيء, ولا فيها من صفات الألوهية شيء . 'مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ " بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها. وإذا لم ينزل الله بها سلطانا, لم يكن طريق, ولا وسيلة, ولا دليل لها. " إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ " وحده, فهو الذي يأمر وينهى, ويشرع الشرائع, ويسن الأحكام. وهو الذي " أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ " أي: المستقيم الموصل إلى كل خير, وما سواه من الأديان, فإنها غير مستقيمة, بل معوجة, توصل إلى كل شر . 'وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " حقائق الأشياء. وإلا فإن الفرق بين عبادة الله, وحده لا شريك له, وبين الشرك به, من أظهر الأشياء وأبينها. ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك, حصل منهم ما حصل, من الشرك.
فيوسف عليه السلام, دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده, وإخلاص الدين له. فيحتمل أنهما استجابا وانقادا, فتمت عليهما النعمة. ويحتمل أنهما, لم يزالا على شركهما, فقامت عليهما - بذلك - الحجة.

"يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ "

ثم إنه, عليه السلام, شرع يعبر رؤياهما, بعد ما وعدهما ذلك. فقال : "يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ " إلى " الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ". "يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا " وهو: الذي رأى أنه يعصر خمرا, فإنه يخرج من السجن 'فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا " أي: يسقى سيده, الذي كان يخدمه خمرا, وذلك مستلزم لخروجه من السجن 'وَأَمَّا الْآخَرُ " وهو: الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا, تأكل الطير منه . 'فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ", فإنه عبر عن الخبز, الذي تأكله الطير, بلحم رأسه وشحمه, وما فيه من المخ, وأنه لا يقبر ويستر عن الطيور, بل يصلب, ويجعل في محل, تتمكن الطيور من أكله. ثم أخبرهما بأن هذا التأويل, الذي تأوله لهما, أنه لا بد من وقوعه فقال : 'قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ " أي: تسألان عن تعبيره وتفسيره.

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ "
أي : "وَقَالَ " يوسف عليه السلام "لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا ", وهو: الذي رأى أنه يعصر خمرا: " اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ " أي: اذكر له شأني وقصتي, لعله يرق لي, فيخرجني مما أنا فيه . "فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ " أي: فأنسى الشيطان ذلك الناجي, ذكر الله تعالى, وذكر ما يقرب إليه, ومن جملة ذلك نسيانه, ذكر يوسف, الذي يستحق أن يجازى بأتم الإحسان, وذلك ليتم الله أمره وقضاءه . "فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ " والبضع: من الثلاث إلى التسع, ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين. ولما أراد الله أن يتم أمره, ويأذن لإخراج يوسف من السجن, قدر لذلك سببا لإخراج يوسف, وارتفاع شأنه, وإعلاء قدره, وهو رؤيا الملك.

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ "
لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن, أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة, التي تأويلها, يتناول جميع الأمة, ليكون تأويلها على يد يوسف, فيظهر من فضله, ويبين من علمه, ما يكون له رفعة في الدارين. ومن التقادير المناسبة, أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها, لارتباط مصالحها به. وذلك أنه رأى رؤيا, هالته, فجمع علماء قومه, وذوي الرأي منهم وقال: " إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ " أي: سبع من البقرات "عِجَافٌ ". وهذا من العجب, أن السبع العجاف الهزيلات, اللاتي سقطت قوتهن, يأكلن السبع السمان, التي كن نهاية في القوة, ورأيت "وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ " أي: يأكلهن سبع سنبلات أخر "يَابِسَاتٍ ". "يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ " لأن تعبير الجميع واحد, وتأويلهن شيء واحد. " إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ " فتحيروا, ولم يعرفوا لها وجها.

"قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ "
"قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ " أي أحلام لا حاصل لها, ولا لها تأويل. وهذا جزم منهم, بما لا يعلمون, وتعذر منهم, بما ليس بعذر. ثم قالوا : "وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ " أي لا نعبر إلا الرؤيا. وأما الأحلام, التي هي من الشيطان, أو من حديث النفس, فإنا لا نعبرها. فجمعوا بين الجهل والجزم, بأنها أضغات أحلام, والإعجاب بالنفس, بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها, وهذا من الأمور, التي لا تنبغي لأهل الدين والحجا. وهذا أيضا, من لطف الله, بيوسف عليه السلام. فإنه لو عبرها ابتداء - قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم, فيعجزوا عنها - لم يكن لها ذلك الموقع. ولكن لما عرضها عليهم, فعجزوا عن الجواب, وكان الملك مهتما لها, غاية الاهتمام, فعبرها يوسف - وقعت عندهم موقعا عظيما. وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة, بالعلم, بعد أن سألهم, فلم يعلموا. ثم سأل آدم, فعلمهم أسماء كل شيء, فحصل بذلك, زيادة فضله. وكما يظهر فضل, أفضل خلقه, محمد صلى الله عليه وسلم في القيامة, أن يلهم الله الخلق, أن يتشفعوا بآدم, ثم بنوح, ثم إبراهيم, ثم موسى, ثم عيسى عليهم السلام, فيعتذرون عنها. ثم يأتون محمدا صلى الله عليه وسلم فيقول " أنا لها أنا لها ", فيشفع في جميع الخلق, وينال ذلك المقام المحمود, الذي يغبطه به, الأولون والآخرون. فسبحان من خفيت ألطافه, ودقت في إيصاله البر والإحسان, إلى خواص أصفيائه, وأوليائه.

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِي "
"وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا " أي: من الفتيين, وهو: الذي رأى أنه يعصر خمرا, وهو الذي أوصاه يوسف, أن يذكره عند ربه "وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ " أي: وتذكر يوسف, وما جرى له في تعبيره لرؤياهما, وما وصاه به, وعلم أنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة, من السنين فقال: " أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِي " إلى يوسف لأسأله عنها.

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ "
فأرسلوه, فجاء إليه, ولم يعنفه يوسف على نسيانه, بل استمع ما يسأله عنه, وأجابه عن

ذلك فقال : "يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ " أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله." أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ " فإنهم متشوقون لتعبيرها, وقد أهمتهم.

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ " فعبر يوسف, السبع البقرات السمان, والسبع السنبلات الخضر, بأنهن سبع سنين مخصبات, والسبع البقرات العجاف, والسبع السنبلات اليابسات, بأنهن سنين مجدبات. ولعل وجه ذلك - والله أعلم - أن الخصب والجدب - لما كان الحرث مبنيا عليه, وأنه إذا حصل الخصب, قويت الزروع والحروث, وحسن منظرها, وكثرت غلالها, والجدب بالعكس من ذلك. وكانت البقر, هي التي تحرث عليها الأرض, وتسقى عليها الحروث في الغالب. والسنبلات, هي أعظم الأقوات وأفضلها, عبرها بذلك, وجود المناسبة. فجمع لهم في تأويلها, بين التعبير, والإشارة لما يفعلونه, ويستعدون به, من التدابير في سني الخصب, إلى سني الجدب فقال : "تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا " أي: متتابعات . "فَمَا حَصَدْتُمْ " من تلك الزروع "فَذَرُوهُ " أي: اتركوه "فِي سُنْبُلِهِ " لأنه أبقى له وأبعد من الالتفات إليه " إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ " أي: دبروا أكلكم في هذه السنين الخصبة, وليكن قليلا, ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه.

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ " "ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ " أي: بعد تلك السنين السبع الخصبات . "سَبْعٌ شِدَادٌ " أي: مجدبات "يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ " أي: يأكلن جميع ما ادخرتموه, ولو كان كثيرا. " إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ " أي: تمنعونه من التقديم لهن.

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ " "ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ " أي: السبع الشداد "عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ " أي: فيه تكثر الأمطار والسيول, وتكثر الغلات, وتزيد على أقواتهم, حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه, زيادة على أكلهم. ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب, مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك. لأنه فهم من التعبير, بالسبع الشداد, أن العام الذي يليها, تزول به شدتها. ومن المعلوم, أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنين متواليات, إلا بعام مخصب جدا, وإلا لما كان للتقدير فائدة. فلما رجع الرسول إلى الملك والناس, وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا, عجبوا من ذلك, وفرحوا بها أشد الفرح.

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ " يقول تعالى : "وَقَالَ الْمَلِكُ " لمن عنده " ائْتُونِي بِهِ " أي: بيوسف عليه السلام, بأن يخرجوه من السجن, ويحضروه إليه . "فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ " وأمره بالحضور عند الملك, امتنع عن المبادرة إلى الخروج, حتى تتبين براءته التامة, وهذا من صبره, وعقله ورأيه التام. وحينئذ "قَالَ " للرسول: " ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ " يعني به الملك . "فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ " أي: اسأله, ما شأنهن وقصتهن, فإن أمرهن ظاهر متضح " إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ".

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ " فأحضرهن الملك, وقال : "مَا خَطْبُكُنَّ " أي: شأنكن " إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ " فهل رأيتن منه ما يريب؟. فبرأنه و "قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ " أي لا قليل ولا كثير. فحينئذ زال السبب, الذي تبني عليه التهمة, ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز . "قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ " أي: تمحص وتبين, بعد ما كنا ندخل عليه من السوء والتهمة, ما أوجب له السجن. " أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ " في أقواله وبراءته.

ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ "

"ذَلِكَ " الإقرار, الذي أقررت, أني راودت يوسف "لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ". يحتمل أن مرادها بذلك, زوجها أي: ليعلم أني حين أقررت, أني راودت يوسف, أني لم أخنه بالغيب, أي: لم يجر مني إلا مجرد المراودة, ولم أفسد عليه فراشه. ويحتمل أن المراد بذلك, ليعلم يوسف حين أقررت أني, أنا الذي راودته, وأنه صادق, أني لم أخنه في حال غيبته, عني . 'وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ " فإن كل خائن لا بد أن تعود خيانته ومكره على نفسه, ولا بد أن يتبين أمره.

"وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ " ثم لما كان في هذا الكلام, نوع تزكية لنفسها, وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف, استدركت فقالت : 'وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي " أي: من المراودة والهم, والحرص الشديد, والكيد في ذلك. " إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ " أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء, أي: الفاحشة, وسائرالذنوب, فإنها مركب الشيطان, ومنها يدخل على الإنسان " إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي " فنجاه من نفسه الأمارة, حتى صارت نفسه, مطمئنة إلى ربها, منقادة لداعي الهدى, متعاصية عن داعي الردى, فذلك ليس من النفس, بل من فضل الله ورحمته بعبده. " إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ " أي: هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي, إذا تاب وأناب . 'رَحِيمٌ " بقبول توبته, وتوفيقه للأعمال الصالحة. وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف. فإن السياق في كلامها, ويوسف إذ ذاك في السجن, لم يحضر.

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ " فلما تحقق الملك والناس, براءة يوسف التامة, أرسل إليه الملك وقال: " ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي " أي: أجعله من خلصائي, ومقربا لدي فأتوه به مكرما محترما . 'فَلَمَّا كَلَّمَهُ " أعجبه كلامه, وزاد موقعه عنده فقال له: " إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا " أي: عندنا 'مَكِينٌ أَمِينٌ " أي: متمكن, أمين على الأسرار.

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ "
'قَالَ " يوسف طلبا للمصلحة العامة: " اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ " أي: على خزائن جبايات الأرض وغلالها, وكيلا, حافظا, مدبرا. " إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ " أي: حفيظ للذي أتولاه, فلا يضيع منه شيء في غير محله, وضابط للداخل والخارج, عليم بكيفية التدبير, والإعطاء, والمنع, والتصرف في جميع أنواع التصرفات. وليس ذلك حرصا من يوسف على الولاية, وإنما هو رغبة منه, في النفع العام. وقد عرف من نفسه من الكفاية, والأمانة, والحفظ, ما لم يكونوا يعرفونه. فلذلك طلب من الملك, أن يجعله على خزائن الأرض فجعله الملك على خزائن الأرض, وولاه إياها.

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ "
قال تعالى : 'وَكَذَلِكَ " أي بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة . 'مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ " في عيش رغد, ونعمة واسعة, وجاه عريض . "نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ " أي: هذا عن رحمة الله بيوسف, التي أصابه بها, وقدرها له, وليست مقصورة على نعمة الدنيا . 'وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ " ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين فله في الدنيا حسنة, وفي الآخرة حسنة, ولهذا قال:

وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ "
'وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ " من أجر الدنيا "لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ " أي: لمن جمع بين التقوى والإيمان. فبالتقوى, تترك الأمور المحرمة, من كبائر الذنوب وصغائرها. وبالإيمان التام, يحصل تصديق القلب, بما أمر الله بالتصديق به, وتتبعه أعمال القلوب, وأعمال الجوارح, من الواجبات والمستحبات.

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ "
أي: لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض, دبرها أحسن تدبير. فزرع في أرض مصر جميعها, في السنين الخصبة, زروعا هائلة, واتخذ لها المحلات الكبار, وجبا من الأطعمة,

شيئا كثيرا, وحفظه, وضبطه ضبطا تاما. فلما دخلت السنون المجدبة, وسرى الجدب, حتى وصل إلى فلسطين, التي يقيم فيها يعقوب وبنوه. فأرسل يعقوب بنيه, لأجل الميرة إلى مصر . "وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ " أي: لم يعرفوه.

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ "
"وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ " أي: كال لهم كما كان يكيل لغيرهم. وكان من تدبيره الحسن, أنه لا يكيل لكل واحد, أكثر من حمل بعير. وكان قد سألهم عن حالهم, فأخبروه أن لهم أخا عند أبيه, وهو بنيامين . "قَالَ " لهم: " ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ " ثم رغبهم في الإتيان به فقال: " أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ " في الضيافة والإكرام.

فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ "
ثم رهبهم بعدم الإتيان به, فقال : "فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ". وذلك, لعلمه باضطرارهم, إلى الإتيان إليه, وأن ذلك يحملهم على الإتيان به.

قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ "
"قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ " دل هذا على أن يعقوب عليه السلام, كان مولعا به لا يصبر عنه, وكان يتسلى به بعد يوسف, فلذلك احتاج إلى مراودة في بعثه معهم "وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ " لما أمرتنا به.

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ "
"وَقَالَ " يوسف "لِفِتْيَانِهِ " الذين في خدمته: " اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ " أي: الثمن الذي اشتروا به من الميرة . "فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا " أي: بضاعتهم إذا رأوها بعد ذلك, في رحالهم . "لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " لا لأجل التحرج من أخذها على ما قيل. والظاهر, أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم, بالكيل لهم كيلا وافيا ثم إعادة بضاعتهم إليهم, على وجه لا يحسون بها, ولا يشعرون لما يأتي, فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن.

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ "
"فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ " أي: إن لم ترسل معنا أخانا . "فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ " أي: ليكون ذلك سببا لكيلنا. ثم التزموا له بحفظه فقالوا : "وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " من أن يعرض له ما يكره.

"قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ "
"قَالَ " لهم يعقوب عليه السلام : "هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ". أي: تقدم منكم التزام, أكثر من هذا, في حفظ يوسف, ومع هذا فلم تفوا بما عقدتم من التأكيد, فلا أثق بالتزامكم وحفظكم, وإنما أثق بالله تعالى . "فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ " أي: يعلم حالي, وأرجو أن يرحمني, فيحفظه ويرده علي, وكأنه في هذا الكلام, قد لان لإرساله معهم.

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ "
ثم إنهم "وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ". هذا دليل, على أنه قد كان معلوما عندهم, أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد, وأنه أراد أن يملكهم إياها . "قَالُوا " لأبيهم - ترغيبا في إرسال أخيهم معهم -: "يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي " أي: أي شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل, حيث وفى لنا الكيل, ورد علينا بضاعتنا, على الوجه الحسن, المتضمن للإخلاص, ومكارم الأخلاق؟ "هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا " أي: إذا ذهبنا بأخينا, صار سببا لكيله لنا, فنمير أهلنا, ونأتي لهم, بما هم مضطرون إليه من القوت . "وَنَحْفَظُ أَخَانَا

وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ " بإرساله معنا, فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير . 'ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ " أي: سهل لا ينالك منه ضرر, لأن المدة لا تطول, والمصلحة قد تبينت.

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ "
'قَالَ " لهم يعقوب : "لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ " أي: عهدا ثقيلا,, وتحلفون بالله "لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ " أي: إلا أن يأتي أمر لا قبل لكم به, ولا تقدرون دفعه . 'فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ " على ما قال وأراد 'قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ " أي تكفينا شهادته علينا, وحفظه وكفالته.

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ "
ثم لما أرسله معهم, وصاهم, إذا هم قدموا مصر, أن " لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ " وذلك لأنه خاف عليهم العين, لكثرتهم وبهاء منظرهم, لكونهم أبناء رجل واحد, وهذا سبب. وإلا 'وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ " فالمقدر لا بد أن يكون. " إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ " أي القضاء, قضاؤه, والأمر أمره. فما قضاه وحكم به لا بد أن يقع . 'عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ " أي: اعتمدت على الله لا على ما وصيتكم به من السبب . 'وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ " فإن بالتوكل, يحصل كل مطلوب, ويندفع كل مرهوب.

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ "
'وَلَمَّا " ذهبوا و 'دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ " ذلك الفعل "يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا " وهو موجب الشفقة, والمحبة للأولاد, فحصل له في ذلك, نوع طمأنينة, وقضاء لما في خاطره. وليس هذا قصورا في علمه, فإنه من الرسل الكرام, والعلماء الربانيين. ولهذا قال عنه : 'وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ " أي: لصاحب علم عظيم "لِمَا عَلَّمْنَاهُ " أي: لتعليمنا إياه لا بحوله وقوته أدركه, بل بفضل الله وتعليمه. 'وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " عواقب الأمور, ودقائق الأشياء وكذلك أهل العلم منهم, يخفى عليهم من العلم وأحكامه, ولوازمه شيء كثير.

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "
أي: لما دخل إخوة يوسف على يوسف " آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ " أي: شقيقه وهو " بنيامين " الذي أمرهم بالإتيان به, وضمه إليه, واختصه من بين إخوته, وأخبره بحقيقة الحال . 'قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ " أي لا تحزن "بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " فإن العاقبة خير لنا. ثم أخبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر.

"فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ "
'فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ " أي: كال لكل واحد من إخوته, ومن جملتهم أخوه هذا . 'جَعَلَ السِّقَايَةَ " وهو: الإناء الذي يشرب به, ويكال فيه 'فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ " أوعوا متاعهم. فلما انطلقوا ذاهبين, " أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ". ولعل هذا المؤذن, لم يعلم بحقيقة الحال.

قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ "
'قَالُوا " أي: إخوة يوسف 'وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ " لإبعاد التهمة. فإن السارق, ليس له هم إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه, لتسلم له سرقته. وهؤلاء, جاءوا مقبلين إليهم, ليس لهم هم إلا إزالة التهمة, التي رموا بها عنهم. فقالوا في هذه الحال : 'مَاذَا تَفْقِدُونَ " ولم يقولوا " ما الذي سرقنا " لجزمهم بأنهم براء من السرقة.

قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ "
'قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ " أي: أجرة له, على وجدانه 'وَأَنَا بِهِ

زَعِيمٌ " أي: كفيل, وهذا يقوله المتفقد.

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ "
'قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ " بجميع أنواع المعاصي . 'وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ " فإن السرقة, من أكبر أنواع الفساد في الأرض. وإنما أقسموا على علمهم, أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين, لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم, وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم, وهذا أبلغ في نفي التهمة, من أن لو قالوا: " تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق ".

قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ "
'قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ " أي: جزاء هذا الفعل " إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ " بأن كان معكم؟

قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ "
'قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ " أي الموجود في رحله 'جَزَاؤُهُ " بأن يتملكه صاحب السرقة. وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة, كان ملكا لصاحب لمال المسروق, ولهذا قالوا : "كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ".

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ "
'فَبَدَأَ " المفتش "بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ " وذلك لتزول الريبة التي يظن أنها فعلت بالقصد . "ثُمَّ " لما لم يجد في أوعيتهم شيئا " اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ " ولم يقل " وجدها, أو سرقها أخوه " مراعاة للحقيقة الواقعة. فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده, على وجه لا يشعر به إخوته. قال تعالى : "كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ " أي: يسرنا له هذا الكيد, الذي توصل به إلى أمر غير مذموم 'مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ " لأنه ليس من دينه أن يتملك السارق, وإنما له عندهم, جزاء آخر. فلو ردت الحكومة إلى دين الملك, لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده. ولكنه جعل الحكم منهم, ليتم له ما أراد. قال تعالى "نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ " بالعلم النافع, ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها, كما رفعنا درجات يوسف . 'وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ " فكل عالم, فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ "
فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا 'قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ " هذا الأخ, فليس هذا غريبا عنه . 'فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ " يعنون: يوسف عليه السلام. ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأن هذا وأخاه, وقد يصدر منهم ما يصدر من السرقة, وهما ليسا شقيقين لنا. وفي هذا من الغض عليهما, ما فيه, ولهذا: أسرها يوسف في نفسه 'وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ " أي لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون, بل كظم الغيظ, وأسر الأمر في نفسه. و 'قَالَ " في نفسه " أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا " حيث ذممتمونا بما أنتم على أشر منه . 'وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ " منا, من وصفنا بالسرقة, يعلم الله أنا براء منها. ثم سلكوا معه, مسلك التملق, لعله يسمح لهم بأخيهم.

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ "
'قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا " أي: وإنه لا يصبر عنه, وسيشق عليه فراقه. " فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ " فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك.

"قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ "
'قَالَ " يوسف 'مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ " أي: هذا ظلم منا, لو أخذنا البريء, بذنب من وجدنا متاعنا عنده, ولم يقل " من سرق " كل هذا تحرز من الكذب. " إِنَّا إِذًا " أي: إن أخذنا غير من وجد في رحله "لَظَالِمُونَ " حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها.

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ "
أي: فلما استيأس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم "خَلَصُوا نَجِيًّا " أي: إجتمعوا وحدهم, ليس معهم غيرهم وجعلوا يتناجون فيما بينهم . "قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ " في حفظه, وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم " وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ". فاجتمع عليكم الأمران, تفريطكم السابق في يوسف, وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق, فليس لي وجه أواجهه به أبي . "فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ " أي: سأقيم في هذه الأرض, ولا أزال بها "حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي " أي: يقدر لي المجيء, أو مع أخي "وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ".

"ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ "
ثم وصاهم بما يقولون لأبيهم فقال: " ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ " أي: وأخذ بسرقته, ولم يحصل لنا أن نأتيك به, مع ما بذلنا من الجهد في ذلك. والحال, أنا ما شهدنا بشيء لم نعلمه, وإنما شهدنا بما علمنا, لأننا رأينا الصواع, استخرج من رحله. " وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ " أي: لو كنا نعلم الغيب, لما حرصنا, وبذلنا المجهود في ذهابه معنا, ولما أعطيناك عهودنا ومواثيقنا, فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ.

وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ "
"وَاسْأَلِ " إن شككت في قولنا " الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا " فقد اطلعوا على ما أخبرناك به "وَإِنَّا لَصَادِقُونَ " لم نكذب, ولم نغير, ولم نبدل, بل هذا الواقع.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ "
فلما رجعوا إلى أبيهم, وأخبروه بهذا الخبر, اشتد حزنه, وتضاعف كمده, واتهمهم أيضا في هذه القضية, كما اتهمهم في الأولى. و "قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ " أي: ألجأ في ذلك, إلى الصبر الجميل, الذي لا يصحبه تسخط, ولا جزع, ولا شكوى للخلق. ثم لجأ إلى حصول الفرج, لما رأى أن الأمر اشتد, والكربة انتهت فقال : "عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا " أي: يوسف و " بنيامين ", وأخوهم الكبير, الذي أقام في مصر. " إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ " الذي يعلم حالي, واحتياجي إلى تفريجه ومنته, واضطراري إلى إحسانه. " الْحَكِيمُ " الذي جعل لكل شيء قدرا, ولكل أمر منتهى, بحسب ما اقتضته حكمته الربانية.

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ "
أي: وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده, بعد ما أخبروه هذا الخبر, واشتد به الأسف والأسى, وابيضت عيناه من الحزن, الذي في قلبه, والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء, حيث ابيضت عيناه من ذلك . "فَهُوَ كَظِيمٌ " أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد. " وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ " أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم, والشوق المقيم, وذكرته هذه المصيبة الخفيفة, بالنسبة للأولى, المصيبة الأولى,

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ "
فقال له أولاده - متعجبين من حاله -: "تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ " أي لا تزال تذكر يوسف في جميع أحوالك . "حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا " أي: فانيا لا حراك فيك, ولا قدرة على الكلام. " أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ " أي لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبدا.

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ "
"قَالَ " يعقوب " إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي " أي: ما أبت من الكلام "وَحُزْنِي " الذي في قلبي " إِلَى اللَّهِ " وحده لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق فقولوا ما شئتم "وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " من أنه سيردهم علي ويقر عيني بالاجتماع بهم.

"يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ "
أي: قال يعقوب عليه السلام لبنيه "يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ". أي: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما "وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ". فإن الرجاء, يوجب للعبد, السعي والاجتهاد, فيما رجاه, والإياس: يوجب له التثاقل والتباطؤ. وأولى ما رجا العباد, فضل الله وإحسانه, ورحمته, وروحه. " إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ". فإنهم - لكفرهم - يستبعدون رحمته, ورحمته بعيدة منهم, فلا تتشبهوا بالكافرين. ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد, يكون رجاؤه رحمة الله وروحه.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ "
فذهبوا "فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ " أي: على يوسف "قَالُوا " متضرعين إليه : "يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا " أي: قد اضطررنا نحن وأهلنا "وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ " أي: مدفوعة مرغوب عنها, لقلتها, وعدم وقوعها الموقع. " فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ " أي: مع عدم وفاء العرض, وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب. " إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ " بثواب الدنيا والآخرة.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ "
فلما انتهى الأمر, وبلغ أشده, رق لهم يوسف رقة شديدة, وعرفهم بنفسه, وعاتبهم فقال: "هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ " أما يوسف فظاهر فعلهم فيه. وأما أخوه, فلعله - والله أعلم - قولهم: " إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ". أو أن الحادث الذي فرق بينه وبين أبيه, هم السبب فيه, والأصل الموجب له. " إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ " وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم, أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين, مع أنه لا ينبغي, ولا يليق منهم.

قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ "
فعرفوا أن الذي خاطبهم, هو يوسف فقالوا: " أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا " بالإيمان والتقوى, والتمكين في الدنيا, وذلك بسبب الصبر والتقوى. " إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ " أي: يتقي فعل ما حرم الله, ويصبر على الآلام والمصائب, وعلى الأوامر, بامتثالها "فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ " فإن هذا, من الإحسان, والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ "
"قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا " أي: فضلك علينا, بمكارم الأخلاق, ومحاسن الشيم, وأسأنا إليك غاية الإساءة, وحرصنا على إيصال الأذى إليك, والتبعيد لك عن أبيك, فآثرك الله تعالى, ومكنك مما تريده "وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ".

قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ "
"قَالَ " لهم يوسف عليه السلام, كرما وجودا: " لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ " أي لا أثرب عليكم ولا ألومكم "يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ". فسمح لهم سماحا تاما, من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق, ودعا لهم بالمغفرة والرحمة, وهذا نهاية الإحسان, الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق, وخيار المصطفين.

"اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ "
أي: قال يوسف عليه السلام لإخوته: " اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا " لأن كل داء يداوى بضده. فهذا القميص - لما كان فيه أثر ريح يوسف, الذي أودع قلب أبيه من الحزن, والشوق, ما الله به عليم - أراد أن يشمه, فترجع إليه روحه, وتتراجع إليه نفسه, ويرجع إليه بصره. ولله في ذلك حكم وأسرار لا يطلع عليها العباد, وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر . "وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ " أي: أولادكم وعشيرتكم,

وتوابعكم كلهم, ليحصل تمام اللقاء, ويزول عنكم نكد المعيشة, وضنك الرزق.

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ "
"وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ " عن أرض مصر, مقبلة إلى أرض فلسطين, شم يعقوب ريح القميص فقال: " إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ " أي: تسخرون مني, وتزعمون أن هذا الكلام, صدر مني, من غير شعور, لأنه رأى منهم من التعجب من حاله, ما أوجب له هذا القول.

قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ "
فوقع ما ظنه بهم فقالوا : "تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ " أي لا تزال تائها في بحر لجي لا تدري ما تقول.

"فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ "
"فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ " بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم. " أَلْقَاهُ " أي: القميص " عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا " أي: رجع إلى حاله الأولى بصيرا, بعد أن ابيضت عيناه من الحزن. فقال لمن حضره من أولاده وأهله, الذي كانوا يفندون رأيه, ويتعجبون منه منتصرا عليهم, مغتبطا بنعمة الله عليه: " أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " حيث كنت مترجيا للقاء يوسف, مترقبا لزوال الهم والغم والحزن.

قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ "
فأقروا بذنبهم و "قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ " حيث فعلنا معك ما فعلنا.

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ "
"قَالَ " مجيبا لطلبتهم, ومسرعا لإجابتهم :"سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ " ورجائي به, أن يغفر لكم, ويرحمكم, ويتغمدكم برحمته. وقد قيل: إنه أخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل, ليكون أتم للاستغفار, وأقرب للإجابة.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ "
أي : "فَلَمَّا " تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون, وارتحلوا من بلادهم, قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكناها. فلما وصلوا إليه, و "دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ " أي: ضمهما إليه, واختصهما بقربه, وأبدى لهما من البر والإحسان, والتبجيل والإعظام شيئا عظيما . "وَقَالَ " لجميع أهله: " ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ " من جميع المكاره والمخاوف. فدخلوا في هذه الحال السارة, وزال عنهم النصب ونكد المعيشة, وحصل السرور والبهجة.

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ "
"وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ " أي: على سرير الملك, ومجلس العز . "وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا " أي: أبوه, وأمه, وإخوته, سجودا على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام . "وَقَالَ " لما رأى هذه الحال, ورأى سجودهم له : "يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ " حين رأي أحد عشر كوكبا, والشمس والقمر له ساجدين. فهذا وقوعها, الذي آلت إليه ووصلت "قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا " فلم يجعلها أضغاث أحلام . "وَقَدْ أَحْسَنَ بِي " إحسانا جسيما " إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ". وهذا من لطفه, وحسن خطابه, عليه السلام, حيث ذكر حاله في السجن, ولم يذكر حاله في الجب, لتمام عفوه عن إخوته, وأنه لا يذكر ذلك الذنب, وأن إتيانكم من البادية, من إحسان الله. فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب. ولا قال: " أحسن بكم " بل قال " أَحْسَنَ بِي ". جعل الإحسان, عائدا إليه. فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده, ويهب لهم من لدنه رحمة, إنه هو الوهاب . "مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي " فلم يقل " نزغ الشيطان إخوتي " بل كأن الذنب والجهل, صدر من

الطرفين. فالحمد لله, الذي أخزى الشيطان ودحره, وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة. " إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ " يوصل بره وإحسانه إلى العبد, من حيث لا يشعر, ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها. " إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ " الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها, وسرائر العباد وضمائرهم. " الْحَكِيمُ " في وضعه الأشياء مواضعها, وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها.

" رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ "
لما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين في الأرض والملك وأقر عينه بأبويه وإخوته وبعد العلم العظيم الذي أعطاه الله إياه فقال مقرا بنعمة الله شاكرا لها داعيا بالثبات على الإسلام " رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ " وذلك أنه كان على خزائن الأرض وتدبيرها ووزيرا كبيرا للملك " وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ " أي من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم " فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا " أي أدم علي الإسلام وثبتني عليه حتى تتوفاني عليه, ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت , " وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ " من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.

" ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ "
لما قص الله هذه القصة على محمد صلى الله عليه وسلم قال الله له : "ذَلِكَ " النبأ الذي أخبرناك به "مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ " ولولا إيحاؤنا إليك, لما وصل إليك هذا الخبر الجليل. وأنك "وَمَا كُنْتَ " حاضرا "لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ " ي: إخوة يوسف "وَهُمْ يَمْكُرُونَ " به, حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه, في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى, ولا يمكن أحدا أن يصل إلى علمها, إلا بتعليم الله له إياها. كما قال تعالى لما قص قصة موسى, وما جرى له, ذكر الحال التي لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحيه فقال: " وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر, وما كنت من الشاهدين " الآيات, فهذا أدل دليل, على أن ما جاء بها رسول الله حق وصدق.

" وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ "
يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم "وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ " على إيمانهم "بِمُؤْمِنِينَ " فإن مداركهم ومقاصدهم, قد أصبحت فاسدة, فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم, ولو عدمت الموانع, بأنهم كانوا يعلمونهم, ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم, ودفع الشر عنهم, من غير أجر ولا عوض, ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم, ما أقاموا.

"وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ "
ولهذا قال : "وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ " يتذكرون به ما ينفعهم, ليفعلوه, وما يضرهم ليتركوه.

" وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ "
"وَكَأَيِّنْ " أي: وكم "مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا " دالة لهم على توحيد الله "وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ".

" وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ "
ومع هذا وإن وجد منهم بعض الإيمان "وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ". فهم وإن أقروا بربوبية الله تعالى, وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور, فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده. فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال, لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب, ويفاجئهم العقاب وهم آمنون, ولهذا قال:

"أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ "
" أَفَأَمِنُوا " أي: الفاعلون لتلك الأفعال, المعرضون عن آيات الله " أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ " أي: عذاب, يغشاهم ويعمهم, ويستأصلهم. " أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً " أي:

فجأة "وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ " أي: فإنهم قد استوجبوا ذلك, فليتوبوا إلى الله وليتركوا, ما يكون سببا في عقابهم.

"قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ "
يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : "قُلْ " للناس "هَذِهِ سَبِيلِي " أي: طريقي, التي أدعوا إليها, وهي السبيل الموصلة إلى الله, وإلى دار كرامته, المتضمنة للعلم بالحق, والعمل به, وإيثاره وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له. " أَدْعُو إِلَى اللَّهِ " أي: أحث الخلق والعباد, على الوصول إلى ربهم, وأرغبهم في ذلك, وأرهبهم مما يبعدهم عنه. ومع هذا فأنا "عَلَى بَصِيرَةٍ " من ديني, أي: على علم ويقين, من غير شك ولا امتراء, ولا مرية. " أَنَا " كذلك "وَمَنِ اتَّبَعَنِي " يدعو إلى الله, كما أدعو, على بصيرة من أمره. " وَسُبْحَانَ اللَّهِ " عما ينسب إليه, مما لا يليق بجلاله, أو ينافي كماله . "وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " في جميع أموري, بل أعبد الله, مخلصا له الدين.

"وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ "
ثم قال تعالى "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا " أي: لم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق. فلأي شيء يستغرب قومك رسالتك, ويزعمون أنه ليس عليهم فضل. فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة "نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى " أي لا من البادية, بل من أهل القرى, الذين هم أكمل عقولا, وأصح آراء, وليتبين أمرهم, ويتضح شأنهم. " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ " إذا لم يصدقوا لقولك . "فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ " كيف أهلكهم الله بتكذيبهم. فاحذروا, أن تقيموا على ما قاموا عليه, فيصيبكم ما أصابهم . "وَلَدَارُ الْآخِرَةِ " أي: الجنة وما فيها, من النعيم المقيم . "خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا " الله, في امتثال أوامره, واجتناب نواهيه. فإن نعيم الدنيا, منغص منكد, منقطع. ونعيم الآخرة, تام كامل لا يفنى أبدا, بل هو على الدوام, في تزايد وتواصل, " عطاء غير مجذوذ " " أَفَلَا تَعْقِلُونَ " أي: أفلا تكون لكم عقول, تؤثر الذي هو خير, على الأدنى.

"حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ "
يخبر تعالى: أنه يرسل الرسل الكرام, فيكذبهم القوم المجرمون اللئام. وأن الله تعالى يمهلهم, ليرجعوا إلى الحق. ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل. حتى إن الرسل - على كمال يقينهم, وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده - ربما أنه يخطر بقلوبهم, نوع من الإياس, ونوع من ضعف العلم والتصديق. فإذا بلغ الأمر هذه الحال "جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ " وهم الرسل وأتباعهم . "وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ " أي: ولا يرد عذابنا, عمن اجترم, وتجرأ على الله " فما لهم من قوة ولا ناصر ".

"لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ "
"لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ " أي قصص الأنبياء والرسل مع قومهم . "عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ " أي: يعتبرون بها, أهل الخير, وأهل الشر. وأن من فعل مثل فعلهم, ناله ما نالهم, من كرامة, أو إهانة. ويعتبرون بها أيضا, ما لله, من صفات الكمال والحكمة العظيمة, وأنه الله, الذي لا تنبغي العبادة إلا له, وحده لا شريك له. وقوله "مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى " أي: ما كان هذا القرآن, الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص, من الأحاديث المفتراة المختلقة . "وَلَكِنْ " كان تصديق " الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ " من الكتب السابقة, يوافقها, ويشهد لها بالصحة . "وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ " يحتاج إليه العباد, من أصول الدين وفروعه, ومن الأدلة والبراهين . "وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " فإنهم - بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره - يحصل لهم الهدى, وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل, تحصل لهم الرحمة. ** فصل في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التي قال الله في أولها "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ " وقال "لَقَدْ كَانَ فِي

يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ " وقال في آخرها "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ " غير ما تقدم مطاويها من الفوائد. فمن ذلك, أن هذه القصة, من أحسن القصص وأوضحها, وأبينها, لما فيها من أنواع التنقلات, من حال إلى حال, ومن محنة إلى محنة, ومن محنة إلى منحة ومنة, ومن ذل إلى عز ومن رق إلى ملك, ومن فرقة وشتات, إلى اجتماع وائتلاف, ومن حزن إلى سرور, ومن رخاء إلى جدب, ومن جدب إلى رخاء, ومن ضيق إلى سعة, ومن إنكار إلى قرار. فتبارك من قصها, فأحسنها, ووضحها وبينها. ومنها: أن فيها أصلا لتعبير الرؤيا, فإن علم التعبير, من العلوم المهمة, التي يعطيها الله من يشاء من عباده, وإن أغلب ما تبنى عليه, المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة. فإن رؤيا يوسف, التي رأى فيها الشمس والقمر, وأحد عشر كوكبا له ساجدين, وجه المناسبة فيها: أن هذه الأنوار, هي زينة السماء وجمالها, وبها منافعها. فكذلك الأنبياء والعلماء, زينة للأرض وجمال, وبهم يهتدى في الظلمات, كما يهدي بهذه الأنوار, ولأن الأصل أبوه وأمه, وإخوته هم الفرع. فمن المناسب أن يكون الأصل, أعظم نورا, وجرما, لما هو فرع عنه. فلذلك كانت الشمس أمه, والقمر أباه, والكواكب إخوته. ومن المناسبة أن الشمس, لفظ مؤنث, فلذلك كانت أمه, والقمر والكوا كب, مذكرات, فكانت لأبيه وإخوته. ومن المناسبة, أن الساجد معظم محترم للمسجود له, والمسجود, معظم محترم. فلذلك, دل ذلك, على أن يوسف يكون معظما محترما, عند أبويه وإخوته. وممن لازم ذلك, أن يكون مجتبى مفضلا, في العلم والفضائل, الموجبة لذلك. ولذلك قال أبوه: " وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ". ومن المناسبة في رؤيا الفتيين, أن الرؤيا الأولى, التي رأى صاحبها, أنه يعصر خمرا, أن الذي يعصر خمرا في العادة, يكون خادما لغيره, والعصر يقصد لغيره. فلذلك أوله بما يئول إليه, أنه يسقي ربه, وذلك متضمن لخروجه من السجن. وأول رؤيا الآخر, أي: أنه يحمل فوق رأسه خبزا, تأكل الطير منه, بأن جلدة رأسه ولحمه, وما في ذلك من المخ, أنه هو الذي يحمل, وأنه سيبرز للطيور, بمحل تتمكن من الأكل من رأسه. فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه. وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل. وأول رؤيا الملك, للبقرات والسنبلات, بالسنين المخصبة, والسنين المجدبة. ووجه المناسبة, أن الملك, به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها, وبصلاحه تصلح, وبفساده تفسد. وكذلك السنون, بها صلاح أحوال الرعية, واستقامة أمر المعاش, أو عدمه. وأما البقر, فإنها تحرث الأرض عليها, ويستقى عليها الماء. وإذا أخصبت السنة, سمنت, وإذا أجدبت, صارت عجافا. وكذلك السنابل في الخصب, تكثر وتخضر, وفي الجدب, تقل وتيبس وهي أفضل غلال الأرض. ومنها: ما فيها من الأدلة, على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم, حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة, وهو لم يقرأ كتب الأولين, ولا دارس أحدا. يراه قومه, بين أظهرهم, صباحا ومساء, وهو أمي لا يخط ولا يقرأ. وهي موافقة, لما في الكتب السابقة, وما كان لديهم, إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون. ومنها: أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر, وكتمان ما تخشى مضرته, لقول يعقوب ليوسف " لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ". ومنها أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله : 'فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ". ومنها: أن نعمة الله على العبد, نعمة على من يتعلق به, من أهل بيته, وأقاربه, وأصحابه, وأنه ربما شملهم, وحصل لهم ما حصل له بسببه, كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف 'وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ". ولما تمت النعمة على يوسف, حصل لآل يعقوب, من العز والتمكين في الأرض, والسرور والغبطة, ما حصل بسبب يوسف. ومنها: أن العدل مطلوب في كل الأمور لا في معاملة السلطان رعيته فقط, ولا فيما دونه, بل حتى في معاملة الوالد لأولاده, في المحبة والإيثار, وغيره, وأن في الإخلال بذلك, يختل عليه الأمر, وتفسد الأحوال. ولهذا, لما قدم يعقوب يوسف في المحبة, وآثره على إخوته, جرى منهم ما جرى على أنفسهم, وعلى أبيهم وأخيهم. ومنها: الحذر من شؤم الذنوب, وأن الذنب الواحد, يستتبع ذنوبا متعددة, ولا يتم لفاعله, إلا بعد جرائم. فإخوة يوسف, لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه, احتالوا لذلك بأنواع من الحيل, وكذبوا عدة مرات, وزوروا على أبيهم في القميص والدم, الذي فيه, وفي إتيانهم عشاء يبكون, ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها, في تلك المدة, بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف. وكلما صار البحث, حصل من الإخبار بالكذب, والافتراء, ما حصل. وهذا شؤم الذنب, وآثاره التابعة, والسابقة, واللاحقة. ومنها: أن العبرة في حال العبد, بكمال النهاية لا بنقص البداية. فإن أولاد يعقوب, عليه

السلام, جرى منهم ما جرى, في أول الأمر, مما هو أكبر أسباب النقص واللوم, ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح, والسماح التام, من يوسف, ومن أبيهم, والدعاء بالمغفرة والرحمة. وإذا سمح العبد عن حقه, فالله خير الراحمين. ولهذا - في أصح الأقوال - أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى "وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ". والأسباط هم: أولاد يعقوب الاثنا عشر, وذريتهم. ومما يدل على ذلك, أن في رؤيا يوسف, أنه رآهم كواكب نيرة, والكواكب فيها النور والهداية, وذلك من صفات الأنبياء, فإن لم يكونوا أنبياء, فإنهم علماء هداة. ومنها: ما من الله به على يوسف, عليه الصلاة والسلام, من العلم, والحلم, ومكارم الأخلاق, والدعوة إلى الله, وإلى دينه, وعفوه عن إخوته الخاطئين, عفوا بادرهم به, وتم ذلك بأن لا يثرب عليهم, ولا يعيرهم به. ثم بره العظيم بأبويه, وإحسانه لإخوته, بل لعموم الخلق. ومنها: أن بعض الشر, أهون من بعض, وارتكاب أخف الضررين, أولى من ارتكاب أعظمهما. فإن إخوة يوسف, لما اتفقوا على قتل يوسف, أو إلقائه أرضا وقال فائل منهم: " لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ " كان قوله أحسن منهم وأخف, وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير. ومنها: أن الشيء إذا تداولته الأيدي, وصار من جملة الأموال, ولم يعلم أنه كان على غير الشرع, أنه لا إثم على من باشره, ببيع, أو شراء, أو خدمة, أو انتفاع, أو استعمال. فإن يوسف عليه السلام, باعه إخوته بيعا حراما لا يجوز. ثم ذهبت به السيارة إلى مصر, فباعوه بها, وبقي عند سيده غلاما رقيقا, وسماه الله سيدا, وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم. ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء, اللائي يخشى منهن الفتنة, والحذر أيضا من المحبة, التي يخشى ضررها. فإن امرأة العزيز, جرى منها ما جرى, بسبب انفرادها بيوسف, وحبها الشديد له, الذي ما تركها, حتى راودته تلك المراودة, ثم كذبت عليه, فسجن - بسببها - مدة طويلة. ومنها: أن الهم الذي, هم به يوسف بالمرأة, ثم تركه لله, مما يرقيه إلى الله زلفى, لأن الهم داع من دواعي النفس, الأمارة بالسوء, وهو طبيعة لأغلب الخلق. فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته, غلبت محبة الله وخشيته, داعي النفس والهوى. فكان ممن " خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ". ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه, يوم لا ظل إلا ظله, أحدهم رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال, فقال: إني أخاف الله. وإنما الهم الذي يلام عليه العبد, الهم الذي يساكنه, ويصير عزما, ربما اقترن به الفعل. ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه, وكان مخلصا لله, في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه, وصدق إخلاصه, من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي, ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله . "وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ " على قراءة من قرأها بكسر اللام. ومن قرأها بالفتح, فإنه من إخلاص الله إياه, وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه. فلما أخلص عمله لله, أخلصه الله, وخلصه من السوء والفحشاء. ومنها: أنه ينبغي للعبد, إذا رأى محلا فيه فتنة وأسباب معصية, أن يفر منه, ويهرب, غاية ما يمكنه, ليتمكن من التخلص من المعصية. لأن يوسف عليه السلام - لما راودته التي هو في بيتها - فر هاربا, يطلب الباب, ليتخلص من شرها. ومنها: أن القرائن يعمل بها, عند الاشتباه. فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء, من أواني الدار, فما يصلح للرجل, فإنه للرجل, وما يصلح للمرأة, فهو لها, هذا إذا لم يكن بينة. وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما, من غير بينة. والعمل بالقيافة, في الأشباه والأثر, من هذا الباب. فإن شاهد يوسف, شهد بالقرينة, وحكم بها في قد القميص, واستدل بقده من دبره على صدق يوسف وكذبها. ومما يدل على هذه القاعدة, أنه استدل بوجود الصواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة, من غير بينة شهادة, ولا إقرار. فعلى هذا, إذا وجد المسروق في يد السارق, خصوصا إذا كان معروفا بالسرقة, فإنه يحكم عليه بالسرقة, وهذا أبلغ من الشهادة. وكذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر, أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد, حاملا, فإنه يقام بذلك, الحد, ما لم يقم مانع منه. ولهذا سمى الله هذا الحكم شاهدا فقال : "وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ". ومنها: ما عليه يوسف, من الجمال الظاهر والباطن. فإن جماله الظاهر, أوجب للمرأة التي هو في بيتها, ما أوجب. وللنساء اللاتي جمعتهن حين لمنها على ذلك أن قطعن أيديهن وقلن "مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ". وأما جماله الباطن, فهو العفة العظيمة عن المعصية, مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها, وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك, ببراءته. ولهذا قالت امرأة العزيز : "وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ". وقالت بعد ذلك: " الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ". وقالت النسوة : "حَاشَ لِلَّهِ مَا

عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ". ومنها: أن يوسف عليه السلام, اختار السجن على المعصية. فهكذا ينبغي للعبد, إذا ابتلي بين أمرين - إما فعل معصية, وإما عقوبة دنيوية - أن يختار العقوبة الدنيوية, على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة, في الدنيا والآخرة. ولهذا من علامات الإيمان, أن يكره العبد أن يعود في الكفر, بعد أن أنقذه الله منه, كما يكره أن يلقى في النار. ومنها: أنه ينبغي للعبد, أن يلتجئ إلى الله, ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية, ويتبرأ من حوله وقوته, لقول يوسف عليه السلام "وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ". ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير, وينهيانه عن الشر. وأن الجهل, يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس, وإن كان معصية ضارا لصاحبه. ومنها: أنه كما على العبد عبودية لله في الرخاء, فعليه عبودية له في الشدة. فـ " يوسف " عليه السلام, لم يزل يدعو إلى الله, فلما دخل السجن, استمر على ذلك, ودعا الفتيين إلى التوحيد, ونهاهما عن الشرك. ومن فطنته عليه السلام, أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته, حيث ظنا فيه الظن الحسن وقالا: " إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ " وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما, فرآهما, متشوقين لتعبيرها عنده - رأى ذلك فرصة, فانتهزها, فدعاهما إلى الله تعالى, قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده, وأقرب لحصول مطلوبه. وبين لهما أولا, أن الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيها, من الكمال والعلم, إيمانه, وتوحيده, وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر, وهذا دعاء لهما بلسان الحال. ثم دعاهما بالمقال, وبين فساد الشرك, وبرهن عليه, وحقيقة التوحيد, وبرهن عليه. ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم, وأنه إذا سئل المفتي, وكان السائل في حاجة أشد لغير ما سأل عنه, أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله. فإن هذا, علامة على نصح المعلم وفطنته, وحسن إرشاده وتعليمه. فإن يوسف - لما سأله الفتيان عن الرؤيا - قدم لهما قبل تعبيرها - دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له. ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه, أو الإخبار بحاله, وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق فإن هذا, من الأمور العادية, التي جرى العرف باستعانة الناس, بعضهم ببعض. ولهذا قال يوسف, للذي ظن أنه ناج من الفتيين: " اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ". ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم, استعمال الإخلاص التام في تعليمه وأن لا يجعل تعليمه, وسيلة لمعاوضة أحد في مال, أو جاه, أو نفع, وأن لا يمتنع من التعليم, أو لا ينصح فيه, إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم. فإن يوسف عليه السلام قد قال, ووصى أحد الفتيين, أن يذكره عند ربه, فلم يذكره ونسى. فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف, أرسلوا ذلك الفتى, وجاءه سائلا مستفتيا عن تلك الرؤيا, فلم يعنفه يوسف, ولا وبخه, لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله, جوابا تاما من كل وجه. ومنها: أنه ينبغي للمسئول أن يدل السائل على أمر ينفعه, مما يتعلق بسؤاله, ويرشده إلى الطريق, التي ينتفع بها, في دينه ودنياه, فإن هذا من كمال نصحه وفطنته, وحسن إرشاده. فإن يوسف, عليه السلام, لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك. بل دلهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات, من كثرة الزرع, وكثرة جبايته. ومنها: أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه, وطلب البراءة لها, بل يحمد على ذلك, كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة, اللاتي قطعن أيديهن. ومنها: فضيلة العلم, علم الأحكام والشرع, وعلم تعبير الرؤيا, وعلم التدبير والتربية; وأنه أفضل من الصورة الظاهرة, ولو بلغت في الحسن جمال يوسف. فإن يوسف - بسبب جماله - حصلت له تلك المحنة, والسجن, وبسبب عمله, حصل له العز والرفعة, والتمكين في الأرض. فإن كل خير في الدنيا والآخرة, من آثار العلم وموجباته. ومنها: أن علم التعبير, من العلوم الشرعية, وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه, وأن تعبير الرؤيا, داخل في الفتوى, لقوله للفتيين : "قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ " وقال الملك " أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ". وقال الفتى ليوسف: " أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ " الآيات. فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا, من غير علم. ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه, من صفات الكمال من علم أو عمل, إذا كان في ذلك مصلحة, ولم يقصد به العبد الرياء, وسلم من الكذب. لقول يوسف: " اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ". وكذلك لا تذم الولاية, إذا كان المتولي فيها, يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله, وحقوق عباده, وأنه لا بأس بطلبها, إذا كان أعظم كفاءة من غيره. وإنما الذي يذم, إذا لم يكن فيه كفاية, أو كان موجودا غيره مثلا, أو أعلى منه, أو لم يرد بها إقامة أمر الله. فبهذه الأمور, ينهى عن طلبها, والتعرض لها. ومنها: أن الله واسع الجود والكرم, يجود على عبده, بخير

الدنيا والآخرة, وأن خير الآخرة, له سببان: الإيمان, والتقوى. وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها. وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه, ويشوقها لثواب الله, ولا يدعها تحزن, إذا رأت زينة أهل الدنيا ولذاتها, وهي غير قادرة عليها, بل يسلبها بثواب الله الأخروي, وفضله العظيم لقوله تعالى : "وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ". ومنها: أن جباية الأرزاق - إذا أريد بها التوسعة على الناس, من غير ضرر يلحقهم لا بأس بها, لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة, في السنين المخصبات, للاستعداد للسنين المجدبة. وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله, بل يتوكل العبد على العبد ويعمل الأسباب التي تنفعه, في دينه ودنياه. ومنها: حسن تدبير يوسف, لما تولى خزائن الأرض, حتى كثرت عندهم الغلات جدا, وحتى صار أهل الأقطار, يقصدون مصر لطلب الميرة منها, لعلمهم بوفورها فيها, وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله. ومنها: مشروعية الضيافة, وأنها من سنن المرسلين, وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته " أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ". ومنها: أن سوء الظن - مع وجود القرائن الدالة عليه - غير ممنوع ولا محرم. فإن يعقوب قال لأولاده - بعد ما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة, ثم قال لهم بعد ما أتوه, وزعموا أن الذئب أكله "بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ". قال لهم في الأخ الآخر : "هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ". ثم لما احتبسه يوسف عنده, وجاء إخوته لأبيهم قال لهم : "بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا " فهم في الأخيرة - وإن لم يكونوا مفرطين, فقد جرى منهم, ما أوجب لأبيهم, أن قال ما قال, من غير إثم عليه ولا حرج. ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المكاره, أو الرافعة لها بعد نزولها, غير ممنوع, بل جائز, وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر. فإن الأسباب أيضا, من القضاء والقدر لأمر يعقوب, حيث قال لبنيه , "يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ". ومنها: جواز استعمال المكايد, التي يتوصل بها إلى الحقوق, وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها, مما يحمد عليه العبد. وإنما الممنوع, التحيل على إسقاط واجب, أو فعل محرم. ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره, بأمر لا يحب أن يطلع عليه, أن يستعمل المعاريض القولية والفعلية, المانعة من الكذب. كما فعل يوسف, حيث ألقى الصواع في رحل أخيه, ثم استخرجها منه, موهما أنه سارق, وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته. وقال بعد ذلك : "مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ " ولم يقل " من سرق متاعنا " وكذلك لم يقل " إنا وجدنا متاعنا عنده " بل أتى بكلام عام, يصلح له ولغيره. وليس في ذلك محذور, وإنما فيه إيهام أنه سارق, ليحصل المقصود الحاضر, وأن يبقى عنده أخوه, وقد زال عن الأخ هذا الإيهام, بعد ما تبينت الحال. ومنها: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه, وتحققه بمشاهدة, أو خبر من يثق به, وتطمئن إليه النفس لقولهم : "وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ". ومنها: هذه المحنة العظيمة, التي امتحن الله بها نبيه وصفيه, يعقوب عليه السلام, حيث قضى بالتفريق, بينه وبين ابنه يوسف, الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة, ويحزنه ذلك أشد الحزن. فحصل التفريق بينه وبينه, مدة طويلة لا تقصر عن ثلاثين سنة. ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة "وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ". ثم ازداد به الأمر شدة, حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني, شقيق يوسف. هذا هو صابر لأمر الله, محتسب الأجر من الله, قد وعد من نفسه الصبر الجميل, ولا شك أنه وفي بما وعد به. ولا ينافي ذلك, قوله: " إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ " فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر. وإنما الذي ينافيه, الشكوى إلى المخلوقين. ومنها: أن الفرج مع الكرب; وأن مع العسر يسرا. فإنه لما طال الحزن على يعقوب, واشتد به إلى أنهى ما يكون, ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب, ومسهم الضر, أذن الله حينئذ, بالفرج. فحصل التلاقي, في أشد الأوقات إليه حاجة واضطرارا, فتم بذلك الأجر, وحصل السرور. وعلم من ذلك, أن الله يبتلي أولياءه بالشدة والرخاء, والعسر واليسر ليمتحن صبرهم وشكرهم, ويزداد - بذلك - إيمانهم ويقينهم وعرفانهم. ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد, وما هو فيه, من مرض, أو فقر ونحوهما, على غير وجه التسخط. لأن إخوة يوسف قالوا : "يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ " ولم ينكر عليهم يوسف. ومنها: فضيلة التقوى, وأن كل خير في الدنيا والآخرة, فمن آثار التقوى والصبر, وأن عاقبة أهلهما, أحسن العواقب لقوله : "قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ". ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة, بعد شدة, وفقر, وسوء حال, أن يعترف بنعمة الله عليه, وأن لا يزال ذاكرا حاله الأولى, ليحدث لذلك شكرا

وكلما ذكرها, لقول يوسف عليه السلام : "وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ". ومنها: لطف الله العظيم بيوسف, حيث نقله في تلك الأحوال, وأوصل إليه الشدائد والمحن, ليوصله بها إلى أعلى الغايات, ورفيع الدرجات. ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يتملق إلى الله دائما, في تثبيت إيمانه, ويعمل الأسباب الموجبة لذلك, ويسأل الله حسن الخاتمة, وتمام النعمة لقول يوسف عليه الصلاة والسلام : "رُبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ". فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر, في هذه القصة المباركة, ولا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك. فنسأله تعالى, علما نافعا, وعملا متقبلا, إنه جواد كريم. تم تفسير سورة يوسف عليه الصلاة والسلام والحمد لله رب العالمين

سورة الرعد

"المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ " يخبر تعالى: أن هذا القرآن, هو آيات الكتاب الدالة, على كل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه, وأن الذي أنزل إلي الرسول من ربه, هو الحق المبين. لأن إخباره صدق, وأوامره, ونواهيه, عدل, مؤيدة بالأدلة والبراهين القاطعة. فمن أقبل عليه, وعلى علمه, كان من أهل العلم بالحق, الذي يوجب لهم علمهم به, العمل بما أوجب الله. " وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ " بهذا القرآن, إما جهلا, وإعراضا عنه, وعدم اهتمام به, وإما عنادا وظلما. فلذلك أكثر الناس, غير منتفعين به, لعدم السبب الموجب للانتفاع.

"اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ " يخبر تعالى عن انفراده بالخلق والتدبير, والعظمة والسلطان, الدال على أنه وحده المعبود, الذي لا تنبغي العبادة إلا له فقال: " اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ " على عظمها واتساعها, بقدرته العظيمة . "بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا " أي ليس لها عمد من تحتها, فإنه لو كان لها عمد, لرأيتموها . "ثُمَّ " بعد ما خلق السماوات والأرض " اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ " العظيم الذي هو أعلى المخلوقات, استواء يليق بجلاله, ويناسب كماله . "وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ " لمصالح العباد ومصالح مواشيهم وثمارهم . "كُلٌّ " من الشمس والقمر "يَجْرِي " بتدبير العزيز العليم. " إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى " بسير منتظم لا يفتران, ولا ينيان, حتى يجيء الأجل المسمى وهو طي الله هذا العالم, ونقلهم إلى الدار الآخرة, التي هي دار القرار. فعند ذلك يطوي الله السماوات, ويبدلها, ويغير الأرض ويبدلها. فتكور الشمس والقمر, ويجمع بينهما, فيلقيان في النار, ليرى من عبدهما أنهما غير أهل للعبادة فيتحسر بذلك أشد الحسرة, وليعلم الذين كفروا, أنهم كانوا كاذبين. وقوله "يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ " هذا جمع بين الخلق والأمر. أي: قد استوى الله العظيم على سرير الملك, يدبر الأمور في العالم العلوي والسفلي. فيخلق ويرزق, ويغني, ويفقر, ويرفع أقواما, ويضع آخرين, ويعز ويذل, ويخفض ويرفع, ويقيل العثرات, ويفرج الكربات, وينفذ الأقدار في أوقاتها, التي سبق بها علمه, وجرى بها قلمه. ويرسل ملائكته الكرام, لتدبير ما جعلهم على تدبيره. وينزل الكتب الإلهية على رسله, ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع, والأوامر والنواهي, ويفصلها غاية التفصيل, ببيانها, وإيضاحها وتمييزها . "لَعَلَّكُمْ " بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية, والآيات القرآنية . "بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ " فإن كثرة الأدلة وبيانها ووضوحها, من أسباب حصول اليقين, في جميع الأمور الإلهية, خصوصا في العقائد الكبار, كالبعث والنشور والإخراج من القبور. وأيضا, فقد علم أن الله تعالى, حكيم لا يخلق الخلق سدى, ولا يتركهم عبثا. فكما أنه أرسل رسله, وأنزل كتبه, لأمر العباد ونهيهم, فلا بد أن ينقلهم إلى دار, يحل فيها جزاؤه, فيجازى المحسنين بأحسن الجزاء, ويجازى المسيئين بإساءتهم.

"وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ "
"وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ " أي: خلقها للعباد, ووسعها, وبارك فيها, ومدها للعباد, وأودع فيها

من مصالحهم ما أودع . "وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ " أي: جبالا عظاما, لئلا تميد بالخلق. فإنه لولا الجبال, لمادت بأهلها, لأنها على تيار ماء, لا ثبوت لها, ولا استقرار, إلا بالجبال الرواسي, التي جعلها الله أوتادا لها. وجعل فيها "وَأَنْهَارًا ", تسقي الآدميين وبهائمهم وحروثهم. فأخرخ بها من الأشجار والزروع والثمار, خيرا كثيرا ولهذا قال : "وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ " أي: صنفين, مما يحتاج إليه العباد . "يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ " فتظلم الآفاق, فيسكن كل حيوان إلى مأواه, ويستريحون من التعب والنصب في النهار. ثم إذا قضوا مأربهم من النوم, غشي النهار الليل, فإذا هم مصبحون ينتشرون في مصالحهم وأعمالهم في النهار. " ومن رحمته, جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه, وتبتغوا من فضله, ولعلكم تشكرون ". " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ " على المطالب الإلهية "لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " فيها, وينظرون فيها نظرة اعتبار دالة على أن الذي خلقها ودبرها, وصرفها, هو الله الذي لا إله إلا هو, ولا معبود سواه, وأنه عالم الغيب والشهادة, الرحمن الرحيم, وأنه القادر على كل شيء, الحكيم في كل شيء, المحمود على ما خلقه وأمر به, تبارك وتعالى.

"وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ "
ومن الآيات على كمال قدرته, وبديع صنعته , "وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ " فيها أنواع الأشجار "مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ " وغير ذلك. والنخيل التي بعضها "صِنْوَانٌ " أي: عدة أشجار في أصل واحد . "وَغَيْرُ صِنْوَانٍ " بأن كان كل شجرة على حدتها. والجميع " يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ " وأرضه واحدة "وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ " لونا, وطعما, ونفعا, ولذة. فهذه أرض طيبة, تنبت الكلأ والعشب الكثير, والأشجار والزروع. وهذه أرض تلاصقها لا تنبت كلاء, ولا تمسك ماء. وهذه تمسك الماء, ولا تنبت الكلأ. وهذه تنبت الزرع والأشجار, ولا تنبت الكلأ. وهذه الثمرة حلوة, وهذه مرة, وهذه بين ذلك. فهل هذا التنوع, في ذاتها وطبيعتها؟ أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟ " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " أي: لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم, وتقودهم إلى ما يرشدون به ويعقلون عن الله, وصاياه وأوامره ونواهيه. وأما أهل الإعراض, وأهل البلادة, فهم في ظلماتهم يعمهون, وفي غيرهم يترددون لا يهتدون إلى ربهم سبيلا, ولا يعون له قيلا.

"وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ "
يحتمل أن معنى قوله "وَإِنْ تَعْجَبْ " من عظمة الله تعالى, وكثرة أدلة التوحيد. فإن العجب - مع هذا - إنكار المكذبين, وتكذيبهم بالبعث. وقولهم " أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ " أي: هذا بعيد في غاية الامتناع بزعمهم, أنهم بعد ما كانوا ترابا, أن الله يعيدهم. فإنهم - من جهلهم - قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق. فلما رأوا هذا ممتنعا, في قدرة المخلوق, ظنوا أنه ممتنع على قدرة الخالق. ونسوا أن الله خلقهم أول مرة, ولم يكونوا شيئا. ويحتمل أن معناه: وإن تعجب من قولهم وتكذيبهم للبعث, فإن ذلك من العجائب. فإن الذي توضح له الآيات, ويرى من الأدلة القاطعة على البعث, ما لا يقبل الشك والريب, ثم ينكر ذلك, فإن قوله من العجائب. ولكن ذلك لا يستغرب على " أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ " وجحدوا وحدانيته, وهي أظهر الأشياء وأجلاها . "وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ " المانعة لهم من الهدى "فِي أَعْنَاقِهِمْ " حيث دعوا إلى الإيمان, فلم يؤمنوا, وعرض عليهم الهدى فلم يهتدوا. فقلبت قلوبهم وأفئدتهم, عقوبة على أنهم لم يؤمنوا به أول مرة . "وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ "لا يخرجون منها أبدا.

"وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ "
يخبر تعالى, عن جهل المكذبين لرسوله, المشركين له, الذين وعظوا فلم يتعظوا, وأقيمت عليهم الأدلة, فلم ينقادوا لها. بل جاهروا بالإنكار, واستدلوا بحلم الله الواحد القهار عنهم, وعدم معاجلتهم بذنوبهم, أنهم على حق, وجعلوا يتعجلون الرسول بالعذاب, ويقول قائلهم: " اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك, فأمطر علينا حجارة من السماء, أو ائتنا بعذاب أليم ". والحال أنه "وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ " أي: وقائع الله وأيامه في الأمم المكذبين, أفلا يتفكرون في حالهم, ويتركون جهلهم . "وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ

لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ " أي لا يزال خيره إليهم, وإحسانه, وبره, وعفوه نازلا إلى العباد. وهم لا يزال شركهم, وعصيانهم إليه صاعدا. يعصونه فيدعوهم إلى بابه, ويجرمون, فلا يحرمهم خيره وإحسانه. فإن تابوا إليه, فهو حبيبهم, لأنه يحب التوابين, ويحب المتطهرين وإن لم يتوبوا, فهو طبيبهم, يبتليهم بالمصائب, ليطهرهم من المعايب " قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا, إنه هو الغفور الرحيم ". "وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ " على من لم يزل مصرا على الذنوب, قد أبى التوبة والاستغفار والالتجاء إلى العزيز الغفار. فليحذر العباد عقوباته بأهل الجرائم, فإن أخذه أليم شديد.

"وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ " أي: ويقترح الكفار عليك من الآيات, التي يعينون ويقولون : "لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ " ويجعلون هذا القول منهم. عذرا لهم في عدم الإجابة إلى الرسول. والحال, أنه منذر, ليس له من الأمر شيء, والله هو الذي ينزل الآيات. وقد أيده بالأدلة البينات, التي لا تخفى على أولي الألباب, وبها يهتدي من قصده الحق. وأما الكافر, الذي - من ظلمه وجهله - يقترح على الله الآيات, فهذا اقتراح منه, باطل وكذب وافتراء. فإنه لو جاءته أي آية كانت, لم يؤمن ولم ينقد, لأنه لم يمتنع من الإيمان, لعدم ما يدله على صحته, وإنما ذلك, لهوى نفسه, واتباع شهوته . "وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ " أي: داع يدعو إلى الهدى, من الرسل وأتباعهم. ومعهم من الأدلة والبراهين, ما يدلّ على صحة ما معهم من الهدى.

"اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ " يخبر تعالى, بعموم علمه, وسعة اطلاعه, وإحاطته بكل شيء فقال: " اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى " من بني آدم وغيرهم . "وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ " أي: تنقص مما فيها, إما أن يهلك الحمل, أو يتضاءل أو يضمحل . "وَمَا تَزْدَادُ " الأرحام وتكبر الأجنة التي فيها . "وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ "لا يتقدم عليه ولا يتأخر, ولا يزيد ولا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه.

"عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ " فإنه "عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ " في ذاته, وأسمائه, وصفاته " الْمُتَعَالِ " على جميع خلقه, بذاته وقدرته, وقهره.

"سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ " سَوَاءٌ مِنْكُمْ " في علمه وسمعه, وقهره . "مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ " أي: مستقر بمكان خفي فيه . "وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ " أي: داخل سربه في النهار, والسرب هو: ما يستخفى فيه الإنسان, إما جوف بيته, أو غار, أو مغارة, أو نحو ذلك.

"لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ " "لَهُ " أي للإنسان "مُعَقِّبَاتٌ " من الملائكة, يتعاقبون في الليل والنهار . "مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ " أي: يحفظون بدنه وروحه, من كل من يريده بسوء, ويحفظون عليه أعماله, وهم ملازمون له دائما. فكما أن علم الله محيط به, فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد, بحيث لا تخفى أحوالهم ولا أعمالهم, ولا ينسى منها شيئا. " إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ " من النعمة والإحسان, ورغد العيش "حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ " بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر, ومن الطاعة إلى المعصية. أو من شكر نعم الله إلى البطر بها, فيسلبهم الله إياها عند ذلك. وكذلك إذا غير العباد, ما بأنفسهم من المعصية, فانتقلوا إلى طاعة الله, غير الله عليهم, ما كانوا فيه من الشقاء, إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة . "وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا " أي: عذابا وشدة, وأمرا يكرهونه, فإن إرادته لا بد أن تنفذ فيهم. فـإنه "فَلَا مَرَدَّ لَهُ " ولا أحد يمنعهم منه . "وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ " يتولى أمورهم, فيجلب لهم المحبوب, ويدفع عنهم المكروه. فليحذروا من الإقامة على ما يكره الله, خشية أن يحل بهم من العقاب ما لا يرد عن القوم المجرمين.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ "
يقول تعالى : "هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا " أي: يخاف منه الصواعق والهدم, وأنواع الضرر, على بعض الثمار ونحوها, ويطمع في خيره ونفعه . "وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ " بالمطر الغزير, الذي به نفع العباد والبلاد.

وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ "
"وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ " وهو الصوت, الذي يسمع من السحاب المزعج للعباد, فهو خاضع لربه, مسبح بحمده. " و " تسبح " الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ " أي: خشعا لربهم, خائفين من سطوته . "وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ " وهي هذه النار, التي تخرج من السحاب . "فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ " من عباده, بحسب ما شاءه وأراده "وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ " أي: شديد الحول والقوة, فلا يريد شيئا إلا فعله, ولا يتعاصى عليه شيء, ولا يفوته هارب.

"لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ "
فإذا كان هو وحده, الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب, التي فيها مادة أرزاقهم, وهو الذي يدبر الأمور, وتخضع له المخلوقات العظام, التي يخاف منها, وتزعج العباد, وهو شديد القوة - فهو الذي يستحق أن يعبد وحده ولا شريك له. ولهذا قال : "لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ " إلى " إِلَّا فِي ضَلَالٍ ". "لَهُ " أي: لله وحده "دَعْوَةُ الْحَقِّ " وهي: عبادته وحده لا شريك له وإخلاص دعاء العبادة, ودعاء المسألة له تعالى. أي: هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء, والخوف, والرجاء, والحب, والرغبة, والرهبة, والإنابة, لأن ألوهيته, هي الحق, وألوهية غيره, باطلة . "وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ " من الأوثان, والأنداد, التي جعلوها شركاء لله. " لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ " أي: لمن يدعوها ويعبدها, بشيء قليل ولا كثير لا من أمور الدنيا, ولا من أمور الآخرة. " إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ " الذي لا تناله كفاه لبعده . "لِيَبْلُغَ " ببسط كفيه إلى الماء "فَاهُ ", فإنه عطشان, ومن شدة عطشه, يتناول بيده ويبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه, فلا يصل إليه. كذلك الكفار, الذين يدعون مع الله آلهة لا يستجيبون لهم بشيء, ولا ينفعونهم في أشد الأوقات إليهم حاجة, لأنهم فقراء, كما أن من دعوهم فقراء لا يملكون مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وما لهم فيها من شرك, وما له منهم من ظهير . "وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ " لبطلان ما يدعون من دون الله. فبطلت عبادتهم ودعاؤهم, لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها. ولما كان الله تعالى, هو الملك الحق المبين, كانت عبادته حقا, متصلة النفع بصاحبها في الدنيا الآخرة. وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله, بالذي يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثلة. فإن ذلك تشبيه بأمر محال, فكما أن هذا محال, فالمشبه به محال. والتعلق على المحال, من أبلغ ما يكون في نفي الشيء كما قال تعالى " إن الذين كفروا وكذبوا بآياتنا لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ".

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ "
أي: جميع ما احتوت عليه السماوات والأرض كلها, خاضعة لربها, تسجد له طَوْعًا وَكَرْهًا ". فالطوع لمن يأتي بالسجود والخضوع, اختيارا, كالمؤمنين. والكره, لمن يستكبر عن عبادة ربه, وحاله وفطرته, تكذبه في ذلك . "وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ " أي: وتسجد له ظلال المخلوقات, أول النهار وآخره, وسجود كل شيء,, بحسب حاله كما قال تعالى: " وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ".

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِأَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ "
فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد لربها طوعا وكرها, كان هو الإله حقا, المعبود المحمود حقا, وإلاهية غيره باطلة. ولهذا ذكر بطلانها وبرهن عليه بقوله : "قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ " إلى " الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ". أي: قل لهؤلاء المشركين به, أوثانا وأندادا, يحبونها كما يحبون الله, ويبذلون لها أنواع التقربات والعبادات: أفتاهت عقولكم, حتى اتخذتم من دونه أولياء,

تتولونهم بالعبادة, وليسوا بأهل لذلك؟ فإنهم " لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ", وتتركون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات, المالك للأحياء والأموات, الذي بيده الخلق والتدبير, والنفع والضر؟ فما تستوي عبادة الله وحده, وعبادة المشركين به . "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ "؟ فإن كان عندهم شك واشتباه, وجعلوا له شركاء, زعموا أنهم خلقوا كخلقه, وفعلوا كفعله, فأزل عنهم هذا الاشتباه واللبس, بالبرهان الدال على تفرد الإله بالوحدانية. فقل لهم: " اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ " فإنه من المحال أن يخلق شيء من الأشياء نفسه. ومن المحال أيضا, أن يوجد من دون خالق. فتعين أن لها إلها خالقا لا شريك له في خلقه, لأنه الواحد القهار. فإنه لا توجد الوحدة والقهر, إلا لله وحده. فالمخلوقات وكل مخلوق, فوقه مخلوق يقهره ثم فوق ذلك القاهر, قاهر أعلى منه, حتى ينتهي القهر للواحد القهار. فالقهر والتوحيد, متلازمان, متعينان لله وحده. فتبين بالدليل العقلي القاهر, أن ما يدعى من دون الله, ليس له شيء من خلق المخلوقات, وبذلك كانت عبادته باطلة.

"أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ "
شبه تعالى الهدى, الذي أنزل على رسوله لحياة القلوب والأرواح, بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح. وشبه ما في الهدى من النفع العام الكثير, الذي يضطر إليه العباد, بما في المطر من النفع العام الضروري. وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها, بالأودية التي تسيل فيها السيول. فواد كبير, يسع ماء كثيرا, كقلب كبير, يسع علما كثيرا. وواد صغير, يأخذ ماء قليلا,, كقلب صغير, يسع علما قليلا, وهكذا. وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات, عند وصول الحق إليها, بالزبد الذي يعلو الماء, ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها, وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدرة له, حتى تذهب وتضمحل, ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي, والحلية الخالصة. كذلك الشبهات والشهوات لا يزال القلب يكرهها, ويجاهدها بالبراهين الصادقة, والإرادات الجازمة, حتى تذهب وتضمحل, ويبقى القلب خالصا صافيا, ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق, وإيثاره, والرغبة فيه. فالباطل يذهب ويمحقه الحق " إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ". وقال هنا: " كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ " ليتضح الحق من الباطل والهدى والضلال.

"لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ "
لما بين تعالى, الحق من الباطل, ذكر أن الناس على قسمين: مستجيب لربه, فذكر ثوابه, وغير مستجيب, فذكر عقابه فقال : "لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ " أي: انقادت قلوبهم للعلم والإيمان, وجوارحهم للأمر والنهي, وصاروا موافقين لربهم فيما يريده منهم. فلهم " الْحُسْنَى " أي: الحالة الحسنة, والثواب الحسن. فلهم من الصفات أجلها, ومن المناقب أفضلها. ومن الثواب العاجل والآجل, ما لا عين رأت, ولا أذن سمعت, ولا خطر على قلب بشر . "وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ " بعد ما ضرب لهم الأمثال, وبين لهم الحق, لهم الحالة غير الحسنة. و "لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا " من ذهب وفضة وغيرها . "وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ " من عذاب يوم القيامة, ما تقبل منهم, وأنى لهم ذلك؟!!. " أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ", وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه, من عمل سيئ, وما ضيعوه من حقوق عباده قد كتب ذلك, وسطر عليهم, وقالوا: " يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها, ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ". وبعد هذا الحساب السيئ , "وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ " الجامعة لكل عذاب, من الجوع الشديد, والعطش الوجيع, والنار الحامية, والزقوم, والزمهرير, والضريع, وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب . "وَبِئْسَ الْمِهَادُ " أي: المقر, والمسكن, مسكنهم.

"أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ "
يقول تعالى: مفرقا بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم: " أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ " ففهم ذلك, وعمل به . "كَمَنْ هُوَ أَعْمَى " لا يعلم الحق, ولا يعمل به, فبينهما من الفرق, كما بين السماء والأرض. فحقيق بالعبد, أن يتذكر ويتفكر, أي الفريقين,

أحسن حالا, وخير مآلا, فبؤثر طريقها, ويسلك خلف فريقها. ولكن ما كل أحد, يتذكر ما ينفعه ويضره. " إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ " أي: أولو العقول الرزينة, والآراء الكاملة, الذين هم, لب العالم, وصفوة بني آدم. فإن سألت عن وصفهم, فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله:

"الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ "
" الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ " الذي عهده إليهم, والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة, فالوفاء بها, توفيتها حقها, من التنمية لها, والنصح فيها. وتمام الوفاء بها, أنهم "وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ " أي: العهد الذي عاهدوا الله عليه. فدخل في ذلك, جميع المواثيق والعهود, والأيمان والنذور, التي يعقدها العباد. فلا يكون العبد من أولي الألباب, الذين لهم الثواب العظيم, إلا بأدائها كاملة, وعدم نقضها وبخسها.

وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ "
"وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ " وهذا عام في كل ما أمر الله بوصله, من الإيمان به, وبرسوله, ومحبته, ومحبة رسوله, والانقياد لعبادته وحده لا شريك له, ولطاعة رسوله. ويصلون آباءهم وأمهاتهم, ببرهم بالقول والفعل, وعدم عقوقهم. ويصلون الأقارب والأرحام, بالإحسان إليهم, قولا وفعلا. ويصلون ما بينهم وبين الأزواج, والأصحاب, والمماليك, بأداء حقهم, كاملا موفرا, من الحقوق الدينية والدنيوية. والسبب الذي يجعل العبد واصلا ما أمر الله به, أن يوصل خشية الله, وخوف يوم الحساب, ولهذا قال: " وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ " أي: يخافونه, فيمنعهم خوفهم منه, ومن القدوم عليه يوم الحساب, أن يتجرأوا على معاصي الله, أو يقصروا في شيء مما أمر الله به, خوفا من العقاب, ورجاء للثواب.

وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ "
"وَالَّذِينَ صَبَرُوا " علىالمأمورات بامتثالها, وعن المنهيات بالانكفاف عنها, والبعد منها, وعلى أقدار الله المؤلمة, بعدم تسخطها. ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر " ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ "لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة, فإن هذا هو الصبر النافع, الذي يحبس به العبد نفسه, طلبا لمرضاة ربه, ورجاء للقرب منه. والحظوة بثوابه, هو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان. وأما الصبر المشترك, الذي غايته التجلد, ومنتهاه, الفخر, فهذا يصدر من البر والفاجر, والمؤمن والكافر, فليس هو الممدوح, على الحقيقة. " وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ " بأركانها, وشروطها, ومكملاتها, ظاهرا وباطنا . "وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً " دخل في ذلك, النفقات الواجبة, كالزكوات, والكفارات, والنفقات المستحبة, وأنهم ينفقون, حيث دعت الحاجة إلى النفقة, سرا وعلانية . "وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ " أي: من أساء إليهم, بقول أو فعل, لم يقابلوه بفعله, بل قابلوه بالإحسان إليه. فيعطون من حرمهم, ويعفون عمن ظلمهم, ويصلون من قطعهم, ويحسنون إلى من أساء إليهم. وإذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان, فما ظنك بغير المسيء؟! " أُولَئِكَ " الذين وصفت صفاتهم الجليلة, ومناقبهم الجميلة "لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ". فسرها بقوله : "جَنَّاتِ عَدْنٍ " أي: إقامة لا يزولون منها, ولا يبغون عنها حولا, لأنهم يرون فوقها, غاية لما اشتملت عليه من النعيم, والسرور, الذي تنتهي إليه المطالب والغايات. ومن تمام نعيمهم وقرة أعينهم, أنهم "يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ " من الذكور والإناث وكذلك النظراء والأشباه, والأصحاب, والأحباب, فإنهم من قبيل أزواجهم وذرياتهم . "وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ " يهنئونهم بالسلامة, وكرامة الله لهم ويقولون :"سَلَامٌ عَلَيْكُمْ " أي: حلت عليكم السلامة والتحية من الله, حصلت لكم. وذلك متضمن لزوال كل مكروه, ومستلزم لحصول كل محبوب . "بِمَا صَبَرْتُمْ " أي: بسبب صبركم, وهو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية, والجنان الغالية. "فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ " فحقيق بمن نصح نفسه, وكان لها عنده قيمة, أن يجاهدها, لعلها تأخذ من أوصاف أولي الألباب بنصيب. ولعلها تحظى بهذه الدار, التي هي منية النفوس, وسرور لأرواح, الجامعة لجميع اللذات والأفراح. فلمثلها, فليعمل العاملون, وفيها, فليتنافس المتنافسون.

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ "
لما ذكر حال أهل الجنة, ذكر أن أهل النار, بعكس ما وصفهم به فقال عنهم: " الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ " أي: من بعد ما أكده عليهم على أيدي رسله, وغلظ عليهم, فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم, بل قابلوه بالإعراض والنقص . "وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ " فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح, ولا وصلوا الأرحام ولا أدوا الحقوق, بل أفسدوا في الأرض, بالكفر والمعاصي, والصد عن سبيل الله, وابتغائها عوجا. " أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ " أي البعد والذم, من الله وملائكته, وعباده المؤمنين. " وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ " وهي: الجحيم, بما فيها من العذاب الأليم.

"اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ "
أي: هو وحده, يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء, ويقدره ويضيقه على من يشاء. " وَفَرِحُوا " أي: الكفار "بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا " فرحا, أوجب لهم أن يطمئنوا بها, ويغفلوا عن الآخرة, وذلك لنقصان عقولهم . "وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ " أي: شيء حقير, يتمتع به قليلا, ويفارق أهله وأصحابه, ويعقبهم ويلا طويلا.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ "
يخبر تعالى, أن الذين كفروا بآيات الله, يتعنتون على رسول الله, ويقترحون ويقولون: " لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ " وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا, فأجابهم الله بقوله : "قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ " أي: طلب رضوانه. فليست الهداية والضلال بأيديهم, حتى يجعلوا ذلك متوقفا على الآيات. ومع ذلك, فهم كاذبون, فلو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى, وحشرنا عليهم كل شيء قبلا, ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله, ولكن أكثرهم يجلهون. ولا يلزم أن يأتي الرسول, بالآية, التي يعينونها, ويقترحونها, بل إذا جاءهم بآية, وتبين ما جاء به من الحق, كفى ذلك, وحصل المقصود, وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها. فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا, فلم يؤمنوا بها, لعاجلهم العذاب.

"الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ "
ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال: " الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ " أي: يزول قلقها واضطرابها, وتحضرها أفراحها ولذاتها. " أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ " أي: حقيق بها, وحري أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره, فإنه لا شيء ألذ للقلوب ولا أحلى, من محبة خالقها, والأنس به ومعرفته. وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له, يكون ذكرها له. هذا على القول بأن ذكر الله, هو ذكر العبد لربه, من تسبيح, وتهليل, وتكبير وغير ذلك. وقيل: إن المراد بذكر الله, كتابه, الذي أنزله, ذكرى للمؤمنين. فعلى هذا, معنى طمأنينة القلب بذكر الله: أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه, تطمئن لها, فإنها تدل على الحق المبين, المؤيد بالأدلة والبراهين, وبذلك تطمئن القلوب, فإنها لا تطمئن القلوب, إلا باليقين والعلم, وذلك في كتاب الله, مضمون على أتم الوجوه وأكملها. وأما ما سواه من الكتب, التي لا ترجع إليه, فلا تطمئن بها, بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة, وتضاد الأحكام.

"الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ "
" ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " وهذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله, وتدبره, وتدبر غيره من أنواع العلوم, فإنه يجد بينها وبينه فرقا عظيما. ثم قال تعالى: " الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ " أي: آمنوا بقلوبهم بالله, وملائكته, وكتبه, ورسله, واليوم الآخر, وصدقوا هذا الإيمان, بالأعمال الصالحة, أعمال القلوب, كمحبة الله, وخشيته. ورجائه, وأعمال الجوارح, كالصلاة ونحوها . "طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ " أي: لهم حالة طيبة, ومرجع حسن. وذلك بما ينالون, من رضوان الله وكرامته, في الدنيا والآخرة, وأن

لهم كمال الراحة, وتمام الطمأنينة. ومن جملة ذلك, شجرة طوبى, التي في الجنة, التي يسير الراكب في ظلها, مائة عام ما يقطعها, كما وردت بها الأحاديث الصحيحة.

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ "
يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : "كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ " إلى قومك تدعو إلى الهدى . "فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ " أرسلنا فيهم رسلنا. فلست ببدع من الرسل, حتى يستنكروا رسالتك. ولست تقول من تلقاء نفسك. بل تتلو عليهم آيات الله, التي أوحاها الله إليك, التي تطهر القلوب, وتزكي النفوس. والحال أن قومك, يكفرون بالرحمن, فلم يقابلوا رحمته وإحسانه - التي أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولا, وأنزلنا عليك كتابا - بالقبول والشكر, بل قابلوها بالإنكار والرد. فلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم, من القرون المكذبة, كيف أخذهم الله بذنوبهم . "قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ " وهذا متضمن التوحيدين, توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية. فهو ربي, الذي رباني بنعمه, منذ أوجدني, وهو إلهي الذي "عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ " في جميع أموري "وَإِلَيْهِ أُنِيبُ " أي: أرجع في جميع عباداتي, وفي حاجاتي.

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ "
يقول تعالى - مبينا فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة -: "وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا " من الكتب الإلهية "سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ " عن أماكنها " أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ " جنانا وأنهارا " أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى " لكان هذا القرآن . "بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا " فيأتي بالآيات, التي تقتضيها حكمته. فما بال المكذبين, يقترحون من الآيات - ما يقترحون؟ فهل لهم ولغيرهم من الأمر شيء؟. " أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا " فليعلموا أنه قادر على هدايتهم جميعا, ولكن لا يشاء ذلك, بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء . "وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا " على كفرهم لا يعتبرون, ولا يتعظون. والله تعالى يوالي عليهم القوارع, التي تصيبهم في ديارهم, أو تحل قريبا منها, وهم مصرون على كفرهم "حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ " الذي وعدهم به, لنزول العذاب المتصل, الذي لا يمكن رفعه. " إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ " وهذا تهديد وتخويف لهم من نزول, ما وعدهم الله به على كفرهم, وعنادهم, وظلمهم.

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ "
يقول تعالى لرسوله - مثبتا له, ومسليا - "وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ " فلست أول رسول, كذب وأوذي "فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا " برسلهم, أي: أمهلتهم مدة, حتى ظنوا أنهم غير معذبين . "ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ " بأنواع العذاب "فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ " كان عقابا شديدا, وعذابا أليما. فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك, واستهزأوا بك, بإمهالنا فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم, فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك.

"أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ "
يقول تعالى: " أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ " بالجزاء العاجل والآجل, بالعدل والقسط, وهو: الله تبارك وتعالى, كمن ليس كذلك؟ ولهذا قال : "وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ " وهو الله الأحد, الفرد, الصمد, الذي لا شريك له, ولا ند ولا نظير. "قُلْ " لهم, إن كانوا صادقين :"سَمُّوهُمْ " لنعلم حالهم. " أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ " فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة, وهو لا يعلم له شريكا, علم بذلك, بطلان دعوى الشريك له وأنكم بمنزلة الذي يعلم الله أن له شريكا, وهو لا يعلمه, وهذا أبطل ما يكون, ولهذا قال: " أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ " أي: غاية ما يمكن من دعوى الشريك له تعالى, أنه بظاهر أقوالكم. وأما في الحقيقة, فلا إله إلا الله, وليس أحد من الخلق, يستحق شيئا من العبادة . "بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ " الذي مكروه, وهو كفرهم, وشركهم, وتكذيبهم لآيات الله. "

وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ " أي: عن الطريق المستقيمة, الموصلة إلى الله, وإلى دار كرامته. " وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ " لأنه ليس لأحد من الأمر شيء.

"لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ "
"لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ " من عذاب الدنيا, لشدته ودوامه. " وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ " يقيهم من عذابه, فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه.

"مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ "
يقول تعالى : "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ " الذين تركوا ما نهاهم الله عنه, ولم يقصروا فيما أمرهم به, أي صفتها وحقيقتها "تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ " أنهار العسل, وأنهار الخمر, وأنهار اللبن, وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود. فتسقى تلك البساتين, والأشجار, فتحمل جميع أنواع الثمار. " أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا " دائم أيضا . "تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا " أي: مآلهم وعاقبتهم, التي إليها يصيرون . "وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ " فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟!!

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ "
يقول تعالى : "وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ " أي: منا عليهم به وبمعرفته . "يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ " فيؤمنون به, ويصدقونه, ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض, وتصديق بعضها بعضا, وهذه حال من آمن, من أهل الكتاب . "وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ " أي: ومن طوائف الكفار المنحرفين عن الحق, من ينكر بعض هذا القرآن, ولا يصدقه. " فمن اهتدى فلنفسه, ومن ضل فإنما يضل عليها " إنما أنت يا محمد منذر, تدعوا إلى الله . "قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ " أي: بإخلاص الدين لله وحده. " إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ " أي: مرجعي الذي أرجع به إليه, فيجازيني بما قمت به من الدعوة, إلى دينه, والقيام بما أمرت به.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ "
أي: ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب, حكما عربيا, أي: محكما متقنا, بأوضح الألسنة, وأفصح اللغات, لئلا يقع فيه شك واشتباه, وليوجب أن يتبع وحده, ولا يداهن فيه, ولا يتبع ما يضاده ويناقضه, من أهواء الذين لا يعلمون. ولهذا توعد رسوله - مع أنه معصوم - ليمتن عليه بعصمته, وليكون لأمته أسوة في الأحكام, فقال : "وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ " البين الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم . "مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ " يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب . "وَلَا وَاقٍ " يقيك من الأمر المكروه.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ "
أي: لست أول رسول أرسل إلى الناس, حتى يستغربوا رسالتك . "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً " فلا يعيبك أعداؤك, بأن يكون لك أزواج وذرية, كما كان لإخوانك المرسلين. فلأي شيء يقدحون فيك بذلك؟ وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم. وإن طلبوا منك آية اقترحوها, فليس لك من الأمر شيء . "وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ " والله لا يأذن فيها, إلا في وقتها الذي قدره وقضاه . "لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ "لا يتقدم عليه, ولا يتأخر عنه. فليس استعجالهم بالآيات أو العذاب, موجبا, لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر, مع أنه تعالى فعال لما يريد.

يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ "
"يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ " من الأقدار "وَيُثَبِّتُ " ما يشاء منها, وهذا المحو والتغيير, في غير ما سبق به علمه, وكتبه قلمه, فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير, لأن ذلك محال على الله, أن يقع في علمه نقص, أو خلل, ولهذا قال : "وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ " أي: اللوح

المحفوظ, الذي ترجع إليه سائر الأشياء, فهو أصلها, وهي فروع وشعب. فالتغيير والتبديل, يقع في الفروع والشعب, كأعمال اليوم والليلة, التي تكتبها الملائكة, ويجعل الله لثبوتها أسبابا, ولمحوها أسبابا لا تتعدى تلك الأسباب, ما رسم في اللوح المحفوظ. كما جعل الله البر, والصلة, والإحسان, من أسباب طول العمر, وسعة الرزق. وكما جعل المعاصي, سببا لمحق بركة الرزق والعمر. وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب, سببا للسلامة. وجعل التعرض لذلك, سببا للعطب. فهو الذي يدبر الأمور, بحسب قدرته وإرادته. وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه, في اللوح المحفوظ.

"وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ "
يقول تعالى, لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لا تعجل عليهم, بإصابة ما يوعدون من العذاب. فهم, إن استمروا على طغيانهم وكفرهم, فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به . "وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ " إياه في الدنيا, فتقر بذلك عينك. بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد فلا يتعقبها أحد, ولا سبيل إلى القدح فيها. " أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ " قبل إصابتهم, فليس ذلك شغلا لك " فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ " والتبيين للخلق . "وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ " فنحاسب الخلق على ما قاموا به, بما عليهم, أو ضيعوه, ونثيبهم أو نعاقبهم.

"أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ "
ثم قال - متوعدا للمكذبين - " أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ": قيل بإهلاك المكذبين, واستئصال الظالمين. وقيل: بفتح بلدان المشركين, ونقصهم في أموالهم وأبدانهم, وقيل غير ذلك من الأقوال. والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك, أن أراضي هؤلاء المكذبين جعل الله, يفتحها ويجتاحها, ويحل القوارع بأطرافها, تنبيها لهم قبل أن يجتاحهم النقص, ويوقع الله بهم من القوارع, ما لا يرده أحد. ولهذا قال : "وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ " ويدخل في هذا, حكمه الشرعي, والقدري والجزائي. فهذه الأحكام, التي يحكم الله فيها, توجد في غاية الحكمة والإتقان لا خلل فيها ولا نقص. بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد, فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها. بخلاف حكم غيره, فإنه قد يوافق الصواب, وقد لا يوافقه . "وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ " أي: فلا يستعجلوا بالعذاب, فإن كل ما هو آت, فهو قريب.

"وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ "
يقول تعالى : "وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ " برسلهم, وبالحق الذي جاءت به الرسل, فلم يغن عنهم مكرهم, ولم يصنعوا شيئا, فإنهم يحاربون الله ويبارزونه . "فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا " أي لا يقدر أحد أن يمكر مكرا إلا بإذنه, وتحت قضائه وقدره. فإذا كانوا يمكرون بدينه, فإن مكرهم, سيعود عليهم بالخيبة والندم. فإن الله "يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ " أي: هومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة. والمكر لا بد أن يكون من كسبها, فلا يخفى على الله مكرهم. فيمتنع أن يمكروا مكرا يضر الحق وأهله, ويفيدهم شيئا . "وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ " أي: ألهم أو لرسله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين لا للكفر وأهله.

"وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ "
"وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا " أي: يكذبونك, ويكذبون ما أرسلت به . "قُلْ " لهم - إن طلبوا على ذلك شهيدا : "كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ " وشهادته بقوله وفعله وإقراره. أما قوله, فيما أوحاه الله إلى أصدق خلقه, مما يثبت به رسالته. وأما فعله, فلأن الله تعالى أيد رسوله, ونصره نصرا خارجا عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه, وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد. وأما إقراره, فإنه أخبر الرسول عنه, أنه رسول, وأنه أمر الناس باتباعه. فمن اتبعه, فله رضوان الله وكرامته. ومن لم يتبعه, فله النار والسخط, وحل له ماله ودمه, والله يقره على ذلك, فلو تقول عليه بعض الأقاويل, لعاجله بالعقوبة . "وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ " وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين. فإنهم يشهد منهم للرسول, من

آمن, واتبع الحق, فصرح بتلك الشهادة التي عليه. ومن كتم ذلك, فإخبار الله عنه, أن عنده شهادة, أبلغ من خبره. ولو لم يكن عنده شهادة, لرد استشهاده بالبرهان. فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة. وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب, لأنهم أهل هذا الشأن. وكل أمر, إنما يستشهد فيه أهله, ومن هم أعلم به من غيرهم. بخلاف من هو أجنبي عنه, كالأميين, من مشركي العرب وغيرهم, فلا فائدة في استشهادهم, لعدم خبرتهم ومعرفتهم. والله أعلم. تم تفسير سورة الرعد - والحمد لله رب العالمين

سورة إبراهيم

"الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ "
يخبر تعالى, أنه أنزل كتابه على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم, لنفع الخلق, ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة, وأنواع المعاصي, إلى نور العلم والإيمان, والأخلاق الحسنة. وقوله "بِإِذْنِ رَبِّهِمْ " أي لا يحصل منهم المراد المحبوب لله, إلا بإرادة من الله ومعونة. ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم. ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب, فقال: " إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ " أي: الموصل إليه وإلى دار كرامته, المشتمل على العلم بالحق والعمل به. وفي ذكر " العزيز الحميد " بعد ذكر الصراط الموصل إليه, إشارة إلى أن من سلكه, فهو عزيز بعزة الله, قوي, ولو لم يكن له أنصار إلا الله, محمود في أموره, حسن العاقبة.

"اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ "
وليدل ذلك على أن صراط الله, من أكبر الأدلة على ما لله, من صفات الكمال, ونعوت الجلال. وأن الذي نصبه لعباده, عزيز السلطان, حميد, في أقواله, وأفعاله, وأحكامه. وأنه مألوه معبود بالعبادات, التي هي منازل الصراط المستقيم. وأنه كما أن له ملك السماوات والأرض, خلقا ورزقا, وتدبيرا, فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية, لأنهم ملكه, ولا يليق به أن يتركهم سدى. فلما بين الدليل والبرهان, توعد من لم ينقد لذلك فقال : 'وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ 'لا يقدر قدره, ولا يوصف أمره.

"الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ "
ثم وصفهم بأنهم " الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ " فرضوا بها, واطمأنوا, وغفلوا عن الدار الآخرة . 'وَيَصُدُّونَ " الناس 'عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ " التي نصبها لعباده, وبينها في كتبه, وعلى ألسنة رسله, فهؤلاء قد نابذوا مولاهم بالمعاداة والمحاربة . 'وَيَبْغُونَهَا " أي: سبيل الله 'عِوَجًا " أي: يحرصون على تهجينها وتقبيحها, للتنفير منها, ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. " أُولَئِكَ " الذين ذكر وصفهم 'فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ " لأنهم ضلوا, وأضلوا وشاقوا الله ورسوله, وحاربوهم. فأي ضلال أبعد من هذا؟!!. وأما أهل الإيمان, فعكس هؤلاء, يؤمنون بالله وآياته, ويستحبون الآخرة على الدنيا, ويدعون إلى سبيل الله ويحسنونها, مهما أمكنهم, ويبغون استقامتها.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ "
وهذا من لطفه بعباده, أنه ما أرسل رسولا, إلا بلسان قومه, ليبين لهم ما يحتاجون إليه, ويتمكنون من تعلم ما أتى به. بخلاف ما لو أتى على غير لسانهم, فإنهم يحتاجون إلى تلك اللغة, التي يتكلم بها, ثم يفهمون عنه. فإذا بين الرسول ما أمروا به, ونهوا عنه, وقامت عليهم حجة الله, فيضل الله من يشاء, ممن لم ينقد للهدى, ويهدي من يشاء, ممن اختصه برحمته. وهو العزيز الحكيم, الذي - من عزته - أنه انفرد بالهداية والإضلال, وتقليب القلوب إلى ما شاء. ومن حكمته, أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله, إلا بالمحل اللائق به. ويستدل بهذه الآية الكريمة, على أن علوم العربية الموصلة إلى تبيين كلامه وكلام

رسوله, أمور مطلوبة, محبوبة لله, لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها. إلا إذا كان الناس في حالة لا يحتاجون إليها, وذلك إذا تمرنوا على العربية, ونشأ عليها صغيرهم, وصارت طبيعة لهم, فحينئذ قد اكتفوا المؤنة وصلحوا لأن يتلقوا عن الله وعن رسوله, ابتداء, كما تلقى الصحابة "4.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ "
يخبر تعالى: أنه أرسل موسى بآياته العظيمة, الدالة على صدق ما جاء به وصحته, وأمره بما أمر الله به رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم, بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم. " أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ " أي: ظلمات الجهل والكفر وفروعه, إلى نور العلم والإيمان وتوابعه . "وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ " أي: بنعمه عليهم, وإحسانه إليهم وبأيامه في الأمم المكذبين, ووقائعه بالكافرين, ليشكروا نعمه, وليحذروا عقابه. " إِنَّ فِي ذَلِكَ " أي: في أيام الله على العباد "لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ " أي: صبار في الضراء والعسر والضيق, شكور على السراء والنعمة.

"وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ " فإنه يستدل بأيامه, على كمال قدرته, وعميم إحسانه, وتمام عدله وحكمته. ولهذا امتثل موسى عليه السلام أمر ربه, فذكرهم نعم الله فقال: " اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ " أي: بقلوبكم وألسنتكم. " إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ " أي: يولونكم سُوءَ الْعَذَابِ " أي أشده, وفسر ذلك بقوله : "وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ " أي: يبقونهن فلا يقتلونهن . "وَفِي ذَلِكُمْ " الإنجاء "بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ " أي: نعمة عظيمة. أو في ذلكم العذاب, الذي ابتليتم به من فرعون وملأه ابتلاء من الله عظيم لكم, لينظر هل تعتبرون أم لا؟

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ "
وقال لهم - حاثا على شكر نعم الله -: "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ " أي أعلم ووعد . "لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ " من نعمي "وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ " ومن ذلك, أن يزيل عنهم النعمة, التي أنعم بها عليهم. والشكر هو اعتراف القلب بنعم الله, والثناء على الله بها, وصرفها في مرضاة الله تعالى, وكفر النعمة, ضد ذلك.

وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ "
"وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا " فلن تضروا الله شيئا . "فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ " فالطاعات لا تزيد في ملكه, والمعاصي لا تنقص. وهو كامل الغنى, حميد في ذاته, وأسمائه وصفاته, وأفعاله. ليس له من الصفات, إلا كل صفة حمد وكمال. ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن. ولا من الأفعال, إلا كل فعل جميل.

"أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ "
يقول تعالى - مخوفا عباده, ما أحله بالأمم المكذبة, حين جاءتهم الرسل, فكذبوهم, فعاقبهم بالعقاب العاجل, الذي رآه الناس وسمعوه فقال: " أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ". وقد ذكر الله قصصهم في كتابه, وبسطها . "وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ " من كثرتهم, وكون أخبارهم اندرست. فهؤلاء كلهم "جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ " أي: بالأدلة الدالة على صدق ما جاءوا به. فلم يرسل الله رسولا, إلا أتاه من الآيات, ما يؤمن على مثله الشر. فحين أتتهم رسلهم بالبينات لم ينقادوا لها, بل استكبروا عنها . "فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ " أي: لم يؤمنوا بما جاءوا به, ولم يتفوهوا بشيء مما يدل على الإيمان كقوله "يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ". " وَقَالُوا " صريحا لرسلهم: " إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ " أي: موقع في الريبة, وقد كذبوا في ذلك وظلموا.

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ "

ولهذا "قَالَتِ " لهم " رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ " أي: فإنه أظهر الأشياء وأجلاها. فمن شك في الله "فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده, لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات, حتى الأمور المحسوسة. ولهذا خاطبتهم الرسل, خطاب من لا يشك فيه ولا يصلح الريب فيه . "يَدْعُوكُمْ " إلى منافعكم ومصالحكم "لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى " أي: ليثيبكم على الاستجابة لدعوته, بالثواب العاجل والآجل, فلم يدعكم لينتفع بعبادتكم, بل النفع عائد إليكم. فردوا على رسلهم, رد السفهاء الجاهلين "وَقَالُوا " لهم: " إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا " أي: فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة. " تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا " فكيف نترك رأي الآباء وسيرتهم, لرأيكم؟ وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثلنا؟ "فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ " أي: بحجة وبينة ظاهرة. ومرادهم بينة يقترحونها هم, وإلا فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم بالبينات.

"قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ "

"قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ " مجيبين لاقتراحهم واعتراضهم: " إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ " أي: صحيح وحقيقة, إنا بشر مثلكم ., "وَلَكِنْ " ليس في ذلك, ما يدفع ما جئنا به من الحق, فإن " اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ " فإذا من الله علينا بوحيه ورسالته, فذلك فضله وإحسانه, وليس لأحد أن يحجر على الله فضله ويمنعه من تفضله. فانظروا ما جئناكم به, فإن كان حقا, فاقبلوه, وإن كان غير ذلك, فردوه ولا تجعلوا حالنا, حجة لكم على رد ما جئناكم به. وقولكم: " فائتونا بسلطان مبين " فإن هذا ليس بأيدينا, وليس لنا من الأمر شيء . "وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ " فهو الذي إن شاء جاءكم به وإن شاء, لم يأتكم به, وهو لا يفعل إلا ما هو متقضي حكمته ورحمته . "وَعَلَى اللَّهِ "لا على غيره "فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ " فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم, ودفع مضارهم, لعلمهم بتمام كفايته, وكمال قدرته, وعميم إحسانه. ويثقون به, في تيسير ذلك, وبحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم.

وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ "

فعلم بهذا, وجوب التوكل, وأنه من لوازم الإيمان, ومن العبادات الكبار, التي يحبها الله ويرضاها, لتوقف سائر العبادات عليه . "وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا " أي: أي شيء يمنعنا من التوكل على الله, والحال, أننا على الحق والهدى. ومن كان على الحق والهدى, فإن هداه, يوجب له تمام التوكل. وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدي وكفايته, يدعو إلى ذلك. بخلاف من لم يكن على الحق والهدى, فإنه ليس ضامنا على الله, فإن حاله مناقضة لحال المتوكل. وفي هذا كالإشارة من الرسل, عليهم الصلاة والسلام لقومهم, بآية عظيمة. وهو أن قومهم - في الغالب - أن لهم القهر والغلبة عليهم. فتحدثهم رسلهم, بأنهم متوكلون على الله, في دفع كيدهم ومكرهم, وجازمون بكفايته إياهم. وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم, وإطفاء ما معهم من الحق. فيكون هذا, كقول نوح لقومه: " يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله, فعلى الله توكلت, فأجمعوا أمركم وشركاءكم, ثم لا يكن أمركم عليكم غمة, ثم اقضوا إلي ولا تنظرون " الآيات. وقول هود عليه السلام " إني أشهد الله واشهدوا, أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون ". "وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا " أي: ولنستمرن على دعوتكم, ووعظكم, وتذكيركم, ولا نبالي بما يأتينا منكم, من الأذى, فإنا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى, احتسابا للأجر, ونصحا لكم, لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير . "وَعَلَى اللَّهِ " وحده لا على غيره "فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ " فإن التوكل عليه, مفتاح لكل خير. واعلم أن الرسل, عليهم الصلاة والسلام, توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب, وهو التوكل على الله, في إقامة دينه ونصره, وهداية عبيده, وإزالة الضلال عنهم, وهذا أكمل ما يكون من التوكل.

"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ "
لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على ذلك, وعدم مللهم, ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم فقال : "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ " متوعدين لهم - "لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا " وهذا أبلغ ما يكون من الرد, وليس بعد هذا فيهم, مطمع. لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى, بل توعدوهم بالإخراج من ديارهم ونسبوها إلى أنفسهم, وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها. وهذا من أعظم الظلم, فإن الله أخرج عباده إلى الأرض, وأمرهم بعبادته, وسخر لهم الأرض وما عليها, يستعينون بها على عبادته. فمن استعان بذلك على عبادة الله, حل له ذلك, وخرج من التبعة. ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصي, لم يكن ذلك خالصا له, ولم يحل له. فعلم أن أعداء الرسل في الحقيقة, ليس لهم شيء من الأرض, التي توعدوا الرسل بإخراجهم منها. وإن رجعنا إلى مجرد العادة, فإن الرسل من جملة أهل بلادهم, وأفراد منهم. فلأي شيء يمنعونهم حقا لهم, صريحا واضحا؟!! هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة بالكلية؟ ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسل إلى هذه الحال, ما بقي حينئذ, إلا أن يمضي الله أمره, وينصر أولياءه. " فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ " بأنواع العقوبات.

"وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ "
"وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ " أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسل ومن تبعهم, جزاء "لِمَنْ خَافَ مَقَامِي " عليه في الدنيا, وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه. " وَخَافَ وَعِيدِ " أي: ما توعدت به من عصاني, فأوجب له ذلك, الانكفاف عما يكرهه الله, والمبادرة إلى ما يحبه الله.

"وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ "
"وَاسْتَفْتَحُوا " أي: الكفار, أي: هم الذين طلبوا, واستعجلوا فتح الله وفرقانه, بين أوليائه وأعدائه, فجاءهم ما استفتحوا به, وإلا فالله عليم حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة. " وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ " أي: خسر في الدنيا والآخرة, من تجبر على الله وعلى الحق, وعلى عباد الله, واستكبر في الأرض, وعاند الرسل, وشاقهم.

"مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ "
"مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ " أي: جهنم لهذا الجبار العنيد بالمرصاد, فلا بد له من ورودها, فيذاق حينئذ العذاب الشديد . "وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ " في لونه, وطعمه, ورائحته الخبيثة, وهو في غاية الحرارة.

"يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ "
"يَتَجَرَّعُهُ " من العطش الشديد "وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ " فإنه إذا قرب إلى وجهه, شواه, وإذا وصل إلى بطنه, قطع ما أتى عليه من الأمعاء . "وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ " أي: يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب, وكل نوع منه, من شدته يبلغ إلى الموت ولكن الله قضى أن لا يموتوا كما قال تعالى : لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور * " وهم يصطرخون فيها ". "وَمِنْ وَرَائِهِ " أي: الجبار العنيد "عَذَابٍ غَلِيظٍ " أي: قوي شديد لا يعلم وصفه وشدته, إلا الله تعالى.

"مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ "
يخبر تعالى عن أعمال الكفار التي عملوها: إما أن المراد بها, الأعمال التي عملوها لله, بأنها في ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد, الذي هو أدق الأشياء وأخفها, إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب, فإنه لا يبقى منه شيئا, ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل. فكذلك أعمال الكفار " لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ " ولا على مثقال ذرة منه, لأنه مبني على الكفر والتكذيب . "ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ " حيث

بطل سعيهم, واضمحل عملهم. وإما أن المراد بذلك, أعمال الكفار التي عملوها, ليكيدوا بها الحق. فإنهم يسعون ويكدحون في ذلك, ومكرهم عائد عليهم, ولن يضروا الله ورسله وجنده وما معهم, من الحق شيئا.
"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ "
ينبه تعالى عباده بأن " اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ " أي: ليعبده الخلق ويعرفوه, ويأمرهم وينهاهم, وليستدلوا بهما, وما فيهما, على ما له, من صفات الكمال. وليعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض - على عظمهما وسعتهما - قادر على أن يعيدهم خلقا جديدا, ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم, وأن قدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك, ولهذا قال: " إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ". يحتمل أن المعنى: إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم, يكونون أطوع لله منكم. ويحتمل أن المراد: إن يشأ يفنيكم, ثم يعيدكم بالبعث خلقا جديدا. ويدل على هذا الاحتمال, ما ذكره بعده, من أحوال يوم القيامة.

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ "
"وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ " أي: بممتنع بل هو سهل عليه جدا. " ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة " " وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ".

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ "
"وَبَرَزُوا " أي: الخلائق "لِلَّهِ جَمِيعًا " حين ينفخ في الصور, فيخرجون من الأجداث إلى ربهم, فيقفون في أرض مستوية, قاع صفصف لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ويبرزون له لا يخفى عليه منهم خافية. فإذا برزوا, صاروا يتحاجون, وكل يدفع عن نفسه, ويدافع ما يقدر عليه ولكن أني لهم ذلك؟ "فَقَالَ الضُّعَفَاءُ " أي: التابعون والمقلدون "لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا " وهم: المتبوعون, الذين هم قادة في الضلال: " إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا " أي: في الدنيا, أمرتمونا بالضلال, وزينتموه لنا, فأغويتمونا . "فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ " أي: ولو مثقال ذرة . "قَالُوا " أي: المتبوعون والرؤساء " أغويناكم كما غوينا " و "لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ " فلا يغني أحد أحدا .سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا " من العذاب " أَمْ صَبَرْنَا " عليه . "مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ " أي لا ملجأ نلجأ إليه, ولا مهرب لنا من عذاب الله.

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "
أي : "وَقَالَ الشَّيْطَانُ " الذي هو سبب لكل شر يقع ووقع في العالم, مخاطبا لأهل النار, ومتبرئا منهم "لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ " ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار: " إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ " على ألسنة رسله, فلم تطيعوه, فلو أطعتموه, لأدركتم الفوز العظيم. " وَوَعَدْتُكُمْ " الخير "فَأَخْلَفْتُكُمْ " أي: لم يحصل, ولن يحصل لكم ما منيتكم به, من الأماني الباطلة . "وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ " أي: من حجة على تأييد قولي. " إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي " أي: هذه نهاية ما عندي, أني دعوتكم إلى مرادى, وزينته لكم, فاستجبتم لي, اتباعا لأهوائكم وشهواتكم. فإذا كانت الحال بهذه الصورة "فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ " فأنتم السبب, وعليكم المدار في موجب العقاب . "مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ " أي: بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها "وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ " كل له قسط من العذاب. " إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ " أي: تبرأت من جعلكم لي شريكا مع الله, فلست شريكا لله, ولا تجب طاعتي. " إِنَّ الظَّالِمِينَ " لأنفسهم بطاعة الشيطان "لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " خالدين فيه أبدا. وهذا من لطف الله بعباده, أن حذرهم من طاعة الشيطان وأخبر بمداخله, التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه, وأنه يقصد أن يدخله النيران. وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار هو وجنده, أنه يتبرأ منهم هذه البراءة, ويكفر بشركهم " ولا ينبئك مثل خبير ". واعلم أن الله ذكر في هذه الآية, أن الشيطان ليس له سلطان. وقال في آية أخرى " إنما سلطانه على الذين يتولونه, والذين هم به مشركون ". فالسلطان الذي نفاه عنه, هو سلطان الحجة والدليل. فليس له حجة أصلا, على ما يدعو إليه. وإنما نهاية ذلك,

أن يقيم من الشبه والتزيينات, ما به يتجرأون على المعاصي. وأما السلطان, الذي أثبته, فهو التسلط بالإغراء على المعاصي لأوليائه يؤزهم إلى المعاصي أزا, وهم الذين سلطوه على أنفسهم, بموالاته, والالتحاق بحزبه. ولهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

"وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ "
ولما ذكر عقاب الظالمين, ذكر ثواب الطائعين فقال : "وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ " أي: الذين قاموا بالدين, قولا, وعملا, واعتقادا . "جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ " فيها من اللذات والشهوات, ما لا عين رأت, ولا أذن سمعت, ولا خطر على قلب بشر. " خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ " أي لا بحولهم وقوتهم, بل بحول الله وقوته . "تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ " أي: يحيي بعضهم بعضا بالسلام, والتحية, والكلام الطيب.

"أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ "
يقول تعالى: " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً " وهي شهادة أن لا إله إلا الله, وفروعها . "كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ " وهي النخلة " أَصْلُهَا ثَابِتٌ " في الأرض "وَفَرْعُهَا " منتشر " فِي السَّمَاءِ " وهي كثيرة النفع دائما . "تُؤْتِي أُكُلَهَا " أي ثمرتها "كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ".
فكذلك شجرة الإيمان, أصلها ثابت في قلب المؤمن, علما, واعتقادا. وفرعها من الكلم الطيب, والعمل الصالح, والأخلاق المرضية, والآداب الحسنة, في السماء دائما, يصعد إلى الله منه, من الأعمال والأقوال, التي تخرجها شجرة الإيمان, ما ينتفع به المؤمن, وينتفع غيره . "وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ " ما أمرهم به ونهاهم عنه. فإن في ضرب الأمثال, تقريبا للمعاني المعقولة, من الأمثال المحسوسة, ويتبين المعنى الذي أراده الله, غاية البيان, ويتضح, غاية الوضوح, وهذا من رحمته, وحسن تعليمه. فلله أتم الحمد وأكمله وأعمه. فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها, في قلب المؤمن.
"وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ "
ثم ذكر ضدها وهي: كلمة الكفر, وفرعها فقال : "وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ " المأكل والمطعم, وهي: شجرة الحنظل ونحوها. " اجْتُثَّتْ " هذه الشجرة "مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ " أي: ثبوت فلا عروق تمسكها, ولا ثمرة صالحة, تنتجها, بل إن وجد فيها ثمرة, فهي ثمرة خبيثة. كذلك كلمة الكفر والمعاصي, ليس لها ثبوت نافع في القلب, ولا تثمر إلا كل قول خبيث, وعمل خبيث, يؤذي صاحبه, ولا يصعد إلى الله منه عمل صالح, ولا ينفع نفسه ولا ينتفع به غيره.

"يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ "
يخبر تعالى: أنه يثبت عباده المؤمنين أي: الذين قاموا بما عليهم من الإيمان القلبي التام, الذي يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها. فيثبتهم الله في الحياة الدنيا, عند ورود الشبهات, بالهداية إلى اليقين. وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة, على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومرادها. وفي الآخرة عند الموت, بالثبات على الدين الإسلامي, والخاتمة الحسنة. وفي القبر عند سؤال الملكين, للجواب الصحيح, إذا قيل للميت " من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ " هداهم للجواب الصحيح, بأن يقول المؤمن: " الله ربي, والإسلام ديني, ومحمد نبيي ". "وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ " عن الصواب في الدنيا والآخرة, وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم. وفي هذه الآية, دلالة على فتنة القبر, وعذابه, ونعيمه, كما تواترت بذلك النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم, في الفتنة وصفتها, ونعيم القبر وعذابه.

"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ "
يقول تعالى - مبينا حال المكذبين لرسوله, من كفار قريش, وما آل إليه أمرهم: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا " ونعمة الله هي: إرسال محمد صلى الله عليه وسلم, إليهم يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة, وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة. فبدلوا هذه النعمة, بردها, والكفر بها والصد عنها, بأنفسهم. وصدهم غيرهم حتى

"وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ " وهي: النار, حيث تسببوا لإضلالهم, فصاروا وبالا على قومهم, من حيث يظن نفعهم. ومن ذلك أنهم, زينوا لهم الخروج يوم " بدر " ليحاربوا الله ورسوله. فجرى عليهم ما جرى, وقتل كثير من كبرائهم وصناديدهم, في تلك الوقعة.

"جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ "
"جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا " أي: يحيط بهم حرها, من جميع جوانبهم "وَبِئْسَ الْقَرَارُ "

"وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ "
"وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا " أي: نظراء وشركاء "لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ " أي: ليضلوا العباد عن سبيل الله, بسبب ما جعلوا الله من الأنداد, ودعوهم إلى عبادتها . "قُلْ " لهم متوعدا : "تَمَتَّعُوا " بكفرهم وضلالكم قليلا, فليس ذلك بنافعكم . "فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ " أي: مآلكم ومأواكم فيها, وبئس المصير.

"قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ "
أي : "قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا " آمرا لهم بما فيه غاية صلاحهم, وأن ينتهزوا الفرصة, قبل أن لا يمكنهم ذلك : "يُقِيمُوا الصَّلَاةَ " ظاهرا وباطنا "وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ " أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم, قليلا أو كثيرا "سِرًّا وَعَلَانِيَةً ". وهذا يشمل النفقة الواجبة, كالزكاة, ونفقة من تجب عليه نفقته, والمستحبة, كالصدقات ونحوها . "مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ " أي لا ينفع فيه شيء, ولا سبيل إلى استدراك ما فات لا بمعاوضة بيع وشراء, ولا بهبة خليل وصديق. فكل امرئ له شأن يغنيه. فليقدم العبد لنفسه, ولينظر ما قدمه لغد, وليتفقد أعماله, ويحاسب نفسه, قبل الحساب الأكبر.

"اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ "
يخبر تعالى: أنه وحده " الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ " على اتساعهما وعظمهما. " وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً " وهو: المطر الذي ينزله الله من السحاب . "فَأَخْرَجَ بِهِ " أي: بذلك الماء "مِنَ الثَّمَرَاتِ " المختلفة الأنواع . "رِزْقًا لَكُمْ " ورزقا لأنعامكم "وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ " أي: السفن والمراكب . "لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ " فهو الذي يسر لكم صنعتها, وأقدركم عليها, وحفظها على تيار الماء, لتحملكم, وتحمل تجاراتكم وأمتعتكم, إلى بلد تقصدونه. " وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ " لتسقي حروثكم وأشجاركم, وتشربوا منها.

"وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ "
"وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ " لا يفتران, ولا ينيان, يسعيان لمصالحكم, من حساب أزمنتكم ومصالح أبدانكم, وحيواناتكم, وزروعكم, وثماركم . "وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ " لتسكنوا فيه "وَالنَّهَارِ " مبصرا, لتبتغوا من فضله.

"وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ "
"وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ " أي: أعطاكم من كل ما تعلقت به أمانيكم وحاجتكم, مما تسألونه إياه. بلسان الحال, أو بلسان المقال, من أنعام, وآلات, وصناعات وغير ذلك. " وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا " فضلا عن قيامكم بشكرها " إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ " أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرئ على المعاصي, مقصر في حقوق ربه, كفار لنعم الله لا يشكرها ولا يعترف بها, إلا من هداه الله, فشكر نعمه, وعرف حق ربه, وقام به. ففي هذه الآيات, من أصناف نعم الله على العباد, شيء عظيم, مجمل, ومفصل, يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره, ويحثهم على ذلك, ويرغبهم في سؤاله ودعائه, آناء الليل والنهار, كما أن نعمته, تتكرر عليهم, في جميع الأوقات.

"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ "
أي: واذكر إبراهيم, عليه الصلاة والسلام, في هذه الحالة الجميلة . "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ " أي: الحرم " آمِنًا ". فاستجاب الله دعاءه شرعا وقدرا, فحرمه الله في

الشرع, ويسر من أسباب حرمته, قدرا, ما هو معلوم. حتى إنه لم يرده ظالم بسوء, إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم. ولما دعا له بالأمن, دعا له ولبنيه بالأمن فقال : "وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ". أي: اجعلني وإياهم, جانبا بعيدا عن عبادها, والإلمام بها. ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه, بكثرة من افتتن وابتلى بعبادتها, فقال:

"رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ "
"رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ " أي: ضلوا بسببها . "فَمَنْ تَبِعَنِي " على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين "فَإِنَّهُ مِنِّي " لتمام الموافقة ومن أحب قوما واتبعهم, التحق بهم . "وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ " وهذا من شفقة الخليل, عليه الصلاة والسلام, حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله, والله تبارك وتعالى, أرحم منه بعباده لا يعذب إلا من تمرد عليه.

"رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ "
"رُبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ " وذلك أنه أتى ب " هاجر " أم إسماعيل وبابنها إسماعيل, عليه الصلاة والسلام, وهو في الرضاع, من الشام, حتى وضعهما في مكة, وهي - إذ ذاك - ليس فيها سكن, ولا داع, ولا مجيب. فلما وضعهما, دعا ربه بهذا الدعاء, فقال - متضرعا متوكلا على ربه : "رُبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي " أي: لا كل ذريتي, لأن إسحاق في الشام, وباقي بنيه كذلك, وإنما أسكن في مكة, إسماعيل وذريته. وقوله : "بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ " أي: لأن أرض مكة لم يكن فيها ماء . "رُبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ " أي: اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة, لأن إقامة الصلاة من أخص, وأفضل العبادات الدينية, فمن أقامها, كان مقيما لدينه . "فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ " أي: تحبهم, وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه. فأجاب الله دعاءه, فأخرج من ذرية إسماعيل, محمدا صلى الله عليه وسلم, حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي, وإلى ملة أبيهم إبراهيم, فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة. وافترض الله حج هذا البيت, الذي أسكن به ذرية إبراهيم, وجعل فيه سرا عجيبا, جاذبا للقلوب, فهي تحجه, ولا تقضي منه وطرا على الدوام. بل كلما أكثر العبد التردد إليه, ازداد شوقه, وعظم ولعه وتوقه. وهذا سر إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة . "وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ " فأجاب الله دعاءه. فصار يجبي إليه, ثمرات كل شيء. فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت, والثمار فيها متوفرة, والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب.

"رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ "
"رُبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ " أي: أنت أعلم بنا منا. فنسألك من تدبيرك وتربيتك لنا, أن تيسر لنا من الأمور التي نعلمها, والتي لا نعلمها, ما هو مقتضى علمك ورحمتك . "وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ " ومن ذلك, هذا الدعاء الذي لم يقصد به الخليل إلا الخير, وكثرة الشكر لله رب العالمين.

"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ "
" الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ " فذلك من أكبر النعم. وكونه على الكبر, في حال الإياس من الأولاد, نعمة أخرى. وكونهم أنبياء صالحين, أجل وأفضل.
" إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ " أي: لقريب الإجابة, ممن دعاه, وقد دعوته, ولم يخيب رجائي.

"رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ "
ثم دعا لنفسه ولذريته فقال : "رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ". فاستجاب الله له في ذلك كله, إلا أن دعاءه لأبيه, إنما كان عن موعدة وعده إياه, فلما تبين له أنه عدو لله, تبرأ منه. ثم قال تعالى : "وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا " إلى "وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ".

"وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ "
هذا وعيد شديد للظالمين, وتسلية للمظلومين. يقول تعالى : "وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ " حيث أمهلهم وأدر عليهم الأرزاق, وتركهم يتقلبون في البلاد, آمنين مطمئنين. فليس في هذا, ما يدل على حسن حالهم, فإن الله يملي للظالم ويمهله, ليزداد إثما, حتى إذا أخذه, لم يفلته " وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ". والظلم - ههنا - يشمل الظلم فيما بين العبد وربه, وظلمه لعباد الله. " إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ " أي لا تطرف من شدة ما ترى, من الأهوال وما أزعجها من القلاقل.

"مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ "
"مُهْطِعِينَ " أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله الحساب لا امتناع لهم ولا محيص, ولا ملجأ . "مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ " أي: رافعيها قد غلت أيديهم إلى الأذقان, فارتفعت لذلك, رءوسهم. " لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ " أي: أفئدتهم فارغة من قلوبهم, قد صعدت إلى الحناجر, لكنها مملوءة من كل هم وغم, وحزن وقلق.

"وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ "
يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : "وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ " أي: صف لهم تلك الحال, وحذرهم من الأعمال الموجبة للعذاب, الذي حين يأتي في شدائده وقلاقله . "فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا " بالكفر والتكذيب, وأنواع المعاصي, نادمين على ما فعلوا, سائلين للرجعة في غير وقتها . "رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ " أي: ردنا إلى الدنيا, فإنا قد أبصرنا . "نُجِبْ دَعْوَتَكَ " والله يدعو إلى دار السلام "وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ " وهذا كله, لأمل التخلص من العذاب الأليم, وإلا فهم كذبة في هذا الوعد " فلو ردوا, لعادوا لما نهوا عنه ". ولهذا يوبخون ويقال لهم: " أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ " عن الدنيا, وانتقال إلى الآخرة, فها, قد تبين لكم حنثكم. في إقسامكم, وكذبكم فيما تدعون. وليس عملكم قاصرا في الدنيا من أجل الآيات البينات. بل "وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ " من أنواع العقوبات؟ وكيف أحل الله بهم العقوبات, حين كذبوا بالآيات البينات, وضربنا لكم الأمثال الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته. فلم تنفع فيكم تلك الآيات, بل أعرضتم, ودمتم على باطلكم, حتى صار ما صار: ووصلتم إلى هذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار, من اعتذر بباطل.

"وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ "
"وَقَدْ مَكَرُوا " أي: المكذبون للرسل "مَكْرُهُمْ " الذي وصلت إليه إرادتهم, وقدروا عليه. " وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ " أي: هو محيط به علما وقدرة, وقد عاد مكرهم عليهم " ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله " "وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ " أي: ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسل, بالحق, وبمن جاء به - من عظمه - لتزول الجبال الراسيات بسببه, عن أماكنها. أي: " مكروا مكرا كبارا "لا يقادر قدره ولكن الله رد كيدهم في نحورهم. ويدخل في هذا, كل من مكر من المخالفين للرسل, لينصر باطلا, أو يبطل حقا. والقصد أن مكرهم, لم يغن عنهم شيئا, ولم يضروا الله شيئا, وإنما ضروا أنفسهم.

"فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ "
يقول تعالى : "فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ " بنجاتهم, ونجاة أتباعهم وسعادتهم, وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا, وعقابهم في الآخرة. فهذا لا بد من وقوعه, لأنه وعد به الصادق قولا, على ألسنة أصدق خلقه, وهم: الرسل, وهذا أعلى ما يكون من الأخبار. خصوصا, وهو مطابق للحكمة الإلهية, والسنن الربانية, وللعقول الصحيحة. و " إِنَّ اللَّهَ "لا يعجزه شيء, فإنه "عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ".

"يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ "
أي: إذا أراد أن ينتقم من أحد, فإنه لا يفوته ولا يعجزه, وذلك في يوم القيامة . "يَوْمَ تُبَدَّلُ

الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ " تبدل غير السماوات. وهذا التبديل, تبديل صفات لا تبديل ذات, فإن الأرض يوم القيامة تسوي وتمد كمد الأديم, ويلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم, فتصير قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا. وتكون السماء, كالمهل, من شدة أهوال ذلك اليوم, ثم يطويها الله تعالى بيمينه . "وَبَرَزُوا " أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم, ونشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء . "لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ " أي: المنفرد بعظمته وأسمائه وصفاته, وأفعاله العظيمة, وقهره لكل العوالم فكلها تحت تصرفه وتدبيره, فلا يتحرك منها متحرك, ولا يسكن ساكن إلا بإذنه.

وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ "
"وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ " أي: الذين وصفهم الإجرام, وكثرة الذنوب . "يَوْمَئِذٍ " في ذلك اليوم " مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ " أي: يسلسل كل أهل عمل من المجرمين, بسلاسل من نار, فيقادون إلى العذاب, في أذل صورة وأشنعها, وأبشعها.

سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ "
سَرَابِيلُهُمْ " أي: ثيابهم "مِنْ قَطِرَانٍ " وذلك لشدة اشتعال النار فيهم وحرارتها, ونتن ريحها . "وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ " التي هي أشرف ما في أبدانهم " النَّارَ " أي: تحيط بها, وتصلاها من كل جانب, وغير الوجوه من باب أولى وأحرى. وليس هذا ظلما من الله, وإنما هو جزاء لما قدموا وكسبوا, ولهذا قال تعالى : "لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ " من خير وشر, بالعدل والقسط, " إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ " كقوله تعالى: " اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ". ويحتمل أن معناه: سريع المحاسبة, فيحاسب الخلق في ساعة واحدة كما يرزقهم ويدبرهم بأنواع التدابير, في لحظة واحدة لا يشغله شأن عن شأن, وليس ذلك بعسير عليه.

هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ "
فلما بين البيان المبين في هذا القرآن, قال في مدحه : "هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ " أي: يتبلغون به, ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات, لما اشتمل عليه من الأصول والفروع, وجميع العلوم التي يحتاجها العباد . "وَلِيُنْذَرُوا بِهِ " لما فيه من الترهيب من أعمال الشر, وما أعد الله لأهلها من العقاب . "وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ " حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين, على ألوهيته ووحدانيته, ما صار ذلك حق اليقين . "وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ " أي: العقول الكاملة, ما ينفعهم, فيفعلونه وما يضرهم, فيتركونه, وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر. إذ بالقرآن, ازدادت معارفهم وآراؤهم, وتنورت أفكارهم, لما أخذوه غضا طريا, فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها. ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها. وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكي, لم يزل في صعود ورقي على الدوام في كل خصلة حميدة. والحمد لله رب العالمين. تم تفسير سورة إبراهيم الخليل, عليه الصلاة والسلام.

سورة الحجر

"الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ "
يقول تعالى - معظما لكتابه, مادحا له : "تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ " أي: الآيات الدالة على أحسن المعاني, وأفضل المطالب . "وَقُرْآنٍ مُبِينٍ " للحقائق, بأحسن لفظ وأوضحه, وأدله على المقصود. وهذا مما يوجب على الخلق, الانقياد إليه, والتسليم لحكمه وتلقيه بالقبول, والفرح والسرور.

رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ "
فأما من قابل هذه النعمة العظيمة بردها, والكفر بها, فإنه من المكذبين الضالين, الذين سيأتي عليهم وقت, يتمنون أنهم مسلمون, أي: منقادون لأحكامه, وذلك حين ينكشف الغطاء, وتظهر أوائل الآخرة, ومقدمات الموت فإنهم في أحوال الآخرة كلها, يتمنون أنهم مسلمون, وقد فات وقت الإمكان. ولكنهم في هذه الدنيا مغترون.

" ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ "
" ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا " بلذاتهم " وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ " أي: يؤملون البقاء في الدنيا, فيلهيهم عن الآخرة . " فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ " أن ما هم عليه باطل, وأن أعمالهم ذهبت خسرانا عليهم, ولا يغتروا بإمهال الله تعالى, فإن هذه, سنته في الأمم.

" وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ "
" وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ " كانت مستحقة للعذاب " إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ " مقدر لإهلاكها.

" مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ "
" مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ " وإلا, فالذنوب لا بد من وقوع أثرها, وإن تأخر.

" وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ "
أي: وقال المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم, استهزاء وسخرية: " يا أيها الذي نزل عليه الذكر " على زعمك " إنك لمجنون " إذ تظن أنا سنتبعك, ونترك ما وجدنا عليه آباءنا, لمجرد قولك: " لو ما تأتينا بالملائكة " يشهدون لك بصحة ما جئت به " إن كنت من الصادقين " فلما لم تأت بالملائكة, فلست بصادق. وهذا من أعظم الظلم والجهل. أما الظلم, فظاهر, فإن هذا تجرؤ على الله وتعنت بتعيين الآيات, التي لم يخترها, وحصل المقصود والبرهان بدونها, من الآيات الكثيرة, الدالة على صحة ما جاء به. وأما الجهل, فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرتهم. فليس في إنزال الملائكة, خير لهم, بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي لا إمهال على من لم يتبعه وينقد له. " وما كانوا إذا " أي: حين تنزل الملائكة, إن لم يؤمنوا, ولن يؤمنوا " منظرين " أي: بمهملين. فصار طلبهم لإنزال الملائكة, تعجيلا لأنفسهم بالهلاك والدمار. فإن الإيمان ليس في أيديهم, وإنما هو بيد الله. " ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله, ولكن أكثرهم يجهلون " ويكفيهم من الآيات, إن كانوا صادقين, هذا القرآن العظيم ولهذا قال هنا:

" إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ "
" إنا نحن نزلنا الذكر " أي: القرآن الذي فيه ذكرى لكل شيء, من المسائل والدلائل الواضحة, وفيه يتذكر من أراد التذكر. " وإنا له لحافظون " أي: في حال إنزاله, وبعد إنزاله. ففي حال إنزاله حافظون له, من استراق كل شيطان رجيم. وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله, واستودعه في قلوب أمته, وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها, والزيادة والنقص, ومعانيه, من التبديل. فلا يحرف محرف معنى من معانيه, إلا وقيض الله له من يبين الحق المبين. وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين. ومن حفظه: أن الله يحفظ أهله من أعدائهم, ولا يسلط عدوا يجتاحهم.

" وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ "
يقول تعالى لنبيه إذ كذبه المشركون: لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية: " ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ". أي, فرقهم وجماعتهم, رسلا.

" وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ "
" وما يأتيهم من رسول " يدعوهم إلى الحق والهدى " إلا كانوا به يستهزئون ". " كذلك نسلكه " أي: ندخل التكذيب " في قلوب المجرمين " أي: الذين وصفهم الظلم والبهت, عاقبناهم لما تشابهت قلوبهم بالكفر والتكذيب, وتشابهت معاملتهم لأنبيائهم, ورسلهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان, ولهذا قال : " لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين " أي: عادة الله فيهم, بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله.

" وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ "
أي: ولو جاءتهم كل آية عظيمة, لم يؤمنوا وكابروا. " ولو فتحنا عليهم بابا من السماء " فصاروا يعرجون فيه, ويشاهدونه, عيانا بأنفسهم, لقالوا - من ظلمهم وعنادهم, منكرين لهذه الآية: - " إنما سكرت أبصارنا " أي: أصابها سكر وغشاوة, حتى رأينا ما لم نر " بل

نحن قوم مسحورون " أي: ليس هذا بحقيقة, بل هذا سحر. وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار, فإنهم لا مطمع فيهم ولا رجاء. ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال: " ولقد جعلنا في السماء بروجا " إلى " برازقين ".

"وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ "
يقول تعالى - مبينا كمال اقتداره ورحمته بخلقه: " ولقد جعلنا في السماء بروجا " أي: نجوما كالأبراج, والأعلام العظام يهتدى بها في ظلمات البر والبحر. " وزيناها للناظرين ", فإنه لولا النجوم, لما كان للسماء هذا المنظر البهي, والهيئة العجيبة. وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها, والنظر في معانيها, والاستدلال بها, على باريها.

وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ "
" وحفظناها من كل شيطان رجيم " إذا استرق السمع, أتبعته الشهب الثواقب, فبقيت السماء, ظاهرها, مجملا بالنوم النيرات, وباطنها, محروسا ممنوعا, من الآفات.

"إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ "
" إلا من استرق السمع " أي: في بعض الأوقات, قد يسترق بعض الشياطين السمع, بخفية واختلاس. " فأتبعه شهاب مبين " أي: بين منير, يقتله, أو يخبله. فربما أدركه الشهاب, قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه, فينقطع خبر السماء عن الأرض. وربما ألقاها إلى وليه, قبل أن يدركه الشهاب, فيضهما ويكذب معها مائة كذبة. ويستدل بتلك الكلمة التي, سمعت من السماء.

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ "
" والأرض مددناها " أي وسعناها سعة, يتمكن الآدميون والحيوانات كلها, من الامتداد بأرجائها, والتناول من أرزاقها, والسكون في نواحيها. " وألقينا فيها رواسي " أي: جبالا عظاما, تحفظ الأرض بإذن الله, أن تميد, وتثبها أن تزول. " وأنبتنا فيها من كل شيء موزون " أي: نافع متقوم, يضطر إليه العباد والبلاد, ما بين نخيل, وأعناب, وأصناف الأشجار, وأنواع النبات, والمعادن.

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ "
" وجعلنا لكم فيها معايش " من الحرث, ومن الماشية, ومن أنواع المكاسب والحرف. " ومن لستم له برازقين " أي: أنعمنا عليكم بعبيد وإماء, وأنعام, لنفعكم, ومصالحكم, وليس عليكم رزقها, بل خولكم الله إياها, وتكفل بأرزاقها.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ "
أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار لا يملكها أحد إلا الله. فخزائنها بيده, يعطي من يشاء, ويمنع من يشاء, بحسب حكمته ورحمته الواسعة . 'وَمَا نُنَزِّلُهُ " أي: المقدر من كل شيء, من مطر وغيره. " إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ " فلا يزيد على ما قدره الله, ولا ينقص منه.

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ "
أي: وسخرنا الرياح, رياح الرحمة, تلقح السحاب, كما يلقح الذكر الأنثى. فينشأ عن ذلك, الماء, بإذن الله, فيسقيه الله العباد, ومواشيهم, وأرضهم, ويبقى في الأرض مدخرا لحاجاتهم وضروراتهم, ما هو مقتضى قدرته ورحمته . 'وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ " أي لا قدرة لكم على خزنه وادخاره. ولكن الله يخزنه لكم, ويسلكه ينابيع في الأرض, رحمة بكم, وإحسانا إليكم.

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ "
أي: هو وحده لا شريك له, الذي يحيي الخلق من العدم, بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ويميتهم لآجالهم, التي قدرها 'وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ " كقوله: " إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ". وليس ذلك بعزيز, ولا ممتنع على الله, فإنه تعالى يعلم المستقدمين من الخلق والمستأخرين منهم, ويعلم ما تنقص الأرض منهم, وما تفرق من أجزائهم. وهو

الذي, قدرته لا يعجزها معجز, فيعيد عباده خلقا جديدا, ويحشرهم إليه. " إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ " يضع الأشياء مواضعها, وينزلها منازلها, ويجازي كل عامل بعمله, إن خيرا فخير, وإن شرا فشر.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ "
يذكر تعالى نعمته وإحسانه على أبينا آدم عليه السلام, وما جرى من عدوه إبليس, وفي ضمن ذلك, التحذير لنا من شره وفتنته, فقال تعالى : "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ " أي آدم عليه السلام "مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ " أي: من طين قد يبس, بعد ما خمر حتى صار له صلصلة وصوت, كصوت الفخار. والحمأ المسنون, الطين المتغير لونه وريحه, من طول مكثه.

وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ "
"وَالْجَانَّ " وهو: أبو الجن أي: إبليس "خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ " خلق آدم "مِنْ نَارِ السَّمُومِ " أي: من النار الشديدة الحرارة.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ "
فلما أراد الله خلق آدم قال للملائكة: " إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ " جسدا تاما "وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ " فامتثلوا أمر ربهم

فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ "
"فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ". تأكيد بعد تأكيد, ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد, وذلك, تعظيما لأمر الله, وإكراما لآدم, حيث علم ما لم يعلموا.

"إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ "
" إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ " وهذا أول عداوته لآدم وذريته. قال الله : "قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ". فاستكبر على أمر الله, وأبدى العداوة لآدم وذريته, وأعجب بعنصره وقال: أنا خير من آدم.

"قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ "
"قَالَ " الله - معاقبا له على كفره واستكباره - "فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ". أي: مطرود ومبعد من كل خير . "وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ " أي: الذم, والعيب, والبعد عن رحمة الله " إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ". ففيها, وما أشبهها, دليل على أنه سيستمر على كفره, وبعده من الخير.

قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ "
"قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي " أي: أمهلني " إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ". وليس إجابة الله لدعائه, كرامة في حقه, وإنما ذلك, امتحان وابتلاء من الله له وللعباد, ليتبين الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه, ممن ليس كذلك. ولذلك حذرنا منه, غاية التحذير, وشرح لنا, ما يريده منا.

قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ "
"قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ " أي: أزين لهم الدنيا, وأدعوهم إلى إيثارها على الأخرى, حتى يكونوا منقادين لكل معصية.

"إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ "
"وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ " أي: أصدهم كلهم عن الصراط المستقيم. " إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ " أي: الذين أخلصتهم واجتبيتهم, لإخلاصهم, وإيمانهم, وتوكلهم.

قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ "
قال الله تعالى : "هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ " أي: معتدل موصل إلي, وإلى دار كرامتي.

"إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ "
" إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ " تميلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات, بسبب عبوديتهم لربهم, وانقيادهم لأوامره, أعانهم الله وعصمهم من الشيطان. " إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ " فرضي بولايتك وطاعتك, بدلا من طاعة الرحمن . "مِنَ الْغَاوِينَ " والغاوي: ضد الراشد, فهو: الذي عرف الحق وتركه. والضال: الذي تركه من غير علم منه به.

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ "
"وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ " أي: إبليس وجنوده . "لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ " كل باب أسفل من الآخر . "لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ " أي: من أتباع إبليس "جُزْءٌ مَقْسُومٌ " بحسب أعمالهم. قال تعالى : "فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ". ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه, أتباع إبليس, من النكال والعذاب الشديد, ذكر ما أعد لأوليائه من الفضل العظيم, والنعيم المقيم فقال: " إِنَّ الْمُتَّقِينَ " إلى "هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ".

"إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ "
يقول تعالى: " إِنَّ الْمُتَّقِينَ " الذين اتقوا طاعة الشيطان, وما يدعوهم إليه, من جميع الذنوب والعصيان "فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ " قد احتوت على جميع الأشجار, وأينعت فيها جميع الثمار اللذيذة, في جميع الأوقات.

"ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ "
ويقال لهم حال دخولها: " ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ " من الموت, والنوم والنصب, واللغوب, وانقطاع شيء من النعيم, الذي هم فيه أو نقصانه, ومن المرض, والحزن, والهم, وسائر المكدرات . "وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ " فتبقى قلوبهم سالمة, من كل غل, وحسد, متصافية متحابة " إخوانا على سرر متقابلين ". دل ذلك على تزاورهم, واجتماعهم, وحسن أدبهم فيما بينهم, في كون كل منهم مقابلا للآخر لا مستديرا له, متكئين على تلك السرر المزينة, بالفرش واللؤلؤ, وأنواع الجواهر.

"لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ "
" لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ "لا ظاهر ولا باطن. وذلك, لأن الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة لا تقبل شيئا من الآفات . "وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ " على سائر الأوقات. ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرهبة, من مفعولات الله, من الجنة, والنار, ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى فقال:

"نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ "
"نَبِّئْ عِبَادِي " أي: أخبرهم خبرا جازما, مؤيدا بالأدلة. " أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ " فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته, سعوا بالأسباب الموصلة لهم إلى رحمته, وأقلعوا عن الذنوب, وتابوا منها, لينالوا مغفرته.

وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ "
ومع هذا, فلا ينبغي أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال. فنبئهم "وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ " أي لا عذاب في الحقيقة, إلا عذاب الله, الذي لا يقادر قدره, ولا يبلغ كنهه, نعوذ به من عذابه. فإنهم إذا عرفوا أنه "لا يعذب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد " حذروا, وبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب. فالعبد, ينبغي أن يكون قلبه دائما, بين الخوف والرجاء, والرغبة والرهبة. فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته, وجوده وإحسانه, أحدث له ذلك الرجاء والرغبة. وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه, أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها.

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ "
يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : "وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ". أي: عن تلك القصة العجيبة, فإن في قصك عليهم أنباء الرسل, وما جرى لهم, ما يوجب لهم العبرة,

والاقتداء بهم. خصوصا, إبراهيم الخليل, الذي أمرنا الله أن نتبع ملته. وضيفه هم: الملائكة الكرام, أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه.
"إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ "
" إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا " أي: سلموا عليه, فرد عليهم 'قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ " أي: خائفون. لأنه لما دخلوا عليه, وحسبهم ضيوفا, ذهب مسرعا إلى بيته, فأحضر لهم ضيافتهم, عجلا حنيذا فقدمه إليهم. فلما رأى أيديهم لا تصل إليه, خاف منهم أن يكونوا لصوصا أو نحوهم.

قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ "
'قَالُوا " له: " لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ " وهو: إسحق عليه الصلاة والسلام. تضمنت هذه البشارة, بأنه ذكر لا أنثى, عليم, أي: كثير العلم. وفي الآية الأخرى 'وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ".

قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ "
قال لهم متعجبا من هذه البشارة: " أَبَشَّرْتُمُونِي " بالولد 'عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ " وصار نوع إياس منه 'فَبِمَ تُبَشِّرُونَ " أي: على أي وجه تبشرون وقد عدمت الأسباب؟

قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ "
'قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ " الذي لا شك فيه, لأن الله على كل شيء قدير, وأنتم بالخصوص - يا أهل هذا البيت - رحمة الله وبركاته عليكم, فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليكم . 'فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ " الذين يستبعدون وجود الخير, بل لا تزال راجيا لفضل الله وإحسانه, وبره وامتنانه. فأجابهم إبراهيم بقوله:

قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ "
'وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ " الذين لا علم لهم بربهم, وكمال اقتداره. وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم, فلا سبيل إلى القنوط إليه, لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق, لرحمة الله, شيئا كثيرا. ثم لما بشروه بهذه البشارة, عرف أنهم مرسلون لأمر مهم.

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ "
أي : 'قَالَ " الخليل عليه السلام للملائكة 'قَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ". أي: ما شأنكم, ولأي شيء أرسلتم؟

قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ "
'قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ " أي: كثر فسادهم, وعظم شرهم, لنعذبهم ونعاقبهم.
" إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ " أي: إلا لوطا, وأهله " إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ " أي: الباقين بالعذاب. وأما لوط, فلنخرجنه وأهله, وننجيهم منها: فجعل إبراهيم, يجادل الرسل في إهلاكهم, ويراجعهم. فقيل له: " يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود " فذهبوا عنه.

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ "
'فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ " لهم لوط " إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ " أي لا أعرفكم ولا أدري من أنتم.

قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ "
'قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ " أي: جئناك بعذابهم الذي كانوا يشكون فيه, ويكذبونك حين توعدهم به . 'وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ " الذي ليس بالهزل 'وَإِنَّا لَصَادِقُونَ " فيما قلنا لك.

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ "

'فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ " أي: في أثنائه حين تنام العيون, ولا يدري أحد عن مسراك . 'وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ " أي: بادروا وأسرعوا . 'وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ " كأن معهم دليلا يدلهم إلى أين يتوجهون . 'وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ " أي: أخبرناه خبرا لا مثنوية فيه.

وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ "
" أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ " أي: سيصبحهم العذاب الذي يجتاحهم ويستأصلهم. " وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ " أي: المدينة التي فيها قوم لوط "يَسْتَبْشِرُونَ " أي. يبشر بعضهم بعضا, بأضياف لوط, وصباحة وجوههم واقتدارهم عليهم, وذلك لقصدهم فعل الفاحشة فيهم. فجاءوا حتى وصلوا إلى بيت لوط, فجعلوا يعالجون لوطا على أضيافه, ولوط يستعيذ منهم ويقول:

قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ "
" إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِي وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي " أي: راقبوا الله أول ذلك, وإن كان ليس فيكم خوف من الله, فلا تفضحون في أضيافي, وتنتهكوا منهم حرمتهم بفعل الأمر الشنيع.

قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ "
و 'قَالُوا " له جوابا عن قوله ولا تخزون فقط: " أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ " أن تضيفهم, فنحن قد أنذرناك, ومن أنذر فقد أعذر . 'قَالَ " لهم لوط من شدة الأمر الذي أصابه: " هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ". فلم يبالوا بقوله, ولهذا قال الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم "لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ " وهذه السكرة, هي سكرة محبة الفاحشة, التي لا يبالون معها بعذل ولا لوم.
"فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ "
فلما بينت له الرسل حالهم, زال عن لوط ما كان يجده من الضيق والكرب. فامتثل أمر ربه وسرى بأهله ليلا, فنجوا. وأما أهل القرية 'فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ " أي: وقت شروق الشمس, حيث كانت العقوبة عليهم أشد . 'فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا " أي: قلبنا عليهم مدينتهم . 'وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ". تتبع فيها من شذ من البلد.

"إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ "
" إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ " أي: المتأملين المتفكرين, الذين لهم فكر وروية وفراسة, يفهمون بها ما أريد بذلك, من أن من تجرأ على معاصي الله, خصوصا هذه الفاحشة العظيمة, أن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات, كما تجرأوا على أشنع السيئات.

وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ "
'وَإِنَّهَا " أي: مدينة قوم لوط "لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ " للسالكين, يعرفه كل من تردد في تلك الديار " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ". وفي هذه القصة من العبر: عنايته تعالى بخليله إبراهيم. فإن لوطا عليه السلام, من أتباعه, ومن آمن به فكأنه تلميذ له. فحين أراد الله إهلاك قوم لوط, حين استحقوا ذلك, أمر رسله أن يمروا على إبراهيم عليه السلام, كي يبشروه بالولد, ويخبروه بما بعثوا له, حتى إنه جادلهم عليه السلام في إهلاكهم, حتى أقنعوه, فطابت نفسه. وكذلك لوط عليه السلام, لما كانوا أهل وطنه, فربما أخذته الرقة عليهم والرأفة بهم, قدر الله من الأسباب, ما به يشتد غيظه وحنقه عليهم, حتى استبطأ إهلاكهم لما قيل له: " إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ". ومنها: أن الله تعالى, إذا أراد أن يهلك قرية, زاد شرهم وطغيانهم. فإذا انتهى, أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه.

وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ "
وهؤلاء قوم شعيب, نعتهم الله وأضافهم إلى الأيكة, وهو: البستان كثير الأشجار, ليذكر نعمته عليهم, وأنهم ما قاموا بها, بل جاءهم نبيهم شعيب, فدعاهم إلى التوحيد, وترك ظلم الناس في المكاييل والموازين, وعاجلهم على ذلك على أشد المعالجة, فاستمروا

على ظلمهم في حق الخالق, وفي حق الخلق, ولهذا, وصفهم, هنا, بالظلم . 'فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ " فأخذهم عذاب يوم الظلة, إنه كان عذاب يوم عظيم . 'وَإِنَّهُمَا " أي: ديار قوم لوط, وأصحاب الأيكة "لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ " أي: لبطريق واضح, يمر بهم المسافرون كل وقت, فيبين من آثارهم ما هو مشاهد بالأبصار, فيعتبر بذلك أولوا الألباب.

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ "
يخبر تعالى عن أهل الحجر, وهم, قوم صالح, الذين كانوا يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز, أنهم كذبوا المرسلين, أي: كذبوا صالحا. ومن كذب رسولا, فقد كذب سائر الرسل, لاتفاق دعوتهم. وليس تكذيب بعضهم لشخصه, بل لما جاء به من الحق الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به . 'وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا " الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق, ومن جملتها: تلك الناقة, هي من آيات الله العظيمة.

وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ "
'فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ " كبرا وتجبرا على الله . 'وَكَانُوا " - من كثرة إنعام الله عليهم - " يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ " من المخاوف مطمئنين في ديارهم. فلو شكروا النعمة, وصدقوا نبيهم صالحا, عليه السلام, لأدر الله عليهم الأرزاق, ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل. ولكنهم - لما كذبوا, وعقروا الناقة, وعتوا عن أمر ربهم, وقالوا: " يا صالح ائتنا بما تعدنا, إن كنت من الصادقين ".

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ "
'فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ". فتقطعت قلوبهم في أجوافهم, وأصبحوا في دارهم جاثمين هلكى, مع ما يتبع ذلك, من الخزي واللعنة المستمرة . 'فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ " لأن أمر الله إذا جاء لا يرده كثرة جنود, ولا قوة أنصار, ولا غزارة أموال.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ "
أي: ما خلقناهما عبثا باطلا, كما يظن أعداء الله. بل ما خلقناهما " إِلَّا بِالْحَقِّ " الذي منه, أن تكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما, واقتداره, وسعة رحمته, وحكمته, وعلمه المحيط, وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له, وحده لا شريك له . 'وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ " لا ريب فيها, لأن خلق السماوات والأرض ابتداء, أكبر من خلق الناس مرة أخرى . 'فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ " وهو الصفح, الذي لا أذية فيه, بل قابل إساءة المسيء بالإحسان, وذنبه بالغفران, لتنال من ربك, جزيل الأجر والثواب, فإن كل ما هو آت فهو قريب. وقد ظهر لي معنى أحسن مما ذكرت هنا. وهو: أن المأمور به, هو الصفح الجميل, أي: الحسن الذي قد سلم من الحقد, والأذية القولية والفعلية. دون الصفح الذي ليس بجميل, وهو: الصفح في غير محله. فلا, يصفح, حيث اقتضى المقام العقوبة, كعقوبة المعتدين الظالمين, الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة, وهذا هو المعنى.

"إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ "
" إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ " لكل مخلوق " الْعَلِيمُ " بكل شيء, فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه, وجرى عليه خلقه, وذلك: سائر الموجودات.

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ "
يقول تعالى ممتنا على رسوله: " ولقد آتيناك سبعا من المثاني " وهن - على الصحيح - السور السبع الطوال: " البقرة " " وآل عمران ", و " النساء " و " المائدة " و " الأنعام " و " الأعراف " و " الأنفال " مع " التوبة ". أو أنها فاتحة الكتاب لأنها سبع آيات. فيكون عطف " والقرآن العظيم " على ذلك, من باب عطف العام على الخاص, لكثرة ما في المثاني من التوحيد, وعلوم الغيب, والأحكام الجليلة, وتثنيها فيها. وعلى القول, بأن " الفاتحة " هي السبع المثاني, معناها: أنها سبع آيات, تثنى في كل ركعة. واذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثاني, كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون, وأعظم ما فرح به المؤمنون. " قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما

يجمعون ". ولذلك قال بعده:

"لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ "
" لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم " أي لا تعجب إعجابا يحملك على إشغال فكرك, بشهوات الدنيا, التي تمتع بها المترفون, واغتر بها الجاهلون, واستغن بما آتاك الله, من المثاني والقرآن العظيم. " ولا تحزن عليهم " فإنهم لا خير فيهم يرجى, ولا نفع يرتقب.

وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ "
فلك في المؤمنين عنهم, أحسن البدل, وأفضل العوض. " واخفض جناحك للمؤمنين " أي ألن لهم جانبك, وحسن لهم خلقك, محبة, وإكراما, وتوددا. " وقل إني أنا النذير المبين " أي: قم بما عليك من النذارة, وأداء الرسالة, والتبليغ للقريب والبعيد, والعدو, والصديق. فإنك إذا فعلت ذلك, فليس عليك من حسابهم من شيء, وما من حسابك عليهم من شيء.

كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ "
وقوله. " كما أنزلنا على المقتسمين " أي. كما أنزلنا العقوبة على بطلان ما جئت به, الساعين لصد الناس عن سبيل الله.

"الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ "
" الذين جعلوا القرآن عضين " أي: أصنافا, وأعضاءا, وأجزاءا, يصرفونه بحسب ما يهوونه. فمنهم من يقول: سحر, ومنهم من يقول: كهانة ومنهم من يقول مفترى إلى غير ذلك من أقوال الكفرة المكذبين به, الذين جعلوا قدحهم فيه, ليصدوا الناس عن الهدى.

فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ "
" فوربك لنسألنهم أجمعين " أي: جميع من قدح فيه وعابه, وحرفه وبدله " عما كانوا يعملون ". وفي هذا أعظم ترهيب, وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا يعملون.

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ "
ثم أمر الله رسوله ان لا يبالي بهم, ولا بغيرهم, وأن يصدع بما أمر الله, ويعلن بذلك لكل أحد ولا يعوقنه عن أمره عائق ولا تصده أقوال المتهوكين. " وأعرض عن المشركين " أي لا تبال بهم, واترك مشاتمتهم ومسابتهم, مقبلا على شأنك. " إنا كفيناك المستهزئين " بك وبما جئت به, وهذا وعد من الله لرسوله, أن لا يضره المستهزئون, وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة.

"الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ "
وقد فعل تعالى, فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به, إلا أهلكه الله, وقتله شر قتلة. ثم ذكر وصفهم وأنهم كما يؤذونك يا رسول الله. فإنهم أيضا, يؤذون الله " الذين يجعلون مع الله إلها آخر " وهو ربهم وخالقهم, ومنه برهم " فسوف يعلمون " غب أفعالهم إذا وردوا القيامة. " ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون " لك من التكذيب والاستهزاء. فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب, والتعجيل لهم بما يستحقونه, ولكن الله يمهلهم ولا يهملهم.

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ "
" فـ " أنت يا محمد " سبح بحمد ربك وكن من الساجدين " أي: أكثر من ذكر الله, وتسبيحه, وتحميده, والصلاة, فإن ذلك يوسع الصدر, ويشرحه, ويعينك على أمورك.

وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ "
" واعبد ربك حتى يأتيك اليقين " أي: الموت, أي: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات. فامتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه, فلم يزل دائبا في العبادة,

حتى أتاه اليقين من ربه صلى الله عليه وسلم, تسليما كثيرا. تم تفسير سورة الحجر - والحمد لله رب العالمين أمين

سورة النحل

"أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ "
يقول تعالى - مقربا لما وعد به محققا لوقوعه - " أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ". فإنه آت, وما هو آت, فإنه قريب . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ " من نسبة الشريك, والولد, والصاحبة, والكفء, وغير ذلك, مما نسبه إليه المشركون, مما لا يليق بجلاله, أو ينافي كماله. ولما نزه نفسه عما وصفه به أعداؤه, ذكر الوحي الذي ينزله على أنبيائه, مما يحب اتباعه, في ذكر ما ينسب لله, من صفات الكمال فقال:

يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ "
"يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ " أي: بالوحي الذي به حياة الأرواح "عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ " ممن يعلمه صالحا. لتحمل رسالته. وزبدة دعوة الرسل كلهم ومدارها, على قوله: " أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ". أي: على معرفة الله تعالى وتوحده, في صفات العظمة, التي هي صفات الألوهية, وعبادته وحده لا شريك له, فهي التي أنزل بها كتبه, وأرسل بها رسله, وجعل الشرائع كلها تدعو إليها, وتحث وتجاهد من حاربها, وقام بضدها. ثم ذ كر الأدلة والبراهين على ذلك فقال:

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ "
"خَلَقَ السَّمَاوَاتِ " إلى "لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ". هذه السورة, تسمى سورة النعم, فإن الله ذكر في أولها, أصول النعم وقواعدها, وفي آخرها, متمماتها ومكملاتها. فأخبر أنه خلق السماوات والأرض بالحق, ليستدل بهما العباد على عظمة خالقهما, وما له من نعوت الكمال, ويعلموا أنه خلقهما سكنا لعباده الذين يعبدونه, بما يأمرهم به, في الشرائع التي أنزلها على ألسنة رسله, ولهذا نزه نفسه عن شرك المشركين به فقال : "تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ " أي: تنزه وتعاظم عن شركهم, فإنه الإله حقا, الذي لا تنبغي العبادة, والحب, والذل, إلا له تعالى. ولما ذكر خلق السماوات والأرض, ذكر خلق ما فيهما.

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ "
وبدأ بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال : "خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ " لم يزل يدبرها, ويربيها, وينميها, حتى صارت بشرا تاما, كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة. قد غمره بنعمه الغزيرة, حتى إذا استتم, فخر بنفسه وأعجب بها "فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ". يحتمل أن المراد: فإذا هو خصيم لربه, يكفر به, ويجادل رسله, ويكذب بآياته. ونسي خلقه الأول, وما أنعم الله عليه به, من النعم, فاستعان بها على معاصيه. ويحتمل أن المعنى: أن الله أنشأ الآدمي من نطفة. ثم لم يزل ينقله من طور إلى طور, حتى صار عاقلا متكلما, ذا ذهن ورأي, يخاصم ويجادل. فليشكر العبد ربه الذي أوصله إلى هذه الحال, التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها.

وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ "
"وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ " أي لأجلكم, ولأجل منافعكم ومصالحكم. ومن جملة منافعها العظيمة "لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ " مما تتخذون من أصوافها وأوبارها, وأشعارها, وجلودها, من الثياب, والفرش, والبيوت.

وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ "
"وَ " لكم فيها "مَنَافِعُ " غير ذلك "وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ". "وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ " أي: في وقت رواحها وسكونها, ووقت حركتها وسرحها. وذلك أن جمالها لا

يعود إليها منه شيء, فإنكم, أنتم الذين تتحملون بها, بثيابكم, وأولادكم, وأموالكم, وتعجبون بذلك . 'وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ " من الأحمال الثقيلة, بل وتحملكم أنتم " إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ " ولكن الله, ذللها لكم. فمنها ما تركبونه, ومنها ما تحملون عليه ما تشاءون, من الأثقال, إلى البلدان البعيدة, والأقطار الشائعة. " إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ " إنه سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه. فله الحمد, كما ينبغي لجلال وجهه, وعظيم سلطانه, وسعة جوده وبره.

"وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ "

'وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ " سخرناها لكم "لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ". أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب, وتارة لأجل الجمال والزينة. ولم يذكر الأمر, لأن البغال والحمير, محرم أكلها. والخيل لا تستعمل - في الغالب - للأكل, بل ينهى عن ذبحها لأجل الأكل, خوفا من انقطاعها, وإلا فقد ثبت في الصحيحين, أن النبي صلى الله عليه وسلم, أذن في لحوم الخيل . 'وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ " مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء, التي يركبها الخلق في البر, والبحر, والجو, ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم فإنه لم يذكرها بأعيانها, لأن الله تعالى لم يذكر في كتابه, إلا ما يعرفه العباد, أو يعرفون نظيره. وأما ما ليس له نظير في زمانهم, فإنه لو ذكر لم يعرفوه, ولم يفهموا المراد به. فيذكر أصلا جامعا, يدخل فيه ما يعلمون, وما لا يعلمون. كما ذكر نعيم الجنة, وسمى منه ما نعلم ونشاهد نظيره, كالنخل والأعناب والرمان. وأجمل ما لا نعرف له نظيرا في قوله 'فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ". فكذلك هنا, ذكر ما نعرفه, من المراكب, كالخيل, والبغال, والحمير, والإبل, والسفن. وأجمل الباقي في قوله 'وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ". ولما ذكر تعالى, الطريق الحسنى, وأن الله قد جعل للعباد, ما يقطعونه به من الإبل وغيرها, ذكر الطريق المعنوي الموصل إليه فقال:

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ "

'وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ " أي: الصراط المستقيم, الذي هو أقرب الطرق وأخصرها, موصل إلى الله, وإلى كرامته. وأما الطريق الجائر في عقائده وأعماله, وهو: كل ما خالف الصراط المستقيم, فهو قاطع عن الله, موصل إلى دار الشقاء. فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم, وضل الغاوون عنه, وسلكوا الطرق الجائرة . 'وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ " ولكنه هدى بعضا, كرما وفضلا, ولم يهد آخرين, حكمة منه وعدلا.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ "

ينبه الله تعالى بهذه الآية الإنسان على عظمة قدرته وحثهم على التفكر حيث ختمها بقوله "لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " على كل قدرة الله, الذي أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف, ورحمته, حيث جعل فيه ماء غزيرا منه يشربون, وتشرب مواشيهم, ويسقون منه حروثهم, فتخرج لهم الثمرات الكثيرة, والنعم العزيزة.

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ "

أي: سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم, وأنواع مصالحكم, بحيث لا تستغنون عنها أبدا. فبالليل تسكنون وتنامون, وتستريحون. وبالنهار تنتشرون في معايشكم, ومنافع دينكم ودنياكم. وبالشمس والقمر, من الضياء, والنور, والإشراق, وإصلاح الأشجار والثمار, والنبات, وتجفيف الرطوبات, وإزالة البرودة الضارة للأرض, وللأبدان, وغير ذلك من الضروريات والحاجيات, التابعة لوجود الشمس والقمر. وفيهما, وفي النجوم, من الزينة للسماء والهداية, في ظلمات البر والبحر, ومعرفة الأوقات, وحساب الأزمنة, ما تتنوع دلالاتها, وتتصرف آياتها. ولهذا جمعها في قوله " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " أي: لمن لهم عقول يستعملونها في التدبر والتفكر, فيما هي مهيأة له, مستعدة, تعقل ما تراه, وتسمعه لا كنظر الغافلين الذين حظهم من النظرة, حظ البهائم, التي لا عقل لها.

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ "

أي: فيما ذرأ الله ونشر للعباد, من كل ما على وجه الأرض, من حيوان, وأشجار, ونبات, وغير ذلك, مما تختلف ألوانه, وتختلف منافعه آية على كمال قدرة الله, وعميم إحسانه,

وسعة بره, وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له, وحده لا شريك له . "لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ " أي: يستحضرون في ذاكرتهم, ما ينفعهم من العلم النافع, ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه, حتى يتذكروا بذلك, ما هو دليل عليه.

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ "
أي: هو وحده لا شريك له " الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ " وهيأه لمنافعكم المتنوعة . "لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا " وهو, السمك, والحوت, الذي تصطادونه منه . "وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا " فتزيدكم جمالا وحسنا إلى حسنكم . "وَتَرَى الْفُلْكَ " أي: السفن والمراكب " مَوَاخِرَ فِيهِ " أي تمخر في البحر العجاج الهائل, بمقدمها, حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر, تحمل المسافرين وأرزاقهم, وأمتعتهم, وتجاراتهم, التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم . "وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " الذي يسر لكم هذه الأشياء وهيأها, وتثنون على الله الذي من بها. فلله تعالى الحمد والشكر, والثناء, حيث أعطى العباد من مصالحهم ومنافعهم, فوق ما يطلبون, وأعلى ما يتمنون, وآتاهم من كل ما سألوه لا نحصي ثناء عليه, بل هو كما أثنى على نفسه.

"وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ "
أي : "وَأَلْقَى " اللهَ تعالى لأجل عباده "فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ " وهي: الجبال العظام لئلا تميد بهم وتضطرب بالخلق, فيتمكنون من حرث الأرض والبناء, والسير علهيا. ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهارا, يسوقها من أرض بعيدة, إلى أرض مضطرة إليها لسقيهم وسقي مواشيهم وحروثهم, أنهارا على وجه الأرض, وأنهارا في بطنها يستخرجونها بحفرها, حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالي والآلات ونحوها. ومن رحمته أن جعل في الأرض سبلا أي: طرقا توصل إلى الديار المتنائية . "لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ " السبيل إليها حتى إنك تجد أرضا مشتبكة بالجبال, مسلسلة فيها, وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين.

"أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ "
لما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة, وما أنعم به من النعم العميمة, ذكر أنه لا يشبهه أحد ولا كفء له ولا ند له, فقال: " أَفَمَنْ يَخْلُقُ " جميع المخلوقات, وهو الفعال لما يريد "كَمَنْ لَا يَخْلُقُ " شيئا لا قليلا, ولا كثيرا. " أَفَلَا تَذَكَّرُونَ " فتعرفون أن المنفرد بالخلق, أحق بالعبادة كلها. فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره, فإنه واحد في إلهيته وتوحيده, وعبادته.

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ "
وكما أنه ليس له مشارك, إذ أنشأكم وأنشأ غيركم, فلا تجعلوا له أندادا في عبادته, بل أخلصوا له الدين . "وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ " عددا مجردا عن الشكر " لَا تُحْصُوهَا " فضلا عن كونكم تشكرونها. فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد, بعدد الأنفاس واللحظات, من جميع أصناف النعم, مما يعرف العباد, ومما لا يعرفون, وما يدفع عنهم من النقم, فأكثر من أن تحصى. " إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ " يرضى منكم باليسير من الشكر, مع إنعامه الكثير.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ "
وكما أن رحمته واسعة, وجوده عميم, ومغفرته شاملة للعباد, فعلمه محيط بهم . "يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ " بخلاف من عبد من دونه. فإنهم " لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا " قليلا ولا كثيرا " وَهُمْ يُخْلَقُونَ ". فكيف يخلقون شيئا مع افتقار في إيجادهم إلى الله تعالى؟!!

"أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ "
ومع هذا, ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء لا علم, ولا غيره. " أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ " فلا تسمع, ولا تبصر, ولا تعقل شيئا, أفتتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين. فتبا لعقول المشركين, ما أضلها, وأفسدها, حيث ضلت في أظهر الأشياء فسادا. وسووا بين الناقص من جميع الوجوه فلا أوصاف كمال, ولا شيء من الأفعال, وبين الكمال من جميع الوجوه

الذي له كل صفة كمال, وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها. فله العلم المحيط بكل الأشياء, والقدرة العامة, والرحمة الواسعة, التي ملأت جميع العوالم. والحمد والمجد والكبرياء والعظمة, التي لا يقدر أحد من الخلق, أن يحيط ببعض أوصافه ولهذا قال:

"إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ "
" إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ " وهو: الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يكن له كفوا أحد. فأهل الإيمان والعقول, أحلته قلوبهم وعظمته, وأحبته حبا عظيما, وصرفوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية, وأعمال القلوب وأعمال الجوارح, وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى, وصفاته, وأفعاله المقدسة . 'فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ " لهذا الأمر العظيم الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق, جهلا وعنادا, وهو: توحيد الله 'وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ " عن عبادته.

"لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ "
" لَا جَرَمَ " أي: حقا لا بد " أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ " من الأعمال القبيحة " إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ " بل يبغضهم أشد البغض, وسيجازيهم من جنس عملهم " إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ".

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ "
يقول تعالى - مخبرا عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله : 'وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ " أي: إذا سألوا عن القرآن والوحي, الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد. فماذا قولكم به؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعترفون بها, أم تكفرون وتعاندون؟ فيكون جوابهم أقبح جواب وأسمجه, فيقولون عنه: إنه " أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ " أي: كذب اختلقه محمد على الله, وما هو إلا قصص الأولين التي يتناقلها الناس, جيلا بعد جيل, منها الصدق ومنها الكذب. فقالوا هذه المقالة, ودعوا أتباعهم إليها, وحملوا, وزرهم, ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة. وقوله : 'وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ " أي: من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم, إلا ما دعو إليه, فيحملون إثم ما دعوهم إليه. وأما الذين يعلمون, فكل مستقل بجرمه, لأنه عرف ما عرفوا. " أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ " أي: بئس ما حملوا من الوزر المثقل لظهورهم, من وزرهم, ووزر من أضلوه.

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ "
'قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ " برسلهم, واحتالوا بأنواع الحيل, على رد ما جاءوهم به, وبنوا من مكرهم, قصورا هائلة . 'فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ " أي: جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها . 'فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ " فصار ما بنوه عذابا, عذبوا به . 'وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ " وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سينفعهم, ويقيهم العذاب, فصار عذابهم فيما بنوه وأصلوه. وهذا من أحسن الأمثال, في إبطال الله مكر أعدائه. فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوهم, وجعلوا لهم أصولا وقواعد من الباطل, يرجعون إليها, ويردون بها ما جاءت به الرسل. واحتالوا أيضا, على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم. فصار مكرهم وبالا عليهم, فصار تدبيرهم فيه تدميرهم. وذلك لأن مكرهم سيئ " ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ". هذا في الدنيا, ولعذاب الآخرة أحرى, ولهذا قال : "ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ " أي يفضحهم على رءوس الخلائق, ويبين لهم كذبهم, وافتراءهم على الله.

"ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ "
'وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ " أي: تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم, وتزعمون أنهم شركاء لله. فإذا سألهم هذا السؤال, لم يكن لهم جواب, إلا الإقرار بضلالهم, والاعتراف بعنادهم فيقولون " ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ". 'قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ " أي: العلماء الربانيون " إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ " أي: يوم القيامة 'وَالسُّوءَ " أي: سوء العذاب 'عَلَى الْكَافِرِينَ ". وفي هذا فضيلة أهل العلم, وأنهم

الناطقون بالحق في هذه الدنيا, ويوم يقوم الأشهاد, وأن لقولهم, اعتبارا عند الله وعند خلقه. ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة, وفي القيامة فقال:

"الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ "
" الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ " أي: تتوفاهم في هذه الحال, التي كثر فيها ظلمهم وغيهم, قد علم ما يلقى الظلمة في ذلك المقام, من أنواع العذاب والخزي والإهانة . "فَأَلْقَوُا السَّلَمَ " أي: استسلموا, وأنكروا ما كانوا يعبدون من دون الله وقالوا: " مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ". فيقال لهم : "بَلَى " كنتم تعملون السوء, و " إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " فلا يفيدكم الجحود شيئا. وهذا في بعض مواقف القيامة, ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا, ظنا منهم أنه ينفعهم. فإذا شهدت عليهم جوارحهم, وتبين ما كانوا عليه أقروا, واعترفوا. ولهذا لا يدخلون النار, حتى يعترفوا بذنوبهم.

فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ "
فإذا دخلوا أبواب جهنم, فكل أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم . "فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ " نار جهنم, فإنها مثوى الحسرة والندم, ومنزل الشقاء والألم, ومحل الهموم والغموم, وموضع السخط من الحي القيوم لا يفتر عنهم من عذابها, ولا يرفع عنهم يوما من أليم عقابها, قد أعرض عنهم الرب الرحيم, وأذاقهم العذاب العظيم.

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ "
لما ذكر الله قيل المكذبين بما أنزل الله, ذكر ما قاله المتقون, وأنهم اعترفوا وأقروا, بأن ما أنزل الله نعمة عظيمة, وخير عظيم امتن الله به على العباد, فقبلوا تلك النعمة, وتلقوها بالقبول والانقياد, وشكروا الله عليها, فعلموها, وعملوا بها . "لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا " في عبادة الله تعالى, وأحسنوا إلى عباد الله, فلهم "فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً " رزق واسع, وعيشه هنية, وطمأنينة قلب, وأمن, وسرور . "وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ " من هذه الدار, وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات, فإن هذه, نعيمها قليل, محشو بالآفات, منقطع. بخلاف نعيم الآخرة, ولهذا قال : "وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ "
جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ " أي: مهما تمنت أنفسهم, وتعلقت به إرادتهم, حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها. فلا يمكن أن يطلبوا نوعا من أنواع النعيم, الذي فيه لذة القلوب, وسرور الأرواح, إلا وهو حاضر لديهم, ولهذا يعطي الله أهل الجنة, كل ما تمنوه عليه حتى إنه يذكرهم أشياء من النعيم, لم تخطر على قلوبهم. فتبارك الذي لا نهاية لكرمه, ولا حد لجوده, الذي ليس كمثله شيء في صفات ذاته, وصفات أفعاله, وآثار تلك النعوت, وعظمة الملك والملكوت . "كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ " لسخط الله وعذابه, بأداء ما أوجبه عليهم, من الفروض, والواجبات, المتعلقة بالقلب, والبدن, واللسان, من حقه, وحق عباده, وترك ما نهاهم الله عنه.

"الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ "
" الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ " مستمرين على تقواهم "طَيِّبِينَ " أي: طاهرين مطهرين من كل نقص ودنس, يتطرق إليهم, ويخل في إيمانهم. فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته, وألسنتهم بذكره, والثناء عليه, وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه . "يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ " التحية الكاملة, خاصة لكم, والسلامة من كل آفة. وقد سلمتم من كل ما تكرهون " ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " من الإيمان بالله, والانقياد لأمره. فإن العمل هو السبب والمادة, والأصل في دخول الجنة, والنجاة من النار. وذلك العمل, حصل لهم برحمة الله ومنته لا بحولهم وقوتهم.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا

ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ "
يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات, فلم يؤمنوا, وذكروا, فلم يتذكروا. " إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ " لقبض أرواحهم " أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ " بالعذاب الذي سيحل بهم, فإنهم قد استحقوا وقوعه فيهم . "كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ " كذبوا وكفروا, ثم لم يؤمنوا, حتى نزل بهم العذاب . "وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ " إذ عذبهم "وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " فإنها مخلوقة لعبادة الله, ليكون مآلها إلى كرامة الله, فظلموها, وتركوا ما خلقت له, وعرضوها للإهانة الدائمة, والشقاء الملازم.

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ "
"فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا " أي: عقوبات أعمالهم وآثارها . "وَحَاقَ بِهِمْ " أي: نزل "مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ " فإنه كانوا إذا أنذرتهم رسلهم بالعذاب, استهزأوا به, وسخروا ممن أخبر به فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه.

"وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ "
أي: احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله, وأن الله لو شاء, ما أشركوا, ولا حرموا شيئا من الأنعام, التي أحلها كالبحيرة, والوصيلة والحام, ونحوها, من دونه. وهذه حجة باطلة, فإنها لو كانت حقا, ما عاقب الله الذين من قبلهم, حيث أشركوا به, فعاقبهم أشد العقاب. فلو كان يحب ذلك منهم, لما عذبهم. وليس قصدهم بذلك, إلا رد الحق الذي جاءت به الرسل, وإلا فعندهم علم, أنه لا حجة لهم على الله. فإن الله أمرهم ونهاهم, ومكنهم من القيام بما كلفهم, وجعل لهم قوة ومشيئة تصدر عنها أفعالهم. فاحتجاجهم بالقضاء والقدر, من أبطل الباطل. هذا, وكل أحد يعلم بالحس, قدرة الإنسان على كل فعل يريده, من غير أن ينازعه منازع. فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله, وتكذيب الأمور العقلية, والحسية . "فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ " أي: البين, الظاهر, الذي يصل إلى القلوب, ولا يبقى لأحد على الله حجة. فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم ونهيه, واحتجوا عليهم بالقدر, فليس للرسل من الأمر شيء, وإنما حسابهم على الله عز وجل.

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ "
يخبر تعالى, أن حجته قامت على جميع الأمم, وانه ما من أمة متقدمة أو متأخرة, إلا وبعث الله فيها رسولا وكلهم متفقون على دعوة واحدة, ودين واحد, وهو: عبادة الله وحده لا شريك له " أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ". فانقسمت الأمم, بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها, قسمين . "فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ " فاتبعوا المرسلين, علما, وعملا . "وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ " فاتبع سبيل الغي . "فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ " بأبدانكم وقلوبكم "فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ " فإنكم سترون من ذلك, العجائب, فلا تجد مكذبا, إلا كان عاقبته الهلاك.

"إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ "
" إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ " وتبذل جهدك في ذلك "فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ " ولو فعل كل سبب لم يهده إلا الله . "وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ " ينصرونهم من عذاب الله ويقونهم بأسه.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ "
يخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله, أنهم " أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ " أي: حلفوا أيمانا مؤكدة مغلظة على تكذيب الله, وأنه لا يبعث الأموات, ولا يقدر على إحيائهم, بعد أن كانوا ترابا. قال تعالى مكذبا لهم : "بَلَى " سيبعثهم, ويجمعهم, ليوم لا ريب فيه " وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا " لا يخلفه ولا يغيره "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " ومن جهلهم العظيم, إنكارهم البعث والجزاء. ثم ذكر الحكمة في الجزاء والبعث فقال : "لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ " من المسائل الكبار والصغار, فيبين حقائقها ويوضحها . "وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ

كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ " حتى يروا أعمالهم حسرات عليهم. وما نفعتهم آلهتهم, التي يدعون مع الله من شيء, لما جاء أمر ربك وحين يرون ما يعبدون, حطبا لجهنم, وتكور الشمس والقمر, وتتناثر النجوم, ويتضح لمن يعبدها, أنها عبيد مسخرات, وأنهن مفتقرات إلى الله في جميع الحالات, وليس ذلك على الله بصعب ولا شديد, فإنه إذا أراد شيئا قال له: كن فيكون, من غير منازعة ولا امتناع, بل يكون على طبق ما أراده وشاءه.

"وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ "
يخبر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين "وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ " أي: في سبيله, وابتغاء مرضاته "مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا " بالأذية والمحنة من قومهم, الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر والشرك, فتركوا الأوطان والخلان, وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن. فذكر لهم ثوابين, ثوابا عاجلا في الدنيا, من الرزق الواسع, والعيش الهنيء, الذي رأوه عيانا, بعد ما هاجروا, وانتصروا على أعدائهم, وافتتحوا البلدان, وغنموا منها الغنائم العظيمة, فتمولوا, وآتاهم الله في الدنيا حسنة . "وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ " الذي وعدهم الله على لسان رسوله خير, و " أَكْبَرُ " من أجر الدنيا كما قال تعالى " الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ". وقوله: " لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " أي: لو كان لهم علم ويقين بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله, لم يتخلف عن ذلك أحد.

"الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ "
ثم ذكر وصف أوليائه فقال " الَّذِينَ صَبَرُوا " على أوامر الله وعن نواهيه, وعلى أقدار الله المؤلمة, وعلى الأذية فيه, والمحن "وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ " أي: يعتمدون عليه في تنفيذ محابه لا على أنفسهم. وبذلك تنجح أمورهم, وتستقيم أحوالهم, فإن الصبر والتوكل, ملاك الأمور كلها. فما فات أحدا شيء من الخير, إلا لعدم صبره, وبذل جهده فيما أريد منه, أو لعدم توكله واعتماده على الله.

"وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ "
يقول تعالى لنبيه محمد, صلى الله عليه وسلم : "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا " أي: لست ببدع من الرسل, فلم نرسل قبلك ملائكة, بل رجالا كاملين لا نساء . "نُوحِي إِلَيْهِمْ " من الشرائع والأحكام, ما هو من فضله وإحسانه على العبيد, من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم . "فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ " أي: الكتب السابقة " إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ " نبأ الأولين, وشككتم: هل بعث الله رجالا؟ فاسألوا أهل العلم بذلك, الذين نزلت عليهم الزبر والبينات, فعملوها وفهموها. فإنهم كلهم, قد تقرر عندهم, أن الله ما بعث إلا رجالا يوحى إليهم من أهل القرى. وعموم هذه الآية, فيها مدح أهل العلم, وأن أعلى أنواعه, العلم بكتاب الله المنزل. فإن الله أمر من لا يعلم, بالرجوع إليهم, في جميع الحوادث. وفي ضمنه, تعديل لأهل العلم, وتزكية لهم, حيث أمر بسؤالهم, وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة. فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله, وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم, والاتصاف بصفات الكمال. وأفضل أهل الذكر, أهل هذا القرآن العظيم فإنهم أهل الذكر على الحقيقة, وأولى من غيرهم بهذا الاسم, ولهذا قال تعالى : "وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ " أي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد, من أمور دينهم ودنياهم, الظاهرة والباطنة. " لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ " وهذا شامل لتبين ألفاظه, وتبيين معانيه . "وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ " فيه, فيستخرجون من كنوزه وعلومه, بحسب استعدادهم, وإقبالهم عليه.

"أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ "
هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب, وأنواع المعاصي, من أن يأخذهم بالعذاب على غرة, وهم لا يشعرون. إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم, أو من أسفل منهم, بالخسف أو غيره وإما في حال تقلبهم وشغلهم, وعدم خطور العذاب ببالهم. وإما في حال تخوفهم من العذاب. فليسوا بمعجزين الله, في حالة من هذه الأحوال, بل هم

تحت قبضته, ونواصيهم بيده.

"أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ "
ولكنه رءوف رحيم لا يعاجل العاصين بالعقوبة, بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم وهم يؤذونه, ويؤذون أولياءه. ومع هذا يفتح لهم أبواب التوبة, ويدعوهم إلى الإقلاع عن السيئات, التي تضرهم, ويعدهم بذلك, أفضل الكرامات, ومغفرة ما صدر عنهم من الذنوب. فليستح المجرم من ربه, أن تكون نعم الله عليه نازلة في جميع الحالات, ومعاصيه صاعدة إلى ربه في كل الأوقات. وليعلم أن الله يمهل ولا يهمل, وأنه إذا أخذ العاصي, أخذه أخذ عزيز مقتدر. فليتب إليه, وليرجع في جميع أموره إليه, فإنه رءوف رحيم. فالبدار البدار إلى رحمته الواسعة, وبره العميم, وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم, ألا, وهي تقواه, والعمل بما يحبه ويرضاه.

"أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ "
يقول تعالى: " أَوَلَمْ يَرَوْا " أي: الشاكون في توحيد ربهم وعظمته وكماله. " إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ " أي: إلى جميع مخلوقاته, وكيف تتفيأ أظلتها . "عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ " أي: كلها ساجدة لربها, خاضعة لعظمته وجلاله . "وَهُمْ دَاخِرُونَ " أي: ذليلون تحت التسخير والتدبير, والقهر. ما منهم أحد, إلا وناصيته بيد الله, وتدبيره عنده.

"وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ "
"وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ " من الحيوانات الناطقة والصامتة . "وَالْمَلَائِكَةِ " الكرام, خصهم بعد العموم, لفضلهم, وشرفهم, وكثرة عبادتهم, ولهذا قال : "وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ " أي: عن عبادته, على كثرتهم, وعظمة أخلاقهم وقوتهم, كما قال تعالى : "لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ".

"يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ "
"يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ " لما مدحهم بكثرة الطاعة, والخضوع لله, مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر, وكمال الأوصاف, فهم أذلاء تحت قهره. " وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ " أي: مهما أمرهم الله تعالى, امتثلوا لأمره, طوعا واختيارا. وسجود المخلوقات لله تعالى قسمان: سجود اضطرار, ودلالة على ما له من صفات الكمال. وهذا عام لكل مخلوق, من مؤمن وكافر, وبر وفاجر, وحيوان ناطق وغيره. وسجود اختيار, يختص بأوليائه وعباده المؤمنين, الملائكة, وغيرهم من المخلوقات.

"وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ "
يأمر تعالى, بعبادته وحده لا شريك له, ويستدل على ذلك بانفراده بالنعم فقال: " لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ " أي: تجعلون له شريكا في إلهيته. وهو " إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ " متوحد في الأوصاف العظيمة, متفرد بالأفعال كلها. فكما أنه الواحد في ذاته, وأسمائه, ونعوته, وأفعاله, فلتوحدوه في عبادته. ولهذا قال : "فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ " أي: خافوني, وامتثلوا أمري, واجتنبوا نهيي, من غير أن تشركوا بي شيئا من المخلوقات, فإنها كلها لله تعالى مملوكة.

"وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ "
"وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا " أي: الدين, والعبادة, والذل في جميع الأوقات, لله وحده, على الخلق أن يخلصوه لله, وينصبغوا بعبوديته.

"وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ "
" أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ " من أهل الأرض أو أهل السماوات, فإنهم لا يملكون لكم ضرا ولا نفعا, والله المنفرد, بالعطاء والإحسان . "وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ " ظاهرة وباطنة "فَمِنَ اللَّهِ " لا أحد يشركه فيها . "ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ " من فقر, ومرض, وشدة "فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ " أي: تضجون بالدعاء والتضرع, لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو. فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبون, وصرف ما تكرهون, هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده. ولكن كثيرا من

الناس, يظلمون أنفسهم, ويحمدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة. فإذا صاروا في حال الرخاء, أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة, ولهذا قال:

"ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ "
"لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ " أي: أعطيناهم, حيث نجيناهم من الشدة, وخلصناهم من المشقة.
"فَتَمَتَّعُوا " في دنياكم قليلا "فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ " عاقبة كفركم.

"وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ "
يخبر تعالى, عن جهل المشركين, وظلمهم, وافترائهم على الله الكذب, وأنهم يجعلون لأصنامهم, التي لا تعلم, ولا تنفع, ولا تضر - نصيبا مما رزقهم الله, وأنعم به عليهم.
فاستعانوا برزقه على الشرك به, وتقربوا به إلى أصنام منحوتة, كما قال تعالى : "وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ " الآية, وقال "تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ". وقال: " ءَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

"وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ "
"وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ " حيث قالوا عن الملائكة, العباد المقربين: إنهم بنات الله.
"وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ " أي: لأنفسهم الذكور, حتى إنهم يكرهون البنات, كراهة شديدة. فكان أحدهم "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا " من الغم الذي أصابه "وَهُوَ كَظِيمٌ " أي: كاظم على الحزن والأسف, إذا بشر بأنثى, وحتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه, ويتوارى منهم من سوء ما بشر به.

"يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ "
ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد, فيما يصنع بتلك البنت التي بشر بها " أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ " أي: يتركها من غير قتل على إهانة وذل؟ " أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ " أي: يدفنها وهي حية, وهو الوأد الذي ذم الله به المشركين. " أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ " إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله, من نسبة الولد إليه. ثم لم يكفهم هذا, حتى نسبوا له أردأ القسمين, وهو: الإناث, اللاتي يأنفون بأنفسهم عنها, ويكرهونها, فكيف ينسبونها لله تعالى؟! فبئس الحكم حكمهم.

"لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ "
ولما كان هذا من أمثال السوء, التي نسبها إليه أعداؤه المشركون, قال تعالى : "لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ " أي: المثل الناقص والعيب التام . "وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى " وهو كل صفة كمال, وكل كمال في الوجود, فالله أحق به, من غير أن يستلزم ذلك نقصا بوجه من الوجوه. وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه, وهو: التعظيم والإجلال, والمحبة والإنابة والمعرفة . "وَهُوَ الْعَزِيزُ " الذي قهر جميع الأشياء, وانقادت له المخلوقات بأسرها. " الْحَكِيمُ " الذي يضع الأشياء مواضعها, فلا يأمر, ولا يفعل, إلا ما يحمد عليه, ويثنى على كماله فيه.

"وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ "
لما ذكر تعالى, ما افتراه الظالمون عليه, ذكر كمال حلمه وصبره فقال : "وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ " من غير زيادة ولا نقص . "مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ " أي: لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم, من أنواع الدواب والحيوانات, فإن شؤم المعاصي, يهلك به الحرث والنسل . "وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ " عن تعجيل العقوبة عليهم إلى أجل مسمى, وهو يوم القيامة "فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ " فليحذروا, ما داموا في وقت الإمهال, قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه.

"وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ "
يخبر تعالى أن المشركين "وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ " من البنات, ومن الأوصاف القبيحة, وهو: الشرك, بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات, التي هي عبيد لله. فكما أنهم يكرهون, ولا يرضون أن يكون عبيدهم - وهم مخلوقون من جنسهم - شركاء لهم فيما رزقهم الله, فكيف يجعلون له شركاء من عبيده؟!!.

"تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "
"وَ" هم - مع هذه الإساءة العظيمة - "تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى " أي: أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة. فرد عليهم بقوله: " لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ " مقدمون إليها, ماكثون فيها, غير خارجين منها أبدا. بين تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم, أنه ليس هو أول رسول كذب فقال تعالى : "تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ " رسلا يدعونهم إلى التوحيد . "فَزَيَّنَ لَهُمُالشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ " فكذبوا الرسل, وزعموا أن ما هم عليه, هو الحق المنجي من كل مكروه, وأن ما دعت إليه الرسل, فهو بخلاف ذلك. فلما زين لهم الشيطان أعمالهم. صار "وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ " في الدنيا, فأطاعوه, واتبعوه, وتولوه. " أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ". "وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " في الآخرة, حيث تولوا, عن ولاية الرحمن, ورضوا بولاية الشيطان, فاستحقوا لذلك, عذاب الهوان.

"وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ "
يقول تعالى: وما أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن, إلا لتبين للناس الحق, فيما كان موضع اختلافهم, من التوحيد, والقدر, وأحكام الأفعال وأحوال المعاد, وليكون هداية تامة, ورحمة عامة, لقوم يؤمنون بالله, وبالكتاب الذي أنزله.

"وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ "
يذكر الله تعالى في هذه الآية نعمة من أعظم النعم ليعقلوا عن الله مواعظه وتذكيره, فيستدلوا بذلك على أنه وحده المعبود, الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده, لأنه المنعم بإنزال المطر, وإنبات جميع أصناف النبات, وعلى أنه على كل شيء قدير, وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها, قادر على إحياء الأموات, وأن الذي نشر هذا الإحسان, لذو رحمة واسعة, وجود عظيم.

"وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ "
أي : "وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ " التي سخرها الله لمنافعكم "لَعِبْرَةً " تستدلون بها على كمال قدرة الله, وسعة إحسانه, حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرث والدم. فأخرج من بين ذلك, لبنا خالصا من الكدر سائغا للشاربين, للذته, ولأنه يسقي ويغذي. فهل هذه, إلا قدرة إلهية لا أمور طبيعية. فأي شيء في الطبيعة, يقلب العلف الذي تأكله البهيمة, والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح, لبنا خالصا سائغا للشاربين؟

"وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ "
وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب, منافع للعباد, ومصالح, من أنواع الرزق الحسن, الذي يأكله العباد, طريا ونضيجا, وحاضرا, ومدخرا, وطعاما وشرابا يتخذ من عصيرها ونبيذها, ومن السكر الذي كان حلالا قبل ذلك. ثم إن الله نسخ حل المسكرات, وأعاض عنها بالطيبات من الأنبذة. وأنواع الأشربة اللذيذة المباحة ولهذا قال من قال " إن المراد بالسكر هنا: الطعام والشراب اللذيذ " وهو أولى من القول الأول. " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " عن الله كمال اقتداره, حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب, فصارت ثمرة لذيذة وفاكهة طيبة, وعلى شمول رحمته, حيث عم بها عباده, ويسرها لهم, وأنه الإله المعبود وحده, حيث إنه المنفرد بذلك.

"وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ "
في خلق هذه النحلة الصغيرة, التي هداها الله هذه الهداية العجيبة, ويسر لها المراعي. ثم الرجوع إلى بيوتها, التي أصلحتها, بتعليم الله لها وهدايته لها ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان, بحسب اختلاف أرضها ومراعيها, فيه شفاء للناس من أمراض عديدة. فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى, وتمام لطفه بعباده, وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعي سواه.

"وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ "
يخبر تعالى, أنه الذي خلق العباد, ونقلهم في الخلقية, طورا بعد طور, ثم بعد أن يستكملوا آجالهم, يتوفاهم. ومنهم من يعمره حتى "يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ " أي: أخسه الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة, حتى العقل, الذي هو جوهر الإنسان, يزيد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه, ويصير عقله كعقل الطفل ولهذا قال: "لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ " أي: قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء, ومن ذلك, ما ينقل به الآدمي من أطوار الخلقة, خلقا بعد خلق, كما قال تعالى: " اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ".

"وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ "
هذا من أدلة توحيده, وقبح الشرك به. يقول تعالى: كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون, إلا أنه تعالى "فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ " فجعل منكم أحرارا, لهم مال وثروة, ومنكم أرقاء لهم لا يملكون شيئا من الدنيا. فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا "بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ " ويرون هذا من الأمور الممتنعة. فكذلك من أشركتم بها مع الله, فإنها عبيد, ليس لها من الملك, مثقال ذرة. فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى؟!. هل هذا, إلا من أعظم الظلم, والجحود لنعم الله؟!! ولهذا قال: " أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ " فلو أقروا بالنعمة ونسبوها إلى من أولاها, لما أشركوا به أحدا.

"وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ "
يخبر تعالى, عن منته العظيمة على عباده, حيث جعل لهم أزواجا, ليسكنوا إليها, وجعل لهم من أزواجهم, أولادا تقر بهم أعينهم ويخدمونهم, ويقضون حوائجهم, وينتفعون بهم من وجوه كثيرة, ورزقهم من الطيبات, من المآكل, والمشارب, والنعم الظاهرة, التي لا يقدر العباد أن يحصوها. " أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ " أي: أيؤمنون بالباطل, الذي لم يكن شيئا مذكوراً, ثم أوجده الله, وليس له من وجوده سوى العدم, فلا تخلق, ولا ترزق, ولا تدبر من الأمور شيئا. وهذا عام لكل ما عبد من دون الله, فإنها باطلة. فكيف يتخذها المشركون من دون الله؟ !!. "وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ " يجحدونها, ويستعينون بها على معاصي الله والكفر به. هل هذا إلا من أظلم الظلم, وأفجر الفجور, وأسفه السفه.؟!!

"وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ "
يخبر تعالى, عن جهل المشركين وظلمهم, أنهم يعبدون من دونه آلهة, اتخذوها شركاء لله. والحال أنهم لا يملكون لهم رزقا من السماوات والأرض. فلا ينزلون مطرا, ولا رزقا, ولا ينبتون من نبات الأرض شيئا, ولا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض, ولا يستطيعون لو أرادوا. فإن غير المالك للشيء, ربما كان له قوة واقتدار على ما ينفع من يتصل به. وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرون. فهذه صفة آلهتهم كيف جعلوها مع الله, وشبهوها بمالك الأرض والسماوات, الذي له الملك كله, والحمد كله, والقوة كلها؟!!.

"فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ "
ولهذا قال : "فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ " المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه. " إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ " فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم, وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال, فلهذا ضرب تعالى مثلين له ولمن يعبد من دونه. أحدهما عبد مملوك, أي: رقيق لا يملك نفسه, ولا يملك من المال والدنيا شيئا. والثاني حر غني قد رزقه الله منه رزقا حسنا, من جميع أصناف المال وهو كريم محب للإحسان, فهو ينفق منه سرا وجهرا, هل يستوي هذا وذاك؟ لا يستويان, مع أنهما مخلوقان, وغير محال استواؤهما. فإذا كانا لا يستويان, فكيف يستوي المخلوق والعبد, الذي ليس له ملك ولا قدرة, ولا استطاعة بل هو فقير من جميع الوجوه, بالرب المالك لجميع الممالك, القادر على كل شيء؟!!. ولهذا حمد نفسه, واختص بالحمد بأنواعه, فقال: " الْحَمْدُ لِلَّهِ ". فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم سوى المشركون آلهتهم بالله؟ قال : "بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " فلو علموا حقيقة العلم, لم يتجرأوا على الشرك العظيم.

"وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ "
والمثل الثاني مثل "رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ " لا يسمع ولا ينطق " لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ " لا قليل ولا كثير "وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ " أي يخدمه مولاه, ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه, فهو ناقص من كل وجه . "هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " فأقواله عدل, وأفعاله مستقيمة. فكما أنهما لا يستويان, فلا يستوي من عبد من دون الله, وهو لا يقدر على شيء من مصالحه. فلولا قيام الله بها, لم يستطع شيئا منها. ولا يكون كفوا, ولا ندا, لمن لا يقول إلا الحق, ولا يفعل إلا ما يحمد عليه.

"وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "
أي: هو تعالى المنفرد بغيب السماوات والأرض. فلا يعلم الخفايا والبواطن, والأسرار, إلا هو. ومن ذلك, علم الساعة, فلا يدري أحد متى تأتي, إلا الله. فإذا جاءت وتجلت, لم تكن " إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ " من ذلك فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم, وتفوت الفرص لمن يريد الإمهال. " إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " فلا يستغرب على قدرته الشاملة, إحياؤه للموتى.

"وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ "
أي: هو المنفرد بهذه النعم حيث " أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا " ولا تقدرون على شيء ثم إنه "وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ". خص هذه الأعضاء الثلاثة, لشرفها, وفضلها, ولأنها مفتاح لكل علم. فلا يصل للعبد علم, إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة, وإلا فسائر الأعضاء, والقوى الظاهرة والباطنة, هو الذي أعطاهم إياها, وجعل ينميها فيهم, شيئا فشيئا إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به. وذلك لأجل أن يشكروا الله, باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح, في طاعة الله. فمن استعملها في غير ذلك, كانت حجة عليه, وقابل النعمة بأقبح المعاملة.

"أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ "
أي: لأنهم المنتفعون بآيات الله, المتفكرون فيما جعلت آية عليه. وأما غير, فإن نظرهم نظر لهو, وغفلة. ووجه الآية فيها, أن الله تعالى خلقها بخلقة تصلح للطيران. ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف. ثم أودع فيها من قوة الحركة, وما قدرت به على ذلك. وذلك دليل على حكمته, وعلمه الواسع, وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته وكمال اقتداره, تبارك الله رب العالمين. يذكر تعالى عباده بنعمه, ويستدعي منهم شكرها, والاعتراف بها فقال:

"وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ "

"وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا " في الدور والقصور ونحوها, تكنكم من الحر والبرد, وتستركم, أنتم وأولادكم, وأمتعتكم, وتتخذون فيها الغرف والبيوت, التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم, وفيها حفظ لأموالكم وحرمكم, وغير ذلك من الفوائد المشاهدة. " وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ " إما من الجلد نفسه, أو مما نبت عليه, من صوف وشعر ووبر . "بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا " أي: تجدونها خفيفة الحمل, تكون لكم "يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ " أي: في السفر والمنازل, التي لا قصد لكم في استيطانها فتقيكم من الحر, والبرد, والمطر, وتقي متاعكم من المطر. وجعل لكم "وَمِنْ أَصْوَافِهَا " أي: الأنعام " وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا " وهذا شامل لكل ما يتخذ منها, من الآنية, والأوعية, والفرش, والألبسة, والأجلة, وغير ذلك . "وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ " أي: تتمتعون بذلك في هذه الدنيا, وتنتفعون بها. فهذا مما سخر الله العباد لصنعته وعمله.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ "
"وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ " أي: من مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها . "ظِلَالًا " وذلك, كأظلة الأشجار, والجبال, والآكام ونحوها . "وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا " أي: مغارات, تكنكم من الحر والبرد, والأمطار, والأعداء . "وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ " أي: ألبسة وثيابا " تَقِيكُمُ الْحَرَّ ". ولم يذكر الله البرد, لأنه قد تقدم أن هذه السورة, أولها في أصول النعم, وآخرها في مكملاتها ومتمماتها. ووقاية البرد, من أصول النعم, فإنه من الضرورة, وقد ذكره في أولها في قوله "لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ ". "وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ " أي: وثيابا تقيكم وقت البأس والحرب, من السلاح, وذلك, كالدروع, والزرود, ونحوها . "كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ " حيث أسبغ عليكم من نعمه, ما لا يدخل تحت الحصر . "لَعَلَّكُمْ " إذا ذكرتم نعمة الله, ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه "تُسْلِمُونَ " لعظمته, وتنقادون لأمره, وتصرفونها في طاعة موليها ومسديها. فكثرة النعم, من الأسباب الجالبة من العباد, مزيد الشكر, والثناء بها الله تعالى. ولكن أبى الظالمون, إلا تمردا وعنادا, ولهذا قال الله عنهم:

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ "
"فَإِنْ تَوَلَّوْا " عن الله, وعن طاعته, بعد ما ذكروا بنعمه وآياته . "فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ " ليس عليك من هدايتهم, وتوفيقهم شيء بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير, والإنذار والتحذير. فإذا أديت ما عليك, فحسابهم على الله, فإنهم يرون الإحسان, ويعرفون نعمة الله, ولكنهم ينكرونها ويجحدونها . "وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ " لا خير فيهم, وما ينفعهم توالي الآيات, لفساد مشاعرهم, وسوء قصودهم, سيرون جزاء الله لكل جبار عنيد كفور للنعم, متمرد على الله, وعلى رسله.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ "
يخبر تعالى, عن حال هؤلاء الذين كفروا في يوم القيامة, وأنه لا يقبل لهم عذر, ولا يرفع عنهم العقاب, وأن شركاءهم تتبرأ منهم, ويقرون على أنفسهم بالكفر والافتراء على الله, فقال : "وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا " يشهد عليهم بأعمالهم, وماذا أجابوا به الداعي إلى الهدى, وذلك الشهيد الذي يبعثه الله, أزكى الشهداء وأعدلهم, وهم: الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم . "ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا " في الاعتذار, لأن اعتذارهم بعد ما علموا يقينا, بطلان ما هم عليه, اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئا. وإن طلبوا أيضا الرجوع إلى الدنيا, ليستدركوا, لم يجابوا, ولم يعتبروا. بل يبادرهم العذاب الشديد, الذي لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال, من حين يرونه, لأنهم لا حسنات لهم, وإنما تعد أعمالهم وتحصى, ويوقفون عليها ويقرون بها, ويفتضحون

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ "
"وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ " يوم القيامة وعلموا بطلانها, ولم يمكنهم الإنكار. " قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ " ليس عندها نفع ولا شفيع. فنوهوا بأنفسهم ببطلانها, وكفروا بها, وبدت البغضاء والعداوة بينهم وبينها . "فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ " أي: ردت عليهم شركاؤهم قولهم, فقالت لهم: " إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ " حيث جعلتمونا شركاء

لله, وعبدتمونا معه, فلم نأمركم بذلك, ولا زعمنا أن فينا استحقاقا للألوهية, فاللوم عليكم.

"وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ "
فحينئذ, استسلموا لله, وخضعوا لحكمه, وعلموا إنهم مستحقون للعذاب . "وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ " فدخلوا النار, وقد امتلأت قلوبهم من مقت أنفسهم, ومن حمد ربهم, وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا.

"الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ "
يذكر الله تعالى في هذه الآية عاقبة المجرمين حيث كفروا بأنفسهم, وكذبوا بآيات الله, وحاربوا رسله, وصدوا الناس عن سبيل الله, وصاروا دعاة إلى الضلال, فاستحقوا مضاعفة العذاب كما تضاعف جرمهم, وكما أفسدوا في أرض الله.

"وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ "
لما ذكر فيما تقدم, أنه يبعث "فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا " ذكر ذلك أيضا هنا, وخص منهم هذا الرسول الكريم فقال : "وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ " أي: على أمتك تشهد عليهم بالخير والشر. وهذا من كمال عدل الله تعالى, أن كل رسول يشهد على أمته, لأنه أعظم اطلاعا من غيره, على أعمال أمته, وأعدل, وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون. وهذا كقوله تعالى "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا " وقال تعالى : "فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ ". وقوله "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ " في أصول الدين وفروعه, وفي أحكام الدارين, وكل ما يحتاج إليه العباد, فهو مبين فيه, أتم تبيين, بألفاظ واضحة, ومعان جلية. حتى إنه تعالى يثني فيه الأمور الكبار, التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت, وإعادتها في كل ساعة, ويعيدها, ويبديها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة, لتستقر في القلوب فتثمر من الخير والبر, بحسب ثبوتها في القلب. وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح, معاني كثيرة, يكون اللفظ لها, كالقاعدة والأساس. واعتبر هذا, بالآية التي بعد هذه الآية, وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي, التي لا تحصى. فلما كان هذا القرآن تبيانا لكل شيء, صار حجة الله على العباد كلهم. فانقطعت به حجة الظالمين, وانتفع به المسلمون, فصار هدى لهم, يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم, ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة. فالهدى, ما نالوا به, من علم نافع, وعمل صالح. والرحمة, ما ترتب على ذلك, من ثواب الدنيا والآخرة, كصلاح القلب وبره, وطمأنينته. وتمام العقل, الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه, التي هي أجل المعاني وأعلاها, والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة, والرزق الواسع, والنصر على الأعداء بالقول والفعل, ونيل رضا الله تعالى, وكرامته العظيمة, التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم, إلا الرب الرحيم.

"إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ "
فالعدل الذي أمر الله به, يشمل العدل في حقه, وفي حق عباده. فالعدل في ذلك, أداء الحقوق كاملة موفورة, بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية, والمركبة منهما, في حقه, وحق عباده. ويعامل الخلق بالعدل التام, فيؤدي كل وال, ما عليه, تحت ولايته, سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى, وولاية القضاء, ونواب الخليفة, ونواب القاضي. والعدل هو: ما فرضه الله عليهم في كتابه, وعلى لسان رسوله, وأمرهم بسلوكه. ومن العدل في المعاملات, أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات, بإيفاء جميع ما عليك, فلا تبخس لهم حقا, ولا تغشهم, ولا تخدعهم وتظلمهم. فالعدل واجب, والإحسان فضيلة مستحبة, وذلك كنفع الناس, بالمال والبدن, والعلم, وغير ذلك من أنواع النفع, حتى يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول, وغيره. وخص الله إيتاء ذوي القربى - وإن كان داخلا في العموم - لتأكد حقهم, وتعين صلتهم وبرهم, والحرص على ذلك. ويدخل في ذلك, جميع الأقارب, قريبهم, وبعيدهم, لكن كل

من كان أقرب, كان أحق بالبر. وقوله "وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ " وهو: كل ذنب عظيم, استفحشته الشرائع والفطر, كالشرك بالله, والقتل بغير حق, والزنا, والسرقة, والعجب, والكبر, واحتقار الخلق, وغير ذلك من الفواحش. ويدخل في المنكر, كل ذنب ومعصية, تتعلق بحق الله تعالى. وبالبغي, كل عدوان على الخلق, في الدماء, والأموال, والأعراض. فصارت هذه الآيه, جامعة لجميع المأمورات والمنهيات, لم يبق شيء, إلا دخل فيها. فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات. فكل مسألة مشتملة على عدل, أو إحسان, أو إيتاء ذي القربى, فهي مما أمر الله به. وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر, أو بغي, فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به, وقبح ما نهى عنه. وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال, وترد إليها سائر الأحوال. فتبارك من جعل من كلامه, الهدى, والشفاء, والنور, والفرقان بين جميع الأشياء. ولهذا قال : "يَعِظُكُمْ " أي: بما بينه لكم في كتابه, بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم, عما فيه مضرتكم . "لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " ما يعظكم به, فتفهمونه وتعقلونه. فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه, عملتم بمقتضاه, فسعدتم سعادة لا شقاوة معها. فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع, أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه فقال "وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ " إلى قوله "فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ".

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ "
هذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه, من العبادات, والنذور, والأيمان التي عقدها, إذا كان بها برا. ويشتمل أيضا, ما تعاقد عليه هو وغيره, كالعهود بين المتعاقدين, وكالوعد الذي يعده العبد لغيره, ويؤكده على نفسه. فعليه في جميع ذلك, الوفاء وتتميمها مع القدرة. ولهذا نهى الله عن نقضها فقال : "وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا " بعقدها على اسم الله تعالى "وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ " أيها المتعاقدون "كَفِيلًا ". فلا يحل لكم ان لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلا, فيكون في ذلك ترك تعظيم الله, واستهانة به, وقد رضي الآخر منك باليمين, والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلا. فكما ائتمنك وأحسن ظنه فيك, فلتف له بما قلته وأكدته. " إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ " فيجازي كل عامل بعمله, على حسب نيته ومقصده.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ "
"وَلَا تَكُونُوا " في نقضكم للعهود بأسوإ الأمثال وأقبحها وأدلها على صفة متعاطيها. وذلك "كَالَّتِي " تغزل غزلا قويا, فإذا استحكم, وتم ما أريد منه "نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ " فجعلته " أَنْكَاثًا " فتعبت على الغزل, ثم على النقض, ولم تستفد سوى الخيبة والعناء, وسفاهة العقل, ونقص الرأي. فكذلك من نقض ما عاهد عليه, فهو ظالم جاهل سفيه, ناقص الدين والمروءة. وقوله : "تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ". أي لا تنبغي هذه الحالة منكم, تعقدون الأيمان المؤكدة, وتنتظرون فيها الفرص. فإذا كان العاقد لها ضعيفا, غير قادر على الآخر, أتمها لا لتعظيم العقد واليمين, بل لعجزه. وإن كان قويا, يرى مصلحته الدنيوية في نقضها, نقضها غير مبال بعهد الله ويمينه. كل ذلك دورانا مع أهوية النفوس, وتقديا لها على مراد الله منكم, وعلى المروءة الإنسانية والأخلاق المرضية لأجل أن تكون أمة أكثر عددا وقوة من الأخرى. وهذا " إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ " امتحانا حيث قيض لعباده من أسباب المحن ما يمتحن به الصادق الوفي, من الفاجر الشقي . "وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ " فيجازي كلا بعمله, ويخزى الغادر.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ "
أي : "لَوْ شَاءَ اللَّهُ " لجمع الناس على الهدى, و "لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ". ولكنه تعالى, المنفرد بالهداية والإضلال - وهدايته وإضلاله, من أفعاله التابعة لعلمه وحكمته. يعطي الهداية, من يستحقها, فضلا, ويمنعها من لا يستحقها, عدلا "وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " من خير وشر, فيجازيكم عليها, أتم الجزاء, وأعد له.

"وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ "
أي : "وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ " وعهودكم ومواثيقكم "دَخَلًا بَيْنَكُمْ " أي: تبعا لأهوائكم, متى شئتم وفيتم بها, ومتى شئتم نقضتموها. فإنكم إذا فعلتم ذلك, تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم . "وَتَذُوقُوا السُّوءَ " أي: العذاب الذي يسوءكم ويحزنكم "بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ " حيث ضللتم, وأضللتم غيركم "وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ " مضاعف.

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ "
يحذر تعالى عباده, من نقض العهود, والأيمان لأجل متاع الدنيا وحطامها فقال : "وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا " تنالونه بالنقض وعدم الوفاء. " إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ " من الثواب العاجل والآجل, لمن آثر رضاه, وأوفى بما عاهد عليه الله "هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ " من حطام الدنيا الزائلة " إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ".

مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "
فآثروا ما يبقى على ما يفنى, فإن "مَا عِنْدَكُمْ " ولو كثر جدا لا بد أن "يَنْفَدُ " ويفنى. " وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ " ببقائه لا يفنى ولا يزول. فليس بعاقل, من آثر الفاني الخسيس, على الباقي النفيس, وهذا كقوله تعالى : "بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى " "وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ". وفي هذا, الحث والترغيب على الزهد في الدنيا. خصوصا, الزهد المتعين, وهو الزهد فيما يكون ضررا على العبد, ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه, وتقديمه على حق الله, فإن هذا الزهد واجب. ومن الدواعي للزهد, أن يقابل العبد لذات الدنيا وشهواتها بخيرات الآخرة. فإنه يجد من الفرق والتفاوت, ما يدعوه إلى إيثار أعلى الأمرين. وليس الزهد الممدوح, هو الانقطاع للعبادات القاصرة, كالصلاة, والصيام, والذكر ونحوها. بل لا يكون العبد زاهدا, زهدا صحيحا, حتى يقوم بما يقدر عليه, من الأوامر الشرعية, الظاهرة والباطنة, ومن الدعوة إلى الله وإلى دينه بالقول والفعل. فالزهد الحقيقي, هو: الزهد فيما لا ينفع في الدين والدنيا, والرغبة والسعي, في كل ما ينفع . "وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا " على طاعة الله, وعن معصيته, وقطموا أنفسهم عن الشهوات الدنيوية, المضرة يدينهم " أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " الحسنة بعشر أمثالها, إلى سبعمائة ضعف, إلى أضعاف كثيرة, فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا. ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا والآخرة, فقال:

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "
"مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ " فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها, بل لا تسمى أعمالا صالحة, إلا بالإيمان, والإيمان مقتض لها, فإنه: التصديق الجازم, المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات. فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح "فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً " وذلك بطمأنينة قلبه, وسكون نفسه, وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه, ويرزقه الله رزقا حلالا طيبا, من حيث لا يحتسب. " وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ " في الآخرة. " أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " من أصناف اللذات, مما لا عين رأت, ولا أذن سمعت, ولا خطر على قلب بشر. فيؤتيه الله في الدنيا حسنة, وفي الآخرة حسنة.

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ "
أي: فإذا أردت القراءة لكتاب الله, الذي هو أشرف الكتب أجلها, وفيه صلاح القلوب, والعلوم الكثيرة, فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد, عند شروعه في الأمور الفاضلة, فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها. فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله, والاستعاذة من شره. فيقول القارئ " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " متدبرا لمعناها, معتمدا بقلبه على الله, في صرفه عنه, مجتهدا في دفع وسواسه وأفكاره الرديئة, مجتهدا على السبب الأقوى في دفعه, وهو: التحلي بحلية الإيمان والتوكل.

"إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ "
فإن الشيطان "لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ " أي: تسلط "عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ " وحده لا شريك له "يَتَوَكَّلُونَ ", فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه, شر الشيطان, ولا يبق له عليهم, سبيل. " إِنَّمَا سُلْطَانُهُ " أي تسلطه "عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ " أي: يجعلونه لهم وليا. وذلك بتخليهم عن ولاية الله, ودخولهم في طاعة الشيطان, وانضمامهم لحزبه. فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم, فأزهم إلى المعاصي أزا, وقادهم إلى النار قودا.

"وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ "
يذكر تعالى, أن المكذبين بهذا القرآن, يتتبعون ما يرونه حجة لهم. وهو: أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم, الذي يشرع الأحكام, ويبدل حكما مكان آخر, لحكمته ورحمته. فإذا رأوه كذلك, قدحوا في الرسول, وبما جاء به, و "قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ". قال الله تعالى : "بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " منهم جهال لا علم لهم بربهم ولا بشرعه. ومن المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم لا عبرة به, فإن القدح في الشيء فرع عن العلم به, وما يشتمل عليه, مما يوجب المدح والقدح.

"قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ "
ولهذا ذكر تعالى حكمته في ذلك فقال : "قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ " وهو جبريل الرسول, المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة . "مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ " أي: نزوله من عند الله بالحق, وهو مشتمل على الحق, في أخباره, وأوامره, ونواهيه, فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحا صحيحا, لأنه إذا علم أنه الحق, علم أن ما عارضه وناقضه, باطل . "لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا " عند نزول آياته وتواردها عليهم, وقتا بعد وقت. فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئا فشيئا, حتى يكون إيمانهم, أثبت من الجبال الرواسي. وأيضا, فإنهم يعلمون أنه الحق. وإذا شرع حكما من الأحكام, ثم نسخه, علموا أنه أبدله, بما هو مثله, أو خير منه لهم, وأن نسخه, هو: المناسب للحكمة الربانية, والمناسبة العقلية . "وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ " أي: يهديهم إلى حقائق الأشياء, ويبين لهم الحق من الباطل, والهدى من الضلال, ويبشرهم أن لهم أجرا حسنا, ماكثين فيه أبدا. وأيضا, فإنه كلما نزل شيئا فشيئا, كان أعظم هداية وبشارة لهم, مما لو أتاهم جملة واحدة, وتفرق الفكر فيه, بل ينزل الله حكما وبشارة, أكثر. فإذا فهموه وعقلوه, وعرفوا المراد منه, وترووا منه, أنزل نظيره وهكذا. ولذلك بلغ الصحابة "4 به مبلغا عظيما, وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم, وانتقلوا إلى أخلاق, وعوائد, وأعمال, فاقوا بها الأولين والآخرين. وكان أعلى وأولى لمن بعدهم, أن يتربوا بعلومه, ويتخلقوا بأخلاقه, ويستضيئوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات, ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات. فبذلك, تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية.

"وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ "
يخبر تعالى, عن قيل المشركين المكذبين لرسوله " أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ " هذا الكتاب, الذي جاء به "بَشَرٌ ". وذلك البشر, الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان "وَهَذَا " القرآن "لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ", هل هذا القول ممكن؟ أو له حظ من الاحتمال؟ ولكن الكاذب, يكذب, ولا يفكر فيما يئول إليه كذبه. فيكون في قوله من التناقض والفساد, ما يوجب رده, بمجرد تصوره.

"إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "
" إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ " الدالة دلالة صريحة على الحق المبين, فيردونها ولا يقبلونها. " لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ " حيث جاءهم الهدى, فردوه, فعوقبوا بحرمانه, وخذلان الله لهم. "وَلَهُمْ " في الآخرة "عَذَابٌ أَلِيمٌ ".

"إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ "
" إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ " أي: إنما يصدر افتراه الكذب "من " الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ " كالمعاندين لرسوله, من بعد ما جاءتهم البينات . "وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ " أي: الكذب منحصر فيهم, وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم. وأما محمد صلى الله عليه وسلم,

المؤمن بآيات الله, الخاضع لربه, فمحال أن يكذب على الله, ويتقول عليه ما لم يقل. فأعداؤه رموه بالكذب, الذي هو وصفهم فأظهر الله خزيهم, وبين فضائحهم, فله تعالى الحمد.

مَّنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ "
يخبر تعالى عن شناعة حال "مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ " فعمى بعد ما أبصر, ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى, وشرح صدره بالكفر, راضيا به, مطمئنا, أن لهم الغضب الشديد, من الرب الرحيم, الذي إذا غضب, لم يقم لغضبه شيء, وغضب عليهم كل شيء . "وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ " أي: في غاية الشدة, مع أنه دائم أبدا.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ "
و "ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ " حيث ارتدوا على أدبارهم, طمعا في شيء من حطام الدنيا, ورغبة فيه, وزهدا في خير الآخرة. فلما اختاروا الكفر على الإيمان, منعهم الله الهداية, فلم يهدهم, لأن الكفر وصفهم. فطبع على قلوبهم, فلا يدخلها خير, وعلى سمعهم وعلى أبصارهم, فلا ينفذ منها ما ينفعهم, ويصل إلى قلوبهم. فشملتهم الغفلة, وأحاط بهم الخذلان, وحرموا رحمة الله, التي وسعت كل شيء. وذلك أنها أتتهم, فردوها, وعرضت عليهم, فلم يقبلوها.

"لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ "
" لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ " الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة, وفاتهم النعيم المقيم, وحصلوا على العذاب الأليم. وهذا بخلاف من أكره على الكفر, وأجبر عليه, وقلبه مطمئن بالإيمان; راغب فيه فإنه لا حرج عليه ولا إثم, ويجوز له النطق بكلمة الكفر, عند الإكراه عليها. ودل ذلك, على أن كلام المكره على الطلاق, أو العتاق, أو البيع, أو الشراء, أو سائر العقود, أنه لا عبرة به, ولا يترتب عليه حكم شرعي. لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر, إذا أكره عليها, فغيرها من باب أولى وأحرى.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ "
أي: ثم إن ربك, الذي ربى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه, لغفور رحيم, لمن هاجر في سبيله, وخلى دياره وأمواله, طالبا لمرضاة الله, وفتن على دينه, ليرجع إلى الكفر, فثبت على الإيمان, وتخلص ما معه من اليقين. ثم جاهد أعداء الله, ليدخلهم في دين الله, بلسانه, ويده, وصبر على هذه العبادات الشاقة, على أكثر الناس. فهذه أكبرالأسباب, التي ينال بها أعظم العطايا, وأفضل المواهب, وهي مغفرة الله للذنوب, صغارها, وكبارها, المتضمن ذلك, زوال كل أمر مكروه. ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم. فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة.

"يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ "
"يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا " كل يقول نفسي, لا يهمه سوى نفسه. ففي ذلك اليوم, يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير . "وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ " من خير وشر "وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ "فلا يزاد في سيئاتهم, ولا ينقص من حسناتهم "فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ "

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ "
وهذه القرية هي: مكة المشرفة, التي كانت آمنة مطمئنة لا يهاج, فيها أحد, وتحترمها الجاهلية الجهلاء حتى إن أحدهم, يجد فيها قاتل أبيه وأخيه, فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم, والنعرة العربية فحصل لها في مكة, من الأمن التام, ما لم يحصل في سواها وكذلك الرزق الواسع. كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر, ولكن يسر الله لها الرزق, يأتيها من كل مكان. فجاءهم رسول منهم, يعرفون أمانته وصدقه, يدعوهم إلى أكمل

الأمور, وينهاهم عن الأمور السيئة. فكذبوه, وكفروا بنعمة الله عليهم, فأذاقهم الله, ضد ما كانوا فيه, وألبسهم لباس الجوع, الذي هو ضد الرغد, والخوف, الذي هو ضد الأمن, وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم, وعدم شكرهم " وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ".

" فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ "
يأمر تعالى عباده, بأكل ما رزقهم الله, من الحيوانات, والحبوب, والثمار, وغيرها . " حَلَالًا طَيِّبًا " أي: حالة كونها متصفة بهذين الوصفين بحيث لا تكون مما حرم الله, أو أثرا من غصب ونحوه. فتمتعوا بما خلق الله لكم, من غير إسراف, ولا تعد . " وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ " بالاعتراف بها, بالقلب, والثناء على الله بها, وصرفها في طاعة الله. " إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ " أي إن كنتم مخلصين له العبادة, فلا تشكروا إلا إياه, ولا تنسوا المنعم.

"إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ "
" إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ " الأشياء المضرة, تنزيها لكم. ومن ذلك: " الْمَيْتَةَ " ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة. ويستثنى منه, ميتة الجراد والسمك, والدم المسفوح, وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر . " وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ " لقذارته وخبثه, وذلك شامل للحمه وشحمه, وجميع أجزائه . " وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ " كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها, لأنه مقصود به الشرك . " فَمَنِ اضْطُرَّ " إلى شيء من المحرمات - بأن حملته الضرورة, وخاف إن لم يأكل أن يهلك - فلا جناح عليه إذا كان " غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ". أي: إذا لم يرد أكل المحرم, وهو غير مضطر, ولا متعد الحلال إلى الحرام, أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة. فهذا الذي حرمه الله من المباحات.

" وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ "
" وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ " أي لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم, كذبا, وافتراء على الله وتقولا عليه . " لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ " لا في الدنيا, ولا في الآخرة. ولا بد أن يظهر الله خزيهم, وإن تمتعوا في الدنيا, فإنه " مُتَاعٌ قَلِيلٌ " ومصيرهم إلى النار " وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ". فالله تعالى ما حرم علينا إلا الخبيثات, تفضلا, منه, وصيانة عن كل مستقذر. وأما الذين هادوا فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم, كما قصه في سورة الأنعام في قوله " وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ".

"ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ "
وهذا حض منه لعباده على التوبة, ودعوة لهم إلى الإنابة. فأخبر أن من عمل سوءا بجهالة, بعاقبة ما تجنى عليه, ولو كان متعمدا للذنب, فإنه لا بد أن ينقص ما في قلبه من العلم, وقت مفارقة الذنب. فإذا تاب وأصلح, بأن ترك الذنب وندم عليه وأصلح أعماله, فإن الله يغفر له ويرحمه, ويتقبل توبته, ويعيده إلى حالته الأولى, أو أعلى منها.

"إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ "
يخبر تعالى, عما فضل به خليله, عليه الصلاة والسلام, وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة, فقال: " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً " أي: إماما, جامعا لخصال الخير, هاديا مهتديا . " قَانِتًا لِلَّهِ " أي: مديما لطاعة ربه, مخلصا له الدين . " حَنِيفًا " مقبلا على الله, بالمحبة, والإنابة, والعبودية, معرضا عمن سواه . " وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " في قوله وعمله, وجميع أحواله, لأنه إمام الموحدين الحنفاء.

" شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ "

شَّاكِرًا لِأَنْعُمِهِ " أي: آتاه الله في الدنيا حسنة, وأنعم عليه بنعم, ظاهرة وباطنة, فقام بشكرها. فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن " اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ", واختصه بخلته, وجعله من صفوة خلقه, وخيار عباده المقربين . "وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " في علمه وعمله, فعلم بالحق, وأثره على غيره.

وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ "
"وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً " رزقا واسعا, وزوجة حسناء, وذرية صالحين, وأخلاقا مرضية. " وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ " الذين لهم المنازل العالية, والقرب العظيم من الله تعالى.

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ "
ومن أعظم فضائله, أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم, أن يتبع ملة إبراهيم, ويقتدي به, هو, وأمته.

"إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ "
يقول تعالى: " إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ " أي: فرضا "عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ " حين ضلوا عن يوم الجمعة, وهم اليهود, فصار اختلافهم سببا لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه, وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة, الذي هدى الله هذه الأمة إليه . "وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ " فيبين لهم المحق من المبطل, والمستحق للثواب, ممن استحق العذاب.

"ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ "
أي: ليكن دعاؤك للخلق, مسلمهم وكافرهم, إلى سبيل ربك المستقيم, المشتمل على العلم النافع, والعمل الصالح . "بِالْحِكْمَةِ " أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه, وقوله وانقياده. ومن الحكمة, الدعوة بالعلم لا بالجهل, والبدأة بالأهم فالأهم, وبالأقرب إلى الأذهان والفهم, وبما يكون قبوله أتم, وبالرفق واللين. فإن انقاد بالحكمة, وإلا فينتقل معه إلى الدعوة بالموعظة الحسنة, وهو, الأمر, والنهي المقرون بالترغيب والترهيب. إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها, والنواهي من المضار وتعدادها. وإما بذكر إكرام من قام بدين الله, وإهانة من لم يقم به. وإما بذكر ما أعد الله للطائعين, من الثواب العاجل والآجل, وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل. فإن كان المدعو, يرى أن ما هو عليه حق, أو كان داعيه إلى الباطل, فيجادل بالتي هي أحسن, وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلا ونقلا. ومن ذلك, الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها, فإنه أقرب إلى حصول المقصود, وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة, تذهب بمقصودها, ولا تحصل الفائدة منها, بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها. وقوله: " إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ " أي: أعلم بالسبب, الذي أداه إلى الضلال, ويعلم أعماله المترتبة على ضلالته, وسيجازيه عليها . "وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " علم أنهم يصلحون للهداية, فهداهم, ثم من عليهم فاجتباهم.

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ "
يقول تعالى - مبيحا للعدل, ونادبا للفضل والإحسان -: "وَإِنْ عَاقَبْتُمْ " من أساء إليكم بالقول والفعل "فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ " من غير زيادة منكم, على ما أجراه معكم. " وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ " عن المعاقبة, وعفوتم عن جرمهم "لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ " من الاستيفاء, وما عند الله, خير لكم, وأحسن عاقبة كما قال تعالى: " فمن عفا وأصلح فأجره على الله ". ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله, والاستعانة بالله على ذلك, وعدم الاتكال على النفي فقال:

وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ "
"وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ " هو الذي يعينك عليه ويثبتك . "وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ " إذا دعوتهم,

فلم تر منهم قبولا لدعوتك, فإن الحزن لا يجدي عليك شيئا . "وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ " أي شدة وحرج "مِمَّا يَمْكُرُونَ " فإن مكرهم عائد إليهم, وأنت من المتقين المحسنين.

"إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ "
والله مع المتقين المحسنين, بعونه, وتوفيقه, وتسديده, وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي, وأحسنوا في عبادة الله, بأن عبدوا الله, كأنهم يرونه, فإن لم يكونوا يرونه, فإنه يراهم. والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه. نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين. تم تفسير سورة النحل - ولله الحمد والمنة

سورة الإسراء

"سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ "
ينزه تعالى نفسه المقدسة, ويعظمها لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة, التي من جملتها أنه " أَسْرَى بِعَبْدِهِ " ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم , "لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ " الذي هو أجل المساجد على الإطلاق " إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى " الذي هو من المساجد الفاضلة, وهو محل الأنبياء. فأسرى به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جدا, ورجع في ليلته. وأراه الله من آياته, ما ازداد به هدى وبصيرة, وثباتا, وفرقانا. وهذا من اعتنائه تعالى به, ولطفه, حيث يسره لليسرى, في جميع أموره, وخوله نعما, فاق بها الأولين والآخرين. وظاهر الآية, أن الإسراء كان في أول الليل, وأنه من نفس المسجد الحرام. لكن ثبت في الصحيح, أنه أسري به من بيت أم هانئ. فعلى هذا, تكون الفضيلة في المسجد الحرام, لسائر الحرم. فكله تضاعف فيه العبادة, كتضاعفها في نفس المسجد. وأن الإسراء, بروحه, وجسده معا, وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى, ومنقبة عظيمة. وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم, في الإسراء, وذكر تفاصيل ما رأى, وأنه أسرى به إلى بيت المقدس, ثم عرج به من هناك, إلى السماوات, حتى وصل إلى ما فوق السماوات العلى, ورأى الجنة والنار, والأنبياء على مراتبهم, وفرض عليه الصلوات خمسين. ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم, حتى صارت خمسا في الفعل, وخمسين في الأجر والثواب. وحاز من المفاخر تلك الليلة, هو وأمته, ما لا يعلم مقداره إلا الله عز وجل. وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن, ومقام التحدي بصفة العبودية, لأنه نال هذه المقامات الكبار, بتكميله لعبودية ربه. وقوله: " الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ " أي: بكثرة الأشجار والأنهار, والخصب الدائم. ومن بركته, تفضيله على غيره من المساجد, سوى المسجد الحرام, ومسجد المدينة. وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه, وأن الله اختصه محلا, لكثير من أنبيائه وأصفيائه.

"وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا "
كثيرا ما يقرن الباري بين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم, ونبوة موسى صلى الله عليه وسلم, وبين كتابيهما وشريعتيهما, لأن كتابيهما أفضل الكتب, وشريعتيهما أكمل الشرائع, ونبوتيهما أعلى النبوات, وأتباعهما أكثر المؤمنين. ولهذا قال هنا : "وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ " الذي هو التوراة "وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ " يهتدون به في ظلمات الجهل إلى العلم بالحق. " أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا " أي: وقلنا لهم ذلك, وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك, ليعبدوا الله وحده, وينيبوا إليه, ويتخذوه وحده, وكيلا ومدبرا لهم, في أمر دينهم ودنياهم, ولا يتعلقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئا, ولا ينفعونهم بشيء.

"ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا "
"ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ " أي: يا ذرية من مننا عليهم, وحملناهم مع نوح. " إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا " ففيه التنويه بالثناء على نوح, عليه السلام, بقيامه بشكر الله, واتصافه بذلك, والحث لذريته, أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه, وأن يتذكروا نعمة الله عليهم, إذ أبقاهم واستخلفهم في الأرض, وأغرق غيرهم.

"وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا "

"وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ " أي تقدمنا وعهدنا إليهم, وأخبرناهم في كتابهم, أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين بعمل المعاصي والبطر لنعم الله, والعلو في الأرض والتكبر فيها, وأنه إذا وقع واحدة منهما, سلط الله عليهم الأعداء, وانتقم منهم, وهذا تحذير لهم وإنذار, لعلهم يرجعون فيتذكرون.

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا "
"فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا " أي: أولي المرتين اللتين يفسدون فيهما. أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد "بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ " بعثا قدريا, وسلطنا عليكم تسليطا كونيا جزائيا "عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ " أي: ذوي شجاعة وعدد وعدة فنصرهم الله عليكم, فقتلوكم وسبوا أولادكم, ونهبوا أموالكم . "فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ " وهتكوا الدور, ودخلوا المسجد الحرام, وأفسدوه. "وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا "لا بد من وقوعه, لوجود سببه منهم. واختلف المفسرون, في تعيين هؤلاء المسلطين, إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار. إما من أهل العراق, أو الجزيرة, أو غيرها سلطهم الله على بني إسرائيل, لما كثرت فيهم المعاصي, وتركوا كثيرا, من شريعتهم, وطغوا في الأرض.

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا "
"ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ " أي: على هؤلاء الذين سلطوا عليكم, فأجليتموهم من دياركم . "وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ " أي: أكثرنا أرزاقكم, وكثرناكم, وقويناكم عليهم. " وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا " منهم, وذلك بسبب إحسانكم وخضوعكم لله.

"إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا "
" إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ " لأن النفع عائد إليكم, حتى في الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم . "وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا " أي: فلأنفسكم, يعود الضرر كما أراكم الله, من تسليط الأعداء . "فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ " أي: المرة الأخرى, التي تفسدون فيها في الأرض, سلطنا عليكم الأعداء , "لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ " بانتصارهم عليكم وسبيكم "وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ " والمراد بالمسجد, مسجد بيت المقدس . "وَلِيُتَبِّرُوا " أي: يخربوا ويدمروا "مَا عَلَوْا " عليه "تَتْبِيرًا " فيخربوا بيوتكم, ومساجدكم, وحروثكم.

"عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا "
"عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ " فيديل لكم الكرة عليهم. فرحمهم, وجعل لهم الدولة, وتوعدهم على المعاصي فقال : "وَإِنْ عُدْتُمْ " إلى الإفساد في الأرض "عُدْنَا " إلى عقوبتكم. فعادوا لذلك, فسلط الله عليهم رسوله, محمدا صلى الله عليه وسلم, فانتقم الله به منهم. فهذا جزاء الدنيا, وما عند الله من النكال, وأعظم وأشنع, ولهذا قال: " وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا " يصلونها, ويلازمونها لا يخرجون منها أبدا. وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأمة, من العمل بالمعاصي لئلا يصيبهم, ما أصاب بني إسرائيل. فسنة الله واحدة لا تبدل ولا تغير. ومن نظر إلى تسليط الكفرة والظلمة على المسلمين عرف أن ذلك, من أجل ذنوبهم, عقوبة لهم, وأنهم إذا أقاموا كتاب الله, وسنة رسوله, مكن لهم في الأرض, ونصرهم على أعدائهم.

"إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا "
يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته, وأنه "يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ " أي: أعدل وأعلى, من العقائد, والأعمال, والأخلاق. فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن, كان أكمل الناس, وأقومهم, وأهداهم في جميع الأمور . "وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ " من الواجبات والسنن. " أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا " أعده الله لهم في دار كرامته لا يعلم وصفه إلا هو.

وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا "

"وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ", فالقرآن مشتمل على البشارة والنذارة, وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة, وهو الإيمان, والعمل الصالح, والتي تستحق بها النذارة وهو ضد ذلك.

"وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا "
وهذا من جهل الإنسان وعجلته, حيث يدعو على نفسه وأولاده بالشر عند الغضب, ويبادر بذلك الدعاء, كما يبادر بالدعاء في الخير, ولكن الله - من لطفه - يستجيب له في الخير, ولا يستجيب له بالشر . "وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ".

"وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا "
يقول تعالى : "وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ " أي: دالتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته, وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له . "فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ " أي: جعلناه مظلما, للسكون فيه, والراحة . "وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً " أي: مضيئة "لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ " في معايشكم, وصنائعكم, وتجاراتكم, وأسفاركم . "وَلِتَعْلَمُوا " بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر "عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ " فتبنون عليها ما تشاءون, من مصالحكم . "وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا " أي: بينا الآيات, وصرفناه, لتتميز الأشياء, ويتبين الحق من الباطل, كما قال تعالى "مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ".

"وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا "
وهذا إخبار عن كمال عدله, أن كل إنسان يلزمه طائره في عنقه, أي: ما عمل من خير وشر, يجعله الله ملازما له لا يتعداه إلى غيره, فلا يحاسب بعمل غيره ولا يحاسب غيره بعمله . "وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا " فيه عمله, من الخير والشر, حاضرا, صغيره وكبيره, ويقال له: " اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ". وهذا من أعظم العدل والإنصاف, أن يقال للعبد: حاسب نفسك, ليعرف ما عليه من الحق الموجب للعقاب.

"مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا "
أي: هداية كل أحد وضلاله لنفسه, ولا يحمل أحد ذنب أحد, ولا يدفع عنه مثقال ذرة من الشر. والله تعالى, أعدل العادلين لا يعذب أحدا, حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة, ثم يعاند الحجة. وأما من انقاد للحجة, أو لم تبلغه حجة الله تعالى, فإن الله تعالى لا يعذبه. استدل بهذه الآية, على أن أهل الفترات, وأطفال المشركين لا يعذبهم الله, حتى يبعث إليهم رسولا, لأنه منزه عن الظلم.

"وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا "
يخبر تعالى, أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة, ويستأصلها بالعذاب, أمر مترفيها, أمرا قدريا, ففسقوا فيها, واشتد طغيانهم . "فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ " أي: كلمة العذاب التي لا مرد لها "فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ". وهؤلاء أمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب, من بعد قوم نوح, كعاد, وثمود, وقوم لوط, وغيرهم, من عاقبهم الله, لما كثر بغيهم, واشتد كفرهم, أنزل الله بهم عقابه العظيم . "وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا " فلا يخافون منه ظلما, وأنه يعاقبهم على ما عملوه.

"مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا "
يخبر تعالى أن "مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ " أي: الدنيا المنقضية الزائلة, فعمل لها, وسعى, ونسي المبتدأ أو المنتهى, أن الله يعجل له من حطامها ومتاعها, ما يشاؤه ويريده, مما كتب الله له في اللوح المحفوظ, ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له. ثم يجعل له في الآخرة "جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا " أي يباشر عذابها "مَذْمُومًا مَدْحُورًا " أي: في حالة الخزي والفضيحة

والذم من الله, ومن خلقه, والبعد عن رحمة الله, فيجمع له العذاب والفضيحة.

"وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا "
"وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ " فرضيها وآثرها على الدنيا "وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا " الذي دعت إليه الكتب السماوية, والآثار النبوية, فعمل بذلك على قدر إمكانه "وَهُوَ مُؤْمِنٌ " بالله وملائكته, وكتبه, ورسله, واليوم الآخر . "فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا " أي: مقبولا منمى, مدخرا, لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم. ومع هذا, فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا, فكلا يمده الله منها, لأنه عطاؤه وإحسانه "وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا " أي: ممنوعا من أحد, بل جميع الخلق راتعون بفضله وإحسانه.

"انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا "
" انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ " في الدنيا, بسعة الأرزاق وقلتها, واليسر والعسر, والعلم والجهل, والعقل والسفه, وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها . "وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا " فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها, إلى الآخرة, بوجه من الوجوه. فكم بين من هو في الغرف العاليات, واللذات المتنوعات, والسرور والخيرات والأفراح, ممن هو يتقلب في الجحيم, ويعذب بالعذاب الأليم وقد حل عليه سخط الرب الرحيم, وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحدا عده.

"لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا "
أي لا تعتقد أن أحدا من المخلوقين يستحق شيئا من العبادة, ولا تشرك بالله أحدا منهم, فإن ذلك داع للذم والخذلان. فالله, وملائكته, ورسله, قد نهوا عن الشرك, وذموا من عمله أشد الذم, ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة, والأوصاف المقبوحة, ما كان به متعاطيه, وأشنع الخلق وصفا, وأقبحهم نعتا. وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه, بحسب ما تركه, من التعلق بربه. فمن تعلق بغيره, فهو مخذول, قد وكل إلى من تعلق به, ولا أحد من الخلق ينفع أحدا, إلا بإذن الله. كما أن من جعل مع الله إلها آخر, له الذم والخذلان. فمن وحده, وأخلص دينه لله, وتعلق به دون غيره, فإنه محمود معان في جميع أحواله.

"وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا "
لما نهى تعالى عن الشرك به, أمر بالتوحيد, فقال : "وَقَضَى رَبُّكَ " قضاء دينيا وأمرا شرعيا. " أَنْ لَا تَعْبُدُوا " أحدا من أهل الأرض والسماوات الأحياء والأموات. " إِلَّا إِيَّاهُ " لأنه الواحد الأحد, الفرد الصمد, الذي له كل صفة كمال, وله من كل صفة أعظمها, على وجه لا يشبهه أحد من خلقه, وهو المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة, الدافع لجميع النقم, الخالق, الرازق, المدبر لجميع الأمور. فهو المتفرد بذلك كله, وغيره ليس له من ذلك شيء. ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين فقال : "وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ". أي: أحسنوا إليهما, بجميع وجوه الإحسان, القول والفعلي, لأنهما سبب وجود العبد, ولهما من المحبة للولد, والإحسان إليه, والقرب, ما يقتضي تأكد الحق, ووجوب البر. " إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا " أي: إذا وصلا إلى هذا السن, الذي تضعف فيه قواهما, ويحتاجان من اللطف والإحسان, ما هو معروف . "فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ " وهذا أدنى مراتب الأذى, نبه به على ما سواه. والمعنى لا تؤذهما أدنى أذية . "وَلَا تَنْهَرْهُمَا " أي: تزجرهما, وتتكلم كلاما خشنا . "وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا " بلفظ يحبانه, وتأدب, وتلطف معهما, بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما, وتطمئن به نفوسهما. وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد, والأزمان.

"وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّي ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا "
"وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ " أي: تواضع لهما, ذلا لهما, ورحمة, واحتسابا للأجر, لا لأجل الخوف منهما, أو الرجاء لما لهما, ونحو ذلك من المقاصد, التي لا يؤجر عليها العبد . "وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا " أي: ادع لهما بالرحمة أحياء, وأمواتا. جزاء على تربيتهما إياك, صغيرا. وفهم من هذا, أنه كلما ازدادت التربية, ازداد الحق. وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه ودنياه, تربية صالحة غير الأبوين, فإن له على من رباه, حق التربية.

"رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا "
أي: ربكم تعالى مطلع على ما أكنته سرائركم, من خير وشر, وهو لا ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر. " إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ " بأن تكون إرادتكم ومقاصدكم, دائرة على مرضاة الله, ورغبتكم فيما يقربكم إليه, وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله . "فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ " أي: الرجاعين إليه في جميع الأوقات "غَفُورًا ". فمن اطلع الله على قلبه, وعلم أنه ليس فيه إلا الإنابة إليه ومحبته, ومحبة ما يقرب إليه, فإنه, وإن جرى منه في بعض الأوقات, ما هو مقتضى الطبائع البشرية, فإن الله يعفو عنه, ويغفر له الأمور العارضة, غير المستقرة.

"وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا "
يقول تعالى : "وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ " من البر والإكرام, الواجب والمسنون, وذلك الحق, يتفاوت بتفاوت الأحوال, والأقارب, والحاجة وعدمها, والأزمنة . "وَالْمِسْكِينَ " آته حقه من الزكاة ومن غيرها, لتزول مسكنته "وَابْنَ السَّبِيلِ " وهو: الغريب المنقطع به عن بلده. " وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا " يعطي الجميع من المال, على وجه لا يضر المعطي, ولا يكون زائدا على المقدار اللائق, فإن ذلك تبذير, قد نهى الله عنه وأخبر:

"إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا "
" إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ " لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة, فيدعو الإنسن إلى البخل والإمساك, فإذا عصاه, دعاه إلى الإسراف والتبذير. والله تعالى, إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها, ويمدح عليه, كما في قوله, عن عباد الرحمن الأبرار "والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما".

"وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا "
وقال هنا : "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ " كناية عن شدة الإمساك والبخل . "وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ " فتنفق فيما لا ينبغي, وزيادة على ما ينبغي . "فَتَقْعُدَ " إن فعلت ذلك "مَلُومًا " أي: تلام على ما فعلت "مَحْسُورًا " أي: حاسر اليد فارغها, فلا بقي ما في يدك من المال ولا خلفه مدح وثناء. وهذا الأمر بإيتاء ذى القربى, مع القدرة والغنى. فأما مع العدم, أو تعسر النفقة الحاضرة, فأمر تعالى أن يردوا ردا جميلا فقال : "وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا " أي: تعرضن عن إعطائهم إلى وقت آخر, ترجو فيه من الله تيسير الأمر . "فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا " أي: لطيفا برفق, ووعد بالجميل, عند سنوح الفرصة, واعتذار بعدم الإمكان, في الوقت الحاضر, لينقلبوا عنك, مطمئنة خواطرهم, كما قال تعالى "قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ". وهذا أيضا, من لطف الله تعالى بالعباد, أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه, لأن انتظار ذلك, عبادة. وكذلك وعدهم بالصدقة والمعروف عند التيسر, عبادة حاضرة, لأن الهم بفعل الحسنة, حسنة. ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير, وينوي فعل ما لم يقدر عليه, ليثاب على ذلك, ولعل الله ييسر له بسبب رجائه.

"إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا "
ثم قال تعالى: " إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ " من عباده "وَيَقْدِرُ " أي: يضيقه على من يشاء, حكمة منه. " إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا " فيجزيهم على ما يعلمه صالحا لهم, ويدبرهم, بلطفه وكرمه.

"وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا "
وهذا من رحمته بعباده, حيث كان أرحم بهم من والديهم. فنهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم, خوفا من الفقر والإملاق, وتكفل برزق الجميع. وأخبر أن قتلهم كان خطئا كبيرا, أي من أعظم كبائر الذنوب, لزوال الرحمة من القلب, والعقوق العظيم والتجري على قتل الأطفال, الذين لم يجر منهم ذنب ولا معصية.

"وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا "
النهي عن قربان الزنى أبلغ من النهي عن مجرد فعله, لأن ذلك يشمل النهي عن جميع

مقدماته ودواعيه, فإن "من حام حول الحمى, يوشك أن يقع فيه". خصوصا هذا الأمر, الذي في كثير من النفوس, أقوى داع إليه. ووصف الله الزنى وقبحه بأنه "كَانَ فَاحِشَةً " أي: إنما يستفحش في الشرع والعقل, والفطر, لتضمنه التجري على الحرمة في حق الله, وحق المرأة, وحق أهلها, أو زوجها, وإفساد الفراش, واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد. وقوله "وَسَاءَ سَبِيلًا " أي: بئس السبيل, سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا "
وهذا شامل لكل نفس "حَرَّمَ اللَّهُ " قتلها من صغير, وكبير, وذكر وأنثى, وحر, وعبد, ومسلم, وكافر له عهد. " إِلَّا بِالْحَقِّ " كالنفس بالنفس, والزاني المحصن, والتارك لدينه, المفارق للجماعة, والباغي في حال بغيه, إذا لم يندفع إلا بالقتل . "وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا " أي بغير حق "فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ " وهو, أقرب عصباته وورثته إليه "سُلْطَانًا " أي: حجة ظاهرة على القصاص من القاتل وجعلنا له أيضا تسلطا قدريا على ذلك. وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص, كالعمد العدوان, والمكافأة . "فَلَا يُسْرِفْ " الولي "فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ". والإسراف, مجاوزة الحد, إما أن يمثل بالقاتل, أو يقتله بغير ما قتل به, أو يقتل غير القاتل. وفي هذه الآية, دليل على أن الحق في القتل للولي, فلا يقتص إلا بإذنه وإن عفا, سقط القصاص. وأن ولي المقتول, يعينه الله على القاتل, ومن أعانه, حتى يتمكن من قتله.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا "
وهذا من لطفه ورحمته تعالى باليتيم, الذي فقد والده, وهو صغير, غير عارف بمصلحة نفسه, ولا قائم بها, أن أمر أولياءه بحفظه, وحفظ ماله, وإصلاحه, وأن لا يقربوه " إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " من التجارة فيه, وعدم تعريضه للأخطار, والحرص على تنميته. وذلك ممتد إلى أن "يَبْلُغَ " اليتيم " أَشُدَّهُ " أي: بلوغه, وعقله, ورشده. فإذا بلغ أشده, زالت عنه الولاية, وصار ولي نفسه, ودفع إليه ماله. كما قال تعالى "فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ". "وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ " الذي عاهدتم الله عليه, والذي عاهدتم الخلق عليه. " إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا " أي: مسئولون عن الوفاء به. فإن وفيتم, فلكم الثواب الجزيل, وإن لم تفعلوا, فعليكم الإثم العظيم.

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا "
وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكاييل والموازين بالقسط, من غير بخس ولا نقص. ويؤخذ من عموم المعنى, النهي عن كل غش, أو مثمن, أو معقود عليه, والأمر بالنصح, والصدق في المعاملة . "ذَلِكَ خَيْرٌ " من عدمه "وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا " أي: أحسن عاقبة به, يسلم العبد من التبعات, وبه تنزل البركة.

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا "
أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم, با تثبت في كل ما تقوله وتفعله. فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك. " إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا " فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسئول, عما قاله وفعله, وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته, أن يعد للسؤال جوابا. وذلك لا يكون, إلا باستعمالها, بعبودية الله, وإخلاص الدين له, وكفها عما يكرهه الله تعالى.

وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا "
يقول تعالى : "وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا " أي: كبرا وتيها وبطرا, متكبرا على الحق, ومتعاظما في تكبرك على الخلق. "إِنَّكَ " في فعلك ذلك "لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ". بل تكون حقيرا عند الله ومحتقرا عند الخلق, مبغوضا ممقوتا, قد اكتسبت شر الأخلاق, واكتسيت بأرذلها, من غير إدراك لبعض ما تروم.

كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا "
"كُلُّ ذَلِكَ " المذكور الذي نهى الله عنه فيما تقدم من قوله "وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ " والنهي عن عقوق الوالدين وما عطف على ذلك "كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا " أي: كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم, والله تعالى يكرهه ويأباه.

"ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا "
"ذَلِكَ " الذي بيناه ووضحناه من هذه الأحكام الجليلة . "مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ " فإن الحكمة, الأمر بمحاسن الأعمال, ومكارم الأخلاق, والنهي عن أراذل الأخلاق, وأسوإ الأعمال. وهذه الأعمال المذكورة في هذه الآيات, من الحكمة العالية, التي أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين, في أشرف الكتب, ليأمر بها أفضل الأمم, فهي من الحكمة, التي من أوتيها, فقد أوتي خيرا كثيرا. ثم ختمها بالنهي عن عبادة غير الله, كما افتتحها بذلك فقال : "وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ " أي: خالدا مخلدا, فإنه من يشرك بالله, فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار . "مَلُومًا مَدْحُورًا " أي: قد لحقتك اللائمة, واللعنة, والذم من الله, وملائكته, والناس أجمعين.

"أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا "
وهذا إنكار شديد, على من زعم أن الله اتخذ من خلقه بنات فقال: " أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ " أي: اختار لكم الصفوة والنصيب الكامل, واتخذ لنفسه من الملائكة إناثا, حيث زعموا أن الملائكة بنات الله. " إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا " فيه أعظم الجرأة على الله, حيث نسبتم له الولد المتضمن لحاجته, واستغناء بعض المخلوقات عنه, وحكمتم له بأردأ القسمين, وهو الإناث وهو الذي خلقكم, واصطفاكم بالذكور, فتعال الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا "
يخبر تعالى, أنه صرف لعباده, في هذا القرآن, أي نوع الأحكام, ووضحها, وأكثر من الأدلة والبراهين, على ما دعا إليه, ووعظ وذكر, لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلكوه, وما يضرهم فيدعوه. ولكن أبى أكثر الناس, إلا نفورا عن آيات الله, لبغضهم للحق, ومحبتهم ما كانوا عليه من الباطل, حتى تعصبوا لباطلهم, ولم يعيروا آيات الله لهم سمعا, ولا ألقوا لها بالا. ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة, التوحيد الذي هو أصل الأصول. فأمر به, ونهى عن ضده, وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية, شيئا كثيرا, بحيث أن من أصغى إلى بعضها لا تدع في قلبه, شكا ولا ريبا.

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا "
ومن الأدلة على ذلك, هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا فقال : "قُلْ " للمشركين الذين يجعلون مع الله إلها آخر : "لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ " أي: على موجب زعمهم وافترائهم " إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا " أي: لاتخذوا سبيلا إلى الله بعبادته, والإنابة إليه, والتقرب وابتغاء الوسيلة. فكيف يجعل العبد الفقير, الذي يرى شدة افتقاره لعبودية ربه, إلها مع الله؟! هل هذا إلا من أظلم الظلم وأسفه السفه؟!!. فعلى هذا المعنى, تكون هذه الآية كقوله تعالى: " أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ". وكقوله تعالى "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ". ويحتمل أن المعنى في قوله "قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا " أي: لطلبوا السبيل, وسعوا في مغالبة الله تعالى. فإما أن يعلوا عليه فيكون من علا وقهر, هو الرب الإله. فأما وقد علموا أنهم يقرون أن آلهتهم, التي يدعون من دون الله مقهورة مغلوبة, ليس لها من الأمر شيء, فلم اتخذوها وهي بهذه الحال؟ فيكون هذا كقوله تعالى : "مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ".

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا "

"سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى " أي: تقدس وتنزه وعلت أوصافه "عَمَّا يَقُولُونَ " من الشرك به, واتخاذ الأنداد معه "عُلُوًّا كَبِيرًا " فعلا قدره, وعظم, وجلت كبرياؤه, التي لا تقادر, أن يكون معه آلهة, فقد ضل من قال ذلك, ضلالا مبينا, وظلم ظلما كبيرا. لقد تضاءلت لعظمته المخلوقات العظيمة, وصغرت لدى كبريائه, السماوات السبع, ومن فيهن, والأرضون السبع, ومن فيهن "والأرض جميعا, قبضته يوم القيامة, والسماوات مطويات بيمينه". وافتقر إليه, العالم العلوي والسفلي, فقرا ذاتيا لا ينفك عن أحد منهم في وقت من الأوقات. هذا الفقر بجميع وجوهه, فقر من جهة الخلق, والرزق, والتدبير. وفقر من جهة الاضطرار, إلى أن يكون معبوده ومحبوبه, الذي إليه يتقربون وإليه في كل حال يفزعون. ولهذا قال:

"تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا "
"تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ " من حيوان ناطق, وغير ناطق, ومن أشجار, ونبات, وجامد, وحي وميت " إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ " بلسان الحال, ولسان المقال . "وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ " أي: تسبيح باقي المخلوقات, التي على غير لغتكم. بل يحيط بها علام الغيوب. " إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا " حيث لم يعاجل بالعقوبة, من قال فيه قولا, تكاد السماوات والأرض تتفطر منه وتخر له الجبال. ولكنه أمهلهم, وأنعم عليهم, وعافاهم, ورزقهم, ودعاهم إلى بابه, ليتوبوا من هذا الذنب العظيم, ليعطيهم الثواب الجزيل, ويغفر لهم ذنبهم. فلولا حلمه ومغفرته, لسقطت السماوات على الأرض, ولما ترك على ظهرها من دابة.

"وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا "
يخبر تعالى, عن عقوبته للمكذبين بالحق الذين ردوه, وأعرضوا عنه, أنه يحول بينهم وبين الإيمان فقال : "وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ " الذي فيه الوعظ والتذكير, والهدى والإيمان, والخير, والعلم الكثير . "جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا " يسترهم عن فهمه حقيقة, وعن التحقق بحقائقه, والانقياد إلى ما يدعو إليه من الخير.

"وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا "
"وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً " أي: أغطية وأغشية لا يفقهون معها القرآن, بل يسمعونه سماعا تقوم به عليهم الحجة . "وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا " أي: صمما عن سماعه . "وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ " داعيا لتوحيده, ناهيا عن الشرك به . "وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا " من شدة بغضهم له, ومحبتهم لما هم عليه من الباطل. كما قال تعالى "وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ".

"نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا "
"نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ " أي: إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن, لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة, يريدون أن يعثروا على أقل شيء, ليقدحوا به. وليس استماعهم لأجل الاسترشاد, وقبول الحق, وإنما هم متعمدون على عدم اتباعه. ومن كان بهذه الحالة, لم يفده الاستماع شيئا, ولهذا قال: " إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى " أي: متناجين " إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ " في مناجاتهم: " إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا " فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم, وقد بنوها على أنه مسحور, فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال, وأنه يهذى لا يدري ما يقول.

"انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا "
قال تعالى: " انْظُرْ " متعجبا "كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ " التي هي أضل الأمثال, وأبعدها عن الصواب . "فَضَلُّوا " في ذلك, أو صارت سببا لضلالهم لأنهم بنوا عليها أمرهم, والمبني على فاسد, أفسد منه . "فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا " أي لا يهتدون أي اهتداء, فنصيبهم الضلال

المحض, والظلم الصرف.

" وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا "
يخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث, وتكذيبهم به, واستبعادهم بقولهم: " أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا " أي: أجسادا بالية " أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا " أي لا يكون ذلك, وهو محال بزعمهم. فجهلوا أشد الجهل, حيث كذبوا رسول الله, وجحدوا آيات الله, وقاسوا قدرة خالق السماوات والأرض, بقدرهم الضعيفة العاجزة. فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم لا يقدرون عليه, جعلوا قدرة الله كذلك. فسبحان من جعل خلقا من خلقه, يزعمون أنهم أولو العقول والألباب, مثالا في جهل. أظهر الأشياء, وأجلاها, وأوضحها براهين, وأعلاها ليرى عباده, أنه ما ثم إلا توفيقه وإعانته, أو الهلاك والضلال . "رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ".

"قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا "
ولهذا أمر رسوله صلى الله عليه وسلم, أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعادا : "قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ " أي: يعظم "فِي صُدُورِكُمْ " لتسلموا بذلك على زعمكم, من أن تنالكم قدرة الله, أو تنفذ فيكم مشيئته. فإنكم غير معجزين الله, في أي حالة تكونون, وعلى أي وصف تتحولون. وليس في أنفسكم, تدبير في حالة الحياة, وبعد الممات. فدعوا التدبير والتصريف, لمن هو على كل شيء قدير, وبكل شيء محيط. " فَسَيَقُولُونَ " حين تقيم عليهم الحجة في البعث : "مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ " فكما فطركم, ولم تكونوا شيئا مذكورا, فإنه سيعيدكم خلقا جديدا "كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ". "فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ " أي: يهزونها, إنكارا وتعجبا, مما قلت . "وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ " أي: متى وقت البعث, الذي تزعمه على قولك؟ ولا إقرار منهم لأصل البعث, بل ذلك سفه منهم, وتعجيز . "قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا " فليس في تعيين وقته فائدة. وإنما الفائدة والمدار, على تقريره, والإقرار به, وإثباته, وإلا فكما هو آت, فإنه قريب.

"يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا "
"يَوْمَ يَدْعُوكُمْ " للبعث والنشور, وينفخ في الصور "فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ " أي: تنقادون لأمره, ولا تستعصون عليه. وقوله "بحمده" أي: هو المحمود تعالى, على فعله, ويجزي به العباد, إذا جمعهم ليوم التناد . "وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا " من سرعة وقوعه, وأن الذي مر عليكم من النعيم, كأنه ما كان. فهذا الذي يقول عنه المنكرون: "متى هو"؟ يندمون غاية الندم, عند وروده, ويقال لهم: "هذا الذي كنتم به تكذبون".\

"وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا "
وهذا من لطفه بعباده, حيث أمرهم بأحسن الأخلاق, والأعمال, والأقوال, الموجبة للسعادة, في الدنيا والآخرة فقال : "وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله, من قراءة, وذكر, وعلم, وأمر بمعروف, ونهي عن منكر, وكلام حسن لطيف, مع الخلق, على اختلاف مراتبهم ومنازلهم. وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين, فإنه يأمر بإيثار أحسنهما, إن لم يمكن الجمع بينهما. والقول الحسن, داع لكل خلق جميل, وعمل صالح, فإن من ملك لسانه, ملك جميع أمره. وقوله: " إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ " أي: يسعى بين العباد, بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم. فدواء هذا, أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة, التي يدعوهم إليها. وأن يلينوا فيما بينهم, لينقمع الشيطان, الذي ينزغ بينهم, فإنه عدوهم الحقيقي, الذي ينبغي لهم أن يحاربوه, فإنه يدعوهم "ليكونوا من أصحاب السعير". وأما إخوانهم, فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم, وسعى في العداوة, فإن الحزم كل الحزم, السعي في ضد عدوهم, وأن يقمعوا أنفسهم الأمارة بالسوء, التي يدخل الشيطان من قبلها, فبذلك يطيعون ربهم, ويستقيم أمرهم, ويهدون لرشدهم.

"رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا "
"رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ " من أنفسكم, فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير, ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم, وقد تريدون شيئا والخير في عكسه. " إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ "

فيوفق من شاء لأسباب الرحمة, ويخذل من شاء, فيضل عنها, فيستحق العذاب . "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا " تدبر أمرهم, وتقوم بمجازاتهم, وإنما الله, هو الوكيل, وأنت مبلغ هاد, إلى صراط مستقيم.

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا "
"وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " من جميع أصناف الخلائق, فيعطي كلا منهم, ما يستحقه, وتقتضيه حكمته, ويفضل بعضهم على بعض, في جميع الخصال الحسية, والمعنوية, كما فضل بعض النبيين المشتركين بوحيه, على بعض, بالفضائل, والخصائص الراجعة إلى ما من به عليهم, من الأوصاف الممدوحة, والأخلاق المرضية, والأعمال الصالحة, وكثرة الأتباع, ونزول الكتب على بعضهم, المشتملة على الأحكام الشرعية, والعقائد المرضية. كما أنزل على داود زبورا, وهو الكتاب المعروف. فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض, وآتى بعضهم كتبا, فلم ينكر المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم, ما أنزله الله عليه وما فضله به من النبوة والكتاب.

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا "
يقول تعالى "قُلْ " للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه أندادا يعبدونهم, كما يعبدون الله, ويدعونهم كما يدعونه, ملزما لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين. " ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ " آلهة "مِنْ دُونِهِ " فانظروا هل ينفعونكم, أو يدفعون عنكم الضر. " فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ " من مرض, أو فقر, أو شدة ونحو ذلك, فلا يدفعونه بالكلية . "وَلَا " يملكون أيضا "تَحْوِيلًا " له من شخص إلى آخر, من شدة إلى ما دونها. فإذا كانوا بهذه الصفة فلأي شيء تدعونهم من دون الله؟ فإنهم لا كمال لهم, ولا فعال نافعة. فاتخاذهم آلهة نقص في الدين والعقل, وسفه في الرأي. ومن العجب, أن السفه عند الاعتياد والممارسة, وتلقيه عن الآباء الضالين بالقبول, يراه صاحبه, هو الرأي السديد, والعقل المفيد. ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة, هو السفه, والأمر المتعجب منه, كما قال المشركون: "أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب".

"أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا "
ثم أخبر أيضا, أن الذين يعبدونهم من دون الله, في شغل شاغل عنهم, باهتمامهم بالافتقار إلى الله, وابتغاء الوسيلة إليه فقال: " أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ " من الأنبياء والصالحين والملائكة "يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ " أي: يتنافسون في القرب من ربهم, ويبذلون ما يقدرون عليه, من الأعمال الصالحة, المقربة إلى الله تعالى: " وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ " فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب. " إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا " أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه والتوقي من أسبابه. وهذه الأمور الثلاثة, الخوف, والرجاء, والمحبة, التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده, هي الأصل, والمادة في كل خير. فمن تمت له, تمت له أموره, وإذا خلا القلب منها, ترحلت عنه الخيرات, وأحاطت به الشرور. وعلامة المحبة, ما ذكره الله, أن يجتهد العبد في كل محل يقربه إلى الله وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله, والنصح فيها, وإيقاعها في أكمل الوجوه المقدور عليها. فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك, فهو كاذب.

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا "
أي: ما من قرية من القرى المكذبة للرسل, إلا لا بد أن يصيبهم هلاك يوم القيامة, أو عذاب شديد, كتاب كتبه الله, وقضاء أبرمه لا بد من وقوعه. فليبادر المكذبون بالإنابة إلى الله, وتصديق رسله, قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب, ويحق عليهم القول.

"وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا "

يذكر تعالى رحمته, بعدم إنزاله الآيات, التي اقترحها المكذبون, وأنه ما منعه أن يرسلها, إلا خوفا من تكذيبهم لها. فإذا كذبوا بها, عاجلهم العقاب, وحل بهم من غير تأخير, كما فعل بالأولين الذين كذبوا بها. ومن أعظم الآيات, الآية التي أرسلها الله إلى ثمود, وهي الناقة العظيمة الباهرة, التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها, ومع ذلك, كذبوا بها, فأصابهم ما قص الله علينا في كتابه. وهؤلاء كذلك, لو جاءتهم الآيات الكبار, لم يؤمنوا. فإنه ما منعهم من الإيمان, خفاء ما جاء به الرسول واشتباهه, هل هو حق أو باطل؟ فإنه قد جاء ومعه من البراهين الكثيرة, بما دل على صحة ما جاء به, الموجب لهداية من طلب الهداية فغيرها مثلها, فلا بد أن يسلكوا بها, ما سلكوا بغيرها, فترك إنزالها والحالة هذه, خير لهم وأنفع. وقوله : "وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا " أي: لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان, الذي لا يحصل إلا بها. بل المقصود منها, التخويف والترهيب, ليرتدعوا عن ما هم عليه.

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا "
"وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ " علما وقدرة, فليس لهم ملجأ يلجأون إليه, ولا ملاذ, يلوذون به عنه. وهذا كاف لمن له عقل في الانكفاف عما يكرهه الله الذي أحاط بالناس.
"وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً " أكثر المفسرين على أنها ليلة الإسراء. "
وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ " التي ذكرت "فِي الْقُرْآنِ " وهي شجرة الزقوم, التي تنبت في أصل الجحيم. والمعنى, إذا كان هذان الأمران, قد صارا فتنة للناس, حتى استلج الكفار بكفرهم, وازداد شرهم, وبعض من كان إيمانه ضعيفا, رجع عنه بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور, التي كانت ليلة الإسراء, ومن الإسراء من المسجد الحرام, إلى المسجد الأقصى, كان خارقا للعادة. والإخبار بوجود شجرة, تنبت في أصل الجحم أيضا, من الخوارق فهذا الذي أوجب لهم التكذيب. فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة؟!! أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم؟! فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم. ومن هنا تعلم أن عدم التصريح في الكتاب والسنة, بذكر الأمور العظيمة, التي حدثت في الأزمنة المتأخرة, أولى وأحسن. لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيرا, ربما لا تقبلها عقولهم, فيكون ذلك ريبا في قلوب بعض المؤمنين, ومانعا, يمنع من لم يدخل الإسلام, ومنفرا عنه. بل ذكر الله ألفاظا عامة, تتناول جميع ما يكون, والله أعلم . "وَنُخَوِّفُهُمْ " بالآيات "فَمَا يَزِيدُهُمْ " التخويف " إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا " وهذا أبلغ ما يكون في التحلي بالشر ومحبته, وبغض الخير وعدم الانقياد له.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا "
ينبه تبارك وتعالى عباده, على شدة عداوة الشيطان, وحرصه على إضلالهم, وأنه لما خلق الله آدم, استكبر عن السجود له, و "قَالَ " متكبرا: " أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا " أي من طين, وبزعمه, أنه خير منه, لأنه خلق من نار. وقد تقدم فساد هذا القياس الباطل, من عدة أوجه.

قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا "
فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم "قَالَ " مخاطبا لله: " أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ " أي: لأستأصلنهم بالإضلال, ولأغوينهم " إِلَّا قَلِيلًا " عرف الخبيث, أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه, ويعصيه.

قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا "
فقال الله له: " اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ " واختارك على ربه ووليه الحق . "فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا " أي: مدخرا لكم, موفرا جزاء أعمالكم.

وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا "
ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم فقال : "وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ " ويدخل في هذا كل داع إلى المعصية . "وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ " ويدخل

فيه كل راكب وماش في معصية الله, فهو من خيل الشيطان ورجله. والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين, الداعي لهم إلى معصية الله, بأقواله وأفعاله . 'وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَولَادِ " وذلك شامل لكل معصية, تعلقت بأموالهم وأولادهم, من منع الزكاة والكفارات, والحقوق الواجبة وعدم تأديب الأولاد, وتربيتهم على الخير, وترك الشر, وأخذ الأموال بغير حقها, أو وضعها بغير حقها, أو استعمال المكاسب الردية. بل ذكر كثير من المفسرين, أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد, ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع. وأنه إذا لم يسم الله في ذلك, شارك فيه الشيطان, كما ورد فيه الحديث . 'وَعِدْهُمْ " الوعود المزخرفة التي لا حقيقة لها, ولهذا قال : 'وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا " أي: باطلا مضمحلا, كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة, ويعدهم عليها الأجر, لأنهم يظنون أنهم على الحق. وقال تعالى: " الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ".

"إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا "
ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد, وذكر ما يعتصم به من فتنته, وهو عبودية الله, والقيام بالإيمان والتوكل قال: " إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ " أي: تسلط وإغواء, بل الله يدفع عنهم - بقيامهم بعبوديته - كل شر, ويحفظهم من الشيطان الرحيم, ويقوم بكفايتهم . 'وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا " لمن توكل عليه, وأدى ما أمر به.

"رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا "
يذكر تعالى: نعمته على العباد, بما سخر لهم من الفلك, والسفن, والمراكب, وألهمهم كيفية صنعتها. وسخر لها البحر الملتطم, يحملها على ظهره, لينتفع العباد بها في الركوب والحمل للأمتعة, والتجارة. وهذا من رحمته بعباده, فإنه لم يزل بهم رحيما رءوفا, يؤتيهم من كل ما تعلقت به إرادتهم ومنافعهم.

"وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا "
ومن رحمته الدالة على أنه, وحده المعبود, دون ما سواه, أنهم إذا مسهم الضر في البحر, فخافوا من الهلاك, لتراكم الأمواج, ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله, في حال الرخاء من الأحياء, والأموات, فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات لعلمهم أنهم ضعفاء, عاجزون عن كشف الضر, وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسماوات, الذي يستغيث به في شدائدها, جميع المخلوقات, وأخلصوا له الدعاء والتضرع في هذه الحال. فلما كشف الله عنهم الضر, ونجاهم إلى البر, ونسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل, أشركوا به, من لا ينفع, ولا يضر, ولا يعطي, ولا يمنع, وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكهم. وهذا من جهل الإنسان وكفره, فإن الإنسان كفور للنعم. إلا من هدى الله فمن عليه بالعقل السليم, واهتدى إلى الصراط المستقيم. فإنه يعلم, أن الذي يكشف الشدائد, وينجي من الأهوال, هو الذي يستحق أن يفرد, وتخلص له سائر الأعمال, في الشدة, والرخاء, واليسر والعسر. وأما من خذل, ووكل إلى عقله الضعيف, فإنه لم يلحظ وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة, وإنجاءه في كل تلك الحال. فلما حصلت له النجاة, وزالت عنه المشقة, ظن بجهله, أنه قد أعجز الله ولم يخطر بقلبه, شيء من العواقب الدنيوية, فضلا عن أمور الآخرة.

"أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا "
ولهذا ذكرهم الله بقوله: " أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ". أي: فهو على كل شيء قدير, إن شاء أنزل عليكم عذابا, من أسفل منكم بالخسف, أو من فوقكم بالحاصب, وهو: العذاب الذي يحصيهم, فيصبحوا هالكين. فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في البحر.

"أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا "
وإن ظننتم ذلك, فلستم آمنين من " أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ

الرِّيح " أي: ريحا شديدة جدا تقصف ما أتت عليه . "فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا " أي: تبعة ومطالبة, فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة.

"وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا "
وهذا من كرمه عليهم وإحسانه, الذي لا يقادر قدره, حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام. فكرمهم بالعلم والعقل, وإرسال الرسل, وإنزال الكتب. وجعل منهم الأولياء والأصفياء, وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة . "وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ " على الركاب, من الإبل, والبغال, والحمير, والمراكب البرية . "وَالْبَحْرِ " في السفن والمراكب "وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ " من المآكل والمشارب, والملابس, والمناكح. فما من طيب تتعلق به حوائجهم, إلا وقد أكرمهم الله به, ويسره لهم غاية التيسير . "وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا " بما خصهم به من المناقب, وفضلهم به من الفضائل, التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات. أفلا يقومون بشكر من أولى النعم, ودفع النقم, ولا تحجبهم النعم عن المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم, بل ربما استعانوا بها على معاصيه.

"يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا "
يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة, وأنه يدعو كل أناس, ومعهم إمامهم وهاديهم, إلى الرشد, وهم: الرسل ونوابهم. فتعرض كل أمة, ويحضرها رسولهم الذي دعاهم. وتعرض أعمالهم على الكتاب, الذي يدعو إليه الرسول, هل هي موافقة له أم لا؟ فينقسمون بهذا قسمين . "فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ " لكونه اتبع إمامه, الهادي إلى صراط مستقيم, واهتدى بكتابه, فكثرت حسناته, وقلت سيئاته "فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ " قراءة سرور وبهجة, على ما يرون فيها, مما يفرحهم ويسرهم . "وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا " مما عملوه من الحسنات.

"وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا "
"وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ " الدنيا " أَعْمَى " عن الحق, فلم يقبله, ولم ينقد له بل اتبع الضلال. " فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى " عن سلوك طريق الجنة كما لم يسلكه في الدنيا "وَأَضَلُّ سَبِيلًا " فإن الجزاء من جنس العمل, كما تدين تدان. وفي هذه الآية دليل على أن كل أمة تدعى إلى دينها وكتابها, هل عملت به أم لا؟ وأنهم لا يؤاخذون بشرع نبي, لم يؤمروا باتباعه, وأن الله لا يعذب أحدا, إلا بعد قيام الحجة عليه, ومخالفته لها, وأن أهل الخير, يعطون كتبهم بأيمانهم ويحصل لهم من الفرح والسرور, شيء عظيم, وأن أهل الشر بعكس ذلك, لأنهم لا يقدرون على قراءة كتبهم, من شدة غمهم, وحزنهم وثبورهم.

"وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا "
يذكر تعالى منته على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم, وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق, فقال : "وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ " أي: قد كادوا لك أمرا لم يدركوه, وتحيلوا لك, على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك. فتجيء بما يوافق أهواءهم, وتدع ما أنزل الله إليك . "وَإِذًا " لو فعلت ما يهوون " لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا " أي حبيبا صفيا, أعز عليهم من أحبابهم, لما جبلك الله عليه من مكارم الأخلاق, ومحاسن الآداب, المحببة للقريب والبعيد, والصديق والعدو. ولكن لتعلم أنهم لم يعادوك, وينابذوك العداوة, إلا للحق الذي جئت به لا لذاتك, كما قال الله تعالى "قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ".

"وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا "
"وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ " على الحق, وامتننا عليك بعدم الإجابة لداعيهم . "لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا " من كثرة المعالجة, ومحبتك لهدايتهم.

"إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا "

" إِذًا " لو ركنت إليهم بما يهوون " لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ". أي: لأصبناك بعذاب مضاعف, في الدنيا والآخرة, وذلك لكمال نعمة الله عليك, وكمال معرفتك . "ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا " ينقذك مما يحل بك من العذاب, ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر, ومن الشر, فثبتك وهداك الصراط المستقيم, ولم تركن إليهم بوجه من الوجوه, فله عليك, أتم نعمة, وأبلغ منحة.

"وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا " 'وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا " أي: من بغضهم لمقامك بين أظهرهم, قد كادوا أن يخرجوك من الأرض, ويجلوك عنها. ولو فعلوا ذلك, لم يلبثوا بعدك إلا قليلا, حتى تحل بهم العقوبة, كما هي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل في جميع الأمم. كل أمة كذبت رسولها, وأخرجته, عاجلها الله بالعقوبة. ولما مكر به الذين كفروا, وأخرجوه, لم يلبثوا إلا قليلا, حتى أوقع الله بهم بـ "بدر" وقتل صناديدهم, وفض بيضتهم فله الحمد. وفي هذه الآيات, دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه, وأنه لا يزال متملقا لربه, أن يثبته على الإيمان, ساعيا في كل سبب موصل إلى ذلك, لأن النبي صلى الله عليه وسلم, وهو أكمل الخلق, قال الله له : 'وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا " فكيف بغيره؟!! وفيها تذكير الله لرسوله منته عليه, وعصمته من الشر. فدل ذلك, على أن الله يحب من عباده, أن يتفطنوا لإنعامه عليهم - عند وجود أسباب الشر - بالعصمة منه, والثبات على الإيمان. وفيها: أنه - بحسب علو مرتبة العبد, وتواتر النعم عليه من الله يعظم, إثمه ويتضاعف جرمه, إذا فعل ما يلام عليه, لأن الله ذكر رسوله لو فعل - وحاشاه من ذلك - بقوله: " إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ". وفيها أن الله إذا أراد إهلاك أمة, تضاعف جرمها, وعظم وكبر, فيحق عليها القول من الله, فيوقع بها العقاب, كما هي سنته في الأمم, إذا أخرجوا رسولهم.

"أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا " بأمر تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بإقامة الصلاة تامة, ظاهرا, وباطنا في أوقاتها . "لِدُلُوكِ الشَّمْسِ " أي: ميلانها إلى الأفق الغربي بعد الزوال. فيدخل في ذلك, صلاة الظهر, وصلاة العصر. " إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ " أي: ظلمته, فدخل في ذلك, صلاة المغرب, وصلاة العشاء . 'وَقُرْآنَ الْفَجْرِ " أي: صلاة الفجر, وسميت قرآنا, لمشروعية إطالة القرآن فيها, أطول من غيرها, ولفضل القراءة فيها, حيث شهدها الله, وملائكة الليل والنهار. ففي هذه الآية, ذكر الأوقات الخمسة; للصلوات المكتوبات, وأن الصلوات الموقعة فيه فرائض, لتخصيصها بالأمر. ومنها أن الوقت, شرط لصحة الصلاة, وأنه سبب لوجوبها لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات. وأن الظهر والعصر, يجمعان, والمغرب والعشاء كذلك, للعذر, لأن الله جمع وقتهما جميعا. وفيه: فضيلة صلاة الفجر, وفضيلة إطالة القراءة فيها, وأن القراءة فيها, ركن, لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها, دل على فرضية ذلك.

وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا "
وقوله 'وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ " أي: صل به في سائر أوقاته . "نَافِلَةً لَكَ " أي: لتكون صلاة الليل, زيادة لك في علو القدر, ورفع الدرجات. بخلاف غيرك, فإنها تكون كفارة لسيئاته. ويحتمل أن يكون المعنى: أن الصلوات الخمس فرض عليك, وعلى المؤمنين. بخلاف صلاة الليل, فإنها فرض عليك بالخصوص, ولكرامتك على الله أن جعل وظيفتك أكثر من غيرك, وليكترثوا بك, وتنال بذلك, المقام المحمود, وهو المقام الذي, يحمدك فيه, الأولون والآخرون, مقام الشفاعة العظمى, حين يتشفع الخلائق بآدم, ثم بنوح, ثم إبراهيم, ثم موسى, ثم عيسى. وكلهم يعتذر ويتأخر عنها, حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم, ليرحمهم الله, من هول الموقف, وكربه. فيشفع عند ربه, فيشفعه, ويقيمه مقاما, يغبطه به, الأولون والآخرون. وتكون له المنة على جميع الخلق.

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا "
وقوله : 'وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ " أي: اجعل مداخلي

ومخارجي كلها, في طاعتك, وعلى مرضاتك, وذلك لتضمنها الإخلاص, وموافقتها الأمر. " وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا " أي: حجة ظاهرة, وبرهانا قاطعا على جميع ما آتيه, وما أذره. وهذا أعلى حالة, ينزلها الله العبد, أن تكون أحواله كلها خيرا, ومقربة له إلى ربه, وأن يكون له - على كل حالة من أحواله - دليل ظاهر, وذلك متضمن للعلم النافع, والعمل الصالح, للعلم بالمسائل والدلائل.

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا "
وقوله : "وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ " والحق هو: ما أوحاء الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم, فأمره الله أن يقول ويعلن, قد جاء الحق الذي لا يقوم له شيء, وزهق الباطل أي: اضمحل وتلاشى. " إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا " أي: هذا وصف الباطل, ولكنه قد يكون له صولة ورواج, إذا لم يقابله الحق, فعند مجيء الحق, يضمحل الباطل, فلا يبقى له حراك. ولهذا لا يروج الباطل, إلا في الأزمان, والأمكنه الخالية من العلم بآيات الله وبيناته

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا "
وقوله : "وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ " إلى " إِلَّا خَسَارًا ". أي: فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة. وليس ذلك لكل أحد, وإنما ذلك للمؤمنين به, المصدقين بآياته, العاملين به. وأما الظالمون بعدم التصديق به, أو عدم العمل به, فلا تزيدهم آياته إلا خسارا. إذ به تقوم عليهم الحجة. فالشفاء الذي تضمنه القرآن, عام لشفاء القلوب, من الشبه, والجهالة, والآراء الفاسدة والانحراف السيئ, والقصود الرديئة. فإنه مشتمل على العلم اليقين, الذي تزول به كل شبهة وجهالة. والوعظ والتذكير, الذي يزول به كل شهوة, تخالف أمر الله. ولشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها. وأما الرحمة, فإن ما فيه من الأسباب والوسائل, التي يحث عليها, متى فعلها العبد, فاز بالرحمة والسعادة الأبدية, والثواب العاجل والآجل.

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا "
هذه طبيعة الإنسان, من حيث هو, إلا من هداه الله. فإن الإنسان - عند إنعام الله عليه - يفرح بالنعم, ويبطر بها, ويعرض, وينأى بجانبه عن ربه, فلا يشكره, ولا يذكره . "وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ " كالمرض ونحوه "كَانَ يَئُوسًا " من الخير, قد قطع ربه رجاءه, وظن أن ما هو فيه, دائم أبدا. وأما من هداه الله, فإنه - عند النعم - يخضع لربه, ويشكر نعمته, وعند الضراء, يتضرع, ويرجو من الله عافيته, وإزالة ما يقع فيه, وبذلك يخف عليه البلاء.

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا "
أي : "قُلْ كُلٌّ " من الناس "يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ " أي: على ما يليق به من الأحوال. إن كانوا من الصفوة الأبرار, لم يشاكلهم إلا عملهم لرب العالمين. ومن كانوا من غيرهم من المخذولين لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين, ولم يوافقهم إلا ما وافق أغراضهم . "فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا " فيعلم من يصلح للهداية, فيهديه, ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا "
وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل, التي يقصد بها التعنت والتعجيز, ويدع السؤال عن المهم, فيسألون عن الروح, التي هي من الأمور الخفية, التي لا يتقن وصفها وكيفيتها, كل أحد, وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد. ولهذا أمر الله رسوله, أن يجيب سؤالهم بقوله : "قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي " أي: من جملة مخلوقاته, التي أمرها أن تكون فكانت. فليس في السؤال عنها, كبير فائدة, مع عدم علمكم بغيرها. وفي هذه الآية دليل, على أن المسئول إذا سئل عن أمر, الأولى به أن يعرض عن إجابة السائل عما سأل عنه, ويدله على ما يحتاج إليه, ويرشده إلى ما ينفعه.

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا "
يخبر تعالى أن القرآن والوحي, الذي أوحاه إلى رسوله, رحمة منه عليه, وعلى عباده, وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله, فإن فضل الله عليه كبير لا يقادر قدره. فالذي

تفضل به عليك, قادر على أن يذهب به, ثم لا تجد رادا يرده, ولا وكيلا بتوجه عند الله فيه. فلتغتبط به, ولتقر به عينك, ولا يحزنك تكذيب المكذبين, ولا استهزاء الضالين. فإنهم عرضت عليهم أجل النعم, فردوها, لهوانهم على الله, وخذلانه لهم.

"قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا "
وهذا دليل قاطع, وبرهان ساطع, على صحة ما جاء به الرسول وصدقه. حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله, وأخبر أنهم لا يأتون بمثله, ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدروا عليه. ووقع كما أخبر الله, فإن دواعي أعدائه المكذبين به, متوفرة على رد ما جاء به, بأي وجه كان, وهم أهل اللسان والفصاحة. فلو كان عندهم أدنى تأهل, وتمكن من ذلك, لفعلوه. فعلم بذلك, أنهم أذعنوا غاية الإذعان, طوعا وكرها, وعجزوا عن معارضته. وكيف يقدر المخلوق من تراب, الناقص من جميع الوجوه, الذي ليس له علم, ولا قدرة, ولا إرادة, ولا مشيئة, ولا كلام ولا كمال, إلا من ربه أن يعارض كلام رب الأرض والسماوات, المطلع على سائر الخفيات, الذي له الكمال المطلق, والحمد المطلق, والمجد العظيم, الذي لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر مدادا, والأشجار كلها أقلام, لنفذ المداد, وفنيت الأقلام, ولم تنفد كلمات الله. فكما أنه ليس أحد من المخلوقين, مماثلا لله في أوصافه, فكلامه من أوصافه, التي لا يماثله فيها أحد. فليس كمثله شيء, في ذاته, وأسمائه, وصفاته, وأفعاله تبارك وتعالى. فتبا لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق, وزعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم, افتراه على الله واختلقه من نفسه.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا "
يقول تعالى : "وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ " أي: نوعنا فيه المواعظ والأمثال, وثنينا فيه المعاني, التي يضطر إليها العباد, لأجل أن يتذكروا ويتقوا. فلم يتذكر إلا القليل منهم, الذين سبقت لهم من الله, سابقة السعادة, وأعانهم الله بتوفيقه. وأما أكثر الناس, فأبوا إلا كفورا لهذه النعمة, التي هي أكبر من جميع النعم, وجعلوا يتعنتون عليه باقتراح آيات, غير آياته, يخترعونها من تلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة.

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا "
فيقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم, الذي أتى بهذا القرآن المشتمل على كل برهان وآية : "لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا " أي أنهارا جارية. " أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ " فتستغنى بها عن المشي في الأسواق والذهاب والمجيء. " أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا " أي: قطعا من العذاب. " أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا " أي جميعا, أو مقابلة ومعاينة, يشهدون لك بما جئت به. " أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ " أي: مزخرف بالذهب وغيره. " أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ " رقيا حسيا. ومع هذا "وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ". ولما كانت هذه تعنتات, وتعجيزات, وكلام أسفه الناس وأظلمهم, المتضمنة لرد الحق, وسوء أدب مع الله, وأن الرسول صلى الله عليه وسلم, هو الذي يأتي بالآيات - أمره الله أن ينزهه فقال : "قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي " عما تقولون علوا كبيرا, وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة, وآرائهم الضالة . "هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا " ليس بيده شيء من الأمر.

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا "
وهذا السبب, الذي منع أكثر الناس من الإيمان, حيث كانت الرسل, التي ترسل إليهم من جنسهم بشرا. وهذا من رحمته بهم, أن أرسل إليهم بشرا منهم, فإنهم لا يطيقون التلقي من الملائكة . "قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ " يثبتون على رؤية الملائكة, والتلقي عنهم "لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا " ليمكنهم التلقي عنه. " قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ". فمن شهادته لرسوله ما أيده به من المعجزات, وما أنزل عليه من الآيات, ونصره على من عاداه وناوأه. فلو تقول عليه بعض الأقاويل, لأخذ منه باليمين, ثم لقطع منه الوتين. فإنه خبير بصير لا تخفى عليه من أحوال العباد خافية.

"وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا "
يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال. فمن يهده, فييسره لليسرى ويجنبه العسرى, فهو المهتدي على الحقيقة. ومن يضلله, فيخذله, ويكله إلى نفسه, فلا هادي له من دون الله. وليس له ولي ينصره من عذاب الله, حين يحشرهم الله على وجوههم خزيا, عميا, وبكما لا يبصرون, ولا ينطقون . 'مَأْوَاهُمْ " أي مقرهم ودارهم 'جَهَنَّمُ " التي جمعت كل هم, وغم, وعذاب . 'كُلَّمَا خَبَتْ " أي: تهيأت للانطفاء 'زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا " أي: سعرناها بهم لا يفتر عنهم العذاب ولا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها, ولم يظلمهم الله تعالى بل جازاهم بما كفروا بآياته وأنكروا البعث الذي أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب وعجزوا ربهم فأنكروا تمام قدرته . 'وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا " أي لا يكون هذا لأنه في غاية البعد عن عقولهم الفاسدة.

"أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا "
" أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ " وهي أكبر من خلق الناس . 'قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ " بلى, إنه على ذلك قدير. ولكنه قد 'وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ " ولا شك, وإلا فلو شاء لجاءهم به بغتة, ومع إقامته الحجج والأدلة على البعث . 'فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا " ظلما منهم وافتراء.

"قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا "
'قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي " التي لا تنفذ ولا تبيد. " إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ " أي: خشية أن ينفد ما تنفقون منه, مع أنه من المحال أن تنفد خزائن الله, ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل.

"وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا "
أي: لست أيها الرسول المؤيد بالآيات, أول رسول كذبه الناس. فلقد أرسلنا قبلك, موسى بن عمران الكليم, إلى فرعون وقومه, وآتيناه "تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ " كل واحدة منها, تكفي لمن قصده اتباع الحق كالحية, والعصا, والطوفان والجراد, والقمل والضفادع, والدم, واليد, وفلق البحر. فإن شككت في شيء من ذلك 'فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ " مع هذه الآيات " إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ".

"قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا "
'قَالَ " له موسى "لَقَدْ عَلِمْتَ " يا فرعون 'مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ " الآيات " إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ " منه لعباده, فليس قولك هذا, بالحقيقة, وإنما قلت ذلك, ترويجا على قومك, واستخفافا لهم . 'وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا " أي ممقوتا ملقى في العذاب لك والذم واللعنة.

"فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا "
'فَأَرَادَ " فرعون " أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ " أي: يجليهم ويخرجهم منها . 'فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا " وأورثنا بني إسرائيل أرضهم وديارهم.

"وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا "
ولهذا قال : 'وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا " أي: جميعا, ليجازى كل عامل بعمله.

"وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا "
أي: وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم, لأمر العباد, ونهيهم, وثوابهم, وعقابهم . 'وَبِالْحَقِّ

نَزَلَ " أي: بالصدق والعدل, والحفظ من كل شيطان رجيم . "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا " من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل . "وَنَذِيرًا " لمن عصى الله, بالعقاب العاجل والآجل. ويلزم من ذلك, بيان ما يبشر به وينذر.

وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا "
أي: وأنزلنا هذا القرآن مفرقا, فارقا بين الهدى والضلال, والحق والباطل . "لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ " أي: على مهل, ليتدبروه, ويتفكروا في معانيه, ويستخرجوا علومه. " وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا " أي: شيئا فشيئا, مفرقا في ثلاث وعشرين سنة. "ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا". فإذا تبين أنه الحق, الذي لا شك فيه ولا ريب, بوجه من الوجوه.

قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا "
"قُلْ " لمن كذب به, وأعرض عنه: " آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ". فليس لله حاجة فيكم, ولستم بضاريه شيئا, وإنما ضرر ذلك عليكم. فإن لله عبادا غيركم, وهم الذين آتاهم الله العلم النافع: " إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا " أي: يتأثرون به غاية التأثر, ويخضعون له. "وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا " عما لا يليق بجلاله, مما نسبه إليه المشركون. "إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا " بالبعث والجزاء بالأعمال "لَمَفْعُولًا " لا خلف فيه ولا شك . "وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ " أي: على وجوههم "يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ " القرآن "خُشُوعًا ". وهؤلاء كالذين من الله عليهم من مؤمني أهل الكتاب كعبد الله ابن سلام وغيره, ممن أسلم في وقت النبي صلى الله عليه وسلم, بعد ذلك.

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا "
يقول تعالى لعباده: " ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ " أي: أيهما شئتم. " أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى " أي: ليس له اسم غير حسن, أي: حتى ينهى عن دعائه به, أي اسم دعوتموه به, حصل به المقصود, والذي ينبغي أن يدعى في كل مطلوب, مما يناسب ذلك الاسم . "وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ " أي: قراءتك "وَلَا تُخَافِتْ بِهَا " فإن في كل من الأمرين محذووا. أما الجهر, فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه, سبوه, وسبوا من جاء به. وأما المخافتة, فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء . "وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ " أي: اتخذ بين الجهر والإخفات "سَبِيلًا " أي: تتوسط فيما بينهما.

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا "
"وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ "الذي له الكمال, والثناء, والحمد, والمجد من جميع الوجوه, المنزه عن كل آفة ونقص. " الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ " بل الملك كله لله الواحد القهار. فالعالم العلوي والسفلي, كلهم مملوكون لله, ليس لأحد من الملك شيء. "وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ " أي: لا يتولى أحدا من خلقه, ليتعزز به ويعاونه. فإنه الغني الحميد, الذي لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات, في الأرض ولا في السماوات, ولكنه يتخذ - إحسانا منه إليهم ورحمة بهم "الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور". " وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا " أي عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة, وبالثناء عليه, بأسمائه الحسنى, وبتحميده بأفعاله المقدسة, وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له, وإخلاص الدين كله له. تم تفسير سورة الإسراء. وبلغ مقابلة على أصله ولله الحمد والمنة والثناء الحسن على يد جامعه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين أمين وصلى الله على محمد وسلم تسليما كثيرا وذلك في 7 جمادي الأولى سنة 1344 ونقله من خط المؤلف الفقير إلى ربه سليمان الحمد البسام غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين تم بحمد الله الجزء الرابع ويليه إن شاء الله الجزء الخامس وأوله تفسير سورة الكهف